
الصراط المستقيم
دراسة تحليلية
لوصية خاتم الأنبياء ﷺ لأبي ذر
بقلم
السيد حسن الكلم الموسوي
الجزء الثاني
دار الولاء
لصناعة النشر
مكتبة
مؤمن قريش

الصراط المستقيم

دراسة تحليلية لوصيّة خاتم الأنبياء ﷺ

لأبي ذرّ رحمه الله



بيروت - لبنان، برج البراجنة، الرويس، شارع الرويس
Mob: 00961 3 689 496 | TeleFax: 00961 1 545 133 | P.O. Box: 307/25
info@daralwalaa.com | daralwalaa@yahoo.com | www.daralwalaa.com



ISBN 978-614-420-175-6

الكتاب: الصراط المستقيم

دراسة تحليلية لوصيّة خاتم الأنبياء ﷺ لأبي ذرّ رحمه الله (الجزء الثاني)

المؤلف: السيّد حسن النمر الموسويّ

الناشر: دار الولاء لصناعة النشر

الطبعة: الأولى ١٤٣٦هـ ٢٠١٥م

الصراط المستقيم

دراسة تحليلية لوصيّة خاتم الأنبياء ﷺ
لأبي ذرّ رحمه الله

بقلم

السيّد حسن النمر الموسويّ

الجزء الثاني



دار الولاء
لصناعة النشر


بسم الله الرحمن الرحیم



الفصل الثالث والعشرون

الإنسان بين الخوف والأمن

في مشوار التربية النبوية نستعرض ـ هنا ـ قاعدةً أخرى من قواعد التعامل الربانيّ مع (الإنسان)؛ الذي هو أشرفُ مخلوقٍ في الكون، والذي هو ـ أيضاً ـ محفوفٌ بالألطاف الإلهية منذ أن خُلِق، وسيظلُّ محفوفاً بها ما دام حياً.

وقد شملت العنايةُ الإلهيةُ هذا (الإنسان) بكلِّ ما من شأنه أن يبيِّن له الجادَّة المستقيمة، ويعينه على الثبات عليها، ولم يبقَ على هذا (الإنسان) إلا شحذ الهمَّة وطيّ الطريق؛ الذي هو الصراط المستقيم.

فإن هو، أي الإنسان، أحسن الاختيارَ والعملَ، فمآلُهُ إلى الجنةِ، وإن هو أساء ذلك فمصيرُهُ إلى النارِ. قال تعالى ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف/ ٢٩].

ولما كان الناسُ يتفاوتون في اختيارهم الاعتقادي، فسيصبح بعضُهم مؤمناً، وبعضُهم الآخر كافراً، وبين هذا وذاك يقع المنافقُ؛ المبطِنُ للكفر والمظهرُ للإيمان(١). وداخل دائرة المؤمنين يتفاوت الإيمان؛ من حيث المرتبة التي بلغها هذا المؤمن وذاك.

---

(١) قال الرازي: (المنافق هو الذي يستر كفره وينكره بلسانه) مفاتيح الغيب، ج١٦، ص١٣٤، ذيل قوله=

ومن السِّمات البارزة للمؤمن (الخوفُ من الله).

وحقيقة هذا الخوف الحميد هو: أنه شعورٌ يستولي على قلبِ صاحبِهِ، يدفعه إلى القلقِ من سوء المصير؛ بسبب ما وقع فيه من معاصٍ، أو بسبب ما يقدِّره من تقصيرٍ في أداءِ واجبٍ أو مخالفةِ محظورٍ[1].

وهذه السِّمةُ؛ أي الخوف من الله، هي في منتهى الإيجابية؛ فإنَّ من شأنها تعميقَ الارتباط بين العبد الخائف وربه، كما أن من شأنها دفعَه إلى سُوح العمل الصالح؛ تداركاً للتقصير الواقع أو المحتمل، أو رغبةً في تحصيل درجة في الجنة يُخشى فوتُها.

وفي مقابل الخوف تقع سمةُ الأمن؛ الذي هو: شعور الآمِن بأن لا خطرَ يُتوقّعُ حصولُه[2].

ولهذا الأمن أسبابٌ؛ قوليةٌ وفعليةٌ، كما أنَّ له نتائجَ وآثاراً؛ في القول والفعل أيضاً.

وفي النص، مورد البحث، يقول الرسول ﷺ:

=تعالى ﴿... جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ الآية ٧٣ من سورة التوبة. وقال أيضاً: (المنافق هو المظهر للإيمان المبطن للكفر) ج٣٢، ص١٣٥، ذيل قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾ من سورة الماعون.

وقال الشيخ أبو طالب التبريزي: هو مَن كان منكِراً في قلبه لوحدانيته تعالى، أو لنبوة خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله) وغير معتقد لحقانية الإسلام، ساتراً لكفره في قلبه، ومظهراً للإسلام بلسانه، وإنما أظهر الإسلام لغرضٍ دنيويٍّ) [معجم المحاسن والمساوئ، ص١٧٧ ـ ١٧٨].

(١) عرَّف الراغبُ الخوفَ بأنه: توقُّع مكروهٍ؛ عن أمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ) [المفردات في غريب القرآن، كتاب الخاء، مادة (خوف)]. وهو تعريف لغوي باعتبار أن المفردات معجم لغوي لكلمات القرآن.

وأما في اصطلاح العلماء واستعمالاتهم فقد عرفوه بما ليس يبعد عن ذلك. فقد عرفه الجرجاني بأنه: توقع حلول مكروه، أو فوات محبوب) [التعريفات، حرف الخاء، مادة (الخوف)]. ومثله التهانوي في دستور العلماء.

(٢) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد (ت٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، كتاب الألف، مادة (أمن): أصل الأمن: طمأنينةُ النفس، وزوالُ الخوف.

- **[الفقرتان ٤٧، ٤٩]**

(يا أبا ذرّ! يقول الله تعالى: لا أجمع على عبدٍ خوفين، ولا أجمع له أمْنَين، فإذا أَمِنني في الدنيا أخفتُه يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا آمنته يوم القيامة.

يا أبا ذرّ! إن العبدَ ليُعرَض عليه ذنوبُهُ يوم القيامة في من ذنب ذنوبه فيقول: أما إني كنت خائفاً مشفقاً فيُغفر له).

وهذا النصّ ـ بصياغته هذه ـ هو حديثٌ قدسيٌّ. والحديث القدسيّ هو: النصّ الذي يوحيه الله لنبيه، وينطق به باسم الله تعالى بدون أن يُصنَّفَ قرآناً[١].

وعلى كلِّ حالٍ، فلـ(الخوف)[٢] ـ في تنظيم العَلاقة الإيجابية بين العبد وربِّه ـ دورٌ لا يُستهان به؛ حتى ورد عن رسول الله ﷺ؛ ضمن وصيته لأمير

---

(١) وحكي عن السيد الداماد تعريف الحديث القدسي بقوله:
هو كلام يُوحى إلى النبي (صلى الله عليه وآله) معناه، فيجري الله على لسانه في العبارة عنه ألفاظاً مخصوصة في ترتيب مخصوص، ليس للنبي (صلى الله عليه وآله) أن يبدّلها ألفاظاً غيرها أو ترتيباً غيره) [الرواشح السماوية، ص٢٠٥ (الراشحة الثامنة والثلاثون)].
أو: ما يحكي كلامه تعالى غير متحدًّى بشيءٍ منه) [الوجيزة، ص٤؛ نهاية الدراية، ص٨٥].
وله تعريفات أخرى؛ حكاها جميعاً الباحث محمد رضا جديدي نژاد، مادة (حديث) من كتابه: معجم مصطلحات الرجال والدراية.
وقال في لسان المحدثين:
وهي الأقوال التي ينسبها النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم إلى الله تبارك وتعالى ممّا ليس في القرآن... [ثم قال:] تُسمّى الأحاديث الإلهية) مادة (الأحاديث الإلهية)، ج٢، ص٣٨.
وعرّفه الأحمد نكري بقوله:
الحديث القدسي: ما أخبر الله تعالى به نبيه بالإلهام أو بالمنام فأخبر عليه الصلاة والسلام عن ذلك المعنى بعبارة نفسه وللقرآن المجيد تفضيل عليه لأنّ نظمه منزل) [دستور العلماء، فصل حرف الحاء مع الدال المهملة، ج٢، ص١٢].

(٢) وقد يعبر عنه بـ(الخشية)؛ إذ الخشية ـ كما في مفردات الراغب ـ: خوف يشوبه تعظيم)، كتاب الخاء، مادة (خشي).

المؤمنين عليه السلام أنه قال: **يا علي! أوصيك في نفسك بخصال؛ فاحفظها عني، ثم قال: اللهم أعنه:...**

والثالثة: الخوف من الله عزَّ ذكرُه كأنك تراه.

والرابعة: كثرة البكاء من خشية الله؛ يبنى لك بكل دمعة ألف بيت في الجنة)[1]. كما ورد عنه صلى الله عليه وآله قوله: **رأس الحكمة مخافة الله عزّ وجلّ)**[2].

وسعياً منا للتعرف على بعض جوانب هذا الدور، نورد النصَّ التالي:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: **ألا إن المؤمنَ يعملُ بين مخافتَين:**

١ ـ بين أجلٍ قد مضى؛ لا يَدري ما الله صانعٌ فيه.

٢ ـ وبين أجلٍ قد بقيَ؛ لا يدري ما الله قاضٍ فيه.

فليأخذ العبدُ المؤمنُ من نفسِهِ لنفسِهِ، ومن دنياه لآخرتِهِ، وفي الشبيبةِ قبل الكِبَرِ، وفي الحياةِ قبل المماتِ. فوالذي نفسُ محمدٍ بيده ما بعد الدنيا من مستعتَبٍ، وما بعدها ـ من دارٍ ـ إلا: الجنةُ، أو النارُ)[3].

وقد أجاد مَن أفاد بقوله تعليقاً للحديث:

وهذان الخوفان يوجبان تَحَقُّقَ كمالِ الإنسان؛ لأنّ الخوف ممَّا مضى يوجب تصميمَ العزم؛ بالتوبة، والاستغفار، والتدارك، والاعتراف بالتقصير، واشتغال القلب بذكر الرب، والخوف ممَّا يأتي؛ من احتمال المعصية، والاغترار، ونقصان الدرجة عن درجة الأبرار، وانقلاب القلب، والغفلة، وترك الطاعات، يوجب الاجتهادَ في اكتساب الخيرات، والمبادرةَ إلى تحصيل الكمالات، والمحافظةَ لأوقات العبادات.

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، الكافي، ج٨، ص٧٩، وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لأمير المؤمنين عليه السلام، برقم ٣٣.

(٢) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٧٦، ألفاظ رسول الله صلى الله عليه وآله الموجزة التي لم يُسبق إليها، برقم ٥٧٦٦؛ شعب الإيمان للبيهقي، ج٢، ص٢٠١، برقم ٧٢٩.

(٣) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٧٠، كتاب الإيمان والكفر، باب الخوف والرجاء، الحديث ٩.

والخالي عن الخوف قاسي القلب فاسدُ العقل)[١].

وقد بيَّن القرآن الكريم الفرقَ الفارقَ بين الخائف الراجي لربه، ومَن ليس كذلك، بقول الله عزّ وجلّ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر/ ٩].

والخوف ـ بهذا المعنى، والتأثير ـ لا يخلو؛ أو لا ينبغي أن يخلو، قلبُ مؤمنٍ منه. فقد ورد عن الإمام الصادق ﷺ: **كان أبي** ﷺ، **يقول: إنه ليس من عبدٍ مؤمنٍ إلا [و] في قلبه نورانِ: نورُ خيفةٍ، ونورُ رجاءٍ، لو وُزِن هذا لم يزد على هذا، ولو وُزِن هذا لم يزد على هذا)**[٢].

وهو نصٌّ يجلِّي حقيقةً لا تنفكُّ عن واقع الإيمان، وهي توازنه الفكري والنفسي في علاقته بربه، حيث يتأرجح بين:

أ ـ الخوف من الله، لأسباب عديدة، ومن أهمِّها: قوتُه، وعزتُه، وشدّة عذابه. الأمر الذي يجعل المؤمنَ؛ وهو العارف بربه، لا يتجاهلها؛ فيقع في تقصير أو مخالفة.

ب ـ رجاء الله وأمنه، لأسباب عديدة، ومن أهمها: كرمه، وجوده، وحبه لعبيده، ورحمته الواسعة. الأمر الذي لا يجعل العبدَ؛ وإن قصَّر وعصى، يقع في وهدة اليأس من روْح الله.

ولَما كان لـ(الخوف) هذا الدور والأثر فقد وعد الله الخائفين؛ وهو الذي لا يخلف الميعاد، بجنتين، فقال تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن/ ٤٦].

ومن أجل التعرف على طبيعة هذا الخوف؛ الذي يُكافأ صاحبه بهاتين الجنتين، نقرأ تفسير إمامنا الصادق ﷺ للآية؛ حيث يقول: **مَن علِم أن الله يراه**

(١) المازندراني، المولى صالح (ت١٠٨١ هـ)، شرح أصول الكافي، ج٨، ص٢٣٣.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٦٧، كتاب الإيمان والكفر، باب الخوف والرجاء، الحديث ١.

ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمله؛ من خيرٍ أو شرٍّ؛ فيحجزه ذلك عن القبيحِ من الأعمالِ؛ فذلك الذي خاف مقامَ ربِّه، ونهى النفسَ عن الهوى)[١].

وتأسيساً على هذا الحديث وأمثاله، فإنَّ هذا (الخوف) إنَّما يُعد فضيلةً محمودةً بسبب ما يتركه من أثرٍ طيبٍ في نفسِ صاحبِهِ، تعينه على وضعِ حاجزٍ بينه وبين فعلِ القبيحِ من الأعمال.

ومن هنا، فإن الخائفَ كلَّما اشتدّ خوفُهُ من ربِّه كلَّما كان أطوعَ لله تعالى، وأكثرَ تحفُّزاً على عمل الصالحات.

ولزيادة الجلاء والإيضاح، نقرأ ما روي عن الإمام علي عليه السلام، من قوله:

إن للهِ عباداً كَسَرت قلوبَهم خشيةُ الله، فاستكفوا عن المنطق، وإنهم لفصحاءُ عقلاءُ ألبَّاءُ نبلاءُ، يسبقون إليه بالأعمال الزاكية، لا يستكثرون له الكثير، ولا يرضون له القليل، يرون أنفسهم أنهم شرارٌ، وأنهم[٢] **الأكياسُ الأبرارُ)**[٣].

وفي وجهٍ آخرَ لإيجابية الخوف من الله، وأثره على استقامة الإنسان في سلوكه، يقول الإمام الكاظم عليه السلام ـ في حديثٍ مطوّلٍ له عن العقل ـ: ...**إنه لم يَخَفِ الله مَن لم يعقل عن الله، ومَن لم يعقل عن الله لم يعقدْ قلبَهُ على معرفةٍ ثابتةٍ يبصرها، ويجدْ حقيقتها في قلبه.**

ولا يكون أحدٌ كذلك إلا مَن كان قولُه لفعلِهِ مصدِّقاً، وسرُّهُ لعلانيته موافقاً)[٤].

---

(١) المصدر السابق، ص٧٠، الحديث ١٠.

(٢) أي الناس.

(٣) كتاب الزهد للحسين بن سعيد، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص١٩٩، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١٢٠ ـ كراهة كثرة الكلام بغير ذكر الله، الحديث ٩.

(٤) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص١٨، كتاب العقل والجهل، الحديث ١٢.

في معنى الخوف من الله:

قد يخطر في الذهن أن الله تعالى؛ ذا الرحمة الواسعة، لا ينبغي أن يُخاف منه، فكيف نفسر هذا الخوف إذاً؟

وفي الجواب عن ذلك يمكن أن نستهدي بما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام؛ حيث يقول: **لا يرجُوَنَّ أحدٌ منكم إلا ربَّهُ، ولا يَخافنَّ إلا ذنبَهُ)**[1].

لذلك، يجب أن نَلْفت النظر إلى التمييز بين الخوف بمعناه الإيجابي، والخوف بمعناه السلبي. ذلك أنّ (الخوف من الله لا يُراد به ما يخطر بالبال من الرعب؛ كاستشعار الخوف من الأسد، بل إنَّما يُراد به الكفُّ عن المعاصي واختيار الطاعات. ولذلك، قيل: لا يُعدُّ خائفاً مَن لم يكن للذنوب تاركاً)[2].

فالمطلوب هو الخوفُ من سوء العلاقة بالله تعالى، وليس من ذات الله عز اسمه. ونعني بـ(سوء العلاقة): ما يسوء معها مصير الإنسان؛ بسبب ما يقع فيه من ظلمٍ لنفسه؛ عبر التقصير في امتثالِ أمرٍ أو مخالفةِ نهيٍ.

وفي هذا السياق جاء قول أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: **نِعم الحاجزُ عن المعاصي الخوفُ)**[3]؛ لعلمه أنَّ بين يديه يوماً يشتدُّ فيه الحساب ليجازى كلٌّ على فعله.

وهذه المقولةُ التربويةُ الرائعةُ مستلهَمةٌ من آيات عديدة، منها:

أ ـ قول الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود/ ١٠٣].

ب ـ وقوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات/ ٤٠ ـ ٤١].

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٨١.

(٢) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد (ت٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، كتاب الخاء، مادة (الخوف).

(٣) الواسطي، علي بن محمد الليثي (ق ٦)، عيون الحكم والمواعظ، ص٤٩٣، الباب ٢٥ ـ حرف النون الفصل ١ ـ ما بدئ بلفظ نعم.

أنواع الخوف:

من المفيد التعرف على أنّ للخوف أنواعاً؛ تختلف باختلاف أصحابه وأسبابه، فقد ورد في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال ـ في حديثٍ ـ:

أنواعُ الخوف خمسةٌ:

ـ خوف

ـ وخشية

ـ ووجل

ـ ورهبة

ـ وهيبة.

فالخوف للعاصين، والخشية للعالِمين، والوجل للمخبتين، والرهبة للعابدين، والهيبة للعارفين.

ـ أما الخوف فلأجل الذنوب، قال الله عزّ وجلّ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن/ ٤٦].

ـ والخشية لأجل رؤية التقصير، قال الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر/ ٢٨].

ـ وأمّا الوجلُ فلأجْل ترك الخدمة، قال الله عزّ وجلّ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال/ ٢].

ـ والرهبة لرؤية التقصير، قال الله عزّ وجلّ ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء/ ٩٠].

ـ والهيبة لأجل شهادة الحق عند كشف الأسرار، أسرار العارفين، قال الله عزّ وجلّ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران/ ٢٨] **يشير إلى هذا المعنى)**[1].

---

(١) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، الخصال، ص٢٨١، باب الخمسة، الحديث ٢٧.

وأخيراً، فإن الخائف من ربه في الدنيا إذا عمل بطاعة الله، وسارع في ذلك ـ ويجب أن يكون كذلك ـ لا مسوِّغَ لخوفه يوم القيامة. وفي المقابل، فإن الآمنَ إذا أمن ربه في الدنيا، وقصَّر في حق مولاه، لا مسوِّغَ لأنّ يأمن يوم القيامة. قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام/ ٨٢].



الفصل الرابع والعشرون

حذار من غضب اللَّه

الرؤية التوحيدية ـ التي يختزنها المؤمن في عقله وقلبه ـ تجعل الموحِّدَ مثابراً في طاعة الله، عاملاً للصالحات، حريصاً على الابتعاد عن مظانِّ سخط الله وغضبه؛ من خلال ترك المعاصي.

ولكنه ـ بين هذا وذاك ـ قد يعمل الحسنةَ؛ فلا ينتفع بها، وقد يُلِمُّ بالسيئة؛ فتكون سبباً لنجاته!

وستبادر إلى السؤال: كيف يكون ذلك؟

ولننصت إلى الرسول ﷺ كيف ينبه أباذر رَحِمَهُ اللهُ، وإيانا بالتبع، إلى فلسفة ذلك قائلاً:

● [الفقرة/ ٥٠]:

(يا أبا ذرّ! إن الرجل ليعمل الحسنة فيتَّكِل عليها، ويعمل المحقَّرات حتى يأتي الله وهو عليه غضبان).

ويتلخص جوابه ﷺ في فقرات:

الفقرة الأولى: سوء التقدير

في هذه الفقرة من كلام النبي ﷺ ـ هنا ـ بيانٌ لحقيقة أن العامل للحسنة يفعل خيراً بنفسه بفعلها، لكن عليه أن يحذر ـ أشد الحذر ـ من سوء التقدير.

وذلك، بأن يقع في العُجب ونحوه؛ عبر اعتقاده أن الحسنة التي قام بها كفيلةٌ بإنجائه من العذاب، وجديرةٌ بأن تفتح له أبواب الجنة فلا تُغلَق.

إن مثل هذا الاعتقاد الخاطئ سيدفع به نحو (الاتكالية)؛ التي ينتج منها عددٌ من المخاطر، منها:

الخطر الأول: المبالغة في قيمتها عند الله

يتمثل هذا الخطر في أن يرى الإنسان؛ في ما عمله من عملٍ، السموَّ والرفعةَ وثقلَ الميزانِ؛ فينتهي به الحالُ إلى الزعم أن لديه من الرصيد ما يكفي ليتبوأ أعلى مراتب الصالحين!

وتحذيراً من هذه الحال، جاء في الحديث القدسي؛ في ما يرويه الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عزّ وجلّ: **لا يتَّكلِ العاملون على أعمالهم التي يعملون بها لثوابي**).

ولعلَّ فلسفة ذلك تكمن في أن أعمالهم ـ بحسب الواقع ـ لا يمكن الاعتمادُ عليها؛ لأنّ للهِ تعالى أن يجيب العبدَ؛ لو طالب باستحقاق ما عمله من الصالحات، بالقول: إنَّ مَن وفقك له، وأقدرك عليه، إنَّما هو أنا ربك؛ فـ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل/ ٥٣].

ثم يعلِّل النبيُّ صلى الله عليه وآله ذلك بقوله سبحانه:

فإنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم [أعمارهم] في عبادتي، كانوا مقصِّرين غير بالغين في عبادتهم كنهَ عبادتي؛ في ما يطلبون عندي؛ من كرامتي، والنعيمِ في جناتي، ورفيعِ الدرجات العلى في جواري). إذاً، أعمالنا ـ نحن العبيد ـ لا تصنف ثمناً لِما عند الله تعالى ممَّا نرجوه وننشده؛ خصوصاً إذا لاحظنا أن من المهم والعقلائي أن يكون بين الثمن والمثمن تناسبٌ من حيث القيمة.

لينتهي الحديث القدسي إلى تقرير قاعدة وجودية كونية؛ مفادها:

ولكن برحمتي فليثقوا، ونفضلي فليرجوا، وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا؛ فإن

رحمتي عند ذلك تدركهم، ومني يبلغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي؛ فإني أنا الله الرحمن الرحيم، وبذلك تسمَّيْتُ)[١].

ولو أن أحداً وقع في هذا الوهم، فمآله الوقوع في:

الخطر الثاني: الخمول في العمل

وسبب هذا الخطر هو: أنّ مَن حسب أنّ لديه رصيداً كافياً قد لا يجد في نفسه حافزاً للعمل؛ فيكون خاملاً لا عاملاً. والخمولُ لا يليق بالمؤمن؛ الذي ليس من تكوينه الابتلاء بذلك؛ لأنه يتنافى على الأقل مع بُعدِ همته؛ التي هي من اللوازم المنطقية للإيمان.

بل قد يترقى خمولُهُ؛ الناشئ من المبالغة في قيمة ما عمل، إلى:

الخطر الثالث: التقليل من مخاطر الإلمام بالمعاصي الصغيرة

والسر في ذلك: أن صاحب الرصيد الكبير لا يضيره أن (يخسر) بعضَ رصيده، أو أن يتآكل بعضُهُ؛ بمقارفةِ معصيةٍ هنا أو معصيةٍ هناك، على مستوى القول أو الفعل أو حتى المشاعر.

وقد روى زيد الشحام، عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **اتقوا المحقَّرات من الذنوب؛ فإنها لا تُغفر.**

قلت: وما المحقّرات؟

قال: الرجل يذنب الذنب؛ فيقول: طوبى لي إن [أو أن] لم يكن لي غير ذلك)[٢].

وورد في الخبر **(أشدُّ الذنوب ما استخفَّ به صاحبُهُ)**[٣].

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٦١، باب الرضا بالقضاء، الحديث ٤، وباب حسن الظن بالله عزّ وجلّ، الحديث ١.

(٢) المصدر السابق، ص٢٨٧، كتاب الإيمان والكفر، باب استصغار الذنوب، الحديث ١.

(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٤٧٧.

وفي قصة معبّرة يبين لنا الرسول الأعظم ﷺ خطورة الغفلة عن كيفية اجتماع المعاصي، ومفادها:

عن ثعلبة، عن زياد، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام:

إن رسول الله ﷺ نزل بأرض قرعاء [أي لا نبات فيها]، فقال لأصحابه: ائتوا بحطبٍ.

فقالوا: يا رسول الله! نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب!

قال: فليأتِ كلّ إنسان بما قدر عليه.

فجاؤوا به؛ حتى رموا بين يديه، بعضه على بعض.

فقال رسول الله ﷺ: هكذا تجتمع الذنوب. ثم قال: إياكم والمحقَّرات من الذنوب؛ فإن لكلِّ شيءٍ طالباً، ألا وإنّ طالبَها يكتب ﴿مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس/ ١٢])(١).

وهذا بدوره قد يرميه في:

الخطر الرابع: التمادي في ارتكاب الصغائر

التمادي في ارتكاب الصغائر يتحقّق بسبب ما تقتضيه العادة حينما تسيطر على صاحبها؛ فـ(**العادات قاهرات**)(٢). كما أنّ المقيم على الذنب مستهزئ بالله تعالى(٣).

وينتج من كلِّ هذه المخاطر؛ وأشباهها، ما لا قِبَل للإنسان به؛ أعني غضب الله وسخطه؛ لأنه تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة/ ٢٧].

ومقارفو المعاصي قد يُمحَون من ديوان المتقين.

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٢٨٨، كتاب الإيمان والكفر، باب استصغار الذنوب، الحديث ٣.

(٢) حكمة منسوبة إلى الإمام علي عليه السلام، رواها ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، الحكمة ٣٩٦، ج٢٠، ص٢٩٧. ونسبها ورام في تنبيه الخواطر إلى الإمام الحسن، ج٢، ص٤٣٢.

(٣) ورد هذا المضمون عن الإمام الباقر عليه السلام، كما رواه الشيخ الكليني في أصول الكافي، ج٢، باب التوبة، الحديث ١٠. وفيه عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: **التائبُ من الذنب كمن لا ذنبَ له، والمقيمُ على الذنبِ؛ وهو مستغفر منه، كالمستهزِئ**).

الفقرة الثانية: الحكمة في توظيف الأخطاء

في هذه الفقرة نجد أنفسنا أمام نموذج ناجح من الناس، وهو الإنسان الذي يقع ـ بوعيٍ حيناً، وبغير وعيٍ حيناً آخر ـ في معصيةٍ من المعاصي، لكنه لا يسمح لنفسِهِ أن يتمادى في ذلك أو يتجاهله.

بل إن الحكيم من الناس يحسن التعامل مع خطيئته وخطئه، وذلك باستشعار الخشية من الله تعالى؛ التي هي من أسمى المقامات الروحية، والتي تنمُّ عن معرفة عميقة بالله تعالى فـ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر ٢٨].

ويبيِّن النبيُّ ﷺ هذه الحالة بقوله:

- **[الفقرة/ ٥٠]:**

(يا أبا ذرّ! إن الرجل ليعمل الحسنة فيتَّكِل عليها، ويعمل المحقَّرات حتى يأتي الله وهو عليه غضبان[1]. وإن الرجلَ ليعمل السيئةَ فيفرَق [أي: يخاف] منها يأتي آمناً يوم القيامة)[2].

وبمقتضى ما قدمناه؛ من أنّ الله لا يجمع على عبدٍ خوفَين، فسيكون شعوره

---

(١) أورد هذه الفقرةَ الميرزا النوريُّ في مستدرك الوسائل، ج١، ص١٤٠، أبواب مقدمة العبادات، الباب ٢١ ـ تحريم الإعجاب بالنفس وبالعمل والإدلال به، الحديث ١٤. وفي ج١١، ص٣٤٩ـ ٣٥٠، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٤٣ ـ وجوب اجتناب المحقرات من الذنوب، الحديث ٨.

(٢) استشهد بهذا المقطع من الفقرةِ الشيخُ النوريُّ على وجوب اجتناب المحقرات من الذنوب، كما في ج١١، ص٣٥٠، في الباب ٤٣؛ الذي حمل هذا العنوان من أبواب جهاد النفس.
واستشهد بمجموع الفقرة السيد البروجردي في جامع أحاديث الشيعة، في الباب ١٥ ـ حكم الإعجاب بالعمل وبالنفس وما ورد في ذمه وآثاره، الحديث ٢٢. وكذلك في ج١٣، ص٣٣٤، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٩ ـ وجوب اجتناب المحارم والمعاصي والخطايا والذنوب صغارها وكبارها وما يترتب على اجتنابها وارتكابها، الحديث ٦٢.

الصادق بالخوف من ذنبه كفيلاً بتصنيفه ضمن الآمِنين، كما يفيده هذا النص، ويفيده ـ أيضاً ـ ما سبقه من نصوص.

وقد تسأل عن سرّ ذلك، فيبادر ﷺ ببيان فلسفة ذلك بقوله:

● **[الفقرة/ ٥١]:**

(يا أبا ذرّ! إن العبدَ ليذنب الذنب فيدخل به الجنّة! فقلت: وكيف ذلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: يكون ذلك الذنب نصب عينيه تائباً منه، فاراً إلى الله عزّ وجلّ حتى يدخل الجنة).

فالعلّة تكمن في تحويله ما وقع فيه من ذنبٍ إلى دافعٍ قويٍّ لـ(الاستقامة)، بطي الطريق إلى الله والفرار إليه. فهو ـ لذلك ـ عاملٌ بالصالحات، والتائب من الذنب **(كمن لا ذنب له)**؛ كما قال الإمام الباقر عليه السلام[1].

والتوبة ـ كما ينبغي أن تُفهم ـ تشكّل واحداً من أهمّ عوامل تجديد الإيمان، وتنقية النفس ممّا علق بها من شوائب المعاصي.

فإذا علمنا أن الله عزّ وجلّ ليس محتاجاً لأعمالنا، وإنما يهمه أن نعود إليه أنقياء من المعاصي قدر المستطاع، فسندرك أهمية التوبة في تحقيق عنوان الفرار إلى الله، وتحصيل الدافعية نحو العمل الصالح.

***

ويخلص الرسول ﷺ بعد ذلك إلى:

الفقرة الثالثة: ثقافة العمل لا الأمل

في هذه الفقرة، التي هي أشبه ما تكون بالنتيجة للفقرتين السابقتين، يوضح

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٤٣٥، كتاب الإيمان والكفر، باب التوبة، الحديث ١٠.

لنا الرسول ﷺ الفرق بين الكياسة والحمق، وبين الهمة والعجز، عبر التأكيد على ثقافة العمل الصالح ونيل رضوان الله وجنته، بقوله:

● **[الفقرة/ ٥٢]:**

**(يا أبا ذرّ! الكيِّس مَن دان نفسَهُ، وعمل لما بعد الموت[١].
والعاجزُ مَن اتبع نفسه وهواها، وتمنى على الله عزّ وجلّ الأماني).**

لمّا كان الدين؛ في جوهره، هو قناعات بمنهج ـ نترسم من خلاله سلوكَ الحياة ـ؛ فلا مجال معه للسذاجة في التعامل مع حقائق الكون والوجود، بل يجب أن نتحلى جميعاً بالكياسة، والمؤمن موصوف بأنه **(كيّسٌ فطن)**[٢].

ومن لوازم هذه الكياسة ما أشار إليه النص؛ من:

١ ـ عدم جواز التفريط برأس المال، وهو هنا (العمر)، الذي لا يُعوَّض أبداً؛ وإلا فإن مَن ضيَّع عمره فقد **(دان نفسه)**؛ أي: حكم على نفسه؛ كما يستفاد منه على بعض الوجوه.

٢ ـ وجوب العمل لِما بعد الموت من استحقاقات؛ لأنّ الإنسان بين عامل للصالحات فإلى الجنة، أو تارك لها فإلى النار، والعياذ بالله. وهذا ما يفيده قوله **(دان نفسه... وعمل...)** فإنّ أحد معاني (دان) هو: قهر[٣].

٣ ـ وجوب محاسبة النفس ومراقبتها. وهذا ما يمكن استفادته من قوله ﷺ **(دان نفسه)**؛ إذا فسرنا الإدانة بمعنى الاتهام وإلقاء اللوم عليها باعتبارها المحرض له على الوقوع في المعاصي.

٤ ـ عدم الركون إلى الأماني وأحلام اليقظة؛ كما يقال، بل اللازم هو:

---

(١) استشهد بهذه الفقرةِ الميرزا النوريُّ؛ في مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، على وجوب محاسبة النفس، وذلك في ج١٢، ص١٥٥، في أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٩٥ ـ وجوب محاسبة النفس كلّ يوم وملاحظتها، وحمد الله على الحسنات، الحديث ٦.

(٢) المجلسي، محمد باقر (ت١١١١ هـ) بحار الأنوار: ج٦٤، ص٣٠٧، عن رسول الله ﷺ؛ كنز العمال، ج١، ص١٤٣، في صفات المؤمنين، برقم (٦٨٩) عن مسند القضاعي.

(٣) الزمخشري، جار الله (ت٥٣٨ هـ)، الفائق في غريب الحديث، حرف الداء، الدال والياء، مادة (الديان).

التشمير عن الساقين، وبذل الجهد الجهيد؛ لتحصيل أكبر قدرٍ من المنافع والمصالح، ودفع أكبر قدرٍ من المضار والمفاسد. وهذا ما يفيده قوله **(وتمنّى على الله...)**.

٥ ـ ضرورة الاستعداد الشامل؛ ذهنياً ونفسياً وجسدياً، لجهاد النفس في معركة ضارية توصف بـ(الجهاد الأكبر).

٦ ـ حسن سياسة النفس. فإن أحد معاني **(دان)** هو ساس[1].

٧ ـ توفير البيئة المناسبة لتحقيق الصلاح، من عوامل معنوية ومادية. وهذا ما يفيده مجموع الفقرة بالخصوص قوله ﷺ **(الكيِّس... دان... عمل)**.

وفي مقابل الإنسان المؤمن الكيِّس، هناك الإنسان العاجزُ الذي لا يرى في الدين إلا شعاره وعنوانه، ولا يرى في نفسه ـ من حيث يشعر أو لا يشعر ـ سوى إلهٍ يُعبد من دون الله؛ فيقع في خطأين كبيرين:

الخطأ الأول: الاستجابة ـ دائماً، أو غالباً ـ لغرائزه وأهوائه

ليس مرفوضاً في شريعة الإسلام، ولا معيباً في ذاته، أن يلبي الإنسانُ غرائزَه التي خلقها الله فيه؛ فهي ـ بالطبع ـ لم تجعَل فيه عبثاً، لكن المعيبَ هو أن نجعل ما تولده فينا هذه الغرائز ـ من رغبات ـ مهيمناً على جميع الرغبات والإرادات؛ بما فيها إرادة الله تعالى.

ومن فعل ذلك ـ أي غلَّب غرائزه، واتبع هواه ـ سُمي متَّبعاً للهوى، بل وصفه القرآن بالمتخِذ إلهَهُ هواه، فقال سبحانه ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان/ ٤٣]، وقال ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص/ ٥٠].

والتعامل السليم مع هذه الغرائز يتلخّص في: ضبطها بالقواعد والأحكام الشرعية، والسير بها في الصراط المستقيم.

---

(١) قال الطريحي (ت١٠٨٥ هـ): (لمدينون)؛ أي: لمُجزون؛ من الدين الذي هو الجزاء؛ أي: لمسوسون مربوبون. من: دانه إذا ساسه. وفي الحديث: الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت) تفسير غريب القرآن، النوع التاسع: ما أوله الدال، مادة (دين).

وأما مَن خالف ذلك فقد ورد في حقه الذمُّ، بل التهديدُ؛ ببيان العاقبة الوخيمة لاتباع الهوى.

ولنقرأ نموذجاً على ذلك ما روي عن الرسول ﷺ، قال: يقول الله عزّ وجلّ: **وعزتي، وجلالي، وعظمتي، وكبريائي، ونوري، وعلوي، وارتفاع مكاني! لا يؤثر عبد هواه على هواي إلا شتَّتُّ عليه أمرَه، ولبَّستُ عليه دنياه، وشغلتُ قلبَه بها، ولم أؤتِهِ منها إلا ما قدَّرتُ له.**

وعزتي، وجلالي، وعظمتي، ونوري، وعلوي، وارتفاع مكاني! لا يؤثر عبدٌ هواي على هواه إلا استحفظتْهُ ملائكتي، وكفَّلتُ السماوات والأرضين رزقَه، وكنتُ له من وراء تجارةِ كلِّ تاجرٍ، وأتتْهُ الدنيا وهي راغمةٌ)[1].

الخطأ الثاني: تحويل الدين إلى أمنياتٍ

الدين ـ في معارفه، وتعاليمه ـ ليس مجرد أمنيات! بل هو برنامج عملٍ، ينطلق من منظومة فكرية مفصلة وفاصلة.

وحالُ مَن يجعله أمنيات، ومآلُه، هو الانفصال عن الواقع، وستحكمه رؤاه الحالمة بعيداً عن أجواء الجنة وسعادتها، والآخرةِ وما يجب عمله لها، وسيكون بمثابة من لم يقرأ قولَ الله تعالى ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء/ ١٩]، وبمثابة من لم يقرأ ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام: **لا تكنْ ممن يرجو الآخرة بغيرِ عملٍ)**[2].

وقد عالج القرآن الكريم هذه الخطأ، وأبان العلاج، في خطابه للمسلمين الأوائل ضمن حديثه عن أمم سابقةٍ. وذلك في قول الله تعالى ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء/ ١٢٣، ١٢٤].

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٣٣٥، كتاب الإيمان والكفر، باب اتباع الهوى، الحديث ٢.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ١٤٦.



الفصل الخامس والعشرون

محورية البُعد الروحيّ في صلاح الفرد والجماعة

● **[الفقرة/ ٥٣]:**

(يا أبا ذرّ! إن أوّلَ شيءٍ يُرفع من هذه الأمّة: الأمانة، والخشوع؛ حتى لا تكاد تَرى خاشعاً).

١ ـ تفاوت المسائل في الأهمية

في بنية أيِّ فكر ـ بما في ذلك الفكر الديني ـ تتفاوت المسائل من حيث الأهمية؛ فثمة أصولٌ، وثمة فروعٌ.

ولو تساءلنا عن تطبيق ذلك على الفكر الديني الإسلامي، لأمكننا تصنيف مسائله إلى نوعين:

النوع الأول: ما يرتبط بطبيعة الفكر نفسه.

وفي هذا النوع يقال: إن الأصول هي: مجموع المسائل التي تعالج التوحيدَ وما يتفرّع عنه؛ كالعدلِ، والنبوةِ وما يتفرع عنها؛ كالإمامة، والمعادِ وقضاياه.

والفروع ما تبيَّن فيه الأحكامُ الشرعيةُ؛ في مساراته الثلاثة:

أ ـ القول

ب ـ الفعل

ج ـ المشاعر

النوع الثاني: ما يرتبط بالجانب العملي؛ أعني: انعكاس التعاليم في نفس المسلم. من قبيل: مستوى تفاعل الإنسان مع الصلاة في الأداء والشعور، ومستوى التزام أداء الخمس والزكاة...

ولكلا النوعين من المسائل دوره وأهميته، كما أنّ بعضَ مسائل الشريعة ترتبط بالمظهر وأخرى بالجوهر؛ فلا قيمةَ حقيقيةً للصلاة إذا لم تكن تنهى عن الفحشاء والمنكر(١).

٢ ـ الترابط بين سلوك الإنسان وعطاء الرحمن

هناك ترابطٌ وثيقٌ بين السلوك الإنساني والعطاء الرباني، بمعنى أن صلاحَ الإنسان يزيد في عطاء الله. قال تعالى ﴿فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة/ ٨٥]. كما أنّ تمرُّدَه على الله تعالى يقلِّص من فرص العطاء، قال تعالى ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء/ ١٥٥].

الآثار السلبية للعمل السيِّئ

في هذه الفقرة من الوصية ينبّه الرسول ﷺ صاحبه أباذر (رضوان الله عليه) إلى ما سيقع على هذه الأمة من عقوبةٍ؛ كنتيجة طبيعية لسوء اختيارها، مع ملاحظةِ أولويةِ بعضِ المسائلِ على غيرها، وخطورةِ سلبِها قبل غيرها؛ كمؤشرٍ على شدة الانحدار الذي وقع فيه الفاقد لهذه السِّمة أو تلك، فقال:

---

(١) فقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: **(مَن لم تنهه الصلاةُ عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً)** [تفسير علي بن إبراهيم، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة، ج٤، ص١١٤]. وعن الإمام الصادق عليه السلام: **(مَن أحب أن يعلم؛ قُبِلت صلاته أم لم تقبل، فلينظر هل منعته صلاتُهُ عن الفحشاء والمنكر. فبقدر ما منعته قُبِلت صلاته)** [نور الثقلين للحويزي، ج٤، ص١٦٢].

● [الفقرة/ ٥٣]:

(يا أبا ذرّ! إن أولَ شيءٍ يُرفع من هذه الأمة: الأمانة، والخشوع؛ حتى لا تكاد تَرى خاشعاً).

وفي هذا النص بيانٌ لخطورة افتقاد صفتين أساسيتين؛ تتجلّى:

إحداهما: في علاقة الإنسان بربه من جهةٍ، وبأخيه الإنسان من جهةٍ أخرى؛ وهي (الأمانة).

والأخرى: في علاقة الإنسان بربه؛ وهي (الخشوع)، وإن كان لها حضورٌ ـ بنحوٍ، وآخر ـ في علاقة الإنسان بالبشر.

فهل يا ترى تبقى للإنسان إنسانيته إن هو فقد هذه وتلك؟!

ألا يتحول ـ حينئذٍ ـ إلى وحشٍ كاسرٍ؛ لا يُبقي ولا يذر؟!

ولنتوقّف عند الصفتين، ولنتبين ـ بإيجازٍ شديدٍ ـ بعضَ ما لهما من محدِّدات، وما لهما من أهمية وأثر؛ في مقامين:

المقام الأول: الأمانة

الأمانة ـ في اللغة ـ ضدّ الخيانة، وتعني: السكون. والأمين يوصف بالأمانة؛ لأنّ الناس يسكنون إليه؛ فلا يخشون ضياعَ ما يستودعونه إياه.

واصطلاحاً يصحّ القول: الأمانة ـ أيًّا ما كانت ـ شيءٌ يودَع عند الغير ليحتفظ عليه ثم يرده إلى من أودعه)[1].

ومجال الأمانة واسعٌ ينبسط على ما يكون متعلقها أمانات الخالق، وما يكون متعلقها أمانات الخلق، وما يكون مشتركاً بين الطرفين.

قال العلّامة الطباطبائي:

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١٦، ص٣٤٨، ذيل قوله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾.

من الأمانة: ما هي أمانة الله سبحانه عند الناس؛ كأحكامه المشرعة من عنده.

ومنها: ما هي أمانة الرسول؛ كسيرته الحسنة.

ومنها: ما هي أمانة الناس بعضهم عند بعض؛ كالأمانات من: أموالهم، أو أسرارهم.

ـ **ومنها:** ما يشترك فيه الله ورسوله والمؤمنون؛ وهى الأمور التي أمر بها الله سبحانه، وأجراها الرسول، وينتفع بها الناس، ويقوم بها صلب مجتمعهم؛ كالأسرار السياسية والمقاصد الحربية؛ التي تضيع بإفشائها آمال الدين، وتضل بإذاعتها مساعي الحكومة الإسلامية؛ فيبطل به حق الله ورسوله ويعود ضرره إلى عامة المؤمنين)[1].

وقد تناول القرآنُ الكريمُ والأحاديثُ الشريفةُ فضيلةَ الأمانة؛ كمبدأٍ وتطبيقاتٍ، في موارد عديدة:

١ ـ تُعدُّ الأمانةُ قيمةً من القيم الأخلاقية الإسلامية الأصيلة، حتى مُدِح المؤمنون بها، وجُعلت سمةً لهم وسبباً لفلاحهم، كما في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون/ ٨].

وقد عدها الإمام علي عليه السلام أبرزَ صفات الإيمان؛ حيث قال: **أفضل الإيمان الأمانةُ)**[2]. وقال أيضاً: **أقبحُ الأخلاق الخيانةُ)**[3].

٢ ـ جعل عنوان (الأمانة) أساساً فكرياً؛ بل اعتقادياً، لوجود الإنسان على الأرض وتقديمه على غيره.

وهذا ما يفيده قوله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب/ ٧٢].

وأيا كان تفسير الأمانة في الآية؛ فإنّ مجرَّدَ اختيار هذا العنوان إطاراً

---

(١) المصدر السابق، ج٩، ص٥٥، ذيل قوله تعالى ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾.

(٢) الواسطي، علي بن محمد الليثي (ق ٦)، عيون الحكم والمواعظ، ص١١٧، الباب ١، الفصل ٩ ـ في وزن أفعل.

(٣) المصدر السابق، ص١١٨.

للمسؤولية العليا أمام الله تعالى، وذريعةً لعدم تحمُّلها من السماوات والأرض والجبال، وتنبيه الإنسان إلى الظلم والجهل كضدين للأمانة، إنّ ذلك يُعدُّ أمارةً واضحةً على خطورة هذا المبدأ.

وإنما (انقسم الإنسان... إلى: منافق، ومشرك، ومؤمن)[١]. (من جهة حفظ الأمانة...، بخلاف السماوات والأرض والجبال فما منها إلا مؤمنٌ مطيعٌ)[٢].

٣ ـ أما الإمام الباقر عليه السلام، فقد نصَّ على أنَّ ثمة قِيَماً أخلاقيةً لا مجال للتخلّي عنها؛ مهما قست الظروف، وعدَّ منها (الأمانة)؛ فقال: **ثلاثٌ لم يجعل الله عزّ وجلّ لأحد فيهن رخصةً: أداءُ الأمانة إلى البَرِّ والفاجر، والوفاءُ بالعهد للبَرِّ والفاجر، وبِرُّ الوالدين بَرَّين كانا أو فاجرين)**[٣].

٤ ـ لا يدع أئمة أهل البيت عليهم السلام ـ وهم ورثة علم رسول الله صلى الله عليه وآله ـ لنا فرصةً ليقع ذهنُ الواحد منا في لبسٍ؛ من حيث مصداق الأمانة والمؤتمَن.

وفي ذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام: **إن ضارب عليٍّ بالسيف وقاتلَه لو ائتمنني، واستنصحني، واستشارني، ثم قبلتُ ذلك منه، لأديتُ إليه الأمانةَ)**[٤]. وهو نصٌّ بالغُ الأهميةِ؛ من حيث دلالته على مكانة (الأمانة) في منظومة القيم.

٥ ـ إن رسول الله صلى الله عليه وآله يضع لنا موازين ومؤشرات على صدق الإيمان وأصالته، ليس منها كثرة الصلاة والصيام والحج وفعل المعروف والمناجاة في الليل؛ ولا تخفى أهميةُ كلِّ واحدٍ من هذه العناوين الواجب منها والمستحبّ، ولكنه صلى الله عليه وآله يجعل المؤشّر على صدق الإيمان وأصالته خصوصَ صدق الحديث

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١٦، ص٣٤٩، ذيل قوله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، كتاب الإيمان والكفر، باب البر بالوالدين، الحديث ١٤.

(٤) فروع الكافي، ج٥، ص١٣٣، كتاب المعيشة، باب أداء الأمانة، الحديث ٥.

وأداء الأمانة، فقال ﷺ: **لا تنظروا إلى كثرةِ صلاتِهم وصومِهم، وكثرةِ الحجِّ والمعروفِ، وطنطنتِهِم بالليلِ. انظروا إلى صدقِ الحديثِ وأداءِ الأمانةِ)**[(١)].

٦ ـ بـ(الأمانة) بلغ علي عليه السلام ما بلغ من منزلة عند رسول الله ﷺ.

فقد روى أبو كهمس، قال: قلتُ لأبي عبدالله عليه السلام: عبدالله بن أبي يعفور يقرئك السلام، قال: عليك وعليه السلام إذا أتيت عبدالله فاقرأه السلام وقل له: إن جعفر بن محمد يقول لك: **انظر ما بلغ به علي عليه السلام عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) فالْزمه، فإنَّ علياً عليه السلام إنَّما بلغ ما بلغ به عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) بصدق الحديث وأداء الأمانة)**[(٢)].

٧ ـ تأتي النصوص المتضافرة لتضعنا أمام قدسية (الأمانة) بنحو مطلق؛ فلا مسوِّغ أبداً لـ(الخيانة) التي هي ضدُّها.

وفي ذلك يقول الإمام علي عليه السلام: **لا تخُنْ مَن ائتمنك؛ وإن خانك، ولا تذِع سرَّه؛ وإن أذاع سرَّك)**[(٣)].

وفي الخبر عن ابن أخي الفضيل بن يسار قال: **كنت عند أبي عبدالله** عليه السلام، **ودخلت عليه امرأةٌ؛ وكنت أقربَ القوم إليها؛ فقالت: لي أسئلةٌ. فقلت: عمّاذا؟ فقالت: إن ابني مات، وترك مالاً؛ كان في يد أخي فأتلفه، ثم أفاد مالاً فأودعنيه، فلي أن آخذ منه بقدر ما أتلف من شيء؟ فأخبرته بذلك؛ فقال: لا. قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أدِّ الأمانةَ إلى مَن ائتمنك، ولا تخُن مَن خانك)**[(٤)].

---

(١) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، الأمالي، ص٢٢٤، المجلس الخمسون، الحديث ٦.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص١٠٤، كتاب الإيمان والكفر، باب الصدق وأداء الأمانة، الحديث ٥.

(٣) ابن طاووس، السيد علي بن موسى (ت٦٦٤ هـ)، كشف المحجة، ص١٦٧.

(٤) الطوسي، محمد بن الحسن (ت٤٦٠ هـ)، الاستبصار، كتاب المكاسب، باب من له على غيره مال...، برقم ١٧٣.
ورواه ـ أيضاً ـ الشيخ الطوسي؛ في التهذيب، كتاب المكاسب، باب المكاسب.

فلا يجوز ـ إذاً ـ الوقوع في ردّ فعلٍ سلبيٍّ؛ بمستوى (الخيانة)، على خيانة الخونة، بل يجب أن نكون أمناءَ دائماً.

بقي شيءٌ، وهو:

أنّ هناك تفاصيلَ كثيرةً في ما يتعلق بحفظ الحقوق التي تكون في ذمَّة الآخرين، وكيف تُستوفَى مع خيانتهم، أو مع الاختلاف معهم عند التخاصم ـ لسوء فهم أو تفاهم ـ، تُطلَب في كتب الفقه.

وما نعالجه ـ هنا ـ هو: الضرورة المبدئية والأخلاقية لفضيلة الأمانة، وقبح الخيانة وحرمة ذلك. أمّا الاستثناءات في حال التزاحم بين الأهم والمهمّ فليست مورداً لبحثنا هنا.

وعلى كلِّ حالٍ، فإذا كان لفضيلة (الأمانة) هذه الأهمية، فماذا يعني وقوع الناس في رذيلة (الخيانة)؛ سوى أنهم أخلُّوا بجوهر الدين؛ في العلاقة بالله أولاً، وبالناس ثانياً؟!

خطورة سلب الأمانة:

لسنا بحاجة إلى تبيان مخاطر خلوّ الأمّة من فضيلة (الأمانة)؛ التي تتسع تطبيقاتها لتستوعب جميعَ محالات الحياة؛ لأنّ افتقاد الأمانة يعني تغلغل الفساد في مختلف قطاعات الأمة، وهو ما تعاني منه المجتمعات البشرية اليوم؛ حيث عشعش الفساد الاقتصادي والإداري والسياسي والأخلاقي والاجتماعي.... وكل ذلك تعبيرٌ ـ بشكل أو بآخر ـ عن ضياع (الأمانة).

وكم هو خطيرٌ ومأساويٌّ أن تُبتلى أمةٌ من الأمم بضياع (الأمانة)؛ لأنّ النتيجة الطبيعية ـ حينئذٍ ـ ستكون كارثةً تلوَ كارثةٍ، وبلاءً يعقبه بلاءٌ، ودوراناً في الرحى!!

وفعلاً سيكون ذلك شكلاً من أشكال العقوبة.

وسيتجلّى أثرُ ضياع الأمانة في العلاقات الإنسانية وفي الجانب المادي سواءً بسواءٍ، وبشكلٍ واضحٍ، ولكن النص النبوي الشريف ـ في هذه الوصية ـ يشير إلى خطرٍ أشدَّ؛ وهو سلبُ نعمة الخشوع، وهذا ما سنعالجه في الفقرة التالية.

المقام الثاني: الخشوع

١ ـ لـ(الخشوع)؛ كما لـ(الأمانة)، حضورٌ واسعٌ في بنية الفكر الإسلامي، يعبَّر من خلاله عن التفاعل الحي بين المسلم وما آمن به.

ويمكننا تعريف الخشوع بأنه: الحالة النفسية التي تسيطر على الخاشع؛ تعبيراً عن رضوخه واستسلامه لله تعالى.

قال العلامة الطباطبائي في تعريف الخشوع تارةً بأنه: (تأثرٌ خاصٌ من المقهور قِبال القاهر؛ بحيث ينقطع عن غيره بالتوجه إليه)(١)، وأخرى بأنه: (نوعُ تأثرٍ نفسانيٍّ عن العظمة والكبرياء)(٢)، وثالثةً بأنه: (تذلل باطني بالقلب)(٣).

وفي مقابل فضيلة الخشوع تأتي رذيلة (القسوة) أو (التمرد).

٢ ـ الخشوع ـ بهذا المعنى ـ مطلوبٌ إسلامياً؛ بشكلٍ أكيدٍ، بالدرجة التي يستحق مَن لا يحققها في نفسه العتاب. قال تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد/ ١٦].

٣ ـ تكمن أهمية الخشوع في كونه التعبير الصادق والدقيق عن التسليم لله تعالى، وهو أمرٌ نسبيٌّ يتفاوت بين إنسانٍ وآخر، بل بين حالٍ وآخر في الشخص الواحد. قال تعالى ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء/ ١٠٩].

فالخشوعُ مهمٌّ، ولعلّ هذا هو ما يشكّل مسوّغاً لما نقرأه في أدعية عديدة مروية عن النبي ﷺ وآله ﷺ؛ من التعوّذ بالله تعالى من مجموعةِ أمورٍ؛ جاء ضمنها سلب الخشوع، فقال: **أعوذ بك من قلب لا يخشع**)(٤).

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١٥، ص٦، ذيل قوله تعالى ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ من سورة المؤمنون.

(٢) المصدر السابق، ج١٦، ص١٦٦، ذيل قوله تعالى ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ من سورة الروم.

(٣) المصدر السابق، ص٣١٤، ذيل قوله تعالى ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ من سورة الأحزاب.

(٤) الطوسي، محمد بن الحسن (ت٤٦٠ هـ)، الدعاء في الزيادة تمام المائة ركعة، برقم (٢٥٣)، عن الإمام الصادق عليه السلام. وروى مثله أحمد في مسنده، ج٣٢، ص٦١، من حديث زيد بن أرقم عن النبي ﷺ؛ برقم ١٩٣٠٨.

٤ ـ لِما تقدم كله كان من أبرز سمات الأنبياء والأولياء أنهم (خاشعون). قال تعالى ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء/ ٩٠].

علامات الخشوع:

الخشوعُ ليس حالةَ تأثرٍ قلبيٍّ فحسب، وإنما له علاماتٌ ومظاهرُ، يرجع بعضُها إلى تعرُّف الإنسانِ نفسِهِ على (الخشوع) في ذاته، ويرجع بعضُها الآخرُ إلى تعرُّف الآخرين على الشخصِ الخاشعِ.

وإليك بعض هذه العلامات؛ طبقاً لما جاء في النصوص الشريفة:

١ ـ روي عن رسول الله ﷺ قوله ـ في حديثٍ طويلٍ ـ:... **أما علامة الخاشع فأربعة:**

مراقبة الله في السر والعلانية.

وركوب الجميل.

والتفكر ليوم القيامة.

والمناجاة لله)[١].

٢ ـ عن النبي ﷺ، في جواب السؤال عن الخشوع: **التواضعُ في الصلاة، وأن يُقبِل العبدُ بقلبِه كلِّهِ على ربِّهِ عزّ وجلّ)**[٢].

وفي هذين النصين أشير إلى علامات أربع:

الأولى: مراقبة الله في السر والعلن

وذلك لأنّ الخاشعَ حقّق في نفسه التذلُّلَ التامَّ لله تعالى؛ لعلمه بأن الله عز اسمه هو الشاهد والرقيب على ما نقول وما نفعل.

---

(١) الحراني، ابن شعبة (ق ٤ هـ)، تحف العقول، ضمن جواب من الرسول ﷺ عن أسئلة لراهب يعرف بشمعون بن لاوي بن يهودا؛ تحت عنوان (ومن حكمه صلى الله عليه وآله وكلامه).

(٢) الجعفريات، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١، ص٩٨، أبواب مقدمة العبادات، الباب ٨ ـ وجوب الإخلاص في العبادة والنية، الحديث ١.

قال تعالى ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس/ ٦١].

الثانية: ركوب الجميل

نعني بركوب الجميل: فعلَ المعروف والخير؛ بدون مقارفةٍ للإثم والفحشاء والمنكر.

وفلسفة ذلك: أن (الخاشع) تذللَ واستسلمَ لله أولاً؛ وهو يعلم أنّ الله جميلٌ لا يرضى إلا بالجميل، فهو يتقرَّب إليه تعالى بما يحبّ ويرضى؛ وليس المرضيُّ عنده إلا الجميل.

وقد ورد عن النبي ﷺ أن ركوب الجميل هذا يتشعب من الحلم، وهذا بدوره ينشعب من العقل(١). فالخشوع ـ إذاً ـ وإن كان صفةً قلبيةً، لكنه في جوهره مرتبةٌ من مراتب العقل(٢).

الثالثة: التفكر ليوم القيامة

ف(الخاشع) مشغولٌ ـ دائماً ـ بيوم القيامة؛ حيث يقف الناسُ ـ جميعاً ـ بين يدي الله تعالى ليحاسبهم على ما قدّموا؛ إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ.

ومثلُ هذا الأمر الجسيم جديرٌ بأن يشتغل به العاقلُ، فلا يهمله أو يقصّر فيه؛ إذا أراد أن يكون من أهل الصراط المستقيم.

وقد مرَّ علينا ـ في توطئة الكتاب ـ أن أبا ذر رَحِمَهُ اللهُ بكى من خشية الله عزّ

---

(١) انظر: تحف العقول، فصل حكمه ﷺ وكلامه وموعظته.

(٢) قسَّم بعض العلماء العقل إلى خمسة أنواع؛ وجعلها كما يلي:

الأول: غريزي. وهو في كلّ آدمي؛ مؤمن وكافر.

الثاني: كسبي؛ وهو الذي يكتسبه المرء من معاشرة العقلاء، ويحصل للكافر أيضاً.

الثالث: عطائي؛ وهو عقل المؤمن الذي اهتدى به للإيمان.

الرابع: عقل الزهاد، وذكر الفقهاء: لو أومئ لأعقل الناس صُرف للزهاد.

الخامس: شرفي؛ وهو عقل نبينا محمد صلى الله عليه [وآله] وسلم لأنه أشرف العقول) [حكاه الصالحي عن قائله ـ بدون أن يسميه ـ في سبيل الهدى والرشاد، ج٧، ص٥].

وجلّ؛ حتى اشتكى بصرَه، فقيل له: يا أبا ذرّ! لو دعوتَ الله أن يشفي بصرك، فقال: إني عنه لمشغول وما هو من أكبر همي، قالوا: وما يشغلك عنه؟

قال: العظيمتان: الجنة والنار(١).

الرابعة: المناجاة لله تعالى

الخاشع يعلم ـ أولاً ـ أن الخيرَ كلَّه من الله، وأنّ الشرَّ إنَّما يدفعه الله ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل/ ٥٣]، كما أنه يعلم ـ ثانياً ـ من نفسه الفقرَ والحاجةَ إلى الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر/ ١٥]، ويعلم ـ ثالثاً ـ أن الدعاءَ مطلوبٌ من العباد ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان/ ٧٧].

لكلّ ذلك، فهو صاحبُ مناجاةٍ دائمةٍ مع الله تعالى؛ باعتبارها ضرباً من ضروب الدعاء.

الخامسة: التواضع في الصلاة

لعلّ المراد من علامة التواضع في الصلاة هو استحضار البعد المعنوي فيها؛ وهو ما يعرف بأسرار الصلاة وفلسفتها؛ لأنّ هذا هو الذي يجعل المصليَ يقدِّر قيمةَ الصلاة ومعناها، والتي يمكن تلخيصها بالانسحاق بين يدي الله تعالى(٢).

وواضحٌ أنه لا معنى للتواضع بمفهومه الاجتماعي في الصلاة، وإلا أصبحت عملاً ريائياً؛ لا قيمة لها معنوياً، وباطلةً فقهياً.

السادسة: الإقبال على الله بالقلب كلّه

لَما كان المطلوبُ هو الارتباط الدائم والواعي بالله تعالى، فإن ما تقدَّم إنَّما

---

(١) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، الخصال، ص٤٠، باب الاثنين، الشغل بالعظيمتين، برقم ٢٥.

(٢) قال السيد المصطفوي:

ولا يبعد أن نقول بالتناسب بين الصلاة والصلي والصلو: فإنها مشتركة في العرض والتقريب، إلا أن الصلاة عرضٌ على مقامٍ عالٍ نورانيّ، فإنه ارتباطٌ مع الله تعالى وحضورٌ بين يديه عزّ وجلّ. والصلي عرضٌ على النار، والفارق هو حرف الياء الدال على التسفُّل. والصلو هو عرضُ محبةٍ ومودةٍ وإظهارُ تحيةٍ وثناءٍ لمقامٍ) [التحقيق في كلمات القرآن، مادة (صلى)].

هو محطات يُفترض أن تنتهي بصاحبها إلى هذه المحطة؛ التي هي الانقطاع إلى الله عزّ وجلّ.

وينبغي أن نلتفت إلى أنّ تعبير النبي ﷺ في وصيته هو دقيقٌ؛ فهو إقبالٌ بالقلب، وليس ترهباً كما وقع فيه أقوامٌ من المتعبدين.

ومن شأن المؤمن الكامل أن يكون مقبِلاً على الله في جميع أحواله. قال تعالى ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور/ ٣٧].

٣ ـ عن الإمام علي عليه السلام: **مَن خشع قلبُهُ خشعت جوارحُهُ**)[1].

الخشوع الصادق والمزيَّف

يجب التنبهُ والتنبيهُ إلى أن (الخشوع)؛ الذي يأخذ بالتمظهر على الجوارح ـ في ما نعرفه نحن بـ(الخضوع) ـ إنَّما يُمدَح إذا كان صادقاً. ولكن قد يبتلَى بعضُ الناس بضعفٍ نفسيٍّ وروحيٍّ يجعله يتصنَّع الخشوعَ؛ بافتعال الخضوع؛ فتتحول الفضيلةُ إلى رذيلةٍ.

وفي ذلك رُوي عن رسول الله ﷺ قولُه: **إيّاكم وتخشُّع النفاق، وهو: أن يُرى الجسدُ خاشعاً؛ والقلبُ ليس بخاشعٍ**)[2].

وكزيادةٍ في الإيضاح والتحذير يضع لنا مؤشراً يمكننا ـ من خلاله ـ التمييزُ بين الصدق والتصنُّع، بقوله ﷺ: **مَن زاد خشوعُ الجسد على ما في القلب فهو خشوعُ نفاقٍ**)[3].

---

(١) الواسطي، علي بن محمد الليثي (ق ٦)، عيون الحكم والمواعظ، ص٤٤٤، الباب ٢٤ ـ حرف الميم، الفصل ١ ـ الميم المفتوحة.

(٢) الحراني، ابن شعبة (ق ٤ هـ)، تحف العقول، ما روي عن النبي ﷺ، في قصارى كلماته ﷺ.

(٣) الجعفريات، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١، ص١٠٥ ـ ١٠٦، أبواب مقدمة العبادات، الباب ١١ ـ تحريم قصد الرياء والسمعة في العبادة، الحديث ٨.

خطورة سلب الخشوع:

سلبُ الخشوعِ آفةٌ خطيرةٌ، وتكمن الخطورة في دلالته على ضعف التقوى والارتباط بالله عزّ وجلّ. وذاك يعني: فقدان الدوافع النبيلة لفعل الخير والمعروف.

وإنّ أمةً تفتقد الخشوع لله تعالى لا يُرجى أن تكون مستقيمةً في فعلٍ ولا قولٍ.

ومَن كان هذا حاله من المجتمعات فلا ينبغي له أن يتوقّع الكثيرَ؛ لأنّ المجتمع يتحول معها إلى شكلٍ خالٍ من المضمون الصحيح لـ(المجتمعية)؛ التي من لوازمِها الأكيدةِ:

١ ـ الترابطُ

٢ ـ المحبةُ

٣ ـ النصيحةُ

٤ ـ الفاعليةُ.



الفصل السادس والعشرون

كيف نتعامل مع الدنيا؟

● [الفقرات/ ٥٤ ـ ٥٧]:

(يا أبا ذرّ! والذي نفس محمد بيده! لو أن الدنيا كانت تعدل عند الله جناحَ بعوضةٍ أو ذبابٍ، ما سقى الكافرَ منها شربةً من ماءٍ.

يا أبا ذرّ! إنّ الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها؛ إلا ما ابتغي به وجهَ الله. وما من شيءٍ أبغضُ إلى الله تعالى من الدنيا، خلقها ثم عرضها فلم ينظر إليها، ولا ينظر إليها حتى تقوم الساعة. وما من شيءٍ أحبُّ إلى الله من الإيمان به وترك ما أمر بتركه.

يا أبا ذرّ! إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى أخي عيسى ﷺ: يا عيسى! لا تحبَّ الدنيا؛ فإني لستُ أحبُّها، وأحِبَّ الآخرةَ؛ فإنما هي دار المعاد.

يا أبا ذرّ! إن جبرئيلَ ﷺ أتاني بخزائن الدنيا على بغلةٍ شهباءَ فقال لي: يا محمد! هذه خزائنُ الدنيا ولا تنقصك من حظّك عند ربّك.

فقلت: حبيبي جبرئيل! لا حاجةَ لي بها، إذا شبعتُ شكرتُ ربي، وإذا جعتُ سألتُهُ).

***

في هذا المقطع من الوصية الشريفة يقف الرسول ﷺ بنا أمام قضيةٍ شائكةٍ في نظر الغالبية العظمى من الناس، لكنها سهلةٌ في منتهى السهولة عند مَن آتاه الله الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة/ ٢٦٩].

الإنسان بين منطقين:

في الواقع الذي نعيش فيه ثمة رؤيتان متعاكستان؛ تنطلقان من منطقين متضادَّين:

المنطق الأول: يرى في الدنيا الفرصةَ الأهمّ؛ إن لم تكن الوحيدة.

لذلك، يجب الحرصُ على انتهازها واستثمارها من كلِّ زاويةٍ، وبكلِّ طريقةٍ؛ فالفرصُ تمر مرَّ السحاب.

ولهذا المنطق مسوِّغاتُه بطبيعة الحال، وقد يكون أساس هذا المنطق نابعاً من:

أ ـ الرؤية الفكرية للدنيا، وما قبلها، وما بعدها.

ب ـ الحاجة الإنسانية (مادياً ومعنوياً)؛ التي تفرض على الإنسان أن يستجيب لمتطلّباتها.

المنطق الثاني: يرى في الدنيا محطةً متواضعةً؛ من حيث الزمن، ومن حيث القيمة، وتتلخّص في أنها ليست سوى متاع قليل[1]؛ لا ينبغي إيلاؤه من الأهمية ما لا يستحق أو فوق ما يستحقّ.

وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: **يا موسى! إنّ عباديَ الصالحين زهدوا في الدنيا بقدر علمهم، وسائر الخلق رغبوا فيها بقدر جهلهم)**[2]. أي: أنّ زهد الأولين يقوم على أساس علمهم الراسخ بالله تعالى وبما دونه؛ بما في ذلك أنفسهم والدنيا، وأنّ غير الزاهدين إنَّما أغراهم بذلك جهلهم الفاحش بالله وبما دونه؛ بما فيه أنفسهم والدنيا.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٧، والنحل الآية ١١٧.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٣١٧، كتاب الإيمان والكفر، باب حب الدنيا والحرص عليها، الحديث ٨.

وبطبيعة الحال، فإنّ الحقّ والصواب مع المنطق الثاني، ولكن الناس من حيث السلوك والرؤية هم ـ في غالبيتهم ـ مع المنطق الأول.

لذلك، حرص الأنبياء عليهم السلام ـ بأمرٍ من الله تعالى ـ أن يشددوا على (حقارة الدنيا)؛ لأنهم منذِرون إلى جانب كونهم مبشِّرين.

ولا بأس بنقل معالجةٍ للمرجع الشهيد السيد محمد باقر الصدر (رضوان الله عليه) في حلٍّ ما يمكن أن يبدو تناقضاً بين النصوص التي تحض على كسب المال والثروة؛ وهو استثمار للدنيا، من جهةٍ، والنصوص التي تحثّ على الزهد في الدنيا من جهة أخرى. وقد استقى رحمه الله معالجته هذه من نصوصٍ رُوِيت عن أهل البيت عليهم السلام؛ كما سيتضح من بعضها. قال (رضوان الله عليه):

ففيما يتصل بالنظر إلى الثروة كهدف أصيل يمكننا أن نحدد نظرة الإسلام إلى الثروة في ضوء النصوص التي عالجت هذه الناحية وحاولت أن تشرح المفهوم الإسلامي للثروة.

وهذه النصوص يمكن تصنيفها إلى فئتين. وقد يجد الدارس لأول وهلة تناقضاً بينهما في معطياتهما الفكرية عن الثروة وأهدافها ودورها، ولكنّ عملية التركيب بين تلك المعطيات تحل التناقض، وتبلور المفهوم الكامل للإسلام عن تنمية الثروة بكلا حدَّيه.

ففي إحدى الفئتين تندرج النصوص التالية:

(أ) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **نِعْمَ العونُ على تقوى الله الغنى**)[1].

(ب) وعن الإمام الصادق عليه السلام: **إنّ نعم العون على الآخرة الدنيا**)[2].

(ج) وعن الإمام الباقر عليه السلام: **إنّ نعم العون الدنيا على طلب الآخرة**)[3].

---

(١) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٧، ص٢٩، كتاب التجارة، أبواب مقدماتها، الباب ٦ ـ استحباب الاستعانة بالدنيا على الآخرة، الحديث ١.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٣.

(٣) المصدر السابق، ، ص٣٠، الحديث ٤.

(د) وعن الرسول ﷺ: **اللهم بارك لنا في الخبز، ولا تفرق بيننا وبينه، ولو لا الخبز ما صلينا، ولا صمنا ولا أدينا فرائض ربنا)**[١].

(هـ) وعن الصادق عليه السلام: **لا خير في مَن لا يحب جمعَ المال من حلالٍ، يكف به وجهَه، ويقضي به دينَه، ويصل به رحِمَه)**[٢].

ـ (و) وقال رجل للصادق عليه السلام: **والله إنا لنطلب الدنيا ونحبّ أن نؤتاها. فقال له: تحب أن تصنع بها ماذا؟ فقال أعود بها على نفسي وعيالي وأصل بها وأتصدق بها وأحجّ واعتمر. فقال له الإمام: ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة)**[٣].

(ز) وفي الحديث: **ليس منا من ترك دنياه لآخرته، أو آخرته لدنياه)**[٤].

وتضم الفئة الثانية النصوص الآتية:

أ ـ عن الرسول ﷺ: **من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته)**[٥].

ب ـ وعن الصادق عليه السلام: **رأسُ كلّ خطيئة حبُّ الدنيا)**[٦].

جـ ـ وعن الصادق عليه السلام أيضاً: **أبعد ما يكون العبد من الله إذا لم يهمَّه إلا بطنه وفرجه)**[٧].

---

(١) المصدر السابق، الحديث ٦.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، فروع الكافي، ج٥، ص٧٢، كتاب المعيشة، باب الاستعانة بالدنيا على الآخرة، الحديث ٥.

(٣) الحر العاملي، محمد بن الحسن (ت١٠٨٢ هـ)، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٧، ص٢٩، كتاب التجارة، أبواب مقدماتها، الباب ٧ ـ استحباب جمع المال من حلال لأجل النفقة، الحديث ٣.

(٤) المصدر السابق، الباب ٢٨ ـ عدم جواز ترك الدنيا التي لا بد منها للآخرة وبالعكس، الحديث ١.

(٥) المصدر السابق، ج١٦، ص٩، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٦١ ـ تحريم حب الدنيا المحرمة ووجوب بغضها، الحديث ٥.

(٦) المصدر السابق، الحديث ٤.

(٧) المصدر السابق، ج١٦، ص٢٠، الباب ٦٤ ـ كراهة الحرص على الدنيا، الحديث ٢.

د ـ وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام : **إن من أعون الأخلاق على الدين الزهدَ في الدنيا)**[١].

ومن اليسير لكلّ أحد أن يلاحظ التفاوت بين الفئتين، فالدنيا والثروة والغنى نعمَ العون على الآخرة في الفئة الأولى، بينما هي رأس كلّ خطيئة في الفئة الثانية.

ولكنّ هذا التناقض يمكن حلُّه بعملية تركيب، فالثروة وتنميتها نعم العون على الآخرة وهي رأس كلّ خطيئة لأنها ذات حدين. وإطارها النفسي هو الذي يبرز هذا الحد أو ذاك. فالثروة في رأس الإسلام وتنميتها هدف من الأهداف المهمة ولكنه هدف طريق لا هدف غاية فليس الثروة وإنما هي وسيلة يؤدي بها الإنسان الإسلامي دور الخلافة، ويستخدمها في سبيل تنمية جميع الطاقات الإسلامية دور الخلافة، ويستخدمها في مجالاتها المعنوية والمادية، فتنمية الثروة والإنتاج لتحقيق الهدف الأساسي من خلافة الإنسان في الأرض هي نعم العون على الآخرة، ولا خير فيمن لا يسعى إليها، وليس من المسلمين بوصفهم حملة رسالة في الحياة من تركها وأهملها. وأما تنمية الثروة والإنتاج لأجل الثروة بذاتها، وبوصفها المجال الأساسي الذي يمارس الإنسان في حياته ويغرق فيه، فهي رأس كلّ خطيئة، وهي التي تبعد الإنسان عن ربه، ويجب الزهد فيها. فالإسلام يريد من الإنسان الإسلامي أن ينمّي الثروة ليسيطر عليها، وينتفع بها في تنمية وجوده ككلّ، لا لتسيطر عليه الثروةُ، وتستلم منه زمام القيادة، وتمحو من أمامه الأهدافَ الكبرى.

فالثروة وأساليب تنميتها التي تحجب الإنسان الإسلامي عن ربه، وتنسيه أشواقه الروحية، وتعطّل رسالته الكبرى في إقامة العدل على هذا الكوكب، وتشدّه إلى الأرض لا يقرّها الإسلام. والثروة وأساليب التنمية التي تؤكد صلة الإنسان الإسلامي بربه المنعم عليه، وتهيِّئ له عبادته في يسر ورخاء، وتفسح المجال أمام كلّ مواهبه وطاقته للنمو والتكامل، وتساعد على تحقيق مثله في

---

(١) المصدر السابق، ج١٦، ص١٢، الباب ٦٢ ـ استحباب الزهد في الدنيا وحد الزهد، الحديث ٤.

العدالة والأخوة والكرامة هي الهدف الذي يضعه الإسلام أمام الإنسان الإسلامي، ويدفعه نحوه)[١].

التعامل مع الدنيا:

في سياق هذه الرؤية الفكرية للدنيا، ونهج التعامل معها عملياً، يأتي هذا المقطع من الوصية؛ الذي تناول فيه المربي الأعظم رسول الله ﷺ معالجة ذلك في محطات:

المحطة الأولى: قيمة الدنيا

في هذه المحطة نبَّه رسولُ الله ﷺ تلميذه وصاحبه أبا ذر (رضوان الله عليه) إلى أن الدنيا ليست ذات قيمةٍ في ذاتها، بل ترقّى في ذلك إلى الحكم عليها بثلاثة أحكام:

الحكم الأول: أنها لا تعدل جناح بعوضة أو ذبابة

وذلك في قول النبي ﷺ:

(يا أبا ذرّ! والذي نفس محمد بيده لو أنّ الدنيا كانت تعدل عند الله جناحَ بعوضة، أو ذبابة، ما سقى الكافرَ منها شربةً من ماء)[٢].

فهي ـ إذاً ـ عديمةُ القيمة؛ حتى إنها لا تعدل في قيمتها جناح بعوضة أو ذبابة، وهو تعبير عن حقارة الدنيا في ذاتها وهوانها عند الله؛ لأنّ أحداً من الناس لا يلتفت إلى البعوضة أو الذبابة؛ فضلاً عن جناحها. والدنيا؛ وفقاً للنص، لا تعدل في قيمتها عند الله تعالى هذا المقدار التافه.

ويجب أن تكون الدنيا كذلك؛ لأنّ كلَّ ما هو مخلوق؛ والدنيا كذلك، لا قيمةَ ذاتيةً له، بل إنه يحظى بقيمةٍ بمقدار ما يكون قريباً من الله ومقرِّباً إليه.

---

(١) الصدر، السيد محمد باقر، اقتصادنا، ص٦٣٥ ـ ٦٣٨.

(٢) روى مثله؛ باختلاف يسير الترمذي في سننه، باب ما جاء في هوان الدنيا عند الله.

والذي يقرِّب إلى الله تعالى ليس سوى الإيمان والعمل الصالح ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر/ ١٠].

ولو كان لها شيءٌ من القيمة لَما أتاح الله لمن يتحداه من خلقه أن يستمتعوا بها؛ لأنّ أسبابَ حرمانِهم متوفرةٌ، وموانعَ ذلك مفقودةٌ. فالسرُّ في تركهم يصولون ويجولون فيها هو حقارتُها في نفسِها من ناحيةٍ، وامتحانهم من ناحيةٍ ثانيةٍ.

الدنيا المذمومة:

يجب الالتفات إلى أن الحديث عن الدنيا هنا ليس المقصود به السماءَ والأرضَ ونحو ذلك، وإنما يراد بها ما يكون مادةً للصراع والتطاحن، وذاك إنَّما يحصل في الاعتبارات والمفاهيم والأطر الاجتماعية التي يصنعها الناس ويتبانون عليها؛ من قبيل: (الملكية)، و(الرئاسة)...

ولتقريب المسألة نوضحها كالتالي:

إننا لا نعرف أستراليين يتصارعان على منزل في مكة المكرمة، ولم نسمع أن إيطاليين يتصارعان على كرسي الرئاسة في اليمن...؛ لأنّ شيئاً من هذا وذاك ليس في متناول يد الأستراليين أو الإيطاليين، وبالنسبة لهما معاً فإن المنزل والكرسي لا قيمةَ له، إلا أن يكون متاحاً لهما، أو في حيازتهما، ويرجوان من ورائه نفعاً.

ولعلك تسأل، وتقول:

كيف نوفق بين النصوص الشرعية؛ التي نرى فيها ذماً، وفي بعضها الآخر مدحاً؟

الجواب: لقد قدمنا ـ في فصلٍ سابقٍ ـ معالجةً لهذا التنافي.

ونضيف ـ الآن ـ معالجةً أخرى، تُعزّز ما أوردناه سابقاً، وهي من الناحية التاريخية أسبقُ من تلك.

وهذه المعالجة ذكرها الفقيه البحراني (ت١١٨٦هـ) بقوله:

والقول الفصل في الجمع بين هذه الأخبار: أنه ينبغي أن يُعلَم أن الدنيا عبارةٌ عن وجود هذه النشأة، وهذا العالم، وما فيه؛ من الأموال والأسباب والملاذّ

ونحوها، وأضدادها، والتمتع بذلك. ولكنَّ كلاًّ من الذمّ الوارد في الدنيا والمدح الوارد فيها لا يجوز توجُّهه إليها على الإطلاق، بل لا بدَّ من تخصيص كلٍّ بجهةٍ، وهو أن يُخصّ المدحُ بما جرى فيها على الوجه المأمور به شرعاً، والذمُّ على الوجه المنهي عنه شرعاً.

وذلك، لأنه لما كان الغرضُ من الوجود في هذه النشأة إنَّما هو التمتُّع بالأعمال الصالحة، والتحصيل للتجارة الرابحة، والتزود للدار الآخرة؛ لنيل ما فيها من المطالب الفاخرة؛ فكلّ ما كان له مدخل في ذلك وسبب في ما هنالك؛ فهو ليس من الأمور الدنيوية، بل هو من الأمور الأخروية؛ وإن أضيف إلى الدنيا باعتبار وقوعه فيها.

وكلُّ ما ترتّب على صرف العمر في هذه النشأة في الأمور الباطلة الموجِبة للبعد من الله عزَّ وجلَّ فهو من الدنيا المذمومة)[1].

الحكم الثاني: الدنيا ملعونة إلا أن تكون للهِ تعالى

في الفقرة الثانية يضيف النبيُّ ﷺ حكماً آخر؛ وهو أن الدنيا (ملعونةٌ).

واللعن ـ كما نعرف ـ هو: الطرد من رحمة الله.

وباعتبار أن الدنيا؛ بأرضها وسمائها...، ليست عاصيةً لله؛ فلا معنى لحمل اللعن على الطرد من رحمته سبحانه في حقها. لذلك، فإن اللعن ـ هنا ـ كنايةٌ عن شدة نبذِها؛ إذا كانت سبباً لاستحقاق اللعن.

فهي عندئذٍ تجمع عنصر (الحقارة الذاتية)؛ كما في الحكم الأول، وعنصر (التسبيب) في اللعن. لذلك، فهي مرفوضة أشد الرفض.

وفي ذلك قال النبي ﷺ:

(يا أبا ذرّ! الدنيا ملعونة ملعون ما فيها).

---

(١) البحراني، الشيخ يوسف (ت١١٨٦ هـ)، الدرر النجفية من الملتقطات اليوسفية، ج٤، ص١٠٥ ـ ١٠٦، في الجمع بين أخبار ذم الدنيا ومدحها.

لكنه ﷺ سرعان ما يستدرك ذلك بتبيين مقصوده، فيستثني من الدنيا ما كان مقصوداً لوجه الله تعالى. فقال ﷺ:

(إلا من ابتغى به وجه الله).

فمثلاً: إذا سعى الشخص إلى جني المال وتجميعه يكون من طلاب الدنيا. فإذا وقف عند هذا الحدّ فقد ضيّع جهوده، وأتلف عمره، في تحصيل ما لا قيمةَ له عند الله؛ ولو بمقدارِ جناحِ بعوضةٍ أو ذبابةٍ. أما إذا سعى في ذلك لأغراضٍ مشروعةٍ ونبيلةٍ؛ يدفعه إلى ذلك التقربُ إلى الله تعالى، فسيكون جهدُهُ وكدُّهُ عبادةً وجهاداً.

الحكم الثالث: حقارة الدنيا ومبغوضيتها

في آخر أحكام المقطع نصل إلى ما يمكن عدُّه نتيجةً منطقيةً للتحليل السابق.

ومفاده: أن (الدنيا) بلغت حداً من التفاهة والدونية؛ صارت معه (أبغض مخلوق) إلى الله تعالى، وأنها إنَّما خُلِقت من أجل تكميل أدوات الابتلاء والامتحان.

لذلك، فإنه خلقها ثم أتاحها للناس، وبيَّن لهم قيمتَها ودورَها ووظيفتَها، وبيَّن أنها لا تستحقّ أن يُتعامل معها بما لا تستحق؛ فقال ﷺ:

(وما من شيءٍ أبغض إلى الله تعالى من الدنيا، خلقها، ثم عرضها، فلم ينظر إليها ولا ينظر إليها حتى تقوم الساعة).

علاج حب الدنيا:

إنّ من الحكمة أن لا نشخِّص الداءَ بدون أن نتبعه بتشخيص الدواء، أو نسمي ما لا نريد ولا نشفعه بتسمية ما نريد. وعملاً بهذا المبدأ بادر الرسول ﷺ إلى وضع النقاط على الحروف في ما يتعلق بالبديل الصحيح لـ(الدنيا)؛ أعني (الإيمان). وذلك في قوله ﷺ:

(وما من شيء أحبّ إلى الله تعالى من: الإيمانِ به، وتركِ ما أمر بتركه).

والإيمان الذي هو (الإذعان والتصديق بشيء بالالتزام بلوازمه)[١]، أو (عقد القلب على الدين؛ بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح)[٢]، (هو الذي يصعد بالعبد إلى مقام القرب)[٣]. ومن لوازمه الإذعانُ للحقِّ على مستويين:

أولاً ـ المعرفة، بالتصديق بما عُرِف أنه (حقّ)، والإنكار لما عرْف أنه (باطل). وفي الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام: ... **إنّ أدنى ما يخرج الرجل من الإيمان أن يقول للحصاة: هذه نواة، ثم يدين بذلك، ويبرأ ممن خالفه...**)[٤].

ثانياً ـ العمل؛ بتطبيق مقتضيات هذه المعرفة؛ فعلاً وتركاً؛ وجوباً في الواجب، واستحباباً في المستحب، وخلافهما في الحرام والمكروه.

وبطبيعة الحال، فإن (الحق) الأكبر؛ والذي يُعدّ أصلاً لكلِّ حقٍّ، هو (الله)؛ الذي هو الحق المطلق.

لذلك، فإن الإيمانَ به هو النقطة الأولى للسير في درب الحق والحقيقة؛ وهو درب الصراط المستقيم.

فإذا شفعنا إيماننا بالله تعالى بالعمل؛ وفقاً لما أمر به وما نهى عنه؛ فسيكون هذا الإيمانُ قد تجاوز مرحلةَ الشعار إلى مرحلة المضمون، وصدق الفعلُ القولَ.

وذلك أن (الإيمان ـ إذا كمل ـ تواطأ الظاهرُ والباطنُ، وتوافق القلبُ واللسانُ؛ فلا يقول الإنسان إلا ما يفعل، ولا يفعل إلا ما يقول؛ فيكون ما يرجوه، أو يتمناه، أو يسأله بلسانه هو الذي يريده كذلك بعمله)[٥].

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١٥، ص٦، ذيل الآية الكريمة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون/ ١].

(٢) المصدر السابق، ج١٦، ص٣١٤، ذيل الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب/ ٣٥].

(٣) المصدر السابق، ج١٠، ص١٦، ذيل الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس/ ٩].

(٤) عيون أخبار الرضا، وعنه: بحار الأنوار، ج٢، ص١١٥، كتاب العلم، باب ١٦ النهي عن القول بغير علم، والإفتاء بالرأي، وبيان شرائطه، الحديث ١١.

(٥) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١٩، ص٣٤٤، ذيل الآية الكريمة ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم/ ١١].

ولعلك تسأل، وتقول:

لِماذا اقتصر الرسول ﷺ على ذكر (**ترك ما أمر بتركه**)؛ الذي يعني: تجنُّب المحرّمات، ولم يذكر أداء الواجبات؟

والجواب: أنّ السرَّ وراء ذلك ـ والله العالم ـ قد يكون بسبب أنّ وقوع الناس في معصية الله بفعل المحظور، أكثرُ من معصيتهم إياه بترك الواجب. ولعلّ ذلك هو السبب ـ أيضاً ـ في التركيز في النصوص الدينية على (الإنذار/ الترهيب) أكثرَ من (التبشير/ الترغيب)(١).

ثم يواصل النبيُّ ﷺ عظتَه بذكر بعض النماذج البشرية السامية التي خاطبها الله تعالى بهذا المضمون؛ إشارةً إلى أنها استجابت للعظة. وهذا النموذج هو أحد أنبياء أولي العزم؛ الذي وصفه رسول الله ﷺ بقوله (**أخي**)؛ فقال:

(يا أبا ذرّ! إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى أخي عيسى عليه السلام: يا عيسى! لا تحبَّ الدنيا؛ فإني لستُ أحبُّها، وأحِبَّ الآخرةَ؛ فإنما هي دار المعاد) [الفقرة/ ٥٦].

ولم يقتصر الحقُّ سبحانه ـ في هذه العظة لنبيه عيسى عليه السلام ـ على التأكيد أنه لا يحب الدنيا؛ ويجدر بنا أن لا نحب ما لا يحبه اللهُ، وهذا يكفي كمسوِّغٍ لعدم المحبة؛ لأنّ عدمَ محبته سبحانه لشيءٍ يدلّ على بطلانه، وفي الحد الأدنى على هوانه، لم يقتصر على ذلك بل أضاف إليه الكشفَ عن سببِ تفضيلِ الآخرة على الدنيا؛ ببيان أن (**الآخرة**) هي المستقرّ النهائي للإنسان (**دار المعاد**). وهذا يعني:

---

(١) قال العلامة الطباطبائي:

وهو [الإنذار] العمدة في نجاح الدعوة؛ إذ لولا الحساب والجزاء يوم القيامة كان الإيمان بالوحدانية والنبوة لُغى لا أثر له) [الميزان في تفسير القرآن، ج١٨، ص٣٦٤، أوائل تفسير سورة الذاريات].

وقال ـ أيضاً ـ:

وجعلُ الإنذار غايةً لنزول القرآن الكريم أخذٌ بمسلك الخوف في الدعوة النبوية، وهو الأوقع في أفهام عامة الناس) [المصدر السابق، ج٧، ص٣٩، ذيل قوله تعالى ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ من سورة الأنعام].

أن الدنيا ليست سوى محطةٍ آنيةٍ، ومجردَ ممرٍّ، لا تستحق ـ من ثَمَّ ـ أن تكون هدفاً على حساب الآخرة؛ التي هي المحطة النهائية وال(مقر).

وحرصاً من النبيّ ﷺ على إيضاحِ المبدأِ، والإقناعِ به، يضيف إلى النموذجِ السابقِ نموذجاً آخرَ هو نفسُهُ الشريفةُ؛ وهو الأسوةُ لكلِّ مؤمنٍ ومسلمٍ، فكشف ـ خلالَ ذلك ـ ما عاينه بنفسِهِ ﷺ؛ مبيِّناً موقفَه الذي اتخذه في سياق مسيرته التوحيدية نحو السعادة المطلقة، فقال ﷺ:

(يا أبا ذرّ! إنّ جبرائيلَ أتاني بخزائن الدنيا على بغلةٍ شهباءَ، فقال لي: يا محمدُ! هذه خزائنُ الدنيا، ولا ينقصُك من حظّك عند ربك.

فقلتُ: يا حبيبي جبرائيل! لا حاجةَ لي فيها، إذا شبعتُ شكرتُ ربي، وإذا جعتُ سألته) [الفقرة/ ٥٧].

ولعلّك تسأل، وتقول:

لماذا رفض الرسولُ ﷺ خزائنَ الدنيا؛ التي عرضها عليه جبرئيل عليه السلام، مع النص على أن حظه عند ربه لن ينقص إن هو قبِل العرضَ؟!

والجواب:

أن ذلك قد يكون ـ على الأقل ـ لواحدٍ من أسبابٍ ثلاثةٍ:

أولها: أن الرفضَ كان من أجل الإمعان في احتقار الدنيا في ذاتها، ومن ثَمَّ هوانها عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ.

ثانيها: بيان هذه الحقارة، وذاك الهوان؛ لمن أراد أن يتأسّى ويقتدي بالنبي ﷺ.

ثالثها؛ وهو الأهم: أنه قد يكون لاستشعار الفقر التامّ إلى الله تعالى؛ فإنّ المعدِم يستشعر الحاجةَ والفقرَ أكثرَ ممّا يستشعره الواجدُ؛ قليلاً أو كثيراً.



الفصل السابع والعشرون

الفقه في الدين والزهد في الدنيا

مقدّمات منهجية:

١ ـ ليس فينا مَن لا ينشد الخيرَ والسعادةَ لنفسه ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات/ ٨]؛ سواء في ذلك الخير المادي أو المعنوي. كما أن أياً منا لا يخفى عليه أن مصدرَ الخير ليس ذاتَه؛ لأنه على يقينٍ من فقرِهِ الذاتيِّ.

٢ ـ يدركُ الإنسانُ ـ بوجدانه ـ أن للخيرِ سبلاً وطرقاً؛ يتيسر له التعرفُ على بعضها بنفسه، ويتعذر عليه ذلك في بعضِها الآخر؛ لِما قدمناه[1] من أن العالَم:

أ ـ فيه (مُلك)؛ هو عالَم الشهادة.

ب ـ فيه (ملكوت)؛ هو عالَم الغيب؛ على اختلاف مراتبه.

مع التنبيه إلى أن عالَم الشهادة نفسه: فيه ما هو محسوسٌ، وما هو غيرُ محسوسٍ.

٣ ـ أن الإنسان يدرك أن ثمة أسباباً للخير تسهِّل الوصولَ إليه، وثمة موانعَ تحُول دون بلوغِهِ.

٤ ـ لا يشك الإنسانُ ـ أيضاً ـ أن حرمانَه؛ من التعرف على الخير وحيازته، قد يكون بسببِ ذاته، ويكون بسببٍ خارجٍ منه.

***

---

(١) في المبحث الرابع؛ من الفصل الثاني، من الباب الثاني؛ من هذا الكتاب.

بعد هذه المقدمات الأربع، يسهل علينا أن نقف على ما يرمي إليه الرسولُ ﷺ في هذا المقطع؛ حيث يقول:

● [الفقرة/ ٥٨]:

(يا أبا ذرّ! إذا أراد الله عزّ وجلّ بعبدٍ خيراً فقَّهه في الدين، وزهَّده في الدنيا، وبصَّره بعيوبِ نفسِهِ).

المبحث الأول: أسباب الخير

النبيُّ ﷺ يؤكِّد ـ في هذه الفقرة ـ أن الله سبحانه؛ الذي هو مصدر الخير ف﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل/ ٥٣]، إذا تعلقت إرادتُهُ بأن ينال العبدُ؛ أيَّ عبدٍ، شيئاً من الخير، هيأ له ثلاثةَ أسبابٍ ووسائلَ جوهريةً؛ لا يخفى على أحدٍ له أدنى اطلاعٍ أهميتُها.

وهذه الأسباب ـ كما جاء في هذه الفقرة ـ هي:

السبب الأول: الفقه في الدين

الفقه في الدين ـ بمعناه الدقيق ـ ليس مقصوراً على نوعٍ من الأحكام الشرعية[1]، بل هو: مجموع المعارف عن: الله، والكون، والحياة الدنيوية والأخروية. وما يتفرع عن ذلك من: قناعات، ودوافع، وسلوكيات.

قال العلامة الطباطبائي: المراد بالتفقه تفهم جميع المعارف الدينية من أصول

---

(١) قال السيد المروِّج:

... فللتفقه في الدين معنى أوسع من معرفة الحلال والحرام، وقد أطلق في الأخبار (الفقه الأكبر) على طور آخر من المباحث، فالفقه بمعنى (العلم بالأحكام) شيءٌ من التفقه في الدين وليس بتمامه؛ لأنّ المعارف المتعلقة بالمبدأ والمعاد والسنن والأخلاق وغيرها كلها من الدين، وقد أمر سبحانه وتعالى بالتفقه بهذا المعنى الواسع) [منتهى الدراية، السيد محمد جعفر الشوشتري، ج٨، ص٥١٤ (الهامش)].

وفروع، لا خصوص الأحكام العملية؛ وهو الفقه المصطلح عليه عند المتشرعة)[١].

وعلى أساس هذا التحديد سينتظم في المعارف الدينية ثلاثة أشكال من المعارف:

الشكل الأول: الرؤية الكونية. وهي ما يُتعارف على تسميتها بـ(العقائد).

الشكل الثاني: الصياغات القانونية المنظِّمة لسلوك الإنسان؛ تجاه نفسه وخالقه والمخلوقات. وهي ما نصطلح عليه بـ(الأحكام الفقهية).

الشكل الثالث: مجموعة المشاعر التي يتأسس عليها سلسلة من الأفعال؛ تجاه الآخر، ونترجمها بـ(الحب) تارة، وبـ(البغض) أخرى. وهي ما نصطلح عليه بـ(الأخلاقيات).

وبطبيعة الحال، فإن (الدين) ـ بهذا المعنى الواسع ـ هو النعمة الكبرى؛ التي لا يستغني عنها الإنسانُ السائرُ في طريق التكامل على الصراط المستقيم. وهو؛ أعني الدين، يستوعب الوجودَ بجميع مفرداته.

والتفقه هو: التعمق المعرفي بالشيء.

لذلك، فإن المتديِّن كلَّما كان أوسعَ اطلاعاً، وأكثرَ التزاماً وانضباطاً بمضامينه، كان أقربَ إلى التكامل؛ لينتهي به الحالُ إلى الخيرِ.

وعليه، فالفقيه في الدين هو (صاحب البصيرة)[٢]. والتفقه في الدين هو تحصيل هذه البصيرة (في المسائل الدينية؛ علميةً كانت أو عمليةً، باطنيةً أو ظاهريةً، متعلقةً بالعبادات أو المعاملات، فرضاً معرفتُها أو العمل بها، أو سنةً وأدباً)[٣].

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٩، ص٤٠٤، ذيل قوله تعالى ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة/ ١٢٢].

(٢) الطريحي، فخر الدين (ت١٠٨٩ هـ) مجمع البحرين، مادة (فقه).

(٣) الفيض الكاشاني، محسن (ت١٠٩١ هـ)، الحق المبين في تحقيق كيفية التفقه في الدين، ص٢. =

= لا بأس بالاطلاع على ما قاله بعض العلماء الأعلام في هذا الصدد:

١ ـ قال المحدث البحراني؛ في الحدائق الناضرة، ج١٨، ص١٤ ـ ١٥:

العلم منه ما هو واجبٌ وما هو مستحبٌ. والأول منه ما هو واجبٌ عيناً ومنه ما هو واجبٌ كفايةً.

فأما الواجب عيناً فهو: العلم بالله سبحانه وصفاته وما يجوز عليه ويمتنع؛ حسبما ورد في الكتاب العزيز والسنة النبوية على الصادع بها وآله أشرف صلاة وتحية، وما جاء به النبي ﷺ؛ من أحوال المبدأ والمعاد ممَّا علم تواتره من دينه ﷺ؛ ولو تقليداً تسكن إليه النفس، ويطمئن به القلب، وما يحصل به الإذعان والتصديق؛ وفاقاً لجمعٍ من متأخري أصحابنا (رضوان الله عليهم).

وما زاد على ذلك؛ من الأدلة التي قررها المتكلمون، والخوض في دقايق علم الكلام، فهو فرضُ كفايةٍ على المشهور؛ صيانةً للدين عن شُبَه المعاندين والملحدين.

ومن الواجب العيني أيضاً: تحصيلُ العلم بواجباتِ الصلاة حيث يكلف بها؛ ولو تقليداً، وواجباتِ الصيام كذلك، والزكاةِ ممن يخاطب بها، والحجِّ كذلك أيضاً، وهكذا من كلّ ما يجب على المكلف بوجود أسبابه. وما زاد من تحصيل العلوم في هذه الحال على ما ذكرناه فهو مستحبٌّ.

ومن الواجب العيني أيضاً: ما يحصل به تطهر القلب من الملكات الردية المهلكة؛ كالرياء والحسد والعجب والكبر ونحوها؛ كما حقِّق في محلٍّ مفردٍ. وهو من أجلِّ العلوم قدراً، وأعلاها ذكراً، بل هو الأصل الأصيل للعلوم الرسمية، وإن كان الآن قد اندرست معالمه بالكلية، وانطمست مراسمه العلية، فلا يُرى له أثرٌ، ولا يُسمع له خبرٌ!

وأما الواجب كفايةً فهو: ما فوق هذه المرتبة؛ في ما تقدم ذكره؛ حتى يبلغ درجة العلم بالأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية؛ وهو المعبر عنه ـ في ألسنة الفقهاء ـ بالاجتهاد. هذا إذا لم يوجد من يتصف به ويقوم به في ذلك القطر، وإلا كان ذلك مستحباً؛ لأنّ الواجب الكفائي مع وجود مَن يقوم به يسقط وجوبه عن الباقين؛ فيكون مستحباً، ويكون هذا من القسم الثاني في التقسيم الأول.

وما يتوقف عليه الوصول إلى مرتبة الاجتهاد من العلوم الآتية وغيرها تابع له في الوجوب والاستحباب) انتهى.

٢ ـ قال المولى محمد صالح المازندراني؛ في شرح أصول الكافي، ج٢، ص٣٠:

(التفقه في الدين) أي: العلمُ بما نطق به لسان الشرع والاعتقاد بما يقصد منه الاعتقاد، والعملُ بما يقصد منه العمل مع الاتصاف بالخوف والخشية كما قال سبحانه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، حيث جعل العلم موجِباً لهما لتعلق الحكم على الوصف، فلو خلا العلم منهما لكان الجهل خيراً منه) انتهى.

٣ ـ قال الإمام الخميني (ت١٤٠٩ هـ)؛ في تهذيب الأصول، ج٣، ص١٧٨:

: تخصيص التفقه في الدين، بالفروع [هو] تخصيصٌ بلا جهةٍ؛ لأنّ الدين يطلق على أصوله وفروعه؛ كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران/ ١٩]. ويظهر أيضاً من الروايات عموميته) انتهى.

وقال المرجع الشيخ الوحيد الخراساني (معاصر)؛ كما في كتاب الحق المبين في معرفة المعصومين عليهم السلام، للشيخ علي الكوراني العاملي، ص٢٤٩ ـ ٢٥٠: =

والتفقه ـ بهذا المعنى الواسع، والشامل ـ هو مهمةٌ مقدسةٌ تمثل عبادةً من أفضل العبادات. وبهذا جاءت النصوص الشرعية[1].

معطيات التفقه في الدين

التفقه في الدين له سلسلةٌ من المعطيات المطلوبة والآثار الإيجابية المنشودة، ولن يفرِّط فيها، ولا في أسبابها، عاقلٌ رشيدٌ.

ولنذكر من هذه المعطيات:

١ ـ الرشد

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **إذا أراد الله بعبدٍ خيراً فقَّهه في الدين، وألهمه رشده)**[2].

٢ ـ اليقين

روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: **إذا أراد الله بعبدٍ خيراً فقَّهه في الدين، وألهَمَه اليقينَ)**[3].

٣ ـ حسن التعامل الاجتماعي بين الكبار والصغار

روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: **ليتأسَّ صغيرُكُم بكبيرِكِم، وليرأف كبيرُكُم**

= والفقه المعروف بالأقسام الأربعة: الإيقاعات، والعقود، والأحكام، والعبادات، كله قسم صغير من الفقه، بل الفقه أوسع منه بكثير! فالفقيه في رأي الإمام الصادق عليه السلام ليس هو فقط الذي تعلَّم علم أصول الفقه وعرف مبانيه، من أول مبحث وضع الألفاظ إلى آخر مبحث التعادل والتراجيح، وتعلَّم علم الفقه من أول بحث طهارة الماء المطلق إلى آخر أحكام العاقلة. فقوله تعالى ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ يدلّ على أن الإنذار يجب أن يكون بكل الدين، وأن يكون الفقيه فقيهاً بكل الدين. وهذه الحقيقة يجب أن تكون واضحة لكم أنتم الذين تسيرون في طريق الفقاهة، فالفقيه الذي يكتفي بصفة نصف فقيه، كمن يترك بناءه على النصف، لا يمكنه أن يحل المشكلة الدينية للناس!) انتهى.

(١) للوقوف على المئات من هذه النصوص انظر: بحار الأنوار، ج١، ٢، كتاب العلم، بأبوابه ٣٥.

(٢) الريشهري، محمد المحمدي (معاصر)، ميزان الحكمة، مادة (التفقه).

(٣) المصدر السابق.

بصغيرِكُم، ولا تكونوا كجفاةِ الجاهلية، لا في الدين يتفقهون، ولا عن الله يعقلون)[١].

٤ ـ الانتقال من الضعف إلى القوة

روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: **مَن تفقَّه في الدين كثُر)**[٢].

٥ ـ الدقة في العمل

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: **ما ازداد عبدٌ قطُّ فقهاً في دينه إلا ازداد قصداً في عمله)**[٣].

٦ ـ الترفع عن سفاسف الأمور

روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: **الورع شيمة الفقيه)**[٤].

٧ ـ الانضباط السلوكي

روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال:... **إن أفضل الفقه الورع في دين الله والعمل بطاعته، فعليك بالتقوى؛ في سر أمرك وعلانيته)**[٥].

٨ ـ الوعي بالذات

روي عن الإمام الرضا عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام: **رفع إلى رسول الله قومٌ، في بعض غزواته. فقال: مَن القومُ؟ قالوا: مؤمنون يا رسول الله! قال: وما بلغ مِن إيمانكم؟ قالوا: الصبرُ عند البلاء، والشكرُ عند الرخاء، والرضا بالقضاء. فقال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **حلماءُ، علماءُ؛ كادوا من الفقه أن يكونوا أنبياءَ)**[٦].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق.

السبب الثاني: الزهد في الدنيا

الحكمة تعني: وضع الأمور في مواضعها.

ولما كانت الدنيا؛ بمعنى الاعتبارات التي يتواضع عليها الناس، والتي يتصارعون عليها، لا تعدو كونها متاعاً قليلاً، ويفتقد الإنسان بسببها الحرية والكرامة والعدالة والاستقامة... لذلك، ينبغي أن تكون هذه الدنيا مزهوداً فيها، مرغوباً عنها.

والنص النبوي ـ مورد الشرح ـ يذكر أن أحدَ أسبابِ الخير وسبلِه أن يمنَّ الله تعالى على الإنسان بـ(الزهد).

ويُفترض بمن كان متفقهاً في الدين أن يعيَ حقيقة الدين وحقيقة الدنيا، وأن لا يقدِّم الدنيا على الدين لو تزاحما.

ومن ثَم فإنه سيجد في الزهد فضيلةً لا تُفوَّت؛ تصل إلى حد تصنيفها (عبادة)؛ كما ورد في الحديث الشريف عنه ﷺ: **ما عُبِد الله بشيءٍ أفضلَ من الزهد**)[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: **لم يطلب أحدٌ الحقَّ ببابٍ أفضلَ من الزهد في الدنيا...**)[2].

تجلّيات الزهد

الزهد ـ كما تفيده المعرفة الدينية ـ ليس سلوكاً بقدر ما هو موقفٌ نفسيٌّ؛ ينبع من وعيٍ بالواقع؛ يُترجَم عبر العزوف النفسي حيناً، والبذلِ بسخاءٍ حيناً آخر، والامتناعِ عن أشياء ثالثةً.

فهنا تجليات ثلاثة للزهد:

---

(١) لب اللباب للراوندي، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص٥٠، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٦٢ ـ استحباب الزهد في الدنيا وحده، الحديث ٢٥.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص١٣٠، كتاب الإيمان والكفر، باب ذم الدنيا والزهد فيها، الحديث ١٠.

التجلي الأول: العزوف

العزوف هو: الميل عن الشيء. يقال: عزفت نفسه عن الشيء عزوفاً: انصرفت عنه، وزهدت فيه)[١]. وهو شبيه بافتقاد الإنسان لشهية الأكل.

والعزوفُ ـ بهذا التفسير ـ هو واحدٌ من تجليات الزهد.

ويشهد لهذا ما روي عن النبي ﷺ قوله: **ليس الزهدُ في الدنيا لبسَ الخشن، وأكلَ الجشب[٢]، ولكن الزهدَ في الدنيا قِصَر الأمل**)[٣].

الأمل ـ طولاً وقصراً ـ أمرٌ قلبيٌّ؛ كما لا يخفى.

ويشهد له ـ أيضاً ـ ما روي عن النبي ﷺ من قوله: **ليس الزهدُ في الدنيا تحريمَ الحلال، ولا إضاعةَ المال، ولكن الزهدَ في الدنيا: الرضا بالقضاء، والصبرُ على المصائب، واليأسُ عن الناس**)[٤]. ومفردات (الرضا، والصبر، واليأس) تعبِّر عن معانٍ نفسيةٍ؛ كما هو واضحٌ.

التجلي الثاني: البذل

البذل هو: العطاء. وهو ـ أيضاً ـ واحدٌ من تجليات الزهد.

ويشهد لذلك ما روته فاطمة بنت الحسين، عن أبيها عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: **إن صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخرها بالشح والأمل**)[٥]. فقد قوبل الزهد بالشح؛ الذي هو الحرص، كما قوبل اليقين بالأمل، وهذا يعني: أن الزاهدَ معطاءٌ سخيٌّ، وليس شحيحاً بخيلاً.

---

(١) المعجم الوسيط، مادة (عزف).

(٢) الجشب من الطعام: الخشن، أو الذي لا أدم له (لسان العرب ج١، ص٢٦٥).

(٣) كتاب زهد النبي، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٦، ص٤٤، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٦٢ ـ استحباب الزهد في الدنيا وحدِّه، الحديث ٨.

(٤) لب اللباب للراوندي، وعنه: وسائل الشيعة، ج١٢، ص٥١، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٦٢ ـ استحباب الزهد في الدنيا وحدِّه، الحديث ٢٥.

(٥) المصدر السابق، الحديث ١٥، عن مجالس الصدوق.

التجلّي الثالث: الكفُّ

أما تفسير الزهد بالكفّ والتركِ، فيشهد له ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: أن أمير المؤمنين عليه السلام أجاب ـ لما سئل عن الزهد ـ بأنه: **تنكب حرامها)**[١].

فالزهد ـ إذاً ـ ليس: أن لا تملك شيئاً، وإنما هو أن لا يملكك شيءٌ؛ كما قيل. أي إنه: الحرية والانعتاق من الأسْر لِما يهوي بالإنسان إلى ما دون إنسانيته.

السبب الثالث: البصيرة بعيوب الذات

في آخر الأسباب ينبّه النبيُّ ﷺ إلى أن من الخير للإنسان أن يتعرَّف على ذاتِهِ؛ وخصوصاً على جوانب الضعف والنقص فيها. وهو بمقدار معرفته بها يسهل عليه معالجتُها؛ لأنّ معرفة الداء نصف العلاج، ولا قيمةَ لدواءٍ لا نعرف الداء الذي نريد معالجته به.

ومن الحكمة أن نقر بنواقصنا التي لا يخلو بشرٌ منها، إلا بعصمة الله تعالى.

المبحث الثاني: من معطيات الزهد في الدنيا

ثم ينتقل النص إلى التوقف عند معطيات الزهد، باعتبار أن معرفة الثمرات تُعد من أقوى المحفزات على القيام بالشيء، فقال النبيُّ ﷺ:

- **[الفقرتان/ ٥٩ ـ ٦٠]:**

(يا أبا ذرّ! ما زهَد عبدٌ في الدنيا إلا أنبتَ الله الحكمةَ في قلبه، وأنطق بها لسانَهُ، ويبصَّره [وبصَّره خ][٢] بعيوبِ الدنيا ودائِها ودوائِها، وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام.

يا أبا ذرّ! إذا رأيتَ أخاك قد زهد في الدنيا فاستمع منه؛ فإنه يلقَّى[٣] الحكمةَ).

---

(١) المصدر السابق، الحديث ١١، عن معاني الأخبار.

(٢) في مكارم الأخلاق (بصَّره).

(٣) في مكارم الأخلاق (يلقن).

هاتان الفقرتان من الوصية تشيران إلى ثلاثة معطيات، يمثل كلُّ معطى منها فوائدَ تُعدُّ؛ لمن حازها، ولمن يعيش في أوساطهم، كنوزاً لا تُقدَّر بثمنٍ.

وقد تسأل وتقول:

ما هو السر في أن مَن زهد في الدنيا نال هذه المعطيات؟

والجواب:

أن الزاهد في الدنيا قد تحرر من عوائق المعرفة، وتحرر ـ أيضاً ـ من عوائق حسن الاختيار؛ لأنّ الإنسان إنَّما يقع في الخطأ ـ عادةً ـ لواحدٍ من عاملين:

الأول: الجهل

عامل الجهل هذا يُعالَج بالعلم والمعرفة. فكلما وُفِّقنا للعلم ارتفع بنسبته مقدارٌ من الجهل، وتيسر لنا أن نملك أفقاً أوسع للاطلاع على ما خفي عنا، وكنا أعرفَ بالداء وأعرفَ بالدواء.

الثاني: ضعف الإرادة

هذا العامل يُعالَج بضده؛ وهو تقوية الإرادة، التي تسهم بدورها في تحصيل العلم وتنمية الرغبة في الفضيلة.

فإذا كان الإنسانُ عالماً، صلب الإرادة، صار زاهداً، وإذا صار زاهداً تهيأت له معطيات الزهد الثلاثة؛ وهي ـ كما في النص ـ:

المعطى الأول: الحكمة

الحكمة تعني ـ كما تقدم ـ: وضع الأمور في مواضعها. وهذا يتوقف على:

أ ـ امتلاك الرؤية النافذة والدقيقة؛ في: قراءة الذات، والواقع، والآخر.

ب ـ امتلاك القدرة ـ تبعاً لذلك ـ على تشخيص الداء والدواء.

فلا مجال ـ في عالم الزهد الصحيح في الدنيا ـ للقصور في النظرة، ولا لضيق الأفق.

وقد أشير ـ إلى هذا المعطى ـ في جملتين اثنتين من هذه الفقرة:

أولاهما: قوله ﷺ **(ما زهد عبدٌ؛ في الدنيا، إلا أنبت الله الحكمةَ في قلبِهِ).**

ثانيتهما: قوله ﷺ **(يُلقَّى الحكمة)**.

وفي التعبير الثاني نسجل سِتَّ ملاحظات:

١ ـ قد نقرأ الكلمة كما سجلناها؛ مبنيةً للمجهول، **(يُلقَّى)**. والمعنى حينئذٍ: أن الزاهد يتلقَّى الحكمةَ ممَّن يؤتيها؛ وهو الله سبحانه. والحري بالآخرين أن يتصلوا بهذا الزاهد، ويتواصلوا معه؛ للاستفادة منه ومن حكمته؛ باعتبارها ـ الحكمة ـ غيرَ متاحةٍ لكلِّ أحدٍ؛ حيث إن الله عزّ وجلّ ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة/ ٢٦٩].

٢ ـ قد نقرأ الكلمة مبنيةً للفاعل **(يُلقِي)**، بمعنى أن الزاهد يعلم الآخرين الحكمة التي آتاه الله إياها.

٣ ـ قد نقرأ الكلمة؛ كما في بعض النسخ، **(يلقن)**. وهذه ـ أيضاً ـ يمكن قراءتها مبنيةً للمجهول ومبنيةً للمعلوم.

ومعناهما يُشبهان الاحتمالين السابقين.

٤ ـ من اللافت في التعبير النبوي الشريف ـ أيضاً ـ أنه قال **(أنبت)**، ولعل فيها إشارة إلى أن ثمة معرفة كامنة في الذات الإنسانية يمكن أن نسميها بـ(المعرفة الفطرية). يمكن أن يستثمرها الإنسان بنحوٍ جيدٍ؛ إن هو حرَّرها من قيود الشهوات، ومن ضيق الأفق.

٥ ـ إن كلمة **(أنبت)** قد تكون إشارةً إلى أن الحكمةَ نبتةٌ طيبةٌ لا تقف عند حدود الثمرة الواحدة، بل إن لها ثمراتٍ عديدةً، سواء قلنا إنها من جنسٍ واحدٍ؛ كما هو الحال في الأشجار المعروفة عندنا، أو قلنا إنها من أجناسٍ مختلفةٍ؛ كما هو مقرر ـ في محله ـ أن للحكمةِ أغصاناً وشُعباً عديدةً.

٦ ـ إن النبيَّ ﷺ ـ في كلامه هذا ـ نبَّه إلى أن الزاهدَ؛ الذي انتهى به زهدُهُ إلى تبوُّؤ مقام الحكمة، لا ينبغي أن يكون أنانياً لا يُستفاد منه.

بل إن الزاهد كما وفقه الله إلى تلقي الحكمة أولاً، فإن عليه أن يلقّيها ثانياً؛ ولا يحرم أهلَها منها؛ حتى لا يكون ظالماً لنفسه وللحكمة ولطلابها ممن هو أهلٌ لها.

وقد روي في الحديث الشريف عن إمامنا الصادق عليه السلام أن نبي الله عيسى عليه السلام قال لبني إسرائيل: ...**لا تحدثوا الجهالَ بالحكمةِ فتظلموها، ولا تمنعوها أهلَها فتظلموهم)**(١).

المعطى الثاني: التبصر بعيوب الدنيا

إن الزاهدَ إنَّما زهد في الدنيا لأنه أدرك ـ ببصيرته النافذة ـ أنها متاعٌ قليلٌ. وبالتالي، فإنها لا تستحق أن يُتعلق بها؛ فضلاً عن أن يتكالب أو يتصارع عليها، بل إنها لا تستحق ـ عنده ـ إلا أن يُزهَد فيها.

المعطى الثالث: الخروج من الدنيا بسلام إلى دار السلام

إن الزاهدَ في الدنيا لن يبتلى بالمعاصي؛ التي تمثل الدنيا وحبُّها أساساً وعماداً لها؛ فـ**(حب الدنيا رأس كلّ خطيئة)**(٢). ولَما كان الزاهدُ يبحث عن سلامته الشاملة فهو يسعى جاهداً أن لا يكون أسيراً للدنيا والدنيويات، وسينجو ـ إثر ذلك ـ ليس من الوقوع في المعاصي والخطايا فحسب؛ بل من الأخطاء أيضاً، إلى حدٍّ كبيرٍ.

وبذلك، يخرج من الدنيا سالماً، سائراً بوثوقٍ إلى دار السلام، التي هي (الجنة).

***

المبحث الثالث: أزهد الناس

بعد هذه الوقفة المهمة ـ عند الزهد ومعطياته ـ تتوثب نفسُ كلِّ متطلعٍ للأعلى إلى ما هو أفضلُ وأهمُّ.

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص٤٢، كتاب العلم، باب بذل العلم، الحديث ٤؛ الأمالي للشيخ الصدوق، المجلس الخامس والستون. وانظر أيضاً: المستدرك للصحيحين للنيشابوري، كتاب الأدب، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، باب آفة العلم.

(٢) روي هذ النص عن نبي الله عيسى عليه السلام، وعن رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله)، وعن الإمام علي عليه السلام، والإمام الصادق عليه السلام. ولا غرابة في ذلك فمشكاتُهم واحدةٌ، ولذلك نظائرُ كثيرةٌ.

وهذا ما فعله السائر على الصراط المستقيم أبو ذر؛ حيث تقدّم للنبي الأكرم ﷺ بسؤالٍ دقيقٍ؛ مستكشفاً الخطوة التالية، والتي يتطلع إليها ويعزم على القيام بها في مسيرة التكامل التي يطويها:

(فقلت: يا رسول الله! من أزهد الناس؟) [الفقرة/ ٦٠].

وهذا السؤال يكشف عن أن أبا ذر ﷺ لم يصل إلى ما وصل إليه لمجرد أنه أنصت لِما قاله رسول الله ﷺ على أهميتِه من كلِّ زاويةٍ، **فضلاً عن مجرد صحبته** لخاتم النبيين ﷺ، وإنما سعى إلى التعرف على أقرب الطرق، وأسرعها، وأفضلها؛ بقصد العمل بما يعلم.

وهذا درسٌ لنا بأن نقدم الأهمَّ دائماً على المهمِّ.

فما كان من رسول الرحمة ﷺ إلا أن بادر إلى إجابته؛ بتحديد ملامح خمسة؛ يكتشف الإنسانُ فيها نفسَه، ويكتشفه من خلالها الآخرون، فقال ﷺ:

(فقال: مَن لم ينسَ المقابرَ والبِلى، وترك فضلَ زينةِ الدنيا، وآثر ما يبقى على ما يفنى، ولم يعُدَّ غداً من أيامه، وعَدَّ نفسَه في الموتى)[1] [الفقرة/ ٦٠].

الملمح الأول: تذكر الموت

ملمحُ تذكُّر الموت مهمٌّ جداً من الناحية التربوية؛ وذلك باعتباره يشد الإنسان إلى عالم الواقع؛ بعيداً عن الأحلام والأماني التي تلتهم كثيراً من الناس.

---

(١) أورد هذه الفقرة كلٌّ من:

أ ـ الشيخ النوري في: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٢، ص١٠٧، كتاب الطهارة، أبواب الاحتضار، الباب ١٧ ـ استحباب كثرة ذكر الموت وما بعده والاستعداد لذلك، الحديث ٧. وفي أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٦٢ ـ استحباب الزهد في الدنيا وحده، ج١٢، ص٤٢، الحديث ١.

ب ـ السيد البروجردي في: جامع أحاديث الشيعة، ج١٤، ص٣٩، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٤٦ ـ كراهة الحرص على الدنيا، واستحباب ترك ما زاد عن قدر الضرورة، والاشتغال بأمر الآخرة، واستحباب الزهد وأوصاف الزاهدين، الحديث ١. وفي الصفحة ٦٠، الباب ٤٧ ـ كراهة طول الأمل وعدّ غدٍ من الأجل، واستحباب كثرة ذكر الموت والاستعداد له، الحديث ٣٥.

فالإنسان ـ شاء، أم لم يشأ ـ ميِّتٌ لا محالة؛ لا يُستثنى من هذه الحقيقة شريفٌ ولا وضيعٌ؛ فـ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران/ ١٨٥]؛ حتى قال الله تعالى لرسوله ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر/ ٣٠].

ولا شك أن لذكرِ الموت أثراً إيجابيّاً في إحداثِ يقظةٍ تحُول بين الإنسان وبين الوقوع في الوهم ونسيان الآخرة.

فعن أبي عبيدة الحذاء، قال:

قلت لأبي جعفر عليه السلام: حدِّثني بما أنتفع به.

فقال: **يا أبا عبيدة! أكثِر ذكرَ الموت؛ فإنه لم يكثر إنسانٌ ذكرَ الموت إلا زهَد في الدنيا**)[١].

ومن شأن ذكر الموت أن تترتب عليه نتائجُ كثيرةٌ؛ لا يسوغ إهمالُها، ومن أهمها:

أولاً: أنه (يستلزم ذكرَ المعاد إلى الله تعالى ووعدِه ووعيدِهِ وحسابِه وجزائِهِ)[٢].

ثانياً: أنه (يمنع النفس عن الميل إلى الشهوات)[٣].

ثالثاً: أنه (يبعثها على المسارعة إلى الخيرات)[٤].

الملمح الثاني: ترك فضول الدنيا

لما كان الزاهدُ لا ينسى الموتَ، فإنه لن يكون مثلَ الذين يعيشون وهمَ الخلود؛ من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وهم الذين يشتغلون بالتوافه من الأمور.

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص١٣١، كتاب الإيمان والكفر، باب ذم الدنيا والزهد فيها، الحديث ١٣. وفي فروع الكافي، ج٣، ص٢٥٥، كتاب الجنائز، باب النوادر؛ برقم ١٨، رواه بلفظ (ما أنتفع به).

(٢) المازندراني، المولى صالح (ت١٠٨١ هـ)، شرح أصول الكافي، ج١٢، ص٢١٠.

(٣) المصدر السابق، ج١١، ص٣٥٥.

(٤) المصدر السابق.

ونعني بهذه التوافه: كلَّ ما ليس من شأنه أن يزيد رصيدَ الإنسان بين يدي ربه تعالى، والأمثلةُ على ذلك كثيرةٌ.

أما الزاهدُ في الدنيا ـ المدرِك لحقيقتِها ـ فلن يفرِّط في يومٍ، ولا ساعةٍ، بل ولا دقيقةٍ من دقائقِ حياتِهِ؛ بدون أن يجعلها درجةً يصعدها في سلَّم تكاملِهِ. ومن هنا، فإنه لا يرهن نفسَه لفضولِ الزينةِ من الدنيا.

ثم إن التعبيرَ النبويَّ ـ في هذه الفقرةِ ـ لا يخلو من لطفٍ. وذلك، أن زينةَ الدنيا ليست مرفوضةً بأجمعها، بل المرفوضُ منها هو الفضولُ فحسب.

وهذا ما ينص عليه منطق القرآن؛ بقوله تعالى ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف/ ٤٦].

فالمال والبنون ـ كما لا يخفى ـ ضروريان لتسيير شؤون الإنسان، وبقائه في الدنيا. ومن ثَمَّ، حضَّ الإسلامُ على الاهتمامِ بهما، ورعايتِهما، بشرط عدم جعلهما أولويةً مطلقةً على نحو الضدِّية أو النِدِّيَّة لله تعالى. لذلك، قال تعالى ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف/ ٤٦].

الملمح الثالث: إيثار الباقي على الفاني

في هذه الصفة يكشف الزاهد عن فلسفته في الحياة؛ التي لا تسمح بالتعلق بما من شأنه الإقلالُ من منزلته في نفسه وبين يدي ربه تعالى. ومن ثَمَّ فإنه ينشد ـ دائماً ـ الباقيَ؛ وهو ما عند الله تعالى ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل/ ٩٦].

الملمح الرابع: قِصَر الأمل

انطلاقاً من رؤية الزاهد للكون والحياة، فإنه قصير الأمل؛ بمعنى أنه: لا يعلق آمالاً على بقائه في الدنيا تتجاوز ما هو معقولٌ. بل إنه يدرك ـ تماماً ـ أن حقيقة الموت لا يمكن التنكرُ لها، ويدرك ـ أيضاً ـ أن هذه الحقيقةَ مجهولةُ الموعدِ تماماً.

لذلك، فالمؤمنُ الزاهدُ حصيفٌ في التعامل مع الحياة؛ التي يمكن أن تنقضي

في أيٍّ لحظةٍ. ومن ثم، يقصُر أملُهُ. وببركة ذلك يكون عاملاً بكدٍّ وجهدٍ؛ لا يعرف الكلل ولا الملل.

وفي هذا الباب يُروى عن الإمام علي عليه السلام قوله الرائع: **مَن أيقن أنه يفارق الأحبابَ، ويسكن الترابَ، ويواجه الحسابَ، ويستغني عمّا خلّف، ويفتقر إلى ما قدَّم، كان حرياً بقصر الأمل، وطول العمل)**(١).

الملمح الخامس: عيش حقيقة الموت

المؤمنُ؛ الذي هو الزاهدُ، يتجاوز ـ في حسنِ تدبيرِهِ لذاتِهِ ـ التقوقعَ في المفاهيم، إلى تحقيقِها في الواقعِ؛ مستبقاً عالَمَ الثوابِ والعقابِ، ليكرِّس واقعَ الصلاحِ والفلاحِ؛ سعياً منه إلى تحصيل الاطمئنان بالفوز المبين.

لهذا السبب، فإنه يتعامل مع (الموت) كما لو أنه قد حصل بالفعل. وتربوياً، فإن ذلك أدعى لتفاعله مع معطياته. ولهذا، يصنّف الزاهدُ نفسَه في (عِداد الموتى).

(١) كنز الكراجكي، وعنه: بحار الأنوار، ج٧٠، ص٣٠٨، كتاب الإيمان والكفر، الباب ١٢٨ ـ الحرص، وطول الامل، الحديث ٣١.



الفصل الثامن والعشرون

العبادة حتى الرمق الأخير

داءُ (اختلاط المفاهيم) يُعَدُّ واحداً من أخطر ما يمكن أن يُبتلَى به الإنسان. الأمر الذي يترتب عليه:

أ ـ أن يتحول الباطلُ إلى حقٍّ، والحقُّ إلى باطلٍ.

ب ـ أن يتبدل المهمُّ إلى أهمَّ، والأهمُّ إلى مهمٍّ.

ج ـ أن ينقلب الهدفُ الرئيسُ إلى هدفٍ جزئيٍّ، والهدفُ الجزئيُّ إلى هدفٍ رئيسٍ...

د ـ أن يتحول الصديقُ إلى عدوٍّ، والعدوُّ إلى صديقٍ.

وهكذا.

لهذا، حرص الرسولُ المربي ﷺ ـ في وصيته هذه إلى أبي ذرّ (رضوان الله عليه) ـ على تنبيههِ إلى جوهرِ ما أراده الله عزَّ وجلَّ من عبادِهِ؛ عبر التأكيدِ على أن مرادَه تعالى منهم إنَّما هو (التسبيح، والعبادة)؛ وهو ما يقصِّر فيه الغالبيةُ العظمى، وليس (جمع المال)؛ الذي تنهمك فيه تلك الغالبة الغلبة منهم.

فقال ﷺ:

(يا أبا ذرّ! إن الله تبارك وتعالى لم يوحِ إليَّ أن أجمعَ المال[1]، ولكن أوحى

---

(١) في المكارم (المال [إلى المال]).

إلـــــــيَّ أن﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾) [الفقرة/ ٦١].

وسنقف؛ في هذه الفقرة، على سبع مسائل:

المسألة الأولى: معنى التسبيح

التسبيح ـ في اللغة ـ هو: تنزيه الله تعالى)(١).

وسبقه ابن فارس بقوله: هو تنزيه الله جلّ ثناؤه من كلّ سوء. والتنزيهُ: التبعيدُ)(٢).

وجاء بعدهما ابن الأثير وقال: قد تكرر في الحديث ذكر (التسبيح)؛ على اختلاف تصرف اللفظة. وأصل التسبيح: التنزيه، والتقديس، والتبرئة من النقائص)(٣).

قال العلامة الطباطبائي: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ مصدر بمعنى التسبيح. وهو لا يستعمل إلا مضافاً. وهو مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ محذوفٍ؛ أي: سبَّحتُهُ تسبيحاً، فحُذِف الفعلُ وأضيف المصدر إلى الضمير المفعول وأقيم مقامه. وفي الكلمة تأديبٌ إلهيٌّ بالتنزيهِ فيما يذكر فيه ما لا يليق بساحة قدسه تعالى وتقدس)(٤).

فحينما نقول (سبحان الله)، أو (سبحان ربي العظيم)، أو (سبحان ربي الأعلى) ونحوها، فإن معنى ذلك هو: أنزِّه الله عن كلِّ ما يشينه، ويعيبه ويسوؤه. وبالطبع، فإننا إذا نزَّهناه لا نريد بذلك أننا نحقِّق التنزيهَ ونوجده فيه؛ بعد أن لم يكن، وإنما نريد به حكايةَ واقعِ الذاتِ الإلهيةِ؛ التي هي كمالٌ مطلقٌ من كلِّ جهةٍ. ومآل ذلك إلى أنه تعالى لا نقصَ في ساحتِهِ؛ ذاتاً ووصفاً وفعلاً.

---

(١) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد (ت٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، مادة (سبح).

(٢) ابن فارس، أحمد بن زكريا (ت٣٩٥ هـ)، معجم مقاييس اللغة، مادة (سبح).

(٣) ابن الأثير، مجد الدين (ت٦٠٦ هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، حرف الفاء، باب الفاء مع النون، مادة (فند).

(٤) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٢٦٢، ذيل قوله تعالى ﴿...سُبْحَٰنَهُۥ...﴾ [البقرة/ ١١٥].

وهذا بعينه ما روي عن رسول الله ﷺ في تفسيره؛ حيث سأله أحدُهم عن معنى (سبحان الله)، فأجاب بقوله: **هو تنزيهُ الله عن كلِّ سوءٍ**)[١].

وأما الإمام علي عليه السلام فأضاف شيئاً من التوسعة في الجواب. فعن يزيد بن الأصم، قال:

سأل رجلٌ عمرَ بنَ الخطابِ فقال: يا أميرَ المؤمنين! ما تفسير سبحان الله؟

قال: إن في هذا الحائطِ رجلاً كان إذا سُئل أنبأ، وإذا سُكِت ابتدأ.

فدخل الرجلُ؛ فإذا هو عليُّ بنُ أبي طالبٍ عليه السلام. فقال: يا أبا الحسن! ما تفسيرُ (سبحان الله)؟

قال: **هو تعظيمُ جلالِ الله عزَّ وجلَّ، وتنزيهُهُ عمّا قال فيه كلُّ مشركٍ. فإذا قالها العبدُ صلَّى عليه كلُّ ملَكٍ**)[٢].

المسألة الثانية: التسبيح نوعان

يمكن أن نقسم التسبيح إلى نوعين:

أ ـ التسبيح الجبري

التسبيح الجبري نعني به: ما يدركه الموجودُ ـ بفطرتِه ـ أن خالقَه وموجِدَه خالٍ من أيِّ نقصٍ، وأنه حاوٍ كلَّ جمالٍ وكمالٍ.

قال تعالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء/ ٤٤].

والمراد من التسبيح في مثل المقام هو: الخضوعُ التكوينيُّ من قِبل المخلوقات لقانون الله وسننه الكونية. وهذا ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في تفسير التسبيح بأن: **نقضُ الجدُر تسبيحُها**)[٣].

---

(١) الحاكم النيشابوري، أبو عبدالله (ت٤٠٥ هـ)، المستدرك على الصحيحين، كتاب الدعاء، تفسير سبحان الله.

(٢) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، التوحيد، الباب ٤٥ ـ معنى (سبحان الله)، الحديث ١.

(٣) المحاسن للبرقي، وعنه: بحار الأنوار، ج٥٧، ص١٥٧، الباب ٣٤ ـ المعادن، وأحوال الجمادات والطبايع وتأثيراتها وانقلابات الجواهر، وبعض النوادر، الحديث ٤.

والظاهر أنه مثالٌ لحقيقة الخضوع التكويني. ويؤيد ذلك ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام من قوله؛ في حديثٍ:... **ولا يُصاد من الطير إلا ما ضيَّع تسبيحَه**)[١].

ب ـ التسبيح الاختياري

التسبيحُ الاختياريُّ هو: خصوص تنزيه الله تعالى عن السوء الذي يصدر عن الإنسانِ؛ وهذا الإنسان هو الذي يمتاز ـ من الحيوانات والنباتات والجمادات ـ بالوعي والشعور من جهةٍ، وبالإرادة والاختيار من جهةٍ أخرى.

لذلك، فإن المطلوب من هذا المخلوق الواعي المختار أن يتحرك ـ بإرادته ـ باتجاه (التسبيح)، تعبيراً عن معرفتِه باللهِ، وشكراً له على إنعامِه، وتعبداً له لمولويته. ليكون العابد ـ بذلك ـ سالكاً طريقَ التكاملِ والاستنارةِ بنورِ الحقيقةِ على صراطِ الله المستقيمِ.

وهذا ما جاء الأنبياء عليهم السلام من أجله ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم/ ١].

وذلك، انطلاقاً من الدور الرباني في تكميل الإنسان ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة/ ٢٥٧].

أما مَن لم يسِر في طريقِ التسبيح فسينتهي به الحال إلى خلاف التكامل؛ أي التسافل. بسبب أن مَن يرفض التسبيح يخرج من عالم النور إلى عالم الظلمة؛ حيث استسلم للسفاهة وللسفهاء من الخلق، قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة/ ٢٥٧]. وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [النور/ ٢٤].

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، الكافي، كتاب الزكاة، باب منع الزكاة، الحديث ١٥.

المسألة الثالثة: معنى العبادة

لكي نفهم العبادةَ يجب أن نفهم العبوديةَ. والمفردتان ـ معاً ـ مشتقتان من جذرٍ لغويٍّ واحدٍ؛ هو (عبد). وإذا رجعنا إلى معاجم اللغة سنجد أنها تؤدي بنا إلى تفسير العبادة بأنها: الخضوع التامّ مع التعظيم؛ اعتقاداً بربوبية المعبود.

قال في الصحاح: أصل العبودية: الخضوع، والذل... والعبادة: الطاعة)[1].

فالعبوديةُ ـ بهذا المعنى ـ هي: تعبيرٌ عن العلاقة السليمة بين الخالق والمخلوق؛ حيث الفعل من الأول/ الخالق، والانفعال من الثاني/ المخلوق.

وعلى هذا الأساس نفسه، فإن العبادةَ يمكن تعريفها بأنها: ممارسات ظاهرة أو خفية يقوم بها المخلوق؛ رغبةً منه في التقرب إلى الخالق، وأداءً لحقه، أو خوفاً من عقابه، أو حباً به تعالى.

فالطاعةُ هي الجسرُ الرابطُ بين العبدِ والمعبودِ، فالمخلوقُ مطيعٌ، والمعبودُ مطاعٌ.

ومن هنا، نفهم لِم جعل الله تعالى العبادةَ هي الغايةَ التي خلق الله الإنسَ والجنَّ من أجلِها، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦].

نقول ذلك لأننا نجزم بأن البارئَ سبحانه؛ وبسبب غناه الذاتي والمطلق، لم يخلق الخلقَ من أجل الحاجةِ والانتفاعِ فهو الغنيُّ الحميدُ. وفي حديثٍ؛ روي عن الإمام الصادق عليه السلام، أجاب فيه عن أسئلةِ هشام بن الحكم عن علل الحج، جاء فيه قوله: ... **إن الله تعالى خلق الخلقَ لا لعلةٍ؛ إلا أنه شاء ففعل...**)[2].

المسألة الرابعة: فلسفة العبادة

لم يأمر الله تعالى بالعبادةِ عبثاً! حاشاه، فهو الحكيمُ الذي يجلُّ عن العبثِ واللعبِ، وإنما أمر بها لمنافعَ تعود على العابدِين أنفسِهم.

وفي ذلك يقول الإمام الرضا عليه السلام، مبيِّناً فلسفةَ العبادة:

---

(١) الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣ هـ)، الصحاح، باب الدال، ما أوله العين، مادة (عبد).

(٢) الصدوق (ت٣٨١ هـ) محمد بن علي، علل الشرائع، ج٢، ص٤٠٥، الباب ١٤٢ ـ علة وجوب الحج والطواف بالبيت وجميع المناسك، الحديث ٦.

فإن قال قائل: لِم تعبَّدهم؟!

قيل: لئلا يكونوا ناسِين لذكرِهِ، ولا تارِكِين لأدبه، ولا لاهِين عن أمرِهِ ونهيِهِ؛ إذ كان فيه صلاحُهُم، وفسادُهُم، وقوامُهم.

فلو تُرِكوا بغيرِ تعبُّدٍ لطال عليهم الأمدُ، وقست قلوبُهُم)(١).

وفي حديث هشام بن الحكم؛ والذي أشير إلى بعضها قبل قليل، قال: **سألتُ أبا عبدالله** عليه السلام**؛ فقلت له: ما العلة التي من أجلها كلف الله العبادَ الحجَّ والطوافَ والبيتَ؟**

فقال: إن الله تعالى خلق الخلقَ لا لعلةٍ؛ إلا أنه شاء ففعل؛ فخلقهم إلى وقتٍ مؤجلٍ، وأمرهم، ونهاهم ما يكون من أمر الطاعة في الدين، ومصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماعَ؛ من المشرق والمغرب؛ ليتعارفوا، وليتربح كلُّ قومٍ من التجارات من بلد إلى بلد، ولينتفعَ بذلك المكارِي والجمَّال، ولتُعرفَ آثارُ رسول الله صلى الله عليه وآله، وتعرفَ أخباره، ويذكر ولا ينسى. ولو كان كلُّ قوم إنَّما يتَّكِلون على بلادهم وما فيها، هلكوا، وخربت البلاد، وسقط الجلب والأرباح، وعميت الأخبار، ولم يقفوا على ذلك.

فذلك علة الحج)(٢).

المسألة الخامسة: سعة مفهوم العبادة

١ ـ يتسع مفهومُ العبادة ليشمل الاتجارَ والعملَ في الأسواق؛ على وفق ما أراد الله للعباد أن يجعلوه طريقاً لكسب أقواتهم.

فقد جاء في الخبر القدسي: **يا أحمد! إن العبادةَ عشرةُ أجزاءٍ؛ تسعةٌ منها طلب الحلال. فإذا طيبتَ مطعمَك ومشربَك، فأنت في حفظي وكنفي...)**(٣).

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص٢٥٦، الباب ١٨٢ ـ علل الشرائع وأصول الإسلام، الحديث ٩.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٤٠٥، الباب ١٤٢ ـ علة وجوب الحج والطواف بالبيت وجميع المناسك، الحديث ٦.

(٣) إرشاد القلوب للديلمي، وعنه: بحار الأنوار، ج ٧٤، ص٢٦، الباب ٢ ـ مواعظ الله عزّ وجلّ في سائر الكتب السماوي وفي الحديث القدسي.... وفي الأصل [فإن أطيب...].

٢ ـ تتسع العبادة لتشمل فنون التعامل الإنساني التي ترطِّب الأجواء بين الإنسان وأخيه الإنسان.

ففي الخبر عن الإمام علي عليه السلام، قال: **إن من العبادة لين الكلام وإفشاء السلام**[(١)].

٣ ـ تشمل العبادةُ الترفقَ في التعامل مع أعظم شخصَين محسِنين؛ بعد الله تعالى والأنبياء والأئمة (عليهم جميعاً السلام) على الإنسان؛ أعني بهما الوالدين.

ففي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: **نظرُ الولدِ إلى والديه؛ حباً لهما، عبادةٌ**[(٢)].

٤ ـ تشمل العبادة؛ إلى جانب السلوك، المشاعرَ التي يجب اختزانُها تجاه أولياء نعمتنا؛ وهم آل بيت النبوة عليهم السلام.

ففي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: **إن فوقَ كلِّ عبادةٍ عبادةً، وحبُّنا ـ أهلَ البيت ـ أفضلُ عبادةٍ**[(٣)].

٥ ـ تشمل العبادةُ تجسيرَ العلاقةِ بين المتعلِّم والعالِم؛ من خلال المودةِ التي يحملها الأولُ للثاني؛ من أجل أن يتيسر له ترويضُ نفسِهِ وتلقِّي ما يلقِيه العالِمُ، وكذلك تحسينُ العلاقة بين المواطن الفرد والحاكم العادل، إلى جانب الوالدين والأخ المؤمن.

ففي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: **النظرُ إلى العالـمِ عبادةٌ، والنظرُ إلى**

---

(١) الواسطي، علي بن محمد الليثي (ق ٦)، عيون الحكم والمواعظ، ص١٤٢، الباب ١، الفصل ١٢ ـ ما بدئ بلفظ إن.

(٢) الجعفريات، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٩، ص١٥٢، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ١٤٥ ـ استحباب النظر إلى الوالدين، وإلى المصحف، وإلى وجه العالم، الحديث ١.

(٣) المحاسن للبرقي، وعنه: بحار الأنوار، ج٢٧، ص٩١، الباب ١٨ ـ خصائصهم عليهم السلام، الباب ٤ ـ ثواب حبهم ونصرهم وولايتهم، وأنها أمان من النار، الحديث ٤٨.

الإمامِ المقسِطِ عبادةٌ، والنظرُ إلى الوالدَين ـ برأفةٍ ورحمةٍ ـ عبادةٌ، والنظرُ إلى أخٍ تودُّه في الله (عزّ وجلّ) عبادةٌ)(١).

٦ ـ تشمل العبادة أيضا فضيلة العفة بنوعيها.

قال الإمام الباقر عليه السلام: **ما عُبِد الله بشيءٍ أفضلَ من عفةِ بطنٍ وفرجٍ)**(٢).

٧ ـ تشمل؛ إلى جانب ما ذُكر، التفكرَ؛ الذي هو من أجلِّ العبادات.

فعن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، قال: **ليست العبادةُ كثرةَ الصيامِ والصلاةِ، وإنما العبادةُ كثرةُ التفكرِ في أمرِ اللهِ)**(٣).

٨ ـ تشمل العبادةُ الرفقَ بالحيوان؛ فهو مدعاة لحب الله تعالى.

ففي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال: **إن الله يحب الرفقَ، ويعين عليه. فإذا ركبتم الدوابَّ العجفَ**(٤) **فأنزلوها منازلَها، فإن كانت الأرضُ مجدبةً فانجوا عنها، وإن كانت مخصبةً فأنزلوها منازلَها)**(٥).

٩ ـ تشمل العبادةُ المبادرةَ إلى فعل الخير.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: **إن الله يحب من الخيرِ ما يُعجَّل)**(٦).

١٠ ـ تشمل العبادةُ العقلانيةَ في التعامل مع تعقيدات الواقع.

ففي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال ـ في حديثٍ خاطب فيه المعلى بن

---

(١) الأمالي للطوسي، وعنه: بحار الأنوار، ج٣٨، ص١٩٦، كتاب الإمامة، أبواب فضائله ومناقبه صلوات الله عليه، الباب ٦٤ ـ ثواب ذكر فضائله والنظر إليها واستماعها...، الحديث ٣.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٧٩، كتاب الإيمان والكفر، باب العفة، الحديث ١.

(٣) تحف العقول، وعنه: بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٢٨، كتاب الإيمان والكفر، الباب ٨٠ ـ التفكر والاعتبار والاتعاظ بالعِبر، الحديث ١٧.

(٤) الهزيلة.

(٥) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص١٢٠، كتاب الإيمان والكفر، باب الرفق، الحديث ١٢.

(٦) المصدر السابق، ص١٤٢، كتاب الإيمان والكفر، باب تعجيل الخير، الحديث ٤.

خنيس ـ:... **إن التقيةَ من ديني ودين آبائي، ولا دينَ لمن لا تقيةَ له. يا معلى! إن الله يحب أن يُعبَد في السرِّ كما يحب أن يُعبَد في العلانيةِ...)**[١].

هذه عشرة نماذج للعبادة، وفي الأحاديث الشريفة الواردة عن النبي ﷺ وآله الكرام عليهم السلام نماذج أخرى، لا نطيل بتتبعها واستقصائها.

فـ(العبادة) ـ إذاً ـ ليست هي خصوصَ الصلاة والصوم والحجّ ونظائرها؛ من عبادات تنتظم ضمن عنوان (الشعائر) أو (الطقوس)، بل يتسع مفهومُها ليتناول كلَّ سلوكٍ مَرْضيٍّ يحقق: عنوان (الإحسان)، وعنوان (الإتقان).

المسألة السادسة: دواعي العبادة

الناسُ ـ في ما يتعلق بسلوكهم العبادي ـ ليسوا سواءً. فمنهم من يرجو بعبادته خيراً، ومنهم من يستدفع بها شراً، ومنهم مَن يحركه نحوَ ذلك العشقُ والولهُ للحق تعالى.

وفي ذلك جاء الخبر الشريف أن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام قال: **إن الناس يعبدون الله عزّ وجلّ على ثلاثة أوجه:**

ـ فطبقةٌ يعبدونه رغبةً في ثوابه، فتلك عبادةُ الحرَصاء؛ وهو (الطمع).

ـ وآخرون يعبدونه خوفاً من النار، فتلك عبادة العبيد؛ وهي (رهبةٌ).

ـ ولكني أعبده حباً له عزّ وجلّ، فتلك عبادة الكرام؛ وهو (الأمن)؛ لقوله عزّ وجلّ ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل/ ٨٩]، **ولقوله عزّ وجلّ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾** [آل عمران/ ٣١]**.فمن أحب الله عزّ وجلّ أحبه اللهُ، ومَن أحبه الله تعالى كان من الآمنين)**[٢].

(١) المصدر السابق، ص٢٢٤، كتاب الإيمان والكفر، باب الكتمان، الحديث ٨.

(٢) الشيخ الصدوق في كتبه الثلاثة (الخصال والتوحيد والعلل). وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١، ص٦٢، أبواب مقدمة العبادات، الباب ٩ ـ ما يجوز قصده من غايات النية...، الحديث ٢.

المسألة السابعة: سياسة النفس في العبادة

لابدّ من التوقف عند معضلةٍ يستهين بها كثيرٌ من الناس. وهذه المعضلة هي (الفتور).

وهو الذي ينشأ ـ عادةً ـ من مواجهةِ صعوباتٍ وأزماتٍ يصحبها عدمُ التهيؤ النفسي والفكري لمواجهتها.

لذلك، يجب على العابد أن يستعد لذلك؛ بـ(الرياضة) وتحصيل اللياقة على مستويين:

الأول ـ المستوى الفكري.

وذلك من خلال التعمّق في البعد المعرفي.

الثاني ـ المستوى الروحي والنفسي.

وذلك عبر بناء الروح وتقوية النفس؛ من أجل تحمُّل أعباء المسؤوليات الجسام.

لهذا وذاك، نقرأ نصوصاً جليلةً تؤكد على الإنسان أن يروِّض نفسَه؛ علمياً وعملياً، على صعود السلَّم درجةً بعد درجةٍ، دون القفز بغيرِ إعدادٍ واستعدادٍ.

١ ـ روى الفريقان عن رسول الله ﷺأنه قال: **إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق)**[١].

٢ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **لا تكرِّهوا إلى أنفسكم العبادةً)**[٢].

٣ ـ عنه عليه السلام، أنه قال: **إن الله عزّ وجلّ إذا أحب عبداً فعمل [عملاً] قليلاً جزاه بالقليل الكثير، ولم يتعاظمه أن يجزي بالقليل الكثير له)**[٣].

٤ ـ عنه عليه السلام قال: مرَّ بي أبي؛ وأنا بالطواف وأنا حدثٌ وقد اجتهدت في

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٨٦، كتاب الإيمان والكفر، باب الاقتصاد في العبادة، الحديث ١.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٢.

(٣) المصدر السابق، الحديث ٣.

العبادة، فرآني وأنا أتصابُّ عرقاً، فقال لي: **يا جعفر! يا بني! إن الله إذا أحب عبداً أدخله الجنة ورضي عنه باليسير)**[١].

٥ ـ عن الإمام علي عليه السلام، أنه قال: **خادع نفسَك عن العبادة، وارفق بها، وخذ عفوها ونشاطها؛ إلا ما كان مكتوباً في الفريضة؛ فإنه لا بد من أدائها)**[٢].

---

(١) المصدر السابق، الحديث ٤.

(٢) الواسطي، علي بن محمد الليثي (ق ٦)، عيون الحكم والمواعظ، ص٢٤٢، الباب ٧، الفصل ٢ ـ ما روي باللفظ المطلق.



الفصل التاسع والعشرون

فضيلة التواضع

فضيلة (التواضع) من الفضائل الحسنة؛ التي ينبغي للإنسان أن يتحلّى بها، وجوباً تارةً واستحباباً أخرى.

وهي الفضيلة التي تكشف عن أصالة المعدن في مَن يتحلى بها، كما أنها تتيح له النهلَ من علوم الآخرين وإمكاناتهم.

ويأتي على الضدّ من هذه الفضيلة رذيلةُ (الكبر)؛ التي تحرم مَن يبتلي بها الكثيرَ ممَّا لدى الآخرين من أفضال ومحاسن. وهي صفة قبيحةٌ مع الخَلق، لكنها أقبح مع الخالق؛ لأنها تكشف في بعض مراتبها عن (تغلب منه على ربه، وغصب منه لمقامه)[1].

لذلك، يوصي النبي ﷺ مستوصيه أبا ذرّ (رضوان الله عليه) بـ(التواضع)؛ قائلاً:

● [الفقرة/ ٦٢]:

(يا أبا ذرّ! إني ألبس الغليظَ، وأجلس على الأرض، وألعق أصابعي، وأركب الحمارَ بغير سرج، وأردف خلفي؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني)[2].

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١٢، ص٢٦٧، تفسير الآية ١٦ من سورة النحل.

(٢) أورد هذه الفقرة، أو بعضَها، كلٌّ من: =

وليس يخفى على أحدٍ منا أن مَن يفتقد التواضع لن يصبح (عالماً)، ولا (خطاطاً)، ولا (طبيباً)، ولا حاذقاً في أي علمٍ وفنٍ. والسبب في ذلك: أن مَن لا يتواضع للآخرين، لن يتعامل معهم على أساس تفوقهم عليه بما يستحقون أن يكونوا معه (أساتذة)، ويكون هو (تلميذ).

وقد تسأل قائلاً:

ألا يعني هذا أن على العالم أن يتنكر لعلمه، والذكي لذكائه، والمسلم لإسلامه، والمؤمن لإيمانه؛ حتى يصح وصفُ كلِّ واحدٍ من هؤلاء بأنه (متواضع)؟

الجواب:

يجب التفرقة بين الصفات الطارئة والمكتسبة، والتي يترتب عليها آثار أقرها الشرع الحنيف، ولا يعتمدها المتصفُ بها معياراً للفضل الحقيقي والنهائي في الدنيا والآخرة، وبين الصفات التي يجعلها المتكبر قاعدةً ومعياراً يشعر نفسه ـ بسببها ـ أنه أفضل من غيره.

فالمنافي للتواضع هو الثاني، وليس الأول.

وذلك، أن حقيقة التواضع ـ كما قال الشيخ النراقي ـ هو: ألا يرى النفس لذاتها مزيةً واقعيةً، وخيريةً حقيقيةً، على الغير)[1]. ومن الواضح أن هذا أمرٌ يتوقف على إدراك طبائع النفوس وصفاتها من كلّ جهةٍ أولاً، وعلى عواقب أمرها ثانياً، وهذا أمرٌ غيرُ متاحٍ لغيرِ علّام الغيوب ومَن أطلعه الله تعالى على ذلك؛ فـ(العواقبُ مطويةٌ عن العباد)[2].

= أ ـ الشيخ النوري في: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٨، ص٤٠٥، أبواب أحكام العشرة، الباب ٦٣ ـ استحباب جلوس الإنسان دون مجلسه تواضعاً، والجلوس على الأرض، الحديث ٨.

ب ـ السيد البروجردي في: جامع أحاديث الشيعة، ج١٦، ص٧٠٢، أبواب أحكام الملابس، الباب ١٢ ـ استحباب التواضع في الملابس، الحديث ١٤٤.

(١) النراقي، الشيخ محمد مهدي (ت١٢٠٩ هـ)، جامع السعادات، ج١، ص٣٠٧، مبحث الكبر.

(٢) المصدر السابق.

لذلك، فإن (المتكبر)؛ مع ملاحظة ما بيّناه من فرق، لا يتيسّر له ـ عادةً ـ أن يتفوق على مستوى ذاته.

كما أن (المتكبر) ينسى ذاته وجوهره؛ ساعياً إلى إبراز تفوقٍ كاذبٍ على الآخرين بما هو خارجٌ عن ذاتِهِ. وهو بتفوقه المصطنع والكاذب يكون في معرض السقوط في كلِّ لحظةٍ يحصل فيها الانفكاك بينه وبين ما صار بسببه (متفوقاً)؛ كـ(المال).

وهذا بخلاف المتواضع الذي لا يتصنع التفوق؛ ولا يليق به أن يفعل ذلك. لأنه ـ بتواضعه ـ إنَّما يبرز جوهره وحقيقته على ما هي عليه. لذلك، فإن المتواضع متفوقٌ دائماً، وهو محبوبٌ للآخرين دائماً؛ إلا عند المرضى أخلاقياً.

لهذا السبب، نجد الرسول ﷺ في النص المبارك يؤكد على شكلٍ من أشكال (الرياضة) الروحية؛ التي يمارسها الحصيف والحكيم؛ ليؤكد لنفسه ـ أساساً ـ أن قيمتَها ليس في المظهر بل في الجوهر.

(يا أبا ذرّ! إني ألبس الغليظَ، وأجلس على الأرض، وألعق أصابعي، وأركب الحمار بغير سرج، وأردف خلفي).

فالنبيُّ ﷺ يؤكد ـ في هذه الفقرة ـ على ما يمارسه هو، من لبس الغليظ، وجلوس على الأرض، ولعقٍ لأصابعه بعد الطعام، وركوب للحمار.

على خلاف ما يلتزمه المتكبرون من سلوكيات لا تدعوهم إليه الضرورة. ولم يكن هذا التوجيه النبوي نابعاً من فراغ؛ فـ(قد كان الأغنياء والشباب يبالغون في ألبستهم، فكان منهم مَن يشمر ثوبه، ومنهم من يسبله ويتركه يجر الأرض، ومنهم من يبالغ في ردائه؛ خيلاءً، وتيهاً، وتكبراً)[1].

ورذيلة الكبر قد يُبتلَى بها الأفراد، كما تُبتلَى بها الجماعات؛ حتى اشتهر بذلك (بعض القبائل والعشائر والبيوت... في الجاهلية، وامتدت إلى الإسلام)[2].

---

(١) علي، د جواد (ت١٤٠٨ هـ)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ص٥٥، الفصل ٥٠، فقرة ـ اللباس.

(٢) المصدر السابق، ج٧، ص٣٣٩، الفصل ٥٤، ألقاب المجتمع العربي.

من قبيل:

أ ـ أنهم يجهدون أنفسهم ـ بشكلٍ مبالَغٍ فيه ـ في سبيل الحصول على الناعم من اللباس.

ب ـ يهتمون ـ بعنايةٍ فائقةٍ ـ بجودة المقاعد التي يجلسون عليها؛ من أجل أن يظهروا بأبهةٍ وفخامةٍ.

جـ ـ لا يلعقون أصابعهم؛ إما لأنهم لا يأكلون بها أصلاً، بل يستعينون بالملاعق ونحوها؛ تكبراً، وإما بسبب أنهم يمتنعون عن ذلك استعلاءً[١].

د ـ يحرصون على أن تكون مراكبُهُم ووسائلُ نقلِهم فاخرةً؛ حتى إنها لتحول بينهم وبين فعل الخير بنقل مَن يحتاج إلى النقل. يمنعهم عن ذلك خشيتهم من اتساخها لو ركبها الفقراء! أو اتهامهم بالدونية الاجتماعية لو شوهدوا معهم.

وبين هذين السلوكين؛ النابعين من نفسيتين متضادتين، ألسنا بحاجة إلى أن نمارس ما من شأنه كسرُ النفس وترويضُها بالبساطة والتواضع.

ولما كان الأمرُ هاماً جداً؛ على المستوى التربوي، فقد جعل النبيُّ ﷺ ذلك من سننه. وهذا يعني أمرين:

الأول: أنه ملتزم بها على مستوى نفسه.

الثاني: أنّ محبيه ومتبعيه ملزَمون بالتأسي به فيها، إذا ما أردوا أن يكونوا من أحباب الله تعالى، فقال ﷺ: **(فمَن رغب عن سنتي فليس مني)**[٢].

---

(١) يجب الالتفات إلى أننا لا نريد القول إن استعمال الملاعق في تناول الطعام مرفوضٌ، وأن استعمال الأصابع لازمٌ!
أجل، يستحب الأكل باليد مباشرةً؛ كما يظهر من الأخبار، لكن هناك من المأكولات ما لا يتيسر أو لا ينبغي تناولها بغير الملاعق ونحوها؛ كالمرق وأشباهه.
ثم إن ما جاء في الوصية ليس بصدد بيان آداب تناول الطعام، وإنما بصدد اجتثاث رذائل أخلاقية تسود في أوساط معينة من الناس ومنها التجبر والتكبر.

(٢) سيأتي بعض الحديث عن رذيلة الكبر؛ في الفصل ٥٣، المعلم ١١؛ فانتظر.



الفصل الثلاثون

الحرص والجاه

ثمّة أولويات لدى أصحاب المشاريع، تحددها طبيعةُ المشروع، وكذلك الحال عند أصحاب الفضائل والرذائل. فمن كان همُّه المالَ لن تكون أولوياته مثلَ مَن همُّه الجاهُ؛ لأنّ هذا الأخير يضحِّي بالمال من أجل الجاه، بينما يضحِّي الحريصُ على المال بالجاه في سبيل الحصول على المال...، وهكذا.

وبالنسبة لرسول الله ﷺ فإن (الدِّين) هو الهمُّ الأولُ؛ لأنه سبيل النجاة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء/ ٨٨، ٨٩]. وعليه، فيجب على صاحب الدِّين أن يكون حريصاً على أن لا يضع دينَه في معرض المخاطرة.

وفي هذا الصدد يبيِّن الرسولُ ﷺ؛ باعتباره موصِياً ومربياً، أن ثمة خطَرَين اثنين ينبغي لذي الدِّين أن يكون حذِراً ـ أشد الحذر ـ منهما، وهما:

أ ـ حب المال

ب ـ حب الشرف (الجاه)

فقال النبي ﷺ:

- **[الفقرة/ ٦٣]:**

(يا أبا ذرّ! حبُّ المالِ والشرفِ أذهبُ لدين الرجل من ذئبين ضاريين في زرب الغنم؛ فأغارا فيها حتى أصبحا، فماذا أبقيا منها؟).

وهو تصويرٌ لحجم الكارثة الذي يمكن أن يحدث لتديُّن الإنسان لو أنه ابتلي بحب المال وحب الجاه.

ولعلّ ذلك ناشئٌ من أن المالَ إذا أحبه الإنسانُ فسيكون له أولويةٌ في حسابات المحب؛ إذ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب/ ٤].

وإذا كانت الأولويةُ للمالِ فسيكون مقدَّماً؛ في مقام التزاحم بين المال والدين، وفقاً لقيمه ومعارفه ولوازمه التي آمن بها، ونظَّم ميوله ورغباته على أساسها؛ إذ إنه (لا يجتمع حبُّ الله وحبُّ الدنيا، ومتابعةُ الله ومتابعةُ الهوى في قلبٍ واحدٍ، وليس للإنسان قلبان حتى يحبَّ بأحدهما الربَّ تعالى ويقصده بأعماله، ويحب بالآخر الدنيا وشهواتِها، ويقصدها في أفعاله)[1]. هذا في حب الدنيا.

وقل مثل ذلك في الجاه.

والخطورةُ في الأمرين تكمن في أن المال والجاه محبوبان بالطبع للإنسان، أما الدينُ ففيه شيءٌ من التكليف. ولهذا السبب، نجد أن غالبَ الناس يخفقون في هذا الامتحان ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف/ ١٠٣].

وبالطبع، فليس من الصواب القولُ: إن المال والجاه مذمومان مطلقاً! فهما ـ بالتأكيد ـ نعمةٌ من النعم، لكن ينبغي أن لا يتجاوزا حدودَ كونهما وسيلةً من الوسائل؛ التي يُتوَسل بها إلى الوصول إلى الغاية العظمى؛ وهي (رضا الله ورضوانه).

بل نقول:

إن كثيراً من القضايا المشكِلة تحتاج إلى مالٍ وإلى جاهٍ لحلّها، فمن دون المال، ومن دون الجاه، قد تبقى عالقةً ومتأزمةً.

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ) بحار الأنوار، ج٧٢، ص٢٠٨، الباب ٦٣ ـ ذي اللسانين والوجهين، ذيل الحديث ١٤.

وقد سبق أن أوردنا الحديث الشريف القائل (**نِعْمَ العونُ ـ على الآخرةِ ـ الدنيا**)[(١)]. وهذا النص يشمل المالَ كما يشمل الجاهَ؛ فإن مفردة الدنيا تعمهما.

* * *

لذلك، قد يكون النصُّ الآتي من الفقرة مورد الشرح، يكشف عن النتيجة المنطقية للتحلي بفضيلة التواضع، والتخلي عن رذيلتي حبّ الجاه وحبّ المال؛ أعني فضيلة الاستقامة.

(**قال** [أبو ذرّ]: **قلت: يا رسول الله! الخائفون، الخاضعون، المتواضعون، الذاكرون الله كثيراً، أهم يسبقون الناس إلى الجنة؟!**

فقال: لا! ولكنّ فقراء المسلمين؛ فإنهم يأتون يتخطون رقابَ الناس، فيقول لهم خزنةُ الجنة كما أنتم؛ حتى تحاسبوا!

فيقولون: بم نحاسب؟! فواللهِ! ما ملكنا فنجور ونعدل، ولا أفيض علينا فنقبض ونبسط، ولكن عبدنا ربَّنا حتى دعانا فأجبنا).

إن قلت: هل إن هؤلاء سيدخلون الجنة لمجرد أنه مسلمون فقراء؟ أم أن هناك سبباً أو أسباباً أخرى؟

الجواب: إن هذه الفقرة لا تريد القول إن هؤلاء سيدخلون بغير عملٍ؛ فالقاعدة القرآنية تقول ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم/ ٣٩]، وإنما هي بصدد بيان أن مَن توفّر على الحدّ الأدنى لاستحقاق الجنة؛ وهو: الإسلام في كليات معتقداته الأساسية وأحكامه الرئيسية، وكان فقيراً لا مسؤوليات، ولا مال له، ولا جاه عنده، إن من كان كذلك لن يوقفه الله لمحاسبته على رؤوس الأشهاد؛ لعدم توفره على أسباب المحاسبة والمساءلة.

مضافاً إلى أن هذه الفقرة قد يُستفاد منها:

أولاً: أنها بصدد تحذيرِ النبيِّ ﷺ المسلمين من الانكباب على الدنيا، وطلبها، والتكالب عليها، ونحو ذلك، ممَّا يكون مدعاةً للزيغ والانحراف.

---

(١) انظر: الفصل الخامس من الباب الثاني من هذا الكتاب.

ثانياً: أنّ على المسلم أن يحرص على النجاة، وعلى الوقوف بين يدي الله تعالى راضياً مرضياً، وليس معاتَباً؛ فضلاً عن أن يكون معاقَباً.

ثالثاً: أن على المسلم أن يدرك أن الله يريد منا العملَ الخالصَ وليس العملَ الكثيرَ.

رابعاً: أن على المسلم أن يروِّض نفسه على التضحية بالدنيا؛ وإن تطلب أن يكون فقيراً فيها ومحروماً منها، إذا كان طلبُها على حساب إسلامه وإيمانه.

وإننا إذا عدنا لقراءة سيرة العبد الصالح؛ السائر على الصراط المستقيم، أبي ذّر رَحِمَهُ الله سنجد أنه كان يحذر ممَّا حذَّر منه مربيه ﷺ، وأدى بالوضع العامّ في الأمة إلى التراجع الأخلاقي. الأمر الذي يعرِّض مَن كان سبباً في ذلك إلى مساءلة بين يدي الله تعالى بشكلٍ مضاعفٍ.

فقد روى مالك بن ظالم، قال: سمعت أبا هريرة، يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلّم أبا القاسم عليه الصلاة والسلام الصادق المصدوق يقول: **إن هلاكَ أمتي، أو فسادَ أمتي، رؤوسُ، أمراء، أغيلمة، سفهاء من قريش)**[1].

وقد ذكر ابن سعد: أن زياداً بعث الحكمَ بن عمرو على خراسان، ففتح الله عليهم، وأصابوا أموالاً عظيمةً! فكتب إليه زياد: أما بعد! فإن أميرَ المؤمنين [يعني معاوية] كتب إليَّ أن أصطفيَ له الصفراءَ والبيضاءَ، فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضةً!

فكتب إليه: سلام عليك، أما بعد! فإنك كتبتَ إليَّ تذكر كتابَ أمير المؤمنين! وإني وجدتُ كتابَ الله قبل كتابِ أميرِ المؤمنين، وإنه ـ واللهِ ـ لو كانت السماواتُ والأرضُ رتقاً على عبدٍ، فاتقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً، والسلام عليك.

قال: ثم قال للناس: اغدوا على فيئكم، فاقسموه)[2].

---

(١) ابن حنبل، أحمد (ت٢٤١ هـ)، مسند أحمد، ج١٣، ٣٥٢، عن أبي هريرة؛ برقم (٧٩٧٤).

(٢) ابن سعد، محمد (ت٢٣٠ هـ)، الطبقات الكبرى، ج٧، ص٢٨ ـ ٢٩، ترجمة الحكم بن عمرو؛=

فالآمِرُ بالفتح يطلب الدنيا بغير حقٍّ، والعاملُ على الفتح يرد طلبه، متذرعاً بالكتاب الكريم! لأنهم أولى بهذه الدنيا منه، فهم من عرَّض نفسه للخطر، وما أكثر من طلب الدنيا بالقرآن بغير حقٍّ.

وإنما انتفض أبو ذر رضي الله عنه، وأنكر على سلطات زمنه؛ حفاظاً على القيم التي تلقاها عن رسول ﷺ، وجاهد تحت رايته من أجلها، فلمّا غلبت الصفراءُ والبيضاءُ نفوسَ الناس جاهَر منكِراً على مَن كان السبب في ذلك، فقرروا نفيه إلى الربذة. فودعه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله:

يا أبا ذرّ! إنك غضبتَ للهِ فارجُ مَن غضبتَ له.

إن القومَ خافوك على دنياهم، وخفتَهم على دينك؛ فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتَهم عليه. فما أحوجهم إلى ما منعتَهم، وما أغناك عمّا منعوك.

وستعلم مَن الرابحُ غداً، والأكثرُ حسداً.

ولو أن السماوات والأرضين كانتا على عبدٍ رتقاً، ثم اتقى اللهَ، لجعل الله له منهما مخرجاً، ولا يؤنسنَّك إلا الحقُّ، ولا يوحشنَّك إلا الباطلُ.

فلو قبلتَ دنياهم لأحبُّوك، ولو قرضتَ منها لأمنوك)[١].

لذلك، يجب التذكيرُ ـ دائماً ـ بأن القيمَ لا يجوز التخلي عنها؛ بسبب إغراءٍ دنيويٍّ يتقدَّم به متسلِّط أو متحكِّم؛ تحت أي عنوانٍ، وبأي ذريعةٍ!

وليبشر مَن يصمد بعاقبةٍ حسنةٍ عند الله كعاقبةِ أبي ذر (رضوان الله عليه)،

=الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج١، ص٣٥٧، ترجمة الحكم؛ برقم (٥٢٥)؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٢، ص٥١، ترجمة الحكم؛ برقم (١٣٢٣).

ورويت الحادثة عن عامل آخر من عمال دولة معاوية؛ وهو: الربيع بن زياد؛ الذي لم يجمع بعدها حتى قبض. وهو الذي روي ـ أيضاً ـ أنه: لما أتاه مقتل حجر بن عدي، قال: اللهم إن كان للربيع عندك خيرٌ فاقبضه. فلم يبرح من مجلسه حتى مات). انظر ترجمته في أسد الغابة، ج٢، ص٢٥٥، برقم (١٦٢٥). ولا مانع من تكرر الأمر والامتناع.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٣٠.

والذي (كان رأساً في الزهد، والصدق، والعلم، والعمل، قوّالاً بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم)[1].

(١) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨ هـ)، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٤٧، ترجمة أبي ذر.



الفصل الحادي والثلاثون

بين الغنى والكفاف

إذا وضعنا بعين الاعتبار أن الله سبحانه موصوف بأنه (حكيم)، وأنه عزَّ اسمه موسوم بأنه (جواد)، فسيكون من السخف القولُ: إن ما أنعم الله تعالى به علينا يجب أن لا نستثمره بالتنعم فيه؛ بأكلِ ما يؤكل، وشربِ ما يشرب، ولبسِ ما يلبس، ونحو ذلك؛ فإن الله تعالى أمر نبيه الكريم ﷺ أن يبدد هذا الوهم، وأمره بأن يستنكر هذه الدعوى الباطلة، فقال له ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف / ٣٢]. وأمر سبحانه ـ من جهةٍ أخرى ـ بإظهار النعمة، فقال ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى/ ١١].

وفي الخبر عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام لعبيد بن زياد: **إظهارُ النعمة أحب إلى الله من صيانتها، فإياك أن تُرِيَنَّ[١] إلا في أحسن زي قومك.**

قال [أي الراوي]: فما رؤي عبيد إلا في أحسن زي قومه حتى مات)[٢].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: **ليتزين أحدُكُم لأخيه المسلمِ كما يتزين للغريب؛ الذي يحب أن يراه في أحسن الهيئة)**[٣].

---

(١) قال محققو الوسائل: كذا ظاهر الأصل إلا أن على الزاي نقطة، وفي المصدر (تتزين).

(٢) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٥، ص٨، كتاب الصلاة، أبواب اللباس، الباب ٢ ـ استحباب إظهار النعمة، وكون الانسان في أحسن زي قومه، وكراهة كتم النعمة، الحديث ١.

(٣) المصدر السابق، ص١١، الحديث ١.

لكن يجب أن نضع بعين الاعتبار أن الإنسان مخلوق (كريم) فليس مسموحاً له ـ إسلامياً ـ أن يُمارس ما من شأنه الحطُّ من كرامته، فليس للمؤمن أن يذل نفسه؛ حتى على مستوى التصدي لمسؤوليات شرعية تفوق في متطلباتها قدرته وإمكاناته، على تفصيل مذكور في محله.

ففي الخبر عن عبدالله بن جبلة، قال: **استقبلني أبو الحسن** عليه السلام؛ **وقد علَّقت سمكةً في يدي! فقال: اقذفها؛ إني لأكره للرجل السري أن يحمل الشيءَ الدنيَّ بنفسِهِ.**

ثم قال: **إنكم قومٌ أعداؤكم كثيرٌ، عاداكم الخلق. يا معشر الشيعة! إنكم قد عاداكم الخلقُ، فتزينوا لهم بما قدرتم عليه**)[1].

وعن ابن القداح قال: كان أبو عبدالله [الصادق] عليه السلام متكئاً عليَّ، أو قال: على أبي، فلقيه عبَّادُ بن كثير؛ وعليه ثيابٌ مرويةٌ[2] حِسانٌ فقال: يا أبا عبدالله! إنك من أهل بيت نبوة، وكان أبوك وكان، فما لهذه الثياب المزيَّنة عليك؟! فلو لبستَ دون هذه الثياب!

فقال له أبو عبدالله عليه السلام: **ويلك يا عباد! ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾** [الأعراف / ٣٢]. **إن الله عزّ وجلّ إذا أنعم على عبدٍ نعمةً أحب أن يراها عليه. ليس به بأسٌ.**

ويلك ـ يا عباد ـ إنَّما أنا بضعةٌ من رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فلا تؤذوني.

وكان عباد يلبس ثوبين قطريين[3])[4].

---

(١) المصدر السابق، ص١٢، الحديث ٢.

(٢) نسبة إلى مرو؛ في خراسان في الشمال الشرقي من إيران حالياً.

(٣) قال محققو الوسائل: في هامش الأصل عن نسخة (قطوبين).

قال ابن الأثير في النهاية، مادة (قطر): ضرب من البرود فيه حمرة، ولها أعلام فيها بعض الخشونة. وقيل: هي حلل جياد تحمل من قبل البحرين.

وقال الأزهري: في أعراض البحرين قرية يقال لها: قطر، وأحسب الثياب القطرية نسبت إليها، فكسروا القاف للنسبة وخففوا).

(٤) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٥، ص١٦، كتاب الصلاة، أبواب=

فبين هذا وذاك ينبغي أن نحسن التعامل مع النِّعم؛ لأنها إنَّما أعطِيت لنا بغرض تيسير شؤون حياتنا وتسييرها أولاً، والاستعانة بها على طاعة الله ثانياً، بإبقائها وسيلةً، ولا نرتقي بها لنجعلها غايةً نضحي بما لا يجوز التضحيةُ به من أجلها، كما يفعله عبيد الدنيا وطلابها.

وفي هذا الصدد جاء هذا التعليم النبوي الراقي بقوله ﷺ:

● **[الفقرة/ ٦٤]:**

(يا أبا ذرّ! إن الدنيا مشغلةٌ للقلوب والأبدان. وإن الله تبارك وتعالى سائلُنا عمّا نعمنا في حلاله فكيف بما أنعمنا في حرامه؟).

وفي هذا البند حقيقتان:

الحقيقة الأولى: أنّ الدنيا مشغلة للقلب والبدن

فماذا يعني الاشتغال بالدنيا؟

وكيف تكون الدنيا مشغلة للقلب وللبدن؟

في مقام الجواب عن ذلك نقول:

أولاً: إن تكوين الإنسان في عالم الدنيا هو أنه مركب من روحٍ وجسدٍ. أي: إن له جانباً سامياً متعالياً؛ ينشد بطبعه الرفعة والكرامة، وله ـ مع ذلك ـ جانبٌ أرضيٌّ؛ يشده إلى حيث المتعة واللذة حتى لو كانت رخيصةً.

والمقصود بالدنيا ـ هنا ـ: كلّ ما من شأنه إيلاء الجسد أهميةً قصوى على حساب الروح. وذلك بأن يقدِّم الإنسانُ شهواتِهِ وغرائزَهُ وجسمانياتِهِ في احتياجاتها؛ باذلاً في سبيل ذلك الغاليَ والرخيصَ.

ومثالاً على ذلك:

=اللباس، الباب ٧ ـ عدم كراهة لبس الثياب الفاخرة الثمينة إذا لم تؤدِّ إلى الشهرة بل استحبابه، الحديث ٤.

١ ـ أن يسهر في الليل، ويكد في النهار؛ طلباً للأموال والجاه والشهرة الدنيوية، ولا يهمه ما يقع من تقصير في حقوق ربه ونبيه وأئمته بسبب هذا الكد وذاك السهر.

٢ ـ أن يتعلم شؤون معيشته ودنياه؛ حتى يصنف ـ عند الناس ـ مثقفاً موسوعياً! بدون أن يكون ملماً أدنى إلمامٍ بشؤون معاده وآخرته.

ومن ثم نجد الكثير من الناس يخفقون في التعامل مع النِّعَم، فبدل أن تتحول أموالهم إلى طرقٍ سالكةٍ تؤدي بهم إلى الجنةِ سراعاً، تتحول إلى عقباتٍ كأداءَ تحول بينهم وبين الرضا والرضوان، بل تصبح منزلقاتٍ خطرةً تودِي بهم إلى جهنم.

ومن ثَمَّ، فإنّ لنا أن نقول: إذا كان الصابرون قلةً، فالشاكرون أقلُّ!

ثانياً: تتحول الدنيا إلى مشغلةٍ للقلب.

ويحصل ذلك إذا صارت غايةً لأهلها بدل أن تبقى وسيلةً، فالمفروض في الدكان والمتجر أن يكونا وسيلةً إلى تحصيل المال من أجل تأمينِ عيشٍ كريمٍ؛ له ولمن يعوله. أما إذا تحولا إلى معبودٍ ووثنٍ؛ يُضحى في سبيل المحافظة عليه بالنفس والنفيس، فإنه يتحول إلى وحشٍ كاسرٍ؛ يأكل بدل أن يؤكَل.

وإذا صار التاجرُ خادماً لدكانه ولأمواله صارت الدنيا شغله الشاغل له في قلبه وبدنه، وألهته عن أوجب واجباته، وشغلته عن أقرب مقربيه. عندئذٍ تسوء أخلاقُهُ، وتتدهور صحتُهُ؛ لينتهي به الحالُ إلى صفقةٍ خاسرةٍ في سوقٍ بائرةٍ.

قال تعالى ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ [الفتح/ ١١].

أقول: المخلَّف هو المتروك في المكان خلف الخارجين من البلد(١). وفي

(١) الطبرسي، أبو الفضل (ت٥٤٨ هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، ذيل الآية الكريمة.

تعبير (المخلفون) لطفٌ كما لا يخفى؛ فإنهم ـ في الحقيقة ـ إنَّما صاروا (مخلَّفين) لأنهم اختاروا قبل ذلك أن يكونوا (متخلِّفين).

قال الطبرسي ـ في بيان شأن النزول ـ: لما أراد [أي النبي ﷺ] المسير إلى مكة، عام الحديبية، معتمراً، وكان في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، استنفر من حول المدينة إلى الخروج معه، وهم: غفار، وأسلم، ومزينة، وجهينة، وأشجع، والدئل؛ حذراً من قريش أن يعرضوا له بحربٍ، أو بصدٍّ.

وأحرم بالعمرة، وساق معه الهديَ؛ ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً. فتثاقل عنه كثيرٌ من الأعراب، فقالوا: نذهب معه إلى قوم قد جاؤوه فقتلوا أصحابه؟! فتخلفوا عنه، واعتلُّوا بالشغل)[١].

فالسبب في اختيار هذا التعبير هو أنهم لَما اختاروا أن يتخلفوا صاروا جديرين بأن يرمَى بهم في الخلف؛ فيصبحوا (مخلَّفين).

وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون/ ٩].

قال العلامة الطباطبائي: المراد بإلهاء الأموال والأولاد عن ذكر الله إشغالُها القلبَ بالتعلق بها؛ بحيث يوجب الإعراضَ عن التوجه إلى الله بما أنها زينة الحياة الدنيا. قال تعالى ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ الكهف/ ٤٦، والاشتغال بها يوجب خلوَّ القلب عن ذكر الله ونسيانَه تعالى؛ فلا يبقى له إلا القولُ من غيرِ عملٍ وتصديقٍ قلبيٍّ، ونسيانُ العبدِ لربه يستعقب نسيانَه)[٢].

الحقيقة الثانية: أن الله يسأل عباده عن تعاملهم مع نعمه

حقيقة أن الله تعالى يسأل عباده؛ عن طريقة تعاملهم مع نعمه عندهم، هو ما

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١٩، ص٢٩١، ذيل الآية المباركة.

ينسجم ـ تماماً ـ مع الدور الرباني الذي أنيط بالإنسان؛ الذي جعِل خليفة لله تعالى[(١)]، وكذلك تصدى ليكون حامل الأمانة الكبرى[(٢)].

* قال تعالى ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات/ ٢٤].

* وقال تعالى ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر/ ٩٢].

* وقال تعالى ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف/ ٦].

ولا يجب أن نقرأ هذه المسألة ونفسرها على أساس أن الله لا يريد من عباده أن يتنعموا بما أنعم به عليهم، وإنما يجب أن نقرأها في سياق (المسؤولية) التي تفرض على المنعَم عليهم التزاماتٍ تجاه خالقهم وشركائهم في الإنسانية والمخلوقية.

وعليه، فلا ينبغي للأثرياء، ولا للعلماء، ولا لذوي الجمال والكمال...، وكلهم من ذوي الرزق والنعمة، لا ينبغي لهم أن يفرحوا بما آتاهم الله من فضله إلا بقدر ما يكونون سائرين في طريق الطاعة؛ بأن ينفق كلٌّ منهم ممَّا آتاه الله على مستحقيه؛ فالعالم يعلِّم، والغني يتصدق، والطبيب يعالج...

وللعلامة المحقق المجلسي كلامٌ جامع يجدر نقله، قال فيه:

اعلم أن الحسابَ حقٌّ؛ نطقت به الآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة؛ فيجب الاعتقاد به. وأما ما يُحاسَب العبدُ به، ويُسأَل عنه، فقد اختلف فيه الأخبار:

ـ فمنها: ما يدلّ على عدم السؤال؛ عمّا تصرف فيه من الحلال.

ـ وفي بعضها: لحلالها حسابٌ، ولحرامها عقابٌ.

---

(١) وهذا ما جاء في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة/ ٣٠].
وهذه الخلافة؛ وإن كانت أساساً لآدم عليه السلام، لكنها (غير مقصورة على شخص آدم عليه السلام، بل بنوه يشاركونه فيها)، ومن هنا صح القول نوع (الإنسان خليفة منه في الأرض) [الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص١١٦، ج١٠، ص٣٠٣].

(٢) وهذا ما جاء بيانه في قوله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب/ ٧٢].

ويمكن الجمع بينهما:

ـ بحمل الأولى على المؤمنين، والأخرى على غيرهم.

ـ أو الأولى على الأمور الضرورية؛ كالمأكل والملبس والمسكن والمنكح، والأخرى على ما زاد على الضرورة؛ كجمع الأموال زائداً على ما يحتاج إليه، أو صرفها فيما لا يدعوه إليه ضرورة، ولا يستحسن شرعاً. ويؤيده بعض الأخبار...)[1].

الكفاف نعمة الأتقياء:

ثم إن الله تعالى؛ وهو العالم بعباده، شاءت حكمتُه أن لا يجعل كرامةَ أهلِ كرامتِهِ بالغنى والثروة؛ إلا بنحو الاستثناء والندرة، بل شاءت حكمتُهُ أن يقدِّر للأتقياء أن يكونوا من ذوي الكفاف في الغالب.

وقد تسأل: ما هو السر والسبب؟!

وأجيب: قد يكون السرُّ في ذلك أن محبةَ الله لعبدِهِ التقيِّ، ومعرفَتَه بقدراتِهِ، تدعو إلى أن يقدِّر له (الحرمان)؛ وفي حالٍ أفضلَ (الكفافَ)، حتى لا يكون ما يسدي إليه من معروفٍ سبباً لانتكاستِهِ الأخلاقيةِ والروحيةِ؛ كما نشاهده في الغالب.

قال تعالى ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف/ ١٠٣]، وقال تعالى ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ/ ١٣].

فالآيتان الكريمتان تؤكدان على حقيقةٍ لا يمكن إنكارها؛ وهي أن الغالبية العظمى من الناس لا يتقنون حسنَ التعامل مع النعم، ويتجلى ذلك في أنهم يستثمرونها في غير ما يرتقي بهم إلى مدارج الكمال، بسبب أنهم لا يسيرون بها على الصراط المستقيم.

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج٧، ص٢٧٥ ـ ٢٧٦، كتاب المعاد، الباب ١١ ـ محاسبة العباد، وحكمه تعالى في مظالمهم وما يسألهم عنه...

من قبيل: أن يستغل العالمُ علمه في التلاعب بعقول الناس؛ فيجعل الحقَّ باطلاً، والباطلَ حقاً، طلباً منهم للدنيا والجاه والشهرة...

ومن قبيل: أن يستغل الثريُّ ما آتاه الله من مالٍ للتعالي على الناس بغير حقٍّ، أو يشتري به ذممَ الضعفاء للهيمنة عليهم وعلى غيرهم بوساطتهم.

ومن قبيل: أن يستغل السياسيُّ ما أنعم الله عليه به من ولايةٍ؛ كبيرةٍ أو صغيرةٍ، للإفساد في الأرض، بدل أن يستثمرها في الإصلاح.

ولهذا، نقرأ في المقطع التالي؛ من الوصية مورد الشرح، ما يشير إلى دعوتين من دعواته ﷺ، خَص بإحداهما مَن يحب، وبالثانية مَن لا يحب؛ فقال ﷺ:

- **[الفقرة/ ٦٥]**:

(يا أبا ذرّ! إني قد دعوتُ الله جل ثناؤه:
١ ـ أن يجعل رزق مَن يحبني الكفافَ).

وهي دعوةٌ خيرةٌ من رسول الله ﷺ لِمن يحب؛ حرصاً منه ﷺ على أن لا يشغله عن الله تعالى شاغلٌ؛ فإن ذلك خيرٌ له؛ لأنّ الكفاف هو: الذي لا يفضل عن الشيء، ويكون بقدر الحاجة إليه)[(١)].

وقد كتب الإمام علي عليه السلام لولده محمد بن الحنفية كتاباً، جاء فيه ما يصلح بياناً لخلفية الحضّ على الكفاف، فقال: ... **ومَن اقتصر على بُلغة الكفافِ فقد انتظم الراحةَ، وتبوأ خفضَ الدعة)**. فالكفافُ سببٌ لتوفير الراحة المستقرة، وسببٌ للعيش المتواضع.

لكن الإمام عليه السلام لم يكتفِ بذلك، بل أضاف قولَه: **الحرصُ داعٍ إلى التقحمِ**

---

(١) ابن الأثير، مجد الدين (ت٦٠٦ هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (كفاف). ومثله قال الطريحي (ت١٠٨٥ هـ)، في مجمع البحرين.

في الذنوبِ)[١]، فالتوسُّع في الرزق قد يوقع؛ بل هو يشجع، على اقتحام عالم المعصية؛ وهذا ما لا يرضاه الله تعالى لعباده، ولا يرضاه الرسول ﷺ لمتبعيه ومحبيه.

وفي المقابل نجد أن دعوته ﷺ لمن لا يحب بكثرة المال والولد؛ عقوبةً له، وإشغالاً لقلبه، من باب ما نُبِّه إليه من سنةٍ إلهيةٍ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران/ ١٧٨].

فقال ﷺ:

(٢ ـ وأن يعطي مَن يَبغضني كثرة المال والولد).

وقد عقد الشيخ الكليني رحمه الله باباً بعنوان (الكفاف)[٢]، نورد ما جاء فيه للاستنارة بما جاء عن النبي ﷺ وأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام:

١ ـ عن أبي عبيدة الحذاء قال: **سمعت أبا جعفر** عليه السلام **يقول: قال رسول الله** ﷺ: **قال الله عزّ وجلّ: إن من أغبط أوليائي عندي رجلاً خفيفَ الحال، ذا حظٍّ من صلاةٍ، أحسنَ عبادةَ ربِّه بالغيب، وكان غامضاً**[٣] **في الناس، جعل رزقَهُ كفافاً، فصبر عليه، عُجِّلت منيتُهُ، فقلَّ تراثُه، وقلَّت بواكيه)**[٤].

٢ ـ عن السكوني، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: **طوبى لمن أسلم وكان عيشه كفافاً)**[٥].

٣ ـ النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: **قال رسول الله (صلى**

---

(١) من لا يحضره الفقيه، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٦، ص١٨، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٦٣ ـ استحباب ترك ما زاد عن قدر الضرورة من الدنيا، الحديث ٧.

(٢) في كتاب الإيمان والكفر في الجزء الثاني من أصول الكافي.

(٣) أي مغموراً غير مشهور.

(٤) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص١٤٠، كتاب الكفر والإيمان، باب الكفاف، الحديث ١.

(٥) المصدر السابق، الحديث ٢.

الله عليه وآله): اللهم ارزق محمداً وآلَ محمدٍ، ومَن أحب محمداً وآل محمد، العفافَ والكفافَ، وارزق مَن أبغض محمداً وآلَ محمدٍ المالَ والولدَ)[١].

٤ ـ عن إبراهيم بن محمد النوفلي، رفعه إلى علي بن الحسين (صلوات الله عليهما) قال: **مرّ رسول الله ﷺ براعي إبلٍ فبعث يستسقيه، فقال: أما ما في ضروعها فصبوح الحي**[٢]**، وأما ما في آنيتنا فغبوقهم**[٣]**! فقال رسول الله ﷺ: اللهم أكثر مالَهُ ووَلَدَهُ!**

ثم مرّ براعي غنم فبعث إليه يستسقيه فحلب له ما في ضروعها، وأكفأ ما في إنائه في إناء رسول الله ﷺ، وبعث إليه بشاةٍ، وقال: هذا ما عندنا، وإن أحببتَ أن نزيدك زدناك؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: **اللهم ارزقه الكفافَ.**

فقال له بعضُ أصحابه: يا رسول الله! دعوتَ للذي ردَّك بدعاءٍ عامتُنا نحبه! ودعوتَ للذي أسعفك بحاجتِك بدعاءٍ كلنا نكرهه!!

فقال رسول الله ﷺ: **إن ما قلَّ وكفى خيرٌ ممَّا كثُر وألهى، اللهمّ ارزق محمداً وآلَ محمدٍ الكفافَ)**[٤].

وفي هذه الحادثة ما يكشف عن أن الثراءَ قد يجعل الإنسانَ لئيماً؛ يخرج من دائرة الكرام والكرماء؛ إلا مَن عصم الله تعالى. ونجد مثالاً سيق في القرآن الكريم وهو (قارون)؛ الذي صيَّره ثراؤُهُ الفاحشُ جَحوداً لنعم الله وفضله حتى قال قارون هذا ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص/ ٧٨]؛ إذ وقع في خللٍ فكريٍّ كبيرٍ؛ كما تكشفه مقولته هذه.

ولذلك، دعت الحاجةُ إلى جوابٍ سريعٍ وحاسمٍ؛ هو قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص/ ٧٨].

---

(١) المصدر السابق، الحديث ٣.

(٢) أي ما يُشرب أول النهار.

(٣) أي ما يُشرب في المساء.

(٤) المصدر السابق، الحديث ٤.

وليست هذه مشكلةَ قارون وحده، وإنما هي ظاهرةٌ عامةٌ في البشر، ويشهد لذلك قولُ الله تعالى ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر/ ٤٩].

والسرُّ الدقيقُ في ذلك تعبِّر عنه آيةٌ قرآنيةٌ؛ قال فيها الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق/ ٦]. ومن هنا، ندرك خلفية دعاء الرسول ﷺ بالكفاف؛ الذي لا يعني الفقر، وإنما يعني: سترَ الحال، وكونَ الإنسان قد أمّن معيشته بدون زيادة تؤدي إلى إشغاله وإلهائه بما لا يكون مهماً لمعاشِهِ ومعادِهِ.

ولا نعني بذلك: الدعوةَ إلى الكسل والخمول؛ فهذا مرفوضٌ في الإسلام؛ فقد ورد في الدعاء **(اللهم إني أعوذ بك من الكسل)**[١].

وقد نهى الإمام الصادق عليه السلام بعض ولده بقوله: **إياك والكسلَ والضجرَ؛ فإنهما يمنعانِك من حظِّك من الدنيا والآخرة)**[٢].

ونحو ذلك صدر عن الإمام الباقر عليه السلام؛ حيث قال: **إني لأبغض الرجل ـ أو أبغض للرجل ـ أن يكون كسلانَ عن أمر دنياه. ومن كسل عن أمر دنياه فهو عن أمر آخرته أكسل)**[٣].

وإنما نقول: إن المهم هو أن لا يستولي حبُّ المال والدنيا على القلب؛ وهو الآفة التي تجعل الإنسانَ منكوساً في تفكيره، ومنكوساً في همه واهتمامه، وبالتالي سينتكس في: مسيره، ومصيره.

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٥٨٦، كتاب الدعاء، باب دعوات موجزات لجميع الحوائج، الحديث ٢٤، عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٢) المصدر السابق، فروع الكافي، ج٥، ص٨٥، كتاب المعيشة، باب كراهة الكسل، الحديث ٢.

(٣) المصدر السابق، الحديث ٤.



الفصل الثاني والثلاثون

منهجان في الحياة

● **[الفقرتان/ ٦٦ ـ ٦٧]:**

> **(يا أبا ذرّ! طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة؛ الذين اتخذوا أرض الله بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً، واتخذوا كتاب الله شعاراً، ودعاءه دثاراً، يقرضون الدنيا قرضاً.**
> **يَا أَبَا ذَرٍّ! حرثُ الآخرةِ العملُ الصالح، وحرثُ الدنيا المالُ والبنون).**

بالعمل يتفاوت الناس:

لو تساءلنا عن سر التفاوت بين الناس لأمكننا القول ـ بدون ترددٍ ـ إنه (العمل).

والسبب في ذلك: أن الناسَ ـ بالنسبة إلى العمل ـ طوائف:

الأولى: طائفةٌ تعمل بجدٍّ

الثانية: طائفةٌ تعمل بتراخٍ

الثالثة: طائفةٌ لا تعمل

أما الطائفة الأولى: فهي بدورها تنقسم إلى فريقين:

الفريق الأول: الصالحون

الفريق الثاني: غير صالحين

وأما الطائفة الثانية: فهي تتوزع على مراتب لا تكاد تُعد وتحصى.

وأما الطائفة الثالثة: ففئة الكسالى.

ولكلِّ طائفةٍ من هذه الطوائف؛ بصنوفها ومراتبها، نصيبٌ ممَّا اكتسب. وهذا ما مبدأ بينته الآيات القرآنية في مواضع كثيرة؛ منها:

أ ـ قول الله تعالى ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور/ ٢١].

ب ـ قوله تعالى ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر/ ٢ ـ ٣].

ج ـ قوله تعالى ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة/ ٧ ـ ٨].

فإذاً، للعمل دورٌ رئيسٌ في النجاح والإخفاق، فبسببه يتقدم المتقدمون ويتأخر المتأخرون.

وهذا المقطع الشريف؛ من هذه الوصية، يؤكد على أهمية اختيار الأهداف، وذلك بالتأكيد على أن الدنيا ليست هي، أو لا ينبغي أن تكون، مبتغى الحصيف والحكيم؛ فإنها متاعٌ قليلٌ؛ وهي من الزائل الفاني، بل إن مبتغاه يجب أن يكون هو الآخرة؛ التي هي النعيم الحقيقي والباقي.

وهذا يفرض أن لا يتعلق طالب الآخرة؛ التي فيها السعادة الحقيقية والقصوى، أن لا يتعلق بالدنيا، وإنما يأخذ منها الكفاف، ويقتصر فيها على البلغة ف(**طوبى**) لهؤلاء.

وسواء فسَّرنا (طوبى) بالجنة[1]، أو بأنها تعبير عن الهناء الذي ينتظر ممن قيلت في حقه؛ بعد توفره على أسباب ذلك.

---

(١) قال ابن الأثير: (طوبى اسم الجنة. وقيل هي شجرة فيها) [النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (طيب)].
=

فأهل (طوبى) ـ هؤلاء ـ هم؛ كغيرهم من الناس، يحتاجون إلى ما يحتاج إليه الناسُ، وتحكمهم جميعاً قوانين واحدة، لكنهم يختلفون عنهم في:

أن أهل الدنيا، والراغبين فيها، يخططون كما لو أنهم سيُخلَّدون في الدنيا، فكلُّ همِّهم ـ أو جُلُّه ـ محصورٌ في تأمين لقمة العيش، مع الحرص على أن يكونوا هم الأفضلَ؛ من أجل أن يمتازوا من الناس؛ تناسباً مع ما يصنفون أنفسَهم فيه من مكانةٍ ومنزلةٍ.

أما أهل (طوبى) فعيشُهم متواضعٌ؛ لأنهم زهدوا في الدنيا، فلا يرون فيها غيرَ محطةٍ مؤقتةٍ، لا يجدر بهم أن يجعلوها كلَّ همِّهم ـ ولا جلَّه ـ فقد أُوتوا خيراً كثيراً هو (الحكمة)؛ التي جعلت من كلِّ واحدٍ منهم مُجِداً في وضع كلّ شيء في موضعه، فلا يقدمون المتأخرَ، ولا يؤخرون المتقدمَ، فالدنيا تبقى دنيا، والآخرةُ هي عندهم دارُ القرار، منطقُهم الذي يحكم تعاملَهم وإياها هو منطقُ مؤمنِ آل فرعون؛ الذي قال ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر/ ٣٩].

وما دام المنطقان مختلِفَين فسيكون السلوكُ مختلفاً بين هؤلاء وأولئك، فريقٌ يجمع للدنيا، وفريقٌ يدخر للآخرة.

ولكلٍّ من الفريقين منزلٌ وأثاثٌ:

= وقال فخر الدين الطريحي:

قيل طوبى: الخير وأقصى الأمنية. وقيل طوبى اسم للجنة بلغة أهل الهند. وقيل طوبى شجرة في الجنة) [مجمع البحرين، مادة (طيب)].

وجاء في الخبر عن الإمام موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: **شجرةٌ أصلُها في داري، وفرعُها على أهل الجنة. ثم سُئِل عنها مرةً أخرى فقال: في دار عليٍّ. فقيل له في ذلك. فقال: إن داري ودار علي في الجنة بمكان واحدٍ)** [الحافظ الحسكاني، وعنه: بحار الأنوار، ج٨، ص٨٧، باب الجنة ونعيمها].

وهناك تفسير عرفاني لـ(طوبى) تبناه ابن عربي في الفتوحات، وذكره ـ بالتبع ـ الملا صدرا في الأسفار؛ لا يناسب طبيعة هذه الدراسة ومستواها فليراجعه الطالبون في ج٥، ص٣٧٧، الفصل الثالث والثلاثون: في شجرة طوبى وشجرة زقوم، من الباب الحادي عشر ـ في المعاد الجسماني...

١ ـ البساط عند أهل الدنيا عرصاتٌ واسعةٌ؛ تسمى قصراً حيناً، وداراً حيناً، وشقة حيناً...

وأما البساط عند أهل طوبى فهو (الأرض)؛ التي هي فسحة الله الواسعة. فإن هو حظي بقطعةٍ منها؛ تملكاً أو استئجاراً، فهي نعمةٌ تدفعه إلى أن يحوِّلها إلى محرابٍ؛ يشكر الله فيه وبسببه، وإن لم يحصل فهو مبتلى؛ ليس له إلا أن يكون صابراً.

٢ ـ الفراش عند أهل الدنيا هو: الأسرَّة، والمراتب الفاخرة اللينة؛ الذي قد يكلِّف مبالغَ طائلةً يسيل لها لعابُ الفقراء.

أما الفراش عند أهل طوبى ف(تراب الأرض)، لا يشغله الحصولُ على ما هو ألين منه عمّا هو مكلَّف به. وهو هنا ـ أيضاً ـ إن حصل على فراشٍ وثيرٍ جعل منه نعمةً أخرى؛ يشتغل ـ بسببها ـ بالفكر والذكر والشكر.

٣ ـ الطِّيب والعطور عند أهل الدنيا هي أفخر ما تفتقت عنه عقولُ الصناع المهرة من أصناف وأجناس، يحلم ضعفاءُ الحال بالسماع عنها، وقد لا تطمح نفوسُهم حتى بمجرد شمِّها، وإن تأتى له شمُّها فهو إنَّما يشمها في أبدان الآخرين وملابسهم، وليس في بدنه وملبسه.

أما الطِّيب عند أهل طوبى فهو (**من أخلاق الأنبياء**)[1]، كما أن ثقافة هذا الفريق من الناس تقول (**العطر من سنن المرسلين**)[2]. بل لقد كان رسول الله ﷺ ـ كما ورد في الخبر عنه ـ (**ينفق في الطيبِ أكثرَ ممَّا ينفق في الطعام**)[3].

غير أن الأوضاعَ الماديةَ لدى أهل طوبى ـ وهم المؤمنون ـ قد لا تتيح لهم ـ دائماً ـ التطيبَ بالعطر؛ لقلة ذات اليد، أو لارتفاع ثمنه، لكنهم لا يستسلمون

---

(١) كما رواه الشيخ الكليني في الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٢، ص١٤٢، كتاب الطهارة، أبواب آداب الحمام والتنظيف والزينة، الباب ٨٩ ـ استحباب التطيب، الحديث ٣.

(٢) المصدر السابق، الحديثان ٤، ٥، وهما مرويان عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص١٤٦، كتاب الطهارة، أبواب آداب الحمام والتنظيف والزينة، الباب ٩٢ ـ استحباب كثرة الإنفاق في الطيب، الحديث ١، عن الإمام الصادق عليه السلام.

للرائحة الكريهة، فيكتفون عند ذلك بـ(الماء)؛ وهو أساس التطيب؛ حتى روي أن امرأة عربية أوصت ابنتها بوصايا؛ فكان منها: وليكن أطيب طيبك الماء)[١].

ومن اللازم علينا؛ بمناسبة الحديث عن الطيب هنا، أن نقول: إن ما جاء به الإسلام من أحكام وآداب؛ لتنظيم مسألة النظافة وما يرتبط بها، لا يتيسر حصرُه. فقد عالجت النصوصُ الشرعيةُ هذه المسألةَ بشموليةٍ وإسهابٍ وتفصيلٍ؛ لا نجده عند أصحابِ أيِّ ملةٍ أخرى.

وتلتقي مجملُ تلك النصوص في إزالةِ المنفراتِ أولاً، والحرصِ ـ قدر المستطاع ـ على إدامةِ المحبةِ بين الناس عبرَ الروائحِ الطيبةِ.

ونكتفي ـ من تلك النصوص ـ بما روي عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، حيث قال:

خمس من السنن في الرأس، وخمس في الجسد.

ـ فأما التي في الرأس: فالسواك، وأخذ الشارب، وفرق الشعر، والمضمضة، والاستنشاق.

ـ وأما التي في الجسد، فالختان، وحلق العانة، ونتف الإبطين، وتقليم الأظفار، والاستنجاء)[٢].

وكما ترى، فإن هذه السنن ـ جميعاً ـ تؤكد على إزالة: ما يضُر، أو ما ينفِّر.

وعلى أي حال، فإن أهل طوبى يحرصون ـ أشد الحرص ـ على إزالة الروائح غير الطيبة؛ التي هي إفرازاتٌ طبيعيةٌ امتحن الله بها الناس؛ بما فيهم المؤمنون. لكنهم لا يشغلهم السعي في الحصول على الرائحة الطيبة عن الاهتمام بالفرائض

---

(١) العسكري، أبو هلال (ت٣٩٥ هـ)، جمهرة الأمثال، ج٢، ص٢٤١، المثل (١٦١٩) ـ قولهم ماء ولا كصداء.

(٢) الخصال للشيخ الصدوق، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٢، ص١١، كتاب الطهارة، أبواب السواك، الباب ١ ـ تأكد استحبابه وعدم وجوبه...، الحديث ٢٣.

التي افترضها الله عليهم، وهو سائلهم عنها اليوم أو غداً، بل يكتفون ـ من باب تقديم الأهم على المهم ـ على الماء؛ **(والحمد لله الذي جعل الماء طهوراً)**[١].

٤ ـ أما الملابس الملاصقة للبدن عند أهل الدنيا؛ وهي (الشعار)، فهي آخر ما توصل إليه النساجون والصناعيون؛ ممَّا تقرحت عيونُهم في نسجه، وبذلت الأموال الطائلة في تطويره وتجويده وتسويقه؛ ليقتنيه هؤلاء وأولئك طلباً للراحة والنعومة؛ حتى لا يؤذيهم خشونةٌ في نسجٍ، أو غلظةٌ في قماش.

أما أهل طوبى فلباسهم؛ الذي يلاصق أبدانهم ليلاً ونهاراً، فهو القرآن الذي يرسخ التقوى في نفوسهم فـ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف/ ٢٦].

٥ ـ أغطية أهل الدنيا؛ التي يتوقون بها البرد والحر، تتمثل في أفخر الأنواع وأجودها من القطن والصوف والديباج...؛ لأنّ كلَّ همِّهم وما يعنيهم هو أن لا يمس أبدانَهم حرٌّ ولا بردٌ.

أما أهل (طوبى) فإن همَّهم الأولَ هو التوقي من المخاطر الحقيقية والكثيرة؛ التي يقرون بعجزهم الذاتي عن مواجهتها؛ إلا أن يعينهم الله تعالى على ذلك. لذلك، فإن دثارَ أهلِ طوبى وغطاءَهم، هو الدعاء.

والجامع بين اللباس والدعاء هو أنهما يشتركان في أنهما وسيلةُ وقايةٍ. قال تعالى عن اللباس ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل/ ٨١]، وعن الدعاء قال رسول الله ﷺ: **الدعاء سلاح المؤمن)**[٢].

وكان الإمام الرضا عليه السلام يقول لأصحابه: **عليكم بسلاح الأنبياء. فقيل: وما سلاح الأنبياء؟! قال: الدعاء)**[٣].

---

(١) تهذيب الأخبار للشيخ الطوسي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١، ص٤٠١، كتاب الطهارة، أبواب الوضوء، الباب ١٦ ـ استحباب الدعاء بالمأثور عند النظر إلى الماء وعند الاستنجاء، الحديث ١.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٤٦٨، كتاب الإيمان والكفر، كتاب الدعاء، باب أن الدعاء سلاح المؤمن، الحديث ١.

(٣) المصدر السابق، الحديث ٥.

٦ ـ وأخيراً، فإن الدنيا في منطق أهلها وأبنائها المولعين بها تمثل عندهم الفرصة الذهبية؛ التي يجب اغتنامُها على أفضل وجه.

وأما أهل طوبى فالدنيا ـ عندهم ـ ليست سوى محطةِ امتحانٍ وابتلاءٍ؛ تطول مدتها أو تقصر، دون أن تصطبغ بغير هذه الصبغة المؤقتة.

لذلك، فإنهم (**يقرضونها قرضاً**) والقرض ـ كما فسره أهل اللغة ـ هو: القطع[1]. فالدنيا بالنسبة إليهم حالها حال قطعة القماش التي يقتطع منها مورد الحاجة.

فنحن ـ إذاً ـ أمام مدرستين في الهم والاهتمام؛ يبدأ دورهما وتأثيرهما في الإنسان في الفكر والنفس، وينتهي بالمصير والعاقبة، مروراً بشؤون المعاش العادية؛ على مستوى بقعة السكن وقطعة الأرض، ونوعية الأثاث، ومستوى الملابس الخارجية والداخلية.

وتأسيساً على هذا، فإن اهتمامَ أهل طوبى يتجسَّد في حرصِهم الشديدِ على زراعةِ أرضِهم بـ(حرث الآخرة)؛ الذي هو (العمل الصالح) ـ كعنوانٍ عامٍّ ـ ينتظم فيه كلُّ عملٍ نافعٍ يُراد به وجهُ الله تعالى، ولم يُرَد فيه نهي من عنده سبحانه في الكتاب أو السنة.

أما الراغبون في الدنيا فكلُّ همِّهم يتمثَّل في التكاثر بين الناس بزهرة الحياة الدنيا؛ وهي (المال والبنون) حتى لو تسبَّبت في بُعدِهم عن الله تعالى وخسرانهم.

وفي هذا جاء التحذير للمؤمنين خصوصاً، وعبرهم لعموم الناس؛ فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون/ ٩].

(١) ابن الأثير، مجد الدين (ت٦٠٦ هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (قرض). وجاء نحوه في مجمع البحرين للطريحي.



الفصل الثالث والثلاثون

مؤشّرات الصلاح

● [الفقرة/ ٦٨]:

(يا أبا ذرّ! إن ربي أخبرني؛ فقال: وعزتي وجلالي! ما أدركَ العابدون دركَ البكاءِ، وإني لأبني لهم في الرفيق الأعلى قصراً لا يشركهم فيه أحدٌ).

من المهم جداً أن يكون الإنسان صالحاً، ومن المهم ـ أيضاً ـ أن يتعرَّف الإنسان على علامات صلاحه. وهذا الصلاحُ قد يخفى ليس على الناسِ فقط، بل يخفى على الفردِ الصالحِ نفسِهِ.

ويجب علينا أن نؤكد على: أن ما سبق من بنودٍ في هذه الوصية؛ وما سيأتي أيضاً، لا ينفعنا أن نعرفه ونحيط به خُبراً؛ ونقف عند ذلك! بل لا بد أن نسعى ـ بجدٍّ ـ إلى تطبيقِهِ في أقوالنا وأفعالنا، وأن نعيشه مشاعرَ وعواطفَ؛ بها نحب ما يتبين لنا أنه محبوبٌ، وبها نكره ما يتبين لنا أنه مكروهٌ، وعلى أساسها: نوالي مَن يجب موالاتُه، ونبرأ ممن يجب البراءة منه.

وقد تضمن هذا المقطعُ عدداً من الوصايا نتناولها ضمن محطات:

المحطة الأولى: البكاء

لا بأس أن نورد ما قدمناه؛ في فصلٍ سابقٍ[1]، وجاء فيه:

قال الإمام علي عليه السلام: **البكاء من خيفة اللهِ؛ للبعد عن الله، عبادةُ العارفين)**[2].

للعارفين بالله عشقٌ وتولُّهٌ يثير في دواخلهم حالةً من القلق والاضطراب؛ مخافةَ أن يتخلَّفوا عن الركب لأي سبب. لذلك، فإنهم ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج/ ٣٥].

والسر في هذا القلق والخوف ينبع من معرفتهم أنهم نالوا ما لا يجوز التفريطُ به، وما يجب المحافظةُ عليه من الإنجاز؛ لأنهم لم يحصلوا عليه إلا بعد جهدٍ جهيدٍ وعناءٍ شديدٍ، فهم الذين وصفهم معشوقُهم بقوله ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت/ ٦٩].

وبسبب ما يترتب على البكاء من آثارٍ تربويةٍ هامةٍ جاءت نصوصٌ عديدةٌ لتبيين ذلك، كما نقرأ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **ما من عينٍ إلا وهي باكيةٌ يومَ القيامة؛ إلا عيناً بكت من خوفِ اللهِ، وما اغرورقت عينٌ بمائها من خشيةِ الله عزّ وجلّ، إلا حرم الله عزّ وجلّ سائرَ جسدِهِ على النار، ولا فاضت على خده فرهق ذلك الوجه قترٌ ولا ذلةٌ. وما من شيءٍ إلا وله كيلٌ ووزنٌ؛ إلا الدمعة، فإن الله عزّ وجلّ يطفئ باليسير منها البحار من النار، فلو أن عبداً بكى في أمةٍ لرحم الله عزّ وجلّ تلك الأمةَ ببكاءِ ذلك العبد)**[3].

ومن أجل هذا الدور وذاك الثواب، جهد المعلمون الربانيون على التأكيد عليه، وضرورة تحصيله تقرباً إلى الله تعالى.

---

(١) في الثمرة الرابعة من ثمرات معرفة الله؛ في المسألة ٢؛ من الفصل ٣؛ من الباب ٢.

(٢) الواسطي، علي بن محمد (ق ٦ هـ)، عيون الحكم والمواعظ، ص٥٣.

(٣) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي كتاب الدعاء، باب البكاء، الحديث ٢.

فقد روي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام، أنه قال: **ما من قطرةٍ أحب إلى الله عزّ وجلّ من قطرة دموعٍ في سواد الليل؛ مخافةً من الله، لا يُراد بها غيره)**[1].

كما ورد التأكيد على بذل الوسع والطاقة بالتدرب عليه، فقد روى عنبسة العابد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال: **إن لم تكن [يكن] بك بكاءٌ فتباكَ)**[2].

لهذا، جاء في وصيته صلى الله عليه وآله لأبي ذر (رضوان الله عليه) قوله:

(يا أبا ذرّ! إن ربي أخبرني؛ فقال: وعزتي وجلالي! ما أدرك العابدون دركَ[3] البكاءِ. وإني لأبني لهم في الرفيق الأعلى قصراً لا يشركهم فيه أحدٌ) [الفقرة/ ٦٨].

وفي هذا الفقرة إنباءٌ نبويٌّ؛ بإخبارٍ ربانيٍّ معززٍ بقسمٍ، أن العابدين لهم من الله تعالى عطايا؛ ببركة عباداتهم الكثيرة، غير أن واحداً من هذه العبادات له الصدارة في تسبيبه لتلك العطاءات؛ وهو (البكاء) بين يدي الله تعالى؛ رهبةً ورغبةً. وأن من ثمرات هذا البكاء أن يكون لهم ـ أفراداً أو جميعاً ـ في أعلى مراتب الجنة قصرٌ لا يشاركهم فيه غيرهم.

---

(١) المصدر السابق، الحديث ٣.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٨.

وقال محقق الكتاب: في بعض النسخ [إن لم تكن بكاء]، وفي بعضها [إن لم تك بكاء].

أقول: يحتمل أن الأصل: إن لم يكن بك بكاءٌ فتباك)؛ كما في نسخة الوافي.

وقال الملا صالح المازندراني (ت١٠٨١ هـ) في شرحه: (كذا) الظاهر إن لم تك خطاب. وبكاء بتشديد الكاف للمبالغة وهو من يقدر على البكاء بسهولة. ويحتمل الغيبة وتخفيف الكاف وضم الباء و«كان» حينئذ تامة.

والتباكي إظهار البكاء مع عدمه، وفيه تشبه بالباكي؛ وهو مطلوب، مع أنَّه قد يفضي إلى البكاء ولو قليلاً) شرح أصول الكافي، ج١٠، ص٢٥٥.

(٣) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (درك): الدركُ: اللحاقُ، والوصول إلى الشيء).

ولعل المقصود بعدم المشاركة هو اختصاصهم به؛ بحيث يحرم من دخوله غيرهم؛ لأي سبب.

وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة بأهمية البكاء؛ كتعبيرٍ عن حالة من الصفاء والصدق، وبما يكافئ الله الباكين من ثوابٍ جزيلٍ.

الأمر الذي يعني أن على السائر على الصراط المستقيم أن ينخرط ضمن هذا الفريق من الناس؛ إن أراد لنفسه الرضا والرضوان، وأن يجنب نفسَه أحابيلَ الشيطان.

ونقرأ في القرآن الكريم قول الله تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة/ ٨٣]. وقد روي أن المقصود بهم النجاشي وجماعة من الرهبان والقساوسة[١].

ومن ذلك ما روي عن الإمام علي الهادي عليه السلام أنه قال: **لَما كلَّم الله عزّ وجلّ موسى بنَ عمران عليه السلام قال موسى: إلهي! ما جزاءُ مَن دمعت عيناه من خشيتك؟ قال: يا موسى! أقي وجهَه من حرِّ النار، وأؤمنه يومَ الفزع الأكبر)**[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: **إن الرجلَ ليكون بينه وبين الجنةِ أكثرُ ممَّا بين الثرى إلى العرش؛ لكثرةِ ذنوبِهِ، فما هو إلا أن يبكيَ من خشيةِ الله عزّ وجلّ؛ ندماً عليها حتى يصير بينه وبينها أقربَ من جفنه إلى مقلته)**[٣]. وهذا كنايةٌ عن شدةِ ما بين الباكي والجنة من القرب؛ فـ(الجَفن) ـ كما في المعجم الوسيط، مادة (جفن) ـ هو: غطاء العين من أعلاها وأسفلها. أما المقلة فهي: العين كلها؛ كما جاء في المعجم نفسه.

---

(١) انظر: مجمع البيان، ج٣، ص٤٠١. وتفسير الدر المنثور، ج٢، ص٣٠٢. وغيرهما من كتب التفسير.

(٢) الأمالي للشيخ الصدوق، وعنه: بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣٢٨، أبواب الأذكار وفضلها، الباب ١٩ ـ فضل البكاء، وذم جمود العين، الحديث ١.

(٣) المصدر السابق، الحديث ٤، عن عيون أخبار الرضا عليه السلام.

المحطة الثانية: الكياسة

الكياسة تعرَّف بأنها: عقل، وظرف، وفطنة... تتيح لصاحبها استنباطَ ما هو أنفع[١].

ولا يخفى أنّ هذه الصفة توجد في العقلاء من الناس؛ على تفاوتٍ فاحشٍ بينهم في الاتصاف بها.

ويراد بها ـ هنا ـ: ليس مطلق الفطنة والذكاء، بل هما إذا وُظِّفا في استثمار الفرص والنعم المادية والمعنوية؛ من أجل نيلِ الآخرة.

وقد جاء في الخبر عن مرازم، قال: دخلت أنا وعمار وجماعة على أبي عبدالله (صلى الله عليه وآله) بالمدينة فقال: **ما مقامكم؟** فقال عمار: قد سرحنا ظهرنا[٢]، وأمرنا أن نؤتي به إلى خمسة عشر يوماً. فقال: **أصبتم المقام في بلد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) والصلاة في مسجده، واعملوا لآخرتكم، وأكثروا لأنفسكم.**

إن الرجلَ قد يكون كيِّساً في الدنيا؛ فيقال: ما أكيسَ فلاناً! وإنما الكيِّس كيِّس الآخرة)[٣].

وقال الشاعر[٤]:

أَوْلَى الذَّخائر في الحمايةِ ... والرّعايةِ والحِراسَة

عُمْرُ الفتى فهُوَ النهايةُ ... في الجلالةِ والنفاسَة

وحَذارِ مِنْ تضييعِهِ ... إنْ كنتَ من أهلِ الكَياسَة

---

(١) المعجم الوسيط، مادة (كيس).

(٢) أي: أرسلنا إبلنا إلى المرعى (الوافي).

(٣) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، فروع الكافي، ج٤، ص٤٥٧، كتاب الحج، أبواب الزيارات، الحديث ٢.

(٤) استشهد به الشيخُ الكفعميُّ (ت٩٠٥ هـ)؛ في كتابه (محاسبة النفس)، فقرة: النهي عن تضييع العمر، ص٣٨. ولم يشر إلى أنه له أو لغيره.

وباعتبار أن أبا ذر رَحِمَهُ الله كان شديدَ الطموح أخروياً، فإنه بادر؛ بعد أن سمع ما سمع من الرسول ﷺ، إلى السؤال ليس عن الكيِّس بل عن الأكيسِ من المؤمنين، وهو شبيهٌ بسؤالِهِ السابقِ عن (**أزهد الناس**)[1]، فقال:

(**قلتُ: يا رسول الله! أيُّ المؤمنين أكيَسُ؟**) [الفقرة/ ٦٩].

وهذا السؤال ـ وحده ـ يؤكد مقدار ما كان عليه أبو ذر رَحِمَهُ الله من كياسةٍ عاليةٍ.

فجاءه الجوابُ النبويُّ بتحديد مؤشِّرين اثنين؛ يرتبط كلاهما بما بعد الحياة الدنيا، بقوله ﷺ:

(**أكثرُهم للموت ذكراً، وأحسنُهم له استعداداً**).

فكيف يكون ذكرُ الموت؟

وما هي أهميةُ ذِكرِ الموت؟

ثم كيف يكون الاستعداد للموت؟

فنقول:

١ ـ لا يشك إنسانٌ في ظاهرة الموت، وأنها شاملةٌ لكلِّ ذي روح من موجودات الأرض؛ بما في ذلك الإنسانُ نفسُه، فـ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت/ ٥٧].

ولا يستثنى من ذلك حتى أكرمُ الناس، وأشرفهُم، وأقربهم إلى الله تعالى، أعني رسولَ الله محمداً ﷺ، قال تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر/ ٣٠]، وقال تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء/ ٣٤].

٢ ـ لا يشك المؤمنون بالله تعالى ـ من أهل الديانات السماوية ـ أن الموتَ ليس هو نهايةَ الحياة، وإنما هو محطةٌ ينتقل عبرها الإنسانُ من مرحلةٍ حياتيةٍ إلى أخرى.

وفي كلام مهمٍ لأحد المحققين عن الموت، جاء فيه:

فاعلم أنَّ الذي نطقت به الأخبارُ، وشهد به الاعتبارُ، أنَّ الموت ليس إلا

---

(١) انظر: المبحث ٣؛ من الفصل ٢٧؛ من الباب ٢، من هذا الكتاب.

عبارةً عن تغيُّرِ حالٍ، وهو مفارقة الروح لهذا البدن الجاري مجرى الآلة لذي الصنعة، وأنَّ الروحَ باقيةٌ بعده؛ كما شهدت به البراهينُ العقليَّةُ في مظانِّها، والآثار النبوية المتواترة)[١].

ومن جميل ما قيل من الشعر في الباب قول الشاعر[٢]:

لا تظُنُّوا الموتَ موتاً إنه لَحياةٌ هيَ غاياتُ المُنى

لا ترُعْكُمْ فجأةُ الموت فما هي إلا نَقْلَةٌ من ههُنا

٣ ـ لا يشك مؤمنٌ بالحياة بعد الموت أن تلك الحياة تتأثر ـ سلباً، وإيجاباً ـ بحياته قبله. فإن كان الإنسانُ صالحاً في الدنيا سعد في الآخرة، وإن كان شقياً فإن آخرتَه ستكون بؤساً وشقاءً، قال تعالى ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية/ ٢٨].

لهذا، فإن الموتَ يُعتبر في نظر الأشقياءِ مبغوضاً ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾؛ بسبب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لعلمهم بحقيقة أن الله ﴿عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة ٧].

وبإزاء ذلك، فإنه يعيش أوهاماً وأمانيَّ لا واقعَ لها؛ حيث ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ برجاء أن يزحزح ذلك العذابَ عنه، ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة/ ٩٥].

ومثل هذا التصرف لا يدلّ على كياسةٍ، بل يكشف عن حمقٍ؛ لأنّ مثلَ هذا التصرف لا يبعدهم عن الموت. وكان ينبغي للجميع أن يحسنوا الاستعدادَ للآخرة بالعمل الصالح ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة/ ١١٠].

ومن ثَمَّ، فإن الحلَّ لا يتمثل في الهروبِ، ولا في دسِّ الرأسِ في الترابِ،

---

(١) البحراني، كمال الدين ميثم (ت٦٧٩ هـ)، شرح نهج البلاغة، ج٣، ص٩٠. بمناسبة خطبةٍ للإمام علي عليه السلام تحدث فيها عن الموت.

(٢) الشعراني، عبد الوهاب (ت٩٧٣ هـ)، لوامع الأنوار القدسية في العهود المحمدية، ص٥٥٣، تعاطي الأسباب المذكرة بالموت.

بل في الاستعدادِ لِما بعد الموتِ أولاً، ولا يتم ذلك بغيرِ ذكرِ الموتِ. الذي كلَّما تكرر فإن أثرَهُ سيكون أبلغَ.

يقول علي عليه السلام: **وإني ليمنعني من اللعب ذكرُ الموت)**[١].

وفي كلام آخر له عليه السلام يوصي به نجلَه الإمام الحسن عليه السلام، قال فيه: **يا بني! أكثِر من ذكرِ الموتِ، وذكرِ ما تهجم عليه، وتفضي بعد الموت إليه؛ حتى تأتيه وقد أخذتَ منه حذرَك، وشددتَ له أزرَك)**[٢].

وقد سبق منه عليه السلام بيان خلفية هذه الوصية، بقوله عليه السلام فيها:

... اعلم:

أ ـ أنك إنَّما خُلقتَ للآخرة لا للدنيا، وللفناء لا للبقاء، وللموت لا للحياة[٣].

ب ـ وأنك في منزل قُلعة، ودار بُلغة، وطريقٍ إلى الآخرة.

جـ ـ وأنك طريد الموت الذي لا ينجو منه هاربُهُ، ولا بد أنه مدرِكُك. فكن منه على حذرٍ أن يدركك وأنت على حال سيئة قد كنت تحدِّث نفسَك منها بالتوبة؛ فيحول بينك وبين ذلك، فإذا أنت قد أهلكتَ نفسَك)[٤].

ثم إنه عليه السلام بيّن ـ في كلام أوصى به بعض أصحابه؛ وهو مالك الأشتر، معزياً إياه بولدٍ له توفاه الله ـ فائدةَ تذكر الموت، بقوله: **ومَن أكثرَ من ذكرِ الموت رضيَ من الدنيا باليسيرِ)**[٥].

وجاء في الخبر عن أبي عبدالله عليه السلام، أنه قال:

أفطر رسولُ الله (صلى الله عليه وآله)؛ عشيةَ خميسٍ في مسجد قبا، فقال:

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٨٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الحديث هنا عن طبيعة وجود الإنسان في الدنيا، فهو لم يُخلَق لها، ولا ليبقى فيها، وليحيى أبداً فيها، وإنما خلق من أجل الآخرة، والدنيا؛ كما جاء في بعض الأخبار، وهذه ليست إلا مزرعةً للآخرة.

(٤) نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

(٥) المصدر السابق، الحكمة ٣٤٩.

هل من شرابٍ؟ فأتاه أوسُ بنُ خولي الأنصاري بعسٍّ مخيضٍ بعسلٍ[١]. فلمّا وضعه على فيه نحّاه.

ثم قال: **شرابان يكتفى بأحدهما من صاحبِهِ، لا أشربه ولا أحرِّمه، ولكن أتواضع لله، فإن مَن تواضع لله رفعه الله، ومَن تكبَّر خفضه اللهُ، ومَن اقتصد في معيشتِهِ رزقه اللهُ، ومَن بذر حرمه اللهُ، ومَن أكثر ذكرَ الموتِ أحبه اللهُ)**[٢].

وفي ما يُروى عن أبي ذر رضي الله عنه**؛ في الكشف عن سر قلق الناس وخوفهم، بل** كراهيتهم للموت: أن رجلاً سأله؛ قائلاً: **يا أبا ذرّ! ما لنا نكره الموت؟**

فقال: لأنكم عمَّرتُم الدنيا، وأخربتم الآخرةَ، فتكرهون أن تُنقلوا من عمرانٍ إلى خرابٍ...)[٣].

وعلى أيِّ حالٍ، فقد سارت بنا وصيةُ النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه؛ لتنتهي إلى بيانِ ما سيؤول إليه حالُ القلب الإنساني؛ إن توفر صاحبُهُ على يقظةٍ حقيقيةٍ؛ تعرَّف من خلالها على ذاتِهِ وما حوله، وتبصَّر فيها بمبدئِهِ ومآلِهِ، وما بينهما؛ أعني المؤشر التالي، وهو:

المحطة الثالثة: استنارة القلب

- **[الفقرة/ ٦٩]:**

> **(يا أبا ذرّ! إذا دخل النورُ القلبَ انفسح القلبُ، واتسع.**
> **قلت: فما علامةُ ذلك؛ بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟**
> **قال ﷺ: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله).**

---

(١) العس هو القدح الكبير. والمخيض اللبن المأخوذ زبده.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، باب التواضع، الحديث ٣.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص٤٥٨، باب محاسبة العمل، الحديث ٢٢.

في هذه المحطةِ تناولت فقرةُ البحث عدداً من العلامات. وهي ـ كما لا يخفى ـ قد لا تحتاج إلى شرحٍ طويلٍ؛ في حدود ما يعنينا في هذه الدراسة.

غير أن من المفيد القولَ: إن هذه العلامات تلتقي ـ جميعاً ـ في أن صاحبَها قد تجاوز عنقَ الزجاجة، ولم يعد أسيرَ نظرةٍ ضيقةٍ تجعل من الدنيا، وهمومِها، وآمالِها، وآلامِها، همَّه الذي يبدأ ولا ينتهي؛ لأنّ الدنيا ـ عنده ـ لا تعدو ما وصفها ﴿بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم﴾، وساقه القرآن ـ تأكيداً على صحة كلامه ـ بالقول ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر/ ٣٩].

والعلامات الثلاث ـ المذكورة في فقرة البحث من الوصية النبوية ـ تريد القول: إن الإنسانَ لا يكفي أن يكون راغباً في الآخرة؛ من خلال (**الإنابة إلى دار الخلود**)، ولا أن يكون زاهداً في الدنيا؛ عبر (**التجافي عن دار الغرور**)، بل لا بد أن يكون ـ مع هذا وذاك ـ عاملاً لما هو راغبٌ فيه، ولا يتم ذلك بغير (**الاستعداد للموت**) وما بعده؛ قبل أن يفجأ الموتُ الإنسانَ.

ومن مجموع ما قلناه يتبيَّن: كم للموت من أثرٍ على المستوى التربوي، وكم لطُف بنا اللهُ؛ حيث أخفى عنا توقيتَ الموتِ؛ لأنّ من شأن ذلك أن يضطرنا إلى الاستعدادِ الدائم، بخلاف ما لو كنا عارِفين بتوقيت الموت؛ حيث يمكن أن يكون ذلك سبباً للتقاعس.

والشاهد على ذلك:

ـ أننا ـ في الغالب ـ تفاجئنا أخبارُ الموت، فإذا قيل لنا: إن فلاناً توفاه الله! نتلقى الخبر باستغراب! كما لو أن الموتَ على خلاف الطبيعة، مع أن الموتَ من الأمور الواقعية التي لا يختلف فيها الناسُ ـ على اختلاف مِللهم ونِحلهم ـ، وأن واحداً من الناس لا يستثنى منها.

ـ أننا ـ في الغالب أيضاً ـ لا نستعد للموت وما بعده، مع أننا لا ندري أقريبٌ هو أم بعيدٌ! فكيف بنا لو كنا عالِمين بتوقيته.

***

بقي شيءٌ، وهو:

أن فقرة البحث تناولت ثلاث مفردات هي (النور، والاتساعِ، والقلب).

فما هو المراد من هذه المفردات؟

والجواب:

أولاً: النور هو (الظاهر بذاته المظهر لغيره)[(١)]. وهو الضد للظلام.

وقد عرَّفه؛ وقسَّمه، الراغبُ الإصفهاني بقوله:

النور: الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار.

وذلك ضربان: دنيوي، وأخروي.

فالدنيوي ضربان:

ـ ضربٌ معقولٌ بعين البصيرة؛ وهو: ما انتشر من الأمور الإلهية؛ كنور العقل، ونور القرآن.

ـ ومحسوس بعين البصر؛ وهو: ما انتشر من الأجسام النيرة؛ كالقمرين، والنجوم، والنيرات.

فمن النور الإلهي قوله تعالى ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾ ... [إلى أن قال]: ومن النور الأخروي قوله ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾)[(٢)].

فالنور ـ إذاً ـ:

ـ قد يطلق ويراد منه (النور المادي)؛ وهو: ما نحصل عليه من: الشمس، والنار، والمصابيح الكهربائية، ونحو ذلك.

ـ وقد يُطلَق النور ويُراد منه (النور المعنوي)، ويمكن تعريف هذا بأنه: العلم الذي يهتدي به الإنسان إلى الحق في الاعتقاد والعمل قطعاً)[(٣)].

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١٥، ص١٢٦، ذيل الآية ٣٥ من سورة النور.

(٢) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد (ت٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، مادة (نور).

(٣) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١٢، ص٣٤٢، ذيل الآية ١٦ من سورة النحل.

وللنور المعنوي ـ كما يظهر للمتتبع ـ مصاديقُ متعددةٌ: فالله تعالى نور، والقرآن نور، والنبي ﷺ نور، وآل الرسول ﷺ نور، والصراط المستقيم نور، والاهتداء إلى ذلك نور، والكعبة نور، والصدقة نور، وكل ما يكون سبباً مؤدياً إلى الله تعالى فهو نور؛ سواء تيسر للناس أن يبصروه، أو تعذر عليهم ذلك لسببٍ أو لآخر.

والمقصود بـ(النور)؛ الذي يدخل القلبَ، هو: نور المعرفة والهداية والاستقامة. فالإنسان قد يبذلُ جهداً في تحصيل المعرفة بجميع مراتبها؛ لكننا يجب أن نؤكد على حقيقة أنه (قد تكاثرت الآياتُ القرآنيةُ على أن الهداية من الله سبحانه؛ ليس لغيره فيها صنعٌ)[1].

ولذلك، صح أن يقال: إن الهداية (لا تُنسَب إلى أحد دونه إلا بالتبع؛ وكما قال تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص/ ٥٦])[2].

ولتأكيد ذلك فقد ورد في الدعاء المروي عن النبي ﷺ:... **اللهمَّ اجعل لي نوراً في قلبي، ونوراً في قبري، ونوراً بين يدي، ونوراً من خلفي، ونوراً عن يميني، ونوراً عن شمالي، ونوراً من فوقي، ونوراً من تحتي، ونوراً في سمعي، ونوراً في بصري، ونوراً في شعري، ونوراً في بشري، ونوراً في لحمي، ونوراً في دمي، ونوراً في عظامي.**

اللهمَّ اجعل لي نوراً، وأعظم لي نوراً، وأعطني نوراً، واجعل لي نوراً)[3].

ثانياً: الاتساع من قولهم: اتسع الشيء بمعنى امتدَّ وطال. وهو يقابل الضيقَ.

وكما أن النور قد يكون مادياً وقد يكون معنوياً، كذلك الاتساعُ: قد يكون مادياً، وقد يكون معنوياً.

---

(١) المصدر السابق، ص٥٣، ذيل قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم/ ٢٧].

(٢) المصدر السابق، ص٢٤٣، ذيل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل/ ٣٦].

(٣) الأحسائي، ابن أبي جمهور (ت٨٨٠ هـ)، عوالي اللئالئ، ج١، ص١٩٤.

وروى نحواً من ذلك الشيخ المجلسي ﵀ عن الإمام الصادق ؑ، فراجع بحار الأنوار، ج٨٤، ص٣٥٥، الباب ١٣ ـ نافلة الفجر وكيفيتها...، في الاضطجاع بعد نافلة الفجر، برقم ٢٢، عن دعائم الإسلام للقاضي نعمان.

فاتساعُ الأرض هو امتدادُها؛ بحيث تستوعب كثيراً من الأبنية تشيَّد عليها، أو كثيراً من الناس للوقوف عليها، ونحو ذلك.

واتساعُ القلب هو: انبساطُهُ لإدراك المعارف الكثيرة أو العميقة، والتصديق بها؛ من قبيل:

أ ـ الإيمان بالغيب؛ الذي جعله الله سبحانه علامةً على رسوخ الإيمان؛ فقال في مدح المتقين بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة/ ٣].

ب ـ تحمُّل معارف الوحي السامية، كما قال الله تعالى في سياق الامتنان على نبيه الكريم ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الشرح/ ١].

ج ـ مطلق الإسلام والإيمان؛ على اختلاف مراتبهما. قال تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعام/ ١٢٥].

فإدراك هذه المعارف؛ وكذلك التصديق بها، ممتنعٌ على مَن يفتقد اتساعَ القلب وانشراحَ الصدر، فكيف إذا عميت القلوبُ والصدورُ. وقد تناول القرآن الكريم ذلك في آيات كثيرةٍ، منها: قوله تعالى ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام/ ١٢٥]، وقوله تعالى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج/ ٤٦]. وقوله تعالى ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة/ ٧]، وقوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [المائدة/ ٤١]، وقوله تعالى ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ [الأنعام/ ٢٥]، وقوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف/ ١٧٩].

ثالثاً: القلب يطلق على معنيين:

١ ـ العضو الصنوبري الذي يتولى ضخ الدم في البدن. وليس هذا هو المراد هنا بالتأكيد.

٢ ـ القلب بما هو أداةٌ إدراكيةٌ؛ يتصل بها الإنسان مع الخارج معرفياً، وأداةٌ

تفاعليةٌ؛ يتواصل بها ـ إيجاباً وسلباً ـ مع الآخر. وهو بهذا المعنى (لطيفة ربانيّة روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلُّق)[١].

والقلب؛ بالمعنى الثاني، هو المقصود بالحديث هنا.

والمتتبعُ لنصوص الوحي يجد وفرةً في الحديث عن القلب بهذا المعنى.

فقد وردت مادة (قلب) وحدها، بصيغة الإفراد والتثنية والجمع، ١٣٨ مرةً في القرآن الكريم، فإذا ضممنا إليه مفردات أخرى؛ تطلق أحياناً ويراد بها معنى واحدٌ يساوق القلب، من قبيل: الفؤاد، والنفس، والروح، والبصر، والصدر، وغيرها، فسنجد أن المساحة المخصصة في القرآن الكريم للقلب واسعةٌ جداً.

وقد أُسنِد إلى القلب ـ بهذا المعنى أيضاً ـ أمورٌ كثيرةٌ؛ ترتبط بالاتصال والتواصل بين الإنسان وما هو خارج عن ذاته؛ ويمكن أن يُشار إلى عناوين هذه الأمور، أو بعضِها، في قائمةٍ طويلةٍ من الأحوال والحالات؛ (كالإثم، والاطمئنان، والغفلة، والمرض، والختم، والهداية، والرعب، وعدم الفقه، والزيغ، والتقوى، والتعقل وعدمه، والعمى، والتقلب، والاشمئزاز، والكظم، والقفل، وإنزال السكينة، وإنزال الوحي، وجعل الرأفة، والرحمة، والكسب، والألفة، والخير، والتعمد، والطهارة، وزينة الإيمان، وعدم دخول الإيمان، والطبع، والحسرة، والوجل، والريب، والغيظ، واللهو، والإخبات، وامتحان التقوى، والخشوع، وغير ذلك)[٢].

ولا يفوتنا ـ تبعاً للنبي ﷺ في وصيته ـ أن نشير هنا إلى عددٍ من المسائل:

المسألة الأولى: تنوير القلب

من أهم ما جاء التأكيدُ عليه ـ في القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة ـ هو:

---

(١) الغزالي، أبو حامد (ت٥٠٥ هـ)، إحياء العلوم، ج٨، ص٦، كتاب كشف عجائب القلب. ونقله الشيخ الطريحي في مجمع البحرين، مادة (قلب)، وتبناه الشيخ النجفي في جواهر الكلام، مبحث النية في الصلاة من كتابه جواهر الكلام، وغيرهم.

(٢) محسني، الشيخ آصف (معاصر)، الفقه والمسائل الطبية، ص١٦٤، المسألة ٧٠ (القلب في القرآن).

أن القلب له حالاتٌ متضادةٌ، فهو يسلم ويمرض، ويستقيم ويعوج، ويستنير ويظلم....، ولكلٍّ واحدٍ من هذه الحالات وضدها أسبابُه ونتائجُه.

وكنماذج على ذلك:

١ ـ قوله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء/ ٨٨، ٨٩].

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات/ ٨٣، ٨٤].

٣ ـ ما روي عن النبي ﷺ ـ في حديثٍ ـ أنه قال: ... **وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسدُ كلُّهُ، وإذا فسدت فسد الجسدُ كلُّهُ؛ ألا وهي القلب)**[(١)].

٤ ـ ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام أن قال لجابر رحمه الله؛ في وصيةٍ طويلةٍ له: ... **ولا سلامة كسلامة القلب)**[(٢)].

ولعلك تسأل ـ عزيزي القارئ ـ وتقول:

ما هي أسباب سلامة القلب؟

وماذا يترتب على ذلك من ثمرات؟

وأجيبك بالقول: ورد في حديثٍ ذي دلالةٍ بالغةٍ؛ رواه شعيب الحداد عن الإمام الصادق عليه السلام، أبان فيه الإمامُ عن عمق المعارف الدينية، وأنها ليست متاحةً لكلِّ أحدٍ، وإنما ينالها الخواصّ منهم لا غير. وهؤلاء الخواص هم أصحاب القلوب السليمة؛ ممّن تحصّنوا بعد الله تعالى بسلامة قلوبهم.

قال شعيب: سمعتُ الصادق جعفر بن محمد عليه السلام يقول: **إن حديثَنا صعبٌ مستصعَبٌ؛ لا يحتمله إلا مَلَكٌ مقرَّبٌ، أو نبيٌّ مرسَلٌ، أو عبدٌ امتحن الله قلبَه للإيمان، أو مدينةٌ حصينةٌ.**

---

(١) البخاري، إسماعيل (ت٢٥٦ هـ)، الجامع الصحيح، ج١، ص١٩، كتاب الإيمان. ومسلم في صحيحه، باب بيع البعير واستثناء ركوبه.

(٢) تحف العقول، وعنه: بحار الأنوار، ج٧٤، ص١٦٤، الباب ٢٢ ـ وصايا الباقر عليه السلام، الحديث ١.

قال عمرو [راوي الحديث]: فقلت لشعيب: يا أبا الحسن! وأيُ شيءٍ المدينةُ الحصينةُ؟! قال: فقال: سألتُ الصادقَ عليه السلام عنها فقال لي: **القلب المجتمع**)[١].

وقد فسَّر العلامة المجلسي (القلب المجتمع) بأنه: القلب الذي لا يتفرَّق بمتابعة الشكوك والأهواء، ولا يدخل فيه الأوهامُ الباطلةُ والشبهات المضِلَّة)[٢].

وقد جاء في النصوص ـ أيضاً ـ التأكيدُ على الترابط الوثيق بين العقل والقلب، ففي الخبر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال ـ في حديثٍ ـ:... **والعقلُ مسكنُهُ القلبُ**)[٣].

وما دام ثمة ترابطٌ بين العقل والقلب، فلا بد أن العلم؛ الذي هو نور، لا يناله ـ بأنواعه ومراتبه ـ قلبٌ مظلمٌ؛ بسبب أن العقلَ لا يستقر في مثل هذا القلب للتنافر الوجودي بينهما.

ولا بد أن القلب؛ كمقرٍّ للمعرفة، والذي يُعدُّ ـ في الوقت نفسه ـ وسيلةً من وسائل المعرفة، له مراتبُ تتلقى النورَ في بعضِ مراتبِهِ، ثم يكون ـ ببركة ما تلقاه من مرتبةٍ أو مراتبَ ـ سبباً لتحصيل مرتبةٍ أو مراتبَ أعلى، وهكذا.

ويشهد لذلك ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام حيث قال: **من عمل بما يعلم علَّمه الله ما لم يعلم**)[٤].

---

(١) معاني الأخبار للشيخ الصدوق، وعنه: بحار الأنوار، ج٢، ص١٨٣، الباب ٢٦ ـ أن حديثهم عليهم السلام صعب مستصعب... الحديث ١.

(٢) المصدر السابق.
ثم أضاف الشيخ المجلسي رحمه الله قوله:
والمقابلة بينه وبين الثالث [أي قول الإمام عليه السلام أو... أو]:
إما بمحض التعبير؛ أي: إن شئت قل هكذا، وإن شئت هكذا.
أو يكون المراد بالأول الفرد الكامل من المؤمنين، وبالثاني من دونهم في الكمال).

(٣) علل الشرائع، وعنه: بحار الأنوار، ج١، ص٩٨، كتاب العقل والعلم والجهل، الباب ٢ ـ حقيقة العقل وكيفية وبدء خلقه، الحديث ١٣.

(٤) المجلسي، محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنور، ج٧٥، ص١٨٩، الباب ٢٢ ـ وصايا الباقر عليه السلام، برقم (٤٤). وروي عن النبي صلى الله عليه وآله في ج٤٠، ص١٢٨. =

وقد سمى بعضُ العلماء العلومَ المكتسبةَ بهذه الطريقة بـ(علم الموهبة)، وعرَّفه بأنه: علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم. وإليه الإشارة بحديث (**مَن عمل بما علم ورَّثه الله علمَ ما لم يعلم**))[1].

وسماها بعضُ المحققين بـ(المعرفة الإلهامية)[2].

كما سماها آخرون بـ(العلوم التحقيقية)[3].

ولها تسمياتٌ أخرى؛ لسنا بصدد استقصائها؛ لخروج ذلك عن غرض الكتاب.

وليس من المستبعد أن يُقال إنّ هذا أصلٌ أصيلٌ كما نبَّهت إليه السنة الشريفة، قد نبَّه إليه القرآنُ الكريمُ في مواضع:

منها: قول الله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور/ ٤٠].

ومنها: قوله الله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/ ٢٨٢].

ومنها: قول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت/ ٦٩].

ومنها: قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال/ ٢٩].

وهذا المضمون هو ما جاءت الإشارةُ إليه في نصوص كثيرةٍ، منها كلامٌ لأمير

= وقال السيوطي في الدر المنثور، ج١، ص٣٧٢ ـ ٣٧٣: وأخرج أبو نعيم؛ في الحلية، عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: **من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم**)... وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: ...**ومن تعلم علما فعمل به فإن حقاً على الله أن يعلّمه ما لم يكن يعلم**).

(١) السيوطي، جلال الدين (ت٩١١ هـ)، الإتقان في علوم القرآن، ج٢، ص٤٧٩، برقم ٦٣٣١، النوع الثامن والسبعون ـ في معرفة شروط المفسر.

(٢) المجلسي الأول، الشيخ محمد تقي (ت١٠٧٠ هـ)، روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٣٢٢.

(٣) الكاشاني، محسن الفيض (١٠٩١ هـ)، الوافي ج١، ص٩، المقدمة الأولى.

المؤمنين عليّ عليه السلام ـ في حديثٍ صنَّف فيه كلامَ الله تعالى في القرآن الكريم، إلى: ما هو متاحٌ للعموم، وغيرُ متاحٍ إلا لمن كان من أصحاب القلوب النيرة ـ جاء فيه قوله:

... ثم إنّ الله جلّ ذكره؛ لسعة رحمته، ورأفته بخلقه، وعلمه بما يحدثه المبدِّلون من تغيير كتابه، قسَّم كلامَه ثلاثةَ أقسامٍ:

ـ فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل.

ـ وقسماً لا يعرفه إلا مَن صفى ذهنه، ولطف حسه، وصح تميزه؛ ممن شرح الله صدرَه للإسلام.

وقسماً لا يعرفه إلا الله، وأمناؤه، والراسخون في العلم)[١].

وخلاصة ما ينبغي قوله في المقام: أنّ بعضَ مراتبِ المعرفة وجوانبِها لا تُنال بالبحث الميداني، ولا بالتنقيب في بطون الكتب، ولا بالمدارسة والمباحثة بين العلماء والمتعلمين، وإنما لا بد فيها من: المجاهدة العظيمة؛ في التزكية والتحلية؛ حتى تنفتح أبواب الهداية وتنضح سبل المعرفة)[٢].

وهذا ما نعنيه باستنارة القلب واتساعه، جعلنا الله وإياكم من أهل ذلك.

المسألة الثانية: الإنابة إلى دار الخلود

الإنابة كلمة مشتقة من (نوب)، وهي كلمة تدل في التعريف اللغوي والمعجمي على: اعتياد مكان، ورجوع إليه)[٣]. يُقال: أناب ويُراد به: تابَ، ورجعَ، وأقبل، فهو منيب[٤].

وقد وصف هذا النوع من العلم بقوله: وهو أفضل العلوم، وأعلاها، بل هو العلمُ حقيقةً، وما عداه ـ بالإضافة إليه ـ جهلٌ، وهو المقصد الأقصى من الإيجاد).

(١) الطبرسي، أحمد بن علي (ت٥٤٨ هـ)، الاحتجاج، ج١، ص٣٧٦، في أن القرآن الكريم لا نقص فيه، ولا تحريف، ولا زيادة.

(٢) النراقي، الشيخ محمد مهدي (ت١٢٠٩ هـ)، جامع السعادات، ج٣، ص٢٤٢، تتميم ـ التلازم بين الصبر والشكر.

(٣) ابن فارس، أحمد بن زكريا (ت٣٩٥ هـ)، معجم مقاييس اللغة، كتاب النون، باب النون والواو...، مادة (نوب).

(٤) انظر: لسان العرب لابن منظور الأفريقي، مادة (نوب).

قال الراغب: الإنابة إلى الله تعالى: الرجوع إليه؛ بالتوبة، وإخلاص العمل)[١]. وقد جمع في هذا التعريف بين التعريف اللغوي والاصطلاحي.

وقد وردت هذه المادة في القرآن الكريم ١٤ مرةً؛ باختلاف تصاريفها، حاملةً المعنى أو المعاني نفسها التي أشير إليها في معاجم اللغة، وتُلاحَظ في الاستعمالات العربية.

وعلى مستوى الاصطلاح المتداول فقد أورد الجرجاني (ت٨١٦هـ) عدداً من التعريفات ـ غير الحاصرة ـ للإنابة، منها:

* أنها: إخراج القلب من ظلمات الشبهات.

* أنها: الرجوع من الكل إلى من له الكل.

* أنها: الرجوع من الغفلة إلى الذكر، ومن الوحشة إلى الأنس[٢].

وأما دار الخلود، فالمقصود بها عالم الآخرة، في مقابل عالم الدنيا؛ التي هي دار الفناء، فهذان عالمان متفاوتان وصفاً؛ من حيث البقاء والفناء.

وإذا كانا كذلك فلا يسوغ ـ عقلاً، ولا عقلائياً ـ أن يحظيا بدرجةِ اهتمامٍ واحدةٍ متساويةٍ، بل إن من العدلِ التمييزَ بينهما؛ بتقديم المقدَّم وتأخير المؤخَّر. وهذا يتحقق بأن تنال الدنيا؛ وهي الفانية، ما تستحقه من الاهتمام والقصد، والآخرةُ؛ وهي الباقية والخالدة، ما تستحقه من الاهتمام والقصد.

قال الله تعالى ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت/ ٦٤].

وبناءً على ما جاء في وصية النبي ﷺ ـ وفي خصوص الفقرة مورد البحث ـ فإن الزاهدَ هو مَن كان حكيماً، ولن يكون كذلك إلا إذا أحسن وضعَ الدنيا؛ حيث يجب أن تكون، والآخرةَ؛ حيث يجب أن تكون.

---

(١) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد (ت٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، مادة (نوب).

(٢) انظر: التعريفات، باب الألف، مادة (الإنابة).

لذلك، فإن ما جاء من التعريفات المتعددة للإنابة، وما يشبهها أو يختلف عنها قليلاً أو كثيراً، ليس تعبيراً عن حالات المنيب إلى الله تعالى، من قبيل أنه:

أ ـ يسعى دائماً إلى (إخراج القلب من ظلمات الشبهات)؛ عبر السعي الدائم والجاد نحو تحصيل العلم من مظانه وعند أهله، ليكون من أهل اليقين.

ب ـ يسعى دائماً إلى قطع الآمال من الخلق عبر التعلق بالخالق، ومن خلال (الرجوع من الكل إلى مَن له الكل).

جـ ـ يجتهد دائماً إلى استشعار الحضور الإلهي في واقعه، والأنس به في حركاته وسكناته، باعتماد منهج (الرجوع من الغفلة إلى الذكر)، والفرار (من الوحشة) من غير الله تعالى (إلى الأنس) به.

د ـ يبذل جهده على أن يعمل الأعمال الصالحة؛ على أساس متين هو (الإخلاص لله في العمل).

وبطبيعة الحال، فإن هذه الإنابة لا يوفق لنيلها كلُّ أحدٍ، وإنما يحظى بها من حصَّل أسبابَها، وتعلقت مشيئةُ الله أن تكون من نصيبِه. ولعلّ هذا هو السرُّ في أن عدداً من النصوص أشارت إلى أنها تُطلَب من الله تعالى.

المسألة الثالثة: التجافي عن دار الغرور

التجافي عن دار الغرور هو حالٌ، أو قل هو أدبٌ، كالإنابة إلى دار الخلود، ألحَّ في طلبه من الله تعالى الأولياءُ الصالحون.

فقد جاءت الروايةُ عن الشهيد زيد بن علي، قال: سمعت أبي علي بن الحسين عليه السلام ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان، يقول من أول الليل إلى آخره: **اللهمَّ ارزقني التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل حلول الفوت)**[1].

فماذا يعني هذا التجافي؟

---

(١) ابن طاووس، السيد علي (ت٦٦٤ هـ)، إقبال الأعمال، ج١، ص٤٠٢ ـ ٤٠٣، الباب ٣١ ـ في ما يختص بالليلة السابعة والعشرين من شهر رمضان، الفصل ١ ـ في ما يختص باليوم السابع والعشرين.

وما هي دار الغرور؟

وما هي أهمية ذلك؟

ولنتناول الإجابة عن هذه التساؤلات في وقفات ثلاث:

الوقفة الأولى: معنى التجافي

التجافي مشتق من جفا؛ بمعنى: الارتفاع والتباعد. ومنه قول الله تعالى ـ عن المتعبدين ليلاً ـ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة/ ١٦]، أي: يقومون من فُرُشهم، ويشتغلون بالتهجّد بين يدي الله تعالى.

الوقفة الثانية: دار الغرور

دار الغرور هي (الدنيا). والغرور مشتقّ من الغَرّ؛ ومعناه في الأصل: الأثر الظاهر من الشيء، ومنه غرة الفرس.

والغَرور ـ بفتح الغين ـ فصيغة مبالغة. وهو ـ على ما قال الراغب ـ: كلُّ ما يغُر الإنسانَ؛ من: مالٍ، وجاه، وشهوة، وشيطان. وقد فُسِّر بالشيطان؛ إذ هو أخبث الغارين، وبالدنيا؛ لما قيل: الدنيا تغر، وتضر، وتمر)[1].

وأما الغُرور ـ بضم الغين ـ فهو: الاغترار، أي الانفعال بفعل التغرير. أو قل: الاستجابة للتغرير.

الوقفة الثالثة: أهمية التجافي عن دار الغرور

التجافي عن دار الغُرور يُراد به: عدم الاستجابة لِما يدعو إلى الدنيا، والانصراف إليها، وإلى أباطيلها؛ بما يعنيه ذلك من انصراف عن الله تعالى، وعن ما يصدر عنه من حقٍّ. قال تعالى ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان/ ٣٣].

وأهمية التجافي عن دار الغرور لا تخفى على عاقلٍ؛ لأنّ القانون القرآني؛ الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت/ ٤٢]، يؤكد على: أن الجمع

---

(١) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد (ت٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، كتاب الغين وما يتصل بها، مادة (غر).

بين حب الله وحب ما عداه؛ ممَّا جُعِل ضداً أو نداً له، غيرُ ممكنٍ. وقد جاء هذا في قوله تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب/ ٤].

وإن من نافلة القول التأكيد على: أن التجافي نوعان:

١ ـ ماديٌّ

٢ ـ معنويٌّ

والتجافي الإيجابي؛ والمطلوب، هو الثاني دون الأول.

وذلك أن التجافي المادي عن دار الغرور له شكلان:

الأول: أن يكون المقصود منه الخروج منها؛ بمعنى الموت وإزهاق الأرواح، وذلك ليس بمقدورنا؛ لأنّ الآجال بيد الله تعالى.

وقصارى ما يتاح لنا هو الإقدام على أسباب الموت؛ وهو ما يعرف بـ(الانتحار) إذا مارسه الشخص في حق نفسه، وهذا ـ بإجماع المسلمين ـ أمرٌ محرَّمٌ(١)، أو إزهاق أرواح الآخرين، وهذا ـ أيضاً ـ محرمٌ إذا لم يكن بسببٍ شرعيٍّ ـ كالقصاص، أو الدفاع عن النفس ـ فليس هذا هو المقصودَ بالتأكيد.

---

(١) وقد دل على ذلك ما رواه الفريقان:

فمن طريق الإمامية، يدلّ عليه ما رواه أبو ولاد، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: **من قتل نفسه متعمداً فهو في نار جهنم خالداً فيها)** [وسائل الشيعة، ج٢٤، ص٢٤، كتاب القصاص، الباب ٥ ـ تحريم قتل الإنسان نفسه، الحديث ١].

ومن طريق العامة يدلّ عليه ما رواه أبو هريرة، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم): **مَن قتل نفسه بحديدةٍ فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً. ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً. ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً)** [صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه...].

وقد اتفقت فتاوى فقهاء الفريقين على ذلك:

فمن فقهاء الإمامية، قال الشيخ المنتظري:

يحرم الانتحارُ بأيِّ شكلٍ كان. وهو من الكبائر) [الأحكام الشرعية، المسألة ٣٠٨٤].

وفي فقه السنة جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية، ج٦، ص٢٨٣:

الانتحارُ حرامٌ بالاتفاق. ويُعتبر من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله...).

الثاني: أن يكون المقصود من التجافي خصوص المعنوي منه؛ وهو ما كان بمعنى العزوف عن الدنيا ـ بمعناها السلبي الذي أوضحناه سابقاً ـ. وهذا هو المقصود هنا.

وأخيراً: فإنه إذا تقرر لدى العاقلِ أن الدنيا فانيةٌ، وأن الموتَ حقٌّ، وأنه لاحقٌ بكلِّ نفسٍ؛ شريفةً كانت أو ضيعةً، وأن كلَّ إنسانٍ مُجازى بعمله، وأن العملَ يؤدي بصاحبِه إلى ما يجانسه؛ فإن كان العملُ حسناً والعاملُ محسناً فالعملُ والعاملُ إلى الجنةِ، وإن كان العملُ سيئاً والعاملُ مسيئاً فالعملُ وكذلك العاملُ إلى النارِ، فإن العاقلَ يدرك أن الدنيا دارُ غرورٍ، وأنها متاعُ الغرورِ، وأن الاستعدادَ لهذا المصيرِ لازمٌ، وأنه يجب أن يكون على الوجهِ الحسنِ.

* قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران/ ١٨٥].

* وقال تعالى ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًاۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد/ ٢٠، ٢١].

المسألة الرابعة: الاستعداد للموت

السؤالُ الملِحُّ هنا هو: كيف نستعدُّ للموت؟

الجواب: أن ما ينبغي قوله ـ هنا ـ هو أن ما سبق ذكرُهُ؛ في المحطات والوقفات السابقة، قد يكون كافياً ـ إجمالاً ـ في توضيح كيفية الاستعداد للموت، وما عدا ذلك سيكون تفصيلاً.

ونلخص ذلك بأن على الإنسان:

أولاً: أن يعمِّق معرفتَه بالصوابِ والخطأِ، وأن يعتمد معرفتَه ـ هذه ـ معياراً في الردِّ والقبولِ.

ثانياً: أن يحرصَ على صلاحِ نيتِه وسلامةِ قصدِهِ، وأن لا يقدِم على ما خالف

ذلك؛ فإن الله تعالى قال ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر/ ٢، ٣]، وقال ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ﴾ [القصص/ ٨٨].

ثالثاً: أن يتجنب المعاصي والذنوب؛ صغارها وكبارها، وأن يشتغلَ بالصالحاتِ؛ في قولِهِ وفعلِهِ؛ بجوارحِهِ وجوانحِهِ؛ تجاه خالقِه، وتجاه نفسِه، وتجاه الآخَرين.

رابعاً: أن يتذكر الموتَ دائماً؛ بحيث لا يغيِّبه من حياتِه كما لو كان مخلَّداً. بل يُستحبُّ له أن يكثر من تذكُّره؛ عملاً بما جاء من وصايا شرعيةٍ بذلك.

خامساً: أن يحاسب نفسه باستمرارٍ؛ فإن وجد خيراً استزاد منه، وإن وجد قبيحاً استغفر وتاب إلى الله تعالى منه.

وختاماً نقول: إن الاستعداد للموت ليس من المستحبات في جميع مراتبه، بل إنه ـ في بعضها ـ واجبٌ[١].

ويناسب هنا أن نختم الفصل بإيراد حادثةٍ تضمنت حواراً بين الزهري والإمام السجاد عليه السلام؛ يتبين فيه ما ذكرناه من خطوات للاستعداد للموت، وأن يكون ذلك بطريقةٍ واعيةٍ ومقبولةٍ.

فعن سفيان بن عيينة، قال:

رأى الزهريُّ[٢] عليَّ بن الحسينِ عليه السلام؛ ليلةً باردةً مطيرةً، وعلى ظهره دقيقٌ وحطبٌ؛ وهو يمشي، فقال له: يا بن رسول الله! ما هذا؟

---

(١) قال الفقيه السيد عبد الأعلى السبزواري رحمه الله: يجب الاستعداد للموت بالأدلة الأربعة...) ثم ساق بعض ما يدلّ على ذلك. انظر: مهذب الأحكام، ج٣، ص٣٤.

(٢) ترجم له في موسوعة طبقات الفقهاء، كالتالي:

محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبدالله بن شهاب القرشي، الزُّهْري، أبو بكر المدني.

ولد سنة اثنتين وخمسين، وقيل غير ذلك.

روى عن: جابر الأنصاري، وأنس، وسهل بن سعد، وأبي الطفيل عامر، وعلي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وسعيد بن المسيب، وطائفة. =

قال: أريد سفراً أعدُّ له زاداً؛ أحمله إلى موضعٍ حريزٍ.

فقال الزهريُّ: فهذا غلامي يحمله عنك.

فأبى.

قال: أنا أحمله عنك؛ فإني أرفعك عن حمله.

فقال علي بن الحسين: لكني لا أرفع نفسي عمّا ينجيني في سفري، ويحسِّن ورودي على ما أرِد عليه. أسألك ـ بحق الله ـ لما مضيت لحاجتك وتركتني.

فانصرف عنه.

فلما كان بعد أيام قال له: يا بن رسول الله! لستُ أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً!

قال: بلى ـ يا زهريُّ ـ ليس ما ظننتَ! ولكنه الموتُ، وله كنتُ أستعد.

إنما الاستعدادُ للموت: تجنبُ الحرام، وبذل الندى والخير)[1].

= **حدَّث عنه**: عطاء بن أبي رباح، وعمر بن عبد العزيز، وعمرو بن دينار، وقتادة بن دعامة، وآخرون.
وكان أحد كبار الفقهاء والحفاظ والمحدثين، نزل الشام واستقر بها، ولزم عبد الملك بن مروان، وهشام بن عبد الملك، وكان يزيد بن عبد الملك قد استقضاه.

ذُكر أن محمد بن نوح جمع فتاويه في ثلاثة أسفار ضخمة مرتَّبةً على أبواب الفقه.

وله في «الخلاف» مائة وعشرة موارد في الفتاوى.

وقيل: إنه حفظ علم الفقهاء السبعة، وكان يقول: من سُنّة الصلاة أن يُقرأ فيها بسم الله الرحمن الرحيم، ثمّ فاتحة الكتاب، ثمّ تُقرأ سورة، ويقول: أول من قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) سراً بالمدينة عمرو بن العاص.

وروي أنه كان يحفظ ألفين ومائتي حديث نصفها مسند.

عُدّ من أصحاب الإمام علي بن الحسين، والإمام جعفر الصادق عليهما السلام.

وله عدّة روايات؛ مذكورة في: (الكافي)، و(من لا يحضره الفقيه)، و(تهذيب الأحكام).

ومن كلام الزهري: إنّما يُذهب العلمَ النسيانُ، وتركُ المذاكرة.

وقال: كنا نأتي العالم فما نتعلم من أدبه أحبَّ إلينا من علمه.

توفي سنة أربع وعشرين ومائة، وقيل ثلاث، وقيل غير ذلك) انتهى.

(١) علل الشرائع، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٩، ص٤٠١، كتاب الزكاة، أبواب الصدقة، الباب ١٤ ـ استحباب الصدقة في الليل، الحديث ٥.



الفصل الرابع والثلاثون

الصدق والمصداقية... الأزمة والعلاج

● [الفقرة/ ٧٠]:

(يا أبا ذرّ! اتق الله ولا تُرِ الناسَ أنك تخشى اللهَ؛ فيكرموك، وقلبُك فاجرٌ).

نتناول في هذا الفصل مسألةً لا تستقيم حياة الفرد والمجتمع؛ ظاهراً وباطناً، من دونها؛ كما سيتبين لنا بعون الله تعالى. وهي مسألة الصدق والمصداقية.

وسنوزع الحديث عن هذه المسألة في محورين:

المحور الأول: الأزمة

الغايةُ العظمى للدين تتمثَّل في أن يكون الإنسانُ ـ الساعي في صلاح أولاه وآخرته ـ سائراً على الصراط المستقيم. ولن يكون كذلك بدون السير على خُطى الصالحين.

وحتى يتجاوز الوحيُ بنا النظريةَ إلى التطبيق، فقد ساق لنا حال إبراهيمَ عليه السلام ومن معه من الصادقين المستقيمين، وحكى لنا منطقَهم؛ وهو الذي صاروا به جديرين بأن يكونوا ـ بأمر الله تعالى ـ أسوةً لنا. وبيَّن لنا ـ إلى جانب ذلك ـ السببَ في حظوتهم بهذه المكانة، وحدد وجهَ التأسي بهم.

جاء ذلك في قوله تعالى ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ

إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. ثم أتبع ذلك واضعاً النقاطَ على الحروف؛ كاشفاً عن أن العبوديةَ؛ وما يتفرع عنها، إنَّما تكون للهِ وحدَه؛ لأنه تعالى الربُّ لا سواه. لذلك، كان إبراهيم ومن معه صرحاء، لَمَّا قالوا لقومهم ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة/ ٤].

ونبي الله إبراهيم عليه السلام هو الذي حكى الله تعالى ـ في موضعٍ آخر ـ روحَ تعبُّدِه التامِّ لله، وأن ذلك يحكي عن حكمتِهِ، فقال ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة/ ١٣٠ ـ ١٣١].

وفي موضعٍ ثالثٍ، حكى الله تعالى منطقَ خليله إبراهيم عليه السلام بقوله ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام/ ٧٩].

وقد سار أسوتُنا العظمى خاتمُ الأنبياء وسيد المرسلين صلى الله عليه وآله في المسارِ نفسِهِ، وهو الصراط المستقيم الذي ننشده؛ وعقدنا هذه الدراسة للتعرف على ملامحه؛ حيث أمره الله تعالى بذلك؛ فقال ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام/ ١٦١ ـ ١٦٢].

لذلك، يتسع مفهوم التقوى وتطبيقاتها ليشمل تجنيبَ الإنسان؛ ظاهراً وباطناً، من كلِّ خطأٍ وخطيئةٍ، في حق الخالق وفي حق المخلوقين.

ومن هنا، فليست التقوى تصنعاً كاذباً أو تظاهراً شكلياً للصلاح، وإنما هي: إعادةُ تشكيلِ الواقعِ الإنسانيِّ وفقاً للغاياتِ الربانيةِ؛ التي خُلِق الإنسانُ من أجلها، وفي الإطارِ الذي يجب على الإنسانِ أن يجعله حاكماً على حياته؛ في الشكل والمضمون معاً.

وقد يوفَّق الإنسانُ لأنّ يكون من الأتقياءِ، وقد لا يوفَّق. وإذا وفِّق فليس معنى ذلك أن مشوارَ التحدي قد انتهى بالنسبة له، بل إنه سيواجه تحدياتٍ جديدةً كلَّما ارتقى مرحلةً من مراحلِ الكمالِ.

ومن تلك التحديات والمنزلقات أن يكون الداعي إلى السير في طريق التقويِ

هو مراعاة الناس ونيل رضاهم؛ فيكون ظاهرُه أنه من أهل التقوى، بينما هو ليس كذلك في واقعِهِ وباطنِهِ. فيقع في ازدواجيةٍ تأخذ به إلى سبيل غيرِ السبيل الذي شُرع للناس أن يسلكوه. قال تعالى ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة/ ٥].

ولأجل تجنب هذا المنزلق، قال النبيُّ ﷺ في هذه الفقرة من الوصية: **(يا أبا ذرّ! اتقِ الله ولا تُرِ الناسَ أنك تخشى الله؛ فيكرموك، وقلبُك فاجرٌ)**

فسيد المرسلين ﷺ يحذر أبا ذر (رضوان الله عليه)؛ وكلَّ مستوصٍ، أن يكون صادقاً في تقواه لله، وحذّره من أن يتظاهر بين الناس بأنه ممن يخشى الله وهو ليس كذلك! وأن يكون دافعه ـ من التظاهر بمظاهر الخشية والتقوى والورع ـ هو خداع الناس بظاهر التقوى التي ستكون سبباً لإكرامه بين الناس والمسلمين والمؤمنين؛ ممن يكرِمون أهلَ خشية الله تعالى.

يوصيه ﷺ بأن يتقي الله بصدقٍ، لا أن يتظاهر بذلك بدون أن تعمر التقوى قلبَهُ.

نماذج مخادعة:

إذا سبرنا الخطاب الديني؛ كتاباً وسنَّةً، سنجد أنه أفاض في التعريف بمعالم الخطاب الرباني ولوازمه وشروطه ومنافياته...، ومن ضمن أشكال التعريف ذكرُ نماذجَ مخادعةٍ؛ افتقدت الصدق والمصداقية؛ فحرمت نفسَها أن تكون من أهل الصراط المستقيم.

ولنذكر بعض تلك النماذج.

النموذج الأول: المنافقون

النفاق عرِّف بأنه: إظهار الإيمان وإبطان الكفر)[1]. فيكون خاصاً بالمستوى الاعتقادي.

---

(١) الأندلسي، ابن حزم (ت٤٥٦ هـ)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٣، ص١٣٦.

لكن هناك من وسَّع تعريفَه ليشمل حالاتٍ أخلاقية واجتماعية ونحو ذلك، فقال: هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول والفعل)[١]. ورتب عليه أن: كلّ مَن طلب المنزلة في قلوب الناس يضطر إلى النفاق معهم، وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خالٍ عنها، وذلك عين النفاق)[٢].

وعلى أيِّ حالٍ، فالنفاقُ خصلةٌ مذمومةٌ؛ سواء كان اعتقادياً فقط، أو اتسع عملياً ليشمل السلوكيات والمشاعر.

ولا يُستغرب من المنافق أن يكون مخادعاً، خصوصاً أولئك المنافقون الذي عاصروا رسولَ الله ﷺ، فقد كانوا مبتلَين بمثل هذه الحالة، وفي ذلك قال الله تعالى ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء/ ٨].

بل لقد تمادى هؤلاء المنافقون؛ في حماقاتهم وجهلهم، حتى وقع في وَهمِهم ـ حيث انطلت حيلتُهم على الناس ـ أنهم قادرون ليس فقط أن يخادعوا الناس، بل أن يخادعوا الله نفسه ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ. قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء/ ١٤٢].

النموذج الثاني: محبو الثناء بغير استحقاق

هناك فئةٌ من الناس يحبون أن يَبدوا للناس أنهم فعَّالون للخير، أو أنهم ذوو صفاتٍ حسنةٍ؛ مع أنهم ليسوا من أهل ذاك الخير، ولا من أهل تلك الصفات. وفي مثل هؤلاء قال تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران/ ١٨٨].

---

(١) الغزالي، أبو حامد (٥٠٥ هـ)، إحياء علوم الدين، ج١٠، ص٩٩، علاج الجاه؛ المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج٦، ص١٢٩؛ جامع السعادات، ج٢، ص٢٧١، مبحث الجاه والشهرة، فقرة: الجاه أحب من المال.

(٢) المصادر نفسها.

فقد روى المفسّرون في تفسير الآية[١] أنها نزلت في اليهود؛ حيث كانوا يحبون أن يُحمَدوا بما آتى الله إبراهيمَ عليه السلام، في الوقت الذي كانوا متحالِفين مع المشركين في مواجهة النبي صلى الله عليه وآله القائل فيه ربه تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء/ ١٠٧].

لكن يجب الالتفات إلى أن الآية؛ وإن كان لها شأن نزول، فخصوص المورد ـ كما قالوا ـ لا يخصص الواردَ[٢]، فإن معناها يتسع للموارد المماثلة؛ ما لم يقم دليلٌ على خروجه عن عمومها أو إطلاقها، والتفصيل يطلب من محله.

وقال الرازي؛ في ذيل هذه الآية الكريمة:

وأنت ـ إذا أنصفت ـ عرفت أن أحوالَ أكثر الخلق كذلك؛ فإنهم يأتون بجميع وجوه الحيل في تحصيل الدنيا، ويفرحون بوجدان مطلوبهم، ثم يحبون أن يُحمدوا بأنهم أهل العفاف والصدق والدين)[٣].

النموذج الثالث: الجبناء

الجبنُ رذيلةٌ على الضدّ من الشجاعة، وهي من الرذائل التي يستقبحها الأسوياء من الناس، ويتبرّأ منها حتى الجبناء أنفسهم، ولذلك لو نكصوا في موارد ضرورة الإقدام تجدهم يسوِّغون جبنهم بشتى الطرق والوسائل.

ومن هؤلاء الجبناء أولئك المتخلِّفون عن رسول الله صلى الله عليه وآله في جهاده؛ سواء كانوا من المنافقين أو من ضعفاء الإيمان، وهم الذين كانوا يبادرون إلى التظاهر بأن ثمة أعذاراً أعاقتهم عن الالتحاق بركب المجاهدين! بدون أن يكون الواقعُ مطابقاً لمدَّعاهم ولا لأعذارهم.

وفي هؤلاء وأولئك جاءت آيات عديدة، منها:

---

(١) انظر تفسير الطبري مثالاً، في ذيل الآية الكريمة.

(٢) النجفي، الشيخ محمد حسن (ت١٢٦٦ هـ)، جواهر الكلام، ج١، ص٢١٥، ج١، ص١٥، ص٤٥٠، ج١٧، ص٩٤، وغيرها.

(٣) الرازي، فخر الدين (ت٦٠٦ هـ)، التفسير الكبير، ج٩، ص٤٥٧، ذيل الآية الكريمة.

أ ـ قال الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب/ ١٣].

ب ـ قال تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور/ ٥٣].

النموذج الرابع: ذوو اللسانين

ذو اللسانين تعبيرٌ ورد في الكثير من النصوص الشرعية للإشارة إلى أولئك الذين يتلونون حسب البيئات والأشخاص، فهم يقولون لفلان من الناس كلاماً، ولفلان الآخر كلاماً مخالفاً. أو يمدحون فلاناً إذا كانوا في محضره، ويذمونه إذا غاب عنهم(١).

ولقد أصاب مَن وصف هذه الرذيلة بأنها: من علامات النفاق، وأخس ذمائم الأخلاق)(٢).

وفي حديثٍ للإمام الصادق عليه السلام يعرِّف فيه هذا النمطَ من الناس وسلوكياته، فيقول في ما رواه عبدالله بن أبي يعفور، قال: سمعت الصادق جعفر ابن محمد عليهما السلام، يقول: **مَن لقي الناسَ بوجهٍ، وغابهم بوجهٍ، جاء يومَ القيامة وله لسانان من نارٍ**)(٣).

وأما عقوبته فقد روى مسعدة بن زياد، قال: حدثني جعفر عليه السلام، عن أبيه عليه السلام: **أن الله تبارك وتعالى أنزل كتاباً من كتبه على نبيٍّ من أنبيائه، وفيه: إنه**

---

(١) قال الشهيد الثاني (ت٩٦٥ هـ)؛ في تعريف ذي اللسانين، أنه: الذي يتردد بين المتخاصمين ونحوهما ويكلم كلّ واحد منهما بكلام يوافقه) كشف الغيبة، ص٤٠، في ما يلحق بالغيبة من النميمة وغيرها.

(٢) المجلسي، محمد باقر (ت١١١١ هـ) بحار الأنوار، ج٧٢، ص٢٠٦، الباب ٦٣ ـ ذي اللسانين والوجهين، ذيل الحديث ١٢.

(٣) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، معاني الأخبار، ص٣٨، باب معنى ذي الوجهين واللسانين، الحديث ٢.

سيكون خلقٌ من خلقي، يلحسون الدنيا بالدين، يلبسون مسوكَ[(١)] الضأن على قلوب كقلوب الذئاب أشد مرارة من الصبر، ألسنتُهم أحلى من العسل، وأعمالُهُم الباطنةُ أنتنُ من الجيف.

أبي يغترون؟! أم إياي يخدعون؟! أم عليّ يتجبرون؟!

فبعزتي حلفت لأبعثن لهم فتنةً تطأ في خطامها حتى تبلغ أطراف الأرض، تترك الحكيمَ فيها حيرانَ)[(٢)].

وبعد كلّ هذا، فإننا إذا عدنا إلى القرآن الكريم وجدناه يربينا على: الصدق، والاستقامة، والتدين الصادق والقويم؛ الذي يتنافى تماماً والتصنعَ والتظاهرَ والمراءاةَ؛ فقال تعالى ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب/ ٢٣]، وعن يوم القيامة ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة/ ١١٩].

المحور الثاني: العلاج

بعد أن تعرَّفنا ـ بإيجازٍ ـ على معالم الأزمة، فلنتلمس معالم العلاج الناجع؛ الذي أشار إليه الرسول ﷺ بقوله:

- **[الفقرة/ ٧١]:**

(يا أبا ذرّ! ليكن لك ـ في كلِّ شيءٍ ـ نيةٌ[(٣)]؛ حتى في النوم والأكل)[(٤)].

وفي هذه الفقرة يبيّن النبيُّ ﷺ أن على الساعي في طريق الصلاح أن يبني ـ قبل أيِّ شيءٍ ـ علاقةً سليمةً ودائمةً بينه وبين ربه؛ من خلال تنميةِ حالةِ الحب

---

(١) جمع مسك؛ وهو: الجلد.

(٢) قرب الإسناد، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٥، ص٣٥٧، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٥٢ ـ تحريم اختتال الدنيا بالدين، الحديث ٣.

(٣) في نسخة الوافي (نية صالحة).

(٤) استشهد بهذه الفقرة الشيخُ الحرُّ العامليُّ في وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١، ص٤٨، =

والعشق لله تعالى؛ بالمستوى الذي يدفع به إلى الإخلاص في كلّ ما يصدر عنه؛ قولاً وفعلاً.

فإذا تمكن الإنسانُ أن يعيش حالةَ التعبُّدِ لله تعالى؛ حتى في أهونِ أعمالِه وأشدِّها ارتباطاً ببعده المادي؛ أعني النوم والأكل، فإنه سيكون في مهمات أفعاله ناوياً التقرب إلى الله من بابٍ أولى.

وهذا المضمون الذي دعانا إليه النبيُّ ﷺ ـ في الفقرة مورد البحث ـ يُعد من المعارف الإسلامية الثابتةِ من جهة، والتي حرصت عترةُ النبي (صلوات الله عليه وعليهم)؛ من بعده، على التأكيدِ عليها بمناسباتٍ مختلفةٍ، وبصياغاتٍ متعددةٍ، من جهةٍ أخرى.

وقد استفاضت الأخبار عنهم؛ بل تواترت على أن الأعمال إنَّما يكون لها قيمة بدوافعها؛ فـ**(لا عملَ إلا بنيةٍ)**؛ كما قال الإمام علي بن الحسين(١).

وليس هذا نفياً لوقوع العمل كما يدركه كلُّ أحدٍ، كما أنه ليس نفياً لأصل النية؛ فإننا لا نكاد نرى عملاً يصدر عن العقلاء ـ وهم ملتفتون ـ إلا وهو مقصودٌ لهم، وهذا هو معنى النية.

وما ترمي إليه الأحاديث الشريفة، وقبلها الآيات الكريمة، إنَّما هو نفيٌ لمقبوليةِ العملِ عند الله تعالى ما لم يكن قد صدر بنيةٍ صالحةٍ؛ كما ورد في نسخة الوافي من الوصية مورد البحث.

ولعل ما جاء في حديثٍ عن رسول الله ﷺ يؤكد ما قلناه، وهو قوله **(لا قول**

=أبواب مقدمة العبادات، الباب ٥ ـ وجوب النية في العبادات الواجبة واشتراطها بها مطلقاً، الحديث ٨. وكذلك استشهد بها السيدُ البروجرديُّ في: جامع أحاديث الشيعة، ج١، ص٣٥٩، الباب ١٢ ـ وجوب النية في العبادات الواجبة وأنه لا عمل إلا بها، ووجوب الإخلاص فيها وفى نيتها، وحرمة الرياء، وبطلان العبادة المقصود بها الرياء...، الحديث ١٤.

(١) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١، ص٤٦، أبواب مقدمة العبادات، الباب ٥ ـ وجوب النية في العبادات الواجبة واشتراطها بها مطلقاً، الحديث ١.

إلا بعمل، ولا قول و[لا] عمل إلا بنية، ولا قول و[لا] عمل، و[لا] نية إلا بإصابة السنة)[١].

وفي الحديث عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام، أنه قال: **إن الله يَحشر الناسَ على نيَّاتهم يوم القيامة)**[٢]. وهذا يعني أن للنية ـ حسنةً كانت أو قبيحةً ـ دوراً أساسياً في تحديد مصير الإنسان وعاقبته؛ ليكون من أهل الجنة إن حسنت نواياه وأريد بها وجه الله تعالى، أو من أهل النار؛ إن ساءت نواياه وكانت لغير الله سبحانه.

ومما روي في هذا الصدد ما جاء في صدر رسالة الحقوق ـ المروية عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام ـ وفيها: **اعلم ـ رحمك الله ـ أن للهِ عليك حقوقاً محيطةً لك في كلِّ حركةٍ تحرَّكتَها، أو سكنةٍ سكنتَها أو منزلةٍ نزلتَها، أو جارحةٍ قلَّبتَها وآلةٍ تصرَّفتَ بها...)**[٣]. وهذا يبيِّن أن ساحة الحقوق الإلهية تشمل جميعَ تصرفات العبد، وهذا ـ أيضاً ـ يشهد أن الأعمالَ تتحدد قيمتُها بقدر ما يُراد بها وجهُ الله تعالى، وبقدر ما تكرس ربوبيةَ الله بين الخلق.

ونلفت النظر إلى عددٍ من الملاحظات:

الملاحظة الأولى: أن هذا الأمر ليس من مختصّات شريعة الإسلام، بل إنه ثابتةٌ دينيةٌ لجميع الشرائع السماوية؛ فهذا ما جعِل مادةً أساسيةً لدعوات الأنبياء عليهم السلام. قال تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران/ ٧٩].

الملاحظة الثانية: أن هذا هو ما أوحاه الله تعالى إلى خاتم النبيين صلى الله عليه وآله؛ أن يجعله عنوانَ دينه وشعاره، وأن هذا هو ما كان عليه ـ من قبلُ ـ خليلُ الله

---

(١) المصدر السابق، ص٤٧، الحديث ٢.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٥، نقلاً عن المحاسن.

(٣) تحف العقول، وعنه: جامع أحاديث الشيعة، ج١٤، ص١٠٧، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٥٥ ـ جملة من الحقوق التي تجب مراعاتها، أو تستحب.

إبراهيمُ عليه السلام؛ حيث قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [الأنعام/ ١٦١ ـ ١٦٣].

الملاحظة الثالثة: أن هذا هو ما جُعِل قانوناً عاماً عند الله تعالى، به يُتقبَّل الناسُ؛ حيث يقول سبحانه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الحج/ ٦٤].

وقد تسأل، وتقول: لم جُعِل للنية كلُّ هذه القيمة والأهمية؟

والجواب: إنّ ذلك يرتبط بأنّ قيمةَ الإنسان إنَّما هي بجوهره، وليست بمظهره. والنية هي مركز هذا الجوهر؛ فهي ما يوجهه نحو الإقدام والإحجام، وعلى القبول والرفض، وعلى التولي والتبري، وهكذا.

وكشاهدٍ على ذلك نورد ما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **إنما خُلِّدَ أهل النار في النار؛ لأنّ نياتِهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبداً، وإنما خُلِّدَ أهلُ الجنة في الجنة؛ لأنّ نياتِهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً، فبالنيات خُلِّدَ هؤلاء وهؤلاء، ثم تلا قوله تعالى** ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء/ ٨٤]، **قال** [أي الإمام]: **على نيته**)[1].

---

(١) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١، ص٥٠، أبواب مقدمة العبادات، الباب ٦ ـ استحباب نية الخير والعزم عليه، الحديث ٤.



الفصل الخامس والثلاثون

الذكر الواعي

نحرص كثيراً ـ إن لم نقل دائماً ـ على أن ينال كلٌّ منا حقَّه. بلا فرق بين أن يكون هذا الحقُّ مادياً أو معنوياً؛ كبيراً أو صغيراً.

وهذا أمرٌ مشروعٌ، ولا غبارَ عليه.

ويرتبط ذلك ـ في أحيانٍ كثيرةٍ ـ بمسألة الكرامة الشخصية.

فمثلاً: لو أن أحداً كان يحدثنا وهو مُشيحٌ بوجهِهِ عنا؛ ولم يفرض عليه ذلك عذرٌ مقبولٌ، لاعتبرناه يمارس في حقِّنا ـ بإشاحته تلك ـ إهانةً؛ لأنّ من أدب الكلام أن يكون وجهاً لوجهٍ؛ لِما في المواجهة من إشاراتٍ رمزيةٍ للاحترام والتقدير، بخلاف الإشاحة والإعراض بالوجه فلا يخلو من تجاهلٍ وإهمال، بل من دلالةٍ على السخط والغضب أحياناً.

والإنسان ـ عادةً ـ (إذا رضي عن غيره أقبل بوجهه عليه، وإذا كرهه أعرض بوجهه عنه)[1]، كما أن (من سخط على غيره، واستهان به، أعرض عنه، وعن التكلم معه والالتفات إليه، كما أن مَن اعتد بغيره يكثر النظرَ إليه)[2].

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج٨٤، ص٧٠.

(٢) المناوي، زين الدين محمد (ت١٠٣١ هـ)، فيض القدير في شرح الجامع الصغير، ج٣، ص٣٣١، في شرح الحديث رقم (٣٥٤١).

وقال الرازي: من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاد نظره إليه مرة بعد أخرى) [التفسير الكبير، ج٨، ص١١٢، ذيل قوله تعالى ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ...﴾ آل عمران/ ٧٧].

وقد ورد في وصف النبي ﷺ أنه كان: ... إذا غضب أعرض بوجهه وأشاح)[١].

وانطلاقاً من هذا المبدأ، يتناول النبي ﷺ فنَّ الذكر، الذي لا يجيده سوى أهل العلم والعقل، فيقول:

● [الفقرة/ ٧٢]:

(يا أبا ذرّ! لتعظِم جلالَ الله في صدرك، فلا تذكرْهُ كما يذكره الجاهلُ عند الكلب؛ اللهمَّ اخزه، وعند الخنزير؛ اللهمَّ اخزِه).

فالنبيُّ ﷺ ذكر أموراً ثلاثةً:

الأمر الأول: يدعو أباذر ﵁ إلى أن يُحسن التعاملَ مع ذكر الله تعالى؛ لأنه ليس بصددِ فعلٍ عاديٍّ، وإنما بصدد فعلٍ ينال به صاحبُه جنةً عرضُها السماوات والأرض.

الأمر الثاني: أن لا يستهين بـ(الذكر)، كما لو كان فعلاً عادياً؛ بحيث يمارسه بوعيٍ وبغيرِ وعيٍ، باهتمامٍ وغيرِ اهتمامٍ. ويمثل ﷺ الذكر المستهان به بما يفعله الجاهلون بالله تعالى؛ من ذكره جل جلاله في محضر الكلاب أو الخنازير.

وبالمفهوم ندرك أهمية المحاريب والمساجد ومواضع الذكر، حيث إن الذاهبَ إليها يستدعي؛ في ذهنه وجدانه، أن لذكر الله حرمةً تتطلب آداباً منها:

أ ـ أن يقصد الموضعَ الأول للذكر، ففي (بيته يؤتى الحَكَم)[٢].

ب ـ أن يكون على طهارةٍ.

---

(١) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، عيون أخبار الرضا، ج١، ص٢٨٣، باب في أوصاف النبي ﷺ، الحديث ١، برواية الإمام الحسن ؈ عن خاله هالة بن أبي هالة؛ وكان وصافاً للنبي ﷺ. وفي المعجم الكبير للطبراني عن أبي هالة هذا: ... وإذا غضب أعرض وأشاح...)، ج٢٢، ص١٥٦، باب الهاء، من اسمه هند.

(٢) العسكري، أبو هلال (ت٣٩٥ هـ)، جمهرة الأمثال، ج١، ص٣٦٨، الباب السادس.

جـ ـ أن يكون على وقارٍ.

الأمر الثالث: يحدد النبي ﷺ القاعدةَ الراسخةَ التي ينبغي للذاكر أن يقف عليها، والتي وضع لها ﷺ عنواناً هو: تعظيمُ جلالِ الله تعالى.

ومربِّينا رسولُ الله ﷺ يضع ـ بهذه القاعدة ـ الذكرَ في مسارِهِ الصحيحِ؛ لأنّ كثيراً من الذكر الذي يمارسه العديدُ من الناس لا يسير في الاتجاه الصحيح.

فما هو الذِّكر؟

وما هي فلسفته؟

وما هي الأجواءُ التي ينبغي أن تكتنف الذاكر؟

الجواب: إن للذِّكر أبعاداً تتجاوز ما يحسبه كثيرٌ من (الذاكرين)؛ حيث قد تلهج ألسنتُهم به، لكن دون أن يكون قد لامس عقولَهم، أو انطلق من عمقِ أرواحِهم. ومثل هذا الذكر قد لا يكون مفيداً؛ بل قد يكون مدمِّراً.

أنواع الذكر:

لإيضاح الصورة وتجليتها نقول:

الذكر هو: الانتقالُ من النسيان والغفلة والذهول إلى الحضور والالتفات والتركيز[(١)].

وقال أبو البقاء: الذِّكر ـ بالكسر ـ له معنيان:

أحدهما: التلفظ بالشيء.

والثاني: إحضاره في الذهن؛ بحيث لا يغيب عنه. وهو ضد النسيان)[(٢)].

---

(١) قال في مقاييس اللغة، مادة (ذكر): ذكرت الشيء، خلاف نسيته. ثم حمل عليه الذكر باللسان) كتاب الذال، باب الذال والكاف.
وقال الأحمد نكري: الذِّكر ـ بالكسر ـ ما يكون باللسان، وبالضم [الذُّكر] ما يكون بالجنان) دستور العلماء، ج٢، ص٨٨، مادة (ذكر).

(٢) الحنفي، أبو البقاء (ت١٠٩٤ هـ)، الكليات، مادة (ذكر).

قال ابن الأثير: وقد تكرر ذكر الذكر في الحديث، ويراد به تمجيد الله تعالى، وتقديسه، وتسبيحه وتهليله، والثناء عليه بجميع محامده)[(١)].

وقال العلّامة الطباطبائي: الذكر حضور المعنى عند النفس)[(٢)]. وعرفه في موضع آخر بأنه: مطلق انتقال الذهن والخطور بالبال؛ سواء كان بمشاهدة آية، أو العثور على حجة، أو استماع كلمة)[(٣)].

وقد أحسن رحمه الله؛ إذ نوّه في بعض كلماته إلى حقائق عن الذكر، يمكن تلخيصها في التالي:

- أنه: ليس مقصوراً في اللفظ.
- أنه: أمر يتعلق بالحضور القلبي، واللفظ حاك عنه.
- أنه: أمرٌ يقبل الشدة في الكيفية.
- أنه يقبل الكثرة في الكمية[(٤)].

ويمكننا القول إن للذكر أربعَ مراتب:

المرتبة الأولى: الذكر العقلي

نعني بالذكر العقلي: حالة الوعي العقلاني والمعرفي بالله، وربوبيته، وسائر أسمائه وصفاته.

ودورُ الذكر ـ هنا ـ هو: تنشيطُ العقل؛ باستحضار حقائق الكون الكبرى؛ وفي صدارتها: أن له خالقاً، ومالكاً، ورباً، ورازقاً، ومعيناً، ونحوها.

---

(١) ابن الأثير، مجد الدين (ت٦٠٦ هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، حرف الذال، باب الذال مع الكاف، مادة (ذكر).

(٢) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٣٤١، بحث قرآني في معنى الذكر.

(٣) المصدر السابق، ج١١، ص٣٥٥، ذيل قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد/٢٨].

(٤) المصدر السابق، ج٢، ص٨٠، ذيل قوله تعالى ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ [البقرة/ ٢٠٠].

والذاكرون لله تعالى إذا ذكروه ـ عقلياً ـ؛ وهم مؤمنون به، ومسلِّمون له، إنَّما يستحضرون إيمانَهم هذا.

المرتبة الثانية: الذكر الروحي

ونعني به: التفات الروح الإنسانية إلى خالقها وبارئها....

ومهمتُهُ الرئيسةُ هي: الانتقالُ بالروح من مرحلة السكون والجمود إلى مرحلة التفاعل الوجداني؛ من خلال استحضار المحبوب والمعشوق.

المرتبة الثالثة: الذكر اللساني

ونعني به: تحريك اللسان بأسماء الله وصفاته.

والذكرُ ـ بمراتبه الثلاث هذه ـ هو أمرٌ مطلوبٌ لكلِّ ساعٍ في مسيرة التكامل، ومأمورٌ ـ شرعاً ـ بالإكثار منه؛ كما قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب/ ٤١]. كما أنه غايةُ كلِّ تقيٍّ (**واجعلْ لساني بذكرِك لهِجاً**)[١].

وهناك مرتبةٌ رابعةٌ ـ وأخيرة ـ للذكر؛ وهي التي تأتي تعبيراً عن تمثُّل الذكر في الجوارح بعد الجوانح؛ بالمستوى الذي يكون الذكرُ فيها هو الحاكمَ على جميع مفاصل حياة الذاكر.

وهذه المرتبة هي:

المرتبة الرابعة: الذكر العملي

يُراد بـ(الذكر العملي): استحضار ألوهية الله وربوبيته وولايته على مستوى السلوك؛ من خلال التزام الطاعات وترك المنهيات.

وهؤلاء الذاكرون لله تعالى آناء الليل وأطراف النهار إنَّما يلتزمون ذلك لأنهم محبُّون لله؛ والحبُّ لا يحكمه زمانٌ ولا مكانٌ. وبهذا وصفه الله تعالى في القرآن؛ حيث قال ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور/ ٣٧].

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

وفي الخبر عن زرارة، عن حسين البزار، قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: **ألا أحدثك بأشدِّ ما فرض الله عزّ وجلّ على خلقه؟**

قلت: بلى.

قال: إنصاف الناس من نفسك، ومواساتك لأخيك، وذكر الله في كلّ موطن. أما إني لا أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا اله إلا الله، والله أكبر. وإن كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله في كلّ موطن إذا هجمت على طاعة أو معصية)[١].

ولا بأس أن نورد بعض ما قاله العلماء في مسألة الذكر بمراتبه:

١ ـ حكي عن الإمام الرازي قوله:

المراد بذكر اللسان اللفظ الدال على التسبيح والتحميد، وبالذكر بالقلب التفكُّر في أدلّة الذات والصفات وأدلة التكاليف من أمرٍ ونهيٍ حتى يطلع على أحكامها في أسرار المخلوقات، والذكر بالجوارح أن تصير مستغرقة بالطاعة)[٢].

٢ ـ حكي عن النووي أنه قال:

المراد من الذكر حضورُ القلب، فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر، فيحرص على تحصيله، ويتدبر ما يذكر، ويتعقل معناه. فالتدبرُ في الذكر مطلوبٌ، كما هو مطلوبٌ في القراءة؛ لاشتراكهما في المعنى المقصود....)[٣].

٣ ـ حكي عن الأنصاري أنه قال:

منفعة الذكر أبداً إنَّما هي تتبع معناه بالفكر؛ ليقتبس الذاكر من ذكره أنوار المعرفة، ويحصل على اللب المراد. ولا خيرَ في ذكرٍ مع قلبٍ غافلٍ ساهٍ، ولا مع تضييعِ شيءٍ من رسومِ الشرعِ...

[وقال في موضع آخر]:

---

(١) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٥، ص٢٥٥، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٢٣ ـ وجوب اجتناب المحارم، الحديث ١٠.

(٢) العسقلاني، أحمد بن حجر (ت٨٥٢ هـ)، فتح الباري في شرح الباري، ج١١، ص٢٠٩، باب فضل ذكر الله.

(٣) الثعلبي، أحمد بن محمد (ت٤٢٧ هـ)، تفسير الثعالبي، ج١، ص٤٢٣.

ولا مطمعَ للذاكر في دَرْك حقائق الذكر إلا بإعمال الفكر في ما تحت ألفاظ الذكر من المعاني، وليدفع خطراتِ نفسه عن باطنه راجعاً إلى مقتضى ذكره، حتى يغلب معنى الذكر على قلبه، وقد آن له أن يدخل في دائرة أهل المحاضرات)[١].

٤ ـ عن الغزالي أنه قال:

المراد بالذكر في نفسه أن يكون عارفاً بمعاني الأذكار التي يقولها بلسانه، مستحضِراً لصفات الكمال والعز والعظمة والجلال. وذلك، لأنّ الذكر باللسان، عارياً عن الذكر بالقلب، كأنه عديم الفائدة. بل ذَكَر جمعٌ أن الذكرَ اللسانيَّ الساذجَ لا ثوابَ فيه أصلاً، ومن أتى بالكلمة الطيبة غيرَ ملاحِظ معناها أو جاهلاً به لا يعدُّ مؤمناً عند الله تعالى)[٢].

٥ ـ للعلّامة الطباطبائي (رضوان الله عليه) قراءةٌ متميِّزةٌ للذكر؛ أوردها في ذيل قوله تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد/٢٨]، جاء فيها ما نصُّه:

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ فيه تنبيهٌ للناس أن يتوجهوا إليه، ويريحوا قلوبهم، بذكره؛ فإنه لا همَّ للإنسان في حياته إلا الفوز بالسعادة والنعمة، ولا خوف له إلا مِن أن تغتاله الشقوةُ والنقمةُ. واللهُ سبحانه هو السبب الوحيد الذي بيده زمامُ الخير، وإليه يرجع الأمرُ كلُّه، وهو القاهرُ فوق عباده، والفعَّالُ لما يريد، وهو وليُّ عبادِه المؤمنين به، اللاجئين إليه.

فذكرُه للنفسِ، الأسيرةِ بيد الحوادث، الطالبةِ لركنٍ شديدٍ، يضمن لها[٣] السعادة المتحيِّرة في أمرها، وهي لا تعلم أين تريد؟ ولا أنى يراد بها؟ كوصف الترياق للسليم تنبسط به روحه، وتستريح منه نفسه.

والركون إليه، والاعتماد عليه، والاتصال به، كتناول ذاك السليم لذلك الترياق؛ وهو يجد من نفسه نشاطَ الصحة والعافية؛ آناً بعد آنٍ.

---

(١) المصدر السابق، ص٤٢٣ ـ ٤٢٤.

(٢) الألوسي، شهاب الدين (ت١٢٧٠ هـ)، تفسير الألوسي، ج٩، ص١٥٤.

(٣) **أقول**: في المصدر [له]، والصواب ما أثبتناه.

فكلُّ قلبٍ؛ على ما يفيده الجمع المحلى باللام من العموم، يطمئن بذكر الله، ويسكن به ما فيه من القلق والاضطراب.

نعم، إنَّما ذلك في القلب الذي يستحق أن يسمى قلباً، وهو القلبُ الباقي على بصيرته، ورشده. وأما المنحرفُ عن أصلِه؛ الذي لا يبصر، ولا يفقه، فهو مصروفٌ عن الذكر، محرومٌ عن الطمأنينة والسكون)(١).

ومن أجل هذه الأبعاد المهمة للذكر، جاءت النصوص الشرعية؛ وهي الوحي ﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت/ ٤٢]، حافلةً بالتأكيد على أهمية الذكر، والإكثار منه، وتصنيف أنواعه؛ حسب آثارها وفوائدها.

ولنتبرك ببعضها:

أ ـ روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **لا تختارُنَّ على ذكر الله شيئاً؛ فإنه يقول** ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت/ ٤٥])(٢).

ب ـ عن النبيّ ﷺ: **عليك بتلاوةِ القرآن، وذكرِ الله كثيراً؛ فإنه ذكرٌ لك في السماء، ونور لك في الأرضِ**)(٣).

جـ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام، لما سُئِل: من أكرمُ الخلقِ على اللهِ؟ **قال: أكثرُهم ذكراً للهِ، وأعملُهم بطاعتهِ**)(٤).

ثم ينتقل النص النبوي الشريف؛ في الوصية مورد البحث، إلى تحفيز أبي ذر رحمه الله بموجوداتٍ ذاكرةٍ لله تعالى ـ بما يليق بها، وحسب قدرتها ـ ولا ينبغي أن

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١١، ص٣٥٦، ذيل قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد/ ٢٨].

(٢) الريشهري، محمد المحمدي (معاصر)، الريشهري، ميزان الحكمة، مادة (الذكر).

(٣) معاني الأخبار والخصال، وعنهما: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٥، ص٢٩٤، كتاب الصلاة، أبواب الذكر، الباب ٥ ـ استحباب كثرة الذكر بالليل والنهار، الحديث ١٦، عن أبي ذر رحمه الله.

(٤) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٧، ص١٥٦، كتاب الصلاة، أبواب الذكر، الباب ٥ ـ استحباب كثرة ذكر الله بالليل والنهار، الحديث ٩.

يقصر حظُّ الإنسان؛ وهو المخلوق الأكمل، أن يكون أقلَّ شأناً منها، أو أن يتهاون في ذكر الله عزّ وجلّ بما لا يليق به تعالى.

فقال النبيُّ ﷺ:

- [الفقرة/ ٧٣]:

(يا أبا ذرّ! إن للهِ ملائكةً قياماً من خيفة الله ما رفعوا رؤوسهم؛ حتى يُنفخ في الصور النفخةُ الآخرةُ؛ فيقولون جميعاً: سبحانك[1] وبحمدك! ما عبدناك كما ينبغي لك أن تُعبد).

(١) في المكارم (سبحانك [ربنا]).



الفصل السادس والثلاثون

المعاد نعمة لا نقمة

١ ـ أهوال القيامة

● [الفقرة/ ٧٤]:

(يا أبا ذرّ! لو كان لرجلٍ عَمَلُ سبعين نبياً لاستقلَّ عملَهُ من شدةِ ما يرى يومئذٍ. ولو أن دلواً من غِسلين صُبَّ في مطلع الشمس لغَلَت منه جماجمُ مَن في مغربها، ولو زفرت جهنمُ زفرةً لم يبق ملَكٌ مقربٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ، إلا خرّ جاثياً على ركبتيه يقول: رب[1] نفسي؛ حتى ينسى إبراهيمُ إسحاقَ، ويقول: يا رب! أنا خليلُك إبراهيمُ؛ فلا تنسني).

القيامة من الغيب:

تقوم الرؤية الفلسفية الإسلامية على أساس أن ثمة دنيا وآخرةً، تمثل الأولى عالمَ الشهادة، وتمثل الثانيةُ عالمَ الغيب.

ولا يُسوَّغ للمؤمن أن يتنكر لعالم الغيب هذا؛ سواء عرفَ تفاصيلَهُ أو جهِلَها.

---

(١) في المكارم (رب [ارحم]).

وقد مدح الله عز اسمه المؤمنين المتقين على صفةِ الإيمانِ بالغيب؛ فقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة/ ٣].

وللوحي دورٌ رئيسٌ ـ إن لم نقل وحيدٌ ـ في بيان تفاصيل الغيب، وبالخصوص يوم القيامة(١).

فإذا عُدنا إلى القرآن الكريم؛ الذي هو أوثقُ نصٍّ وحيانيٍّ للتعرُّف على يوم القيامة، سنجد أنه يصفه بالمهول؛ من حيث طوله ومدته، ومن حيث خطورته على مصير الإنسان...

وهو يومٌ مهولٌ باعتبار ما جاء في قوله تعالى ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٍ مُّحۡضَرًا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران/ ٣٠]. وقال تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡـًٔا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة/ ٤٨].

فالمشكلةُ ـ إذاً ـ هي أن ذاك اليومَ يمثل ميزاناً للأعمال ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف/ ٨].

وقد نستعين ـ بحقٍّ، أو بباطلٍ ـ بآخرين في أداءِ مهامٍّ، أو تحملِ تبعاتِ ما عملناه، في عالم الدنيا، لكنَّ شيئاً من ذلك لا مجال له يومئذٍ.

قال تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡـًٔا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة/ ٤٨].

وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمًا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ

---

(١) قال الفيلسوف الشهير ابن سينا (ت٤٢٨ هـ):
يجب أن يُعلم أن المعاد منه ما هو منقولٌ من الشرع، ولا سبيل إلى إثباته إلا من طريق الشريعة وتصديق خبر النبوة؛ وهو الذي للبدن عند البعث، وخيرات البدن وشروره معلومة لا يحتاج إلى أن تعلم.
وقد بسطت الشريعة الحقة التي أتانا بها نبينا وسيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وعلى آله حالَ السعادة والشقاوة التي بحسب البدن) [إلهيات الشفاء، أبو علي ابن سينا، المقالة التاسعة، صدر الفصل السابع ـ المعاد].

عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان/ ٣٣].

كما أننا قد نتمرد على السلطة والسلطان؛ الماديين والمعنويين، في عالم الدنيا، لكن هذا غيرُ متاحٍ يوم القيامة ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر/ ١٦]. وليس هو سبحانه الواحد القهّار فحسب، بل هو ـ إلى جانب ذلك ـ المالك، والملك العادل؛ فـ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِۚ﴾ [الفرقان/ ٢٦].

ومن خصائص يوم القيامة أن أحداً لا يعين فيه أحداً؛ كما لو كان محامياً له، قال تعالى ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل/ ١١١].

وأمّا تفاصيلُه فكثيرةٌ، منها:

١ ـ طويلٌ لا يحتمله الناس

ـ قال تعالى ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج/ ٤٧].

٢ ـ تتقلب فيه القلوب والأبصار خوفاً ورعباً

قال تعالى ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور/ ٣٧].

٣ ـ لا تخفيف فيه

قال تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر/ ٤٩].

٤ ـ أنه يومٌ ثقيلٌ

قال تعالى ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان/ ٢٧].

٥ ـ آثاره عاجلة وكبيرة

حيث يتحول فيه الولدان شيباً، كنايةً عن أهوال ذاك اليوم.

قال تعالى ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل/ ١٧].

٦ ـ حتى الأنبياء والأئمة يخافون من أهوال ذلك اليوم، ويتحسبون له بتخير الأعمال الصالحة

قال تعالى ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان/ ٧].

وقال تعالى ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان/ ١٠]. فهو مخيفٌ للناس؛ إلا لمن آمن منهم وعمل صالحاً؛ لأن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام/ ٨٢].

وقال تعالى ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل/ ٨٩].

وقال تعالى ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ/ ٣٧].

ـ وقال تعالى ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه/ ١١٢].

فلسفة القيامة:

لو تساءلنا ـ مرة أخرى ـ عن فلسفة القيامة، وقلنا:

ما وجه الضرورة في أن يكون يومٌ يُحشر فيه الناس؟

ولماذا هذا التخويف، مع أننا نؤكد أن الله رحمن ورحيم، بل هو ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف ١٥١، يوسف/ ٦٤، ٩٢، الأنبياء/ ٨٣]؟

الجواب: أن الحشر والنشر هو من مستلزمات العدالة الإلهية التي تقتضي أن يجازى كلُّ عاملٍ بما عمل؛ إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ.

ولولا المعاد وإيمان المؤمنين به لخرج الناسُ بحسرةٍ، فكم من مظلوم ظُلِم، وكم من ظالم ظلَم؟! ولو لم يُقتَصَّ من الظالم للمظلوم لَما تحققت العدالةُ؛ التي هي من أخص خصائص الذات الإلهية.

ثم إنه لو لم يكن ليوم القيامة والتحذير من أهواله وأحواله إلا ما يجنيه الذاكرون للمعاد؛ من عمقٍ تربويٍّ على مستوى الروح؛ حيث ترق فيه النفوسُ،

وترتقي فيه الأرواح إلى حيث خشية الله والخوف من عقابه، وإلى حيث محبته ورجاء ثوابه، لكفى بذلك فائدة.

لذلك، فإنّ تذكّر القيامة، والتذكير بها، ليس يكمن فقط في جانب النقمة فيها، بل باعتباره تذكراً وتذكيراً بنعيمها الذي لا يضاهيه نعيمٌ. ومن ثَمَّ فإنّ ذكرَ يوم القيامة والتذكيرَ به يُعدُّ مسألةً لا غنى عنها من الزاوية التربوية والإيمانية.

وقد يُقال: إنّ هذا هو الداعي ـ أو أحد الدواعي ـ لأنّ يقول النبيُّ ﷺ عن:

٢ ـ نعيم الجنة

● **[الفقرة/ ٧٥]:**

(يا أبا ذرّ! لو أنّ امرأةً؛ من نساء أهل الجنة، اطَّلعت من سماء الدنيا في ليلة ظلماء لأضاءت الأرضَ أفضلَ ممَّا يضيئها القمرُ ليلةَ البدر، ولوجد ريحَ نشرِها جميعُ أهلِ الأرض.

ولو أنّ ثوباً من ثياب أهل الجنة نُشِر اليومَ في الدنيا لصعق مَن ينظر إليه وما حملته أبصارهم).

وهذه الفقرة من الوصية تبيِّن طبيعةَ الجنةِ وأنها تختلف إلى حدٍّ كبيرٍ عن عالم الدنيا. وذلك في سياق التعريف ببعضِ نعيمِها؛ الذي يرجوه الإنسان لنفسه.

فالرجال ـ مثلاً ـ لهم ميلٌ طبيعيٌّ للنساء، كما أنّ النساء لهنّ ميلٌ مماثلٌ للرجال، وكلا الطرفين ينشدان أموراً في بعضهما؛ قد تكون متحدةً، وقد تكون مختلفةً. غير أن ما ينشده الرجل ـ غالباً ـ في المرأة هو الجمال والطيب، بينما تنشد المرأة ـ كذلك ـ في الرجل أموراً أخرى؛ كالقوة ونحوها.

وعلى هذا الأساس جاء التأكيد ـ والله العالم ـ في كثيرٍ من النصوص، على محاسن النساء في الآخرة، وخلوِّهنَّ من أيِّ منفِّرٍ؛ ممَّا اعتيد وجوده في عالم الدنيا.

وما جاء في الفقرة مورد البحث هو من هذا القبيل؛ حيث وصف النبيُّ ﷺ كلَّ واحدةٍ من نساء أهل الجنة بوصفين مطلوبين، هما:

أ ـ **الجمال الفائق؛** حتى **(لو أنّ امرأةً؛ من نساء أهل الجنة، اطَّلعت من سماء الدنيا في ليلة ظلماء لأضاءت الأرضَ؛ أفضلَ ممَّا يضيئها القمرُ ليلةَ البدر).** ولعلّ تعبير الإضاءة؛ بنحوٍ أفضل ممَّا ينير القمرُ عند تمامه بدراً أواسط الشهر، هو من باب الكناية عن الجمال في أعلى مراتبه.

ب ـ **الريح الطيبة؛** بحيث يجد **(ريحَ نشرِها)؛** أي طيبها وعطرها **(جميعُ أهلِ الأرض).**

وكذلك القول بالنسبة إلى أدوات الزينة والجمال؛ وهي الثياب عادةً، التي يحرص الناسُ؛ كلٌّ حسب وُسعه واقتداره المادي، على اختيار الأجود والأجمل منها. ولَما كانت الآخرةُ ونعيمُها بالحدّ الذي لا يُقاس به ما نعرفه في الدنيا، جاء النصّ في الوصية ببيان ذلك؛ بقول النبي ﷺ: **ولو أنّ ثوباً من ثياب أهل الجنة نُشِر اليومَ في الدنيا لصعق مَن ينظر إليه وما حملته أبصارهم).**

ولعلّ هذا التعبير هو ـ كسابقه ـ من باب الكناية؛ التي قد تكون أبلغَ في حكاية واقع الشيء. بمعنى أنّ جمال هذه الثياب؛ الذي هو بمثابة ما يكون سبباً لعمى الأبصار؛ لشدة نصاعته وجماله، وتقصر لغة الدنيا عن حكاية ذلك بغير التعبير الذي لجأ النبي ﷺ إلى استعماله هنا.

وإنما دعانا إلى ذكر هذا الأمر ما نرى من لزوم لَفْتِ النظر إليه في مثل المقام؛ من أنّ الطبيعة الوجودية للجنة ونعيمها يختلف عن طبيعة الدنيا ونعيمها، كما أن الطبيعة الوجودية وجحيمها يختلف عن طبيعة الدنيا وشقائها.

لذلك، صحّت مقولة: النظام الحاكم في الآخرة غير النظام الحاكم في الدنيا؛ فإنما الآخرة دار أبدية وبقاء، والدنيا دار زوال وفناء)[١].

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٤، ص٢٢، بحث روائي في ذيل الآيات ١٣٠ ـ ١٣٨ من سورة آل عمران.

وصحت ـ أيضاً ـ مقولة: إن الجنة أرفع وأعلى من أن يحيط بها الوصف ويحدها اللفظ، وإنما تقرب إلى الأذهان نوعَ تقريب؛ بأمثال مضروبة؛ كما يلوح إليه قوله تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة/ ١٧])(١).

وهذه الطبيعة الوجودية المختلفة للجنة؛ ولعموم عالم الآخرة، هي ما أشير إليه في عدد من الآيات، منها:

أ ـ قوله تعالى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم/ ٤٨].

ب ـ قوله تعالى ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج/ ٤٧].

ج ـ قوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان/ ٢٠].

ختامه مسك:

قد يقال: لماذا الإكثار من الحديث عن جانب العذاب يوم القيامة، على الحديث عن جانب النعيم؟

والجواب: أن سر ذلك ـ والله العالم ـ يكمن في أمرين:

الأول: أن يوم القيامة هو يوم العدالة الإلهية للإنسان. وهذا يفرض التنبيهَ إلى العقوبةِ على ما اقترفه الإنسانُ، أو ما يمكن أن يقترفه، من جرائمَ وتقصيرٍ؛ في حق الخالق أو المخلوقين. قال تعالى ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف/ ١٠٣]. وقال تعالى على لسان الشيطان ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

الثاني: أن الإنسانَ ـ بطبعه ـ أشدُّ حرصاً على تجنب العذاب من حرصه على جلب المنافع والخير؛ في العاجل والآجل معاً.

(١) المصدر السابق، ج١٨، ص٢٣٢، ذيل قوله تعالى ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ﴾ [محمد/ ١٥].



الفصل السابع والثلاثون

خفضُ الصوتِ كطريقٍ إلى التفكرِ

تُعَدُّ (اللغة) من نِعَم الله العظمى على الإنسان؛ فهي الكاشف الأول عن مكامنِ القوةِ في شخصيةِ المتحدِّثِ؛ لِما تمثِّله من:

أ ـ جسرٍ للتواصل بين المتحدِّثِ والمستمعِ.

ب ـ مؤشّرٍ ثقافيٍّ لمستوى شخصيةِ المتحدِّث.

ج ـ معرِّفٍ بحكمةِ المتحدِّثِ.

د ـ ميزانٍ لمواقفه النفسية، والاجتماعية، والسياسية...، للمتحدِّث تجاه الأشخاص والأحداث والأفكار.

إذا لاحظنا ذلك؛ وغيره من الفوائد والمظاهر التي نجنيها عبر (اللغة)، سنكتشف السببَ وراء حرص الناس على الكلام، أولاً، وعلى تفننهم في أشكال التعبير، ثانياً.

فللحديث والكلام (آداب) يجب مراعاتها تارة، وينبغي مراعاتها أخرى. وقد ذُكِر في الكتاب والسنة قواعدُ وافرةٌ منها، نستعرض بعضها في ما يلي:

١ ـ الحديثُ ليس فضيلةً مطلقةً، بل قد يكون رذيلةً بينما يكون الصمتُ هو الفضيلةَ، فلا بد من مراعاة طبيعة الحديث والحادثة والمتحدث، وما يكتنف الثلاثة من ظروف ومناسبات ونحوها.

فقد روى أبو حمزة قوله: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: **إنما شيعتُنا**

الخرسُ)[1]. والمقصود بهذا الوصف ـ كما هو واضحٌ ـ ليس العجز عن الكلام، بل الإقلال منه؛ حتى يكاد يصنَّف ضمن الخرس العاجزين عن الكلام.

والسبب في هذا ـ والله العالِمُ ـ أن الإمامَ عليه السلام بصدد تبيانِ مخاطر الحديثِ على الشيعيِّ؛ لأسباب عديدةٍ، منها:

أولاً: عملٌ في حدِّ ذاتِه وسيحاسَب قائله عليه بين يدي الله تعالى؛ بمعنى أنه سيُسأل عنه.

وثانياً: قد يصدر في جوٍّ غيرِ ملائمٍ لهذا السبب أو ذاك. ومنها:

أ ـ أن لا يكون المتحدَّث معه ـ أو معهم ـ قادراً على استيعاب مضمون الحديث. كما إذا كان الحديثُ عن معتقداتٍ ذات عمقٍ معرفيٍّ لا يألفه الوسط الذي نشأ فيه المستمعُ. وهو ما يجعله يدخل في إطارِ الثقافة النخبوية، كما وُصِف في مدرسة أهل البيت عليهم السلام بقولهم **(إن أمرَنا صعبٌ مستصعَبٌ؛ لا يحمله إلا عبدٌ مؤمنٌ؛ امتحن الله قلبَه للإيمان. ولا يعي حديثَنا إلا: صدورٌ أمينةٌ، وأحلامٌ رزينةٌ)**[2].

ب ـ أن لا يكون المتحدَّث معه ـ أو معهم ـ راغباً في الاستيعاب لمضمون الحديث. حالهم في ذلك حال من جاء وصفهم في القرآن بقول الله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام/ ٢٥].

٢ ـ جاء التأكيدُ المتكررُ منهم عليهم السلام على مراعاةِ الواقعِ الاجتماعيِّ عند التحدثِ؛ لئلا يترتب على الكلامِ ما لا يُحمد عقباه.

فقد روى كلٌّ من أبي بصير ومحمد بن مسلم، عن أبي عبدالله عليه السلام، أنه قال:

خالطوا الناس بما يعرفون، ودعوهم ممَّا ينكرون، ولا تحملوهم على

---

(١) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص١٨٢، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١١٧ ـ استحباب الصمت والسكوت إلا عن الخير، الحديث ٣.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٩.

أنفسكم وعلينا. إن أمرَنا صعبٌ مستصعَبٌ؛ لا يحتمله إلا ملَكٌ مقرب، أو نبيّ مرسل، أو عبد قد امتحن الله قلبَه للإيمان)[١].

٣ ـ بملاحظة ما تقدم فقد وردت أحاديث يصح معها عدُّ الصمتِ فضيلةً. ففي ما رواه أحمد بن محمد بن أبي نصر، قال:

قال أبو الحسن [الرضا] عليه السلام: **من علامات الفقه: العلمُ، والحلمُ، والصمتُ. إن الصمتَ بابٌ من أبواب الحكمة. إن الصمتَ يُكسِب المحبةَ، إنه دليلٌ على كلِّ خيرٍ)**[٢].

٤ ـ ليس هذا المضمون ـ أي أن الصمت فضيلة ـ وقفاً على آداب الإسلام، وإنما هو سُنَّةٌ من سنن الأنبياء عليهم السلام، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **قال داود لسليمان** عليهما السلام: **يا بنيَّ! عليك بطول الصمت؛ فإن الندامةَ على طول الصمتِ مرةً واحدةً خيرٌ من الندامة على كثرة الكلام مراتٍ. يا بني! لو أن الكلامَ كان من فضةٍ كان ينبغي للصَّمْت أن يكون من ذهب)**[٣].

٥ ـ نستوعب ذلك أكثرَ إذا التفتنا إلى أن للكلامِ انعكاساً على قائلِهِ وعلى الآخَرين. ومن ثَم فقد جاء التحذيرُ من خطورتِهِ.

ففي ما رواه السكوني عن الإمام الصادق عليه السلام، قال:

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يعذب الله اللسانَ بعذابٍ لا يعذب به شيئاً من الجوارح، فيقول: أي ربِّ! عذبتَني بعذابٍ لم تعذب به شيئاً! فيقال له: خرجتْ منك كلمةٌ، فبلغت مشارقَ الأرض ومغاربَها؛ فسُفِك بها الدمُ الحرامُ،

---

(١) الصفار، محمد بن الحسن (ت٢٩٠ هـ)، بصائر الدرجات، ص٤٦، باب (في أئمة آل محمد عليهم السلام أن أمرهم صعب مستصعب)؛ الخصال للشيخ الصدوق، حديث الأربعمائة.

(٢) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص١٨٢، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١١٧ ـ استحباب الصمت والسكوت إلا عن الخير، الحديث ١.

(٣) قرب الإسناد، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص١٨٧، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١١٧ ـ استحباب الصمت والسكوت إلا عن الخير، الحديث ١٧.

وانتُهِب بها المالُ الحرام، وانتُهِك بها الفرجُ الحرامُ. وعزتي! لأعذبنك بعذابٍ لا أعذب به شيئاً من جوارحك)[١].

٦ ـ ننتهي إلى أن من الضروريِّ أن لا يفسح الإنسانُ للسانِهِ أن ينطق بكلِّ شيءٍ في أيِّ وقتٍ، وإنما عليه أن يراعيَ ما يتوافق ومصالحَهُ؛ العاجلةَ والآجلةَ، وما يدفع عنه وعن الآخَرين الضررَ والمكروهَ، ضمن الإطار المحدد شرعاً، والمبيَّن في القرآن الكريم وجوامع الحديث الشريف، والمفصل في كتب الفقه والأخلاق.

فقد روى منصور بن يونس، عن إمامنا جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال: **في حكمة آل داود: على العاقل أن يكون عارفاً بأهل زمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه)**[٢].

٧ ـ نخلص ـ أيضاً ـ من كلِّ ذلك إلى أن البيانَ والحديثَ والكلامَ إنَّما يكون (قيمة) بلحاظِ كونِهِ (وسيلةً) تعبِّر عن شخصيةِ المتحدِّث؛ الذي ينبغي أن يناغم بين ما يقول وما يعي، وبين ما يفعله وما يؤمن به.

وخير ما نقرأه ـ في هذا الصدد ـ قولٌ منسوبٌ للإمام الباقر عليه السلام: **إني لأكره أن يكون مقدارُ لسانِ الرجلِ فاضلاً على مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدارُ علمِهِ فاضلاً على مقدارِ عقلِهِ)**[٣].

فهو العقلُ إذاً؛ والذي على أساسه يمتاز الناسُ للوصولِ إلى التقوى، لبلوغِ مقامِ الكرامةِ، وليس الكلام أو الصمت.

---

(١) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٢٧، ص٢١، كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي، الباب ٤ ـ عدم جواز القضاء والافتاء بغير علم بورود الحكم عن المعصومين عليهم السلام، الحديث ٤.

(٢) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص١٩١، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١١٩ ـ وجوب أداء حق المؤمن، الحديث ٩.

(٣) المعتزلي، عز الدين ابن أبي الحديد (ت٦٥٦ هـ)، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٩٢، فصل في مدح قلة الكلام وذم كثرته.

وباعتبار الحكمة التي تؤكد حقيقةَ (**السكوتُ راحةُ العقلِ**)[١]، فاللائقُ أن يغلب السكوتُ على الحديثِ؛ لأنّ السكوتَ يتيح للعقلِ أن يتأمل في ما عُرِض عليه، أو واجهه، للحكمِ عليه بالصوابِ والخطأِ، أو بالخيرِ والشرِّ...

٨ ـ يجب أن لا يُفهَم ـ ممَّا تقدم ـ أن السكوتَ فضيلةٌ بالمطلقِ، بل يجب التأكيد أنه إنَّما يكون فضيلةً بقدرِ ما يكون وسيلةً للتفكرِ والتأملِ، وبقدر ما يكون الكلام مضرّاً ومفسِداً.

وقد روي عن الإمام علي عليه السلام قوله: ... **كلُّ سكوتٍ ليس فيه فكرةٌ فهو غفلةٌ**)[٢]، وقوله: **الصمتُ بغيرِ تفكرٍ خرسٌ**)[٣].

٩ ـ النتائج التي يتوصل إليها الصامتون المتأملون هي التي تكرس صفةَ (الصمت) فيهم؛ باعتبار أنهم يدركون حقيقةً ـ يجب أن لا تغيب ـ مفادها: أن الكلمةَ مسؤوليةٌ.

وقد قال الإمام علي عليه السلام ـ في حديثٍ ـ: **إن لله عباداً كسرت قلوبَهم خشيةُ الله؛ فاستنكفوا من المنطق، وإنهم لفصحاءُ، ألِبَّاءُ، نبلاءُ. يستبِقون إليه بالأعمال الزاكية، لا يستكثرون له[٤] الكثيرَ، ولا يرضون له القليل...**)[٥].

مواضع التفكّر:

في هذا السياق يأتي قول النبي صلى الله عليه وآله في وصيته لأبي ذر (رضوان الله عليه):

---

(١) الحر العاملي، محمد بن الحسن (ت١١٠٤ هـ)، هداية الأمة إلى أحكام الأئمة، ج٥، ص١٧٣، الفصل ١١ ـ الكلام...، الباب ٢ ـ الصمت وحفظ اللسان، الحديث رقم ١١٥٢.

(٢) من لا يحضره الفقيه، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٢، ص١٩٧، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ١٢٠ ـ كراهة كثرة الكلام بغير ذكر الله، الحديث ٥.

(٣) الواسطي، علي بن محمد (ق ٦ هـ)، عيون الحكم والمواعظ، ص٤٧، الباب الأول، الفصل الأول.

(٤) رويت في بعض المصادر، كميزان الحكمة وبعض مواضع بحار الأنوار (لهم)، وفي بعضها الآخر بـ(له). ولكلٍّ وجهٌ.

(٥) الزهد للأهوازي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص١٩٩ كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١٢٠ ـ كراهة كثرة الكلام بغير ذكر الله، الحديث ٩.

● [الفقرة/ ٧٦]:

(يا أبا ذرّ! اخفِض صوتَك عند الجنائز، وعند القتال، وعند القرآن).

فهذه مواضعُ ثلاثةٌ ينبغي للحكيم؛ السائر على الصراط المستقيم، أن يشتغل فيها بالتأملِ والتفكرِ:

١ ـ الموت:

يجدر بالإنسان أن يتفكر في ما هو مقدِمٌ عليه ـ اليوم أو غداً ـ وهو (الموت)؛ الذي يستتبع كتاباً وحساباً.

فلا يليق بمن يشيِّع ميتاً أن يلهو بحديثٍ لا طائلَ من ورائه، بل ينبغي له ـ أثناء التشييع ـ أن يتذكر أن هذا الميتَ ليس إلا رسالةً ربانيةً أتحفه الله بها، وأن يتذكر أن الموتَ حقٌّ لا ريبَ فيه، وأن وراءه عقباتٍ كأداءَ؛ يتعسر تجاوزُها على كلّ مَن لم يستعد لها.

● [الفقرة/ ٧٧]:

(يا أبا ذرّ! إذا تبِعتَ جنازةً فليكن عقلك فيها مشغولاً بالتفكّر والخشوع، واعلم أنك لاحقٌ به).

٢ ـ القتال:

أما الموضع الثاني، فهو (القتال)؛ الذي ينبغي فيه:

١ ـ الاعتصامُ بالله؛ فلا عاصم سواه سبحانه.

٢ ـ اعتمادُ منطقِ الحقِّ؛ فلا ينتصر للباطل ولا ينتصر به.

٣ ـ التسليمُ للمكروهِ في سبيلِ الله تعالى؛ لأنّ الجهادَ مبنيّ على الضرر.

٤ ـ أن على الإنسانِ أن يُدرك أن النصر إنّما هو ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران/ ١٢٦]؛ فلا يرجو غيره تعالى.

٣ ـ قراءة القرآن:

أما الموضع الثالث، فهو (قراءة القرآن). وينبغي فيه أن نحسن التعاملَ مع القرآنِ؛ الذي وصفه الله تعالى بقوله ﴿جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام / ١٥٧]. والبيِّنةُ ـ كما هو واضحٌ ـ لا تفيد العُمْيَ.

وأحدُ أشكال العَمَى أن يتشاغل السامعُ للقرآنِ عنه بحديثٍ جانبيٍّ. ومن ثَم قال تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف/ ٢٠٤]، بعد أن وصفه سبحانه بقوله ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف/ ٢٠٣].

وينتهي النبيُّ ﷺ في وصيتِهِ الحكميةِ هذه، إلى نصٍّ لافتٍ، يبيِّن فيه أن على العاقلِ أن لا يسمح بتسللِ الفسادِ إلى الأمورِ الرئيسيةِ؛ لأنّ سريانَهُ إليها يُفسِد كلَّ ما يتفرع عنها، ويمنع من معالجتِها لاحقاً.

ويستفيد في تبيانِ ذلك من (الملح)؛ الذي يستفيد منه الناس في الحؤول بين الأشياء؛ خصوصاً الأغذية، والفسادِ. فيقول:

● **[الفقرة/ ٧٨]:**

(يا أبا ذرّ! اعلم أن كلَّ شيءٍ إذا فسد فالمَلْحُ دواؤه، فإذا فسد المَلْحُ فليس له دواءٌ).

٤ ـ الضحك في القرآن:

أغلب ما جاء في القرآن الكريم عن الضحك كان في موارد مذمومة، من قبيل:

١ ـ قوله تعالى ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة/ ٨١ ـ ٨٢].

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزخرف/ ٤٦ ـ ٤٧].

٣ ـ قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين/ ٢٩].

٤ ـ قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [المؤمنون/ ١٠٩ ـ ١١٠].

وفي هذه الموارد ـ جميعاً ـ نلاحظ ذماً لهؤلاء الضاحكين. وذلك لأنّ أسبابه ـ كما هو واضحٌ ـ لم تكن مشروعةً تدفع بهم إلى الضحكِ المسوَّغ المشروع.

وفي مقابلها يورد القرآن حالةً معاكِسةً للمؤمنين؛ حيث يضحكون في الآخرة؛ بسببٍ مشروعٍ، ممن كانوا يستهزئون بهم في الدنيا. وذلك في:

٥ ـ قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين/ ٢٩ ـ ٣٦].

ونضيف أن سببَ ضحك المؤمنين في الآخرة ليس مقصوراً على هذا الموقف، بل إنها السمةُ العامةُ لهم، والتي تكشف ـ بدورها ـ عن مدى سعادتهم ورضاهم عمّا هم فيه. قال تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس/ ٣٨ ـ ٣٩].

والذي نخلص إليه: أن الضحكَ مباحٌ في ذاته، وإنما يكون مذموماً لأسبابٍ أخرى؛ كما سيمر علينا لدى استعراضنا للروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام.



الفصل الثامن والثلاثون

توازن الشخصية ـ الضحك والكسل مثالاً

● [الفقرة/ ٧٩]:

(واعلم أن فيكم خُلُقين: الضحكَ من غير عجبٍ، والكسلَ من غير سهوٍ!).

يجب التأكيد ـ أولاً ـ على أن الإسلامَ ليس مشروعاً مضاداً للاستمتاعِ بالحياةِ الدنيويةِ، كما أنه ليس مشروعاً أحاديَّ الجانبِ، ليُعمَل على بناء بعدٍ من الشخصيةِ الإنسانيةِ دون بُعدٍ آخر.

ولكي تتضح الصورةُ نقول:

غمز الرسولُ ﷺ؛ في هذا المقطع، من قناة صفتينِ يكاد لا يخلو منهما أحدٌ، وهما:

١ ـ الضحك

٢ ـ الكسل

ولنقف عند الصفتين في حدود ما يرتبط بالمقام، ويناسب هذه الدراسة.

***

المحطة الأولى: الضحك

(الضحكُ) هو: الحالةُ المعروفةُ؛ التي تنفرج فيها الشفتان وتبدو الأسنان. وسببها تفاعل فيها الإنسانُ مع موقفٍ من المواقفِ، قولاً أو فعلاً، صدر عن أحدٍ من الناسِ، أو الحيواناتِ، أو حتى لشيءٍ من الجماداتِ، يثير في نفس الإنسانِ الأنسَ والتعجبَ؛ فيندفع ضاحكاً، مصحوباً بقهقهةٍ تارةً، وبدونها أخرى.

وله مراتب أعلاها (القهقهة) وأدناها (التبسم).

والضحكُ ـ بمراتبِهِ المختلفةِ ـ هو حالةٌ طبيعيةٌ لا يقف منها المشرِّعُ الإسلاميُّ موقفاً سلبياً بالمطلق. فقد رُوِي عن خاتمِ النبيين ﷺ والأئمة الطاهرين عليهم السلام العديدُ من المواقفِ التي ضحكوا فيها. ولو كان مذموماً بالمطلق لَما صدر عنهم، فالنبيُّ وآله (عليه وعليهم السلام) معصومون لا يعصون الله ما أمرهم.

ولنقف عند بعض تلك المواقف:

الضحك في السنَّة

إذا تجولنا في النصوص الروائية الواردة عن المعصومين عليهم السلام فسنجد أن بعضها يحكي صدور الضحك عن النبي ﷺ أو الإمام عليه السلام، بما يكشف عن مشروعيته، أو مطلوبيته حيناً آخر، وفي بعضها الآخر بما يفيد كراهته؛ لأنه على النقيض من الحالة التي ينبغي للموقف أن يكون عليها، وفي طائفةٍ ثالثةٍ بما يفيد كراهة الإكثار منه، حتى لا يكون هو السمةَ التي تغلب على المؤمن فيذهب بمروءته... وهكذا. ولنورد بعض هاتيك النصوص:

١ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: **ما من مؤمنٍ إلا وفيه دعابةٌ، قلت: وما الدعابة؟ قال: المزاح**[(١)].

---

(١) المصدر السابق، ص١١٢، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ٨٠ ـ استحباب المزاح والضحك من غير إكثار ولا فحش، الحديث ٣، عن أصول الكافي.

وعنه عليه السلام، يصف حال الرسول صلى الله عليه وآله أنه: **كان ...يداعبُ، ولا يقول إلا حقاً)**[١]. والتعبير بلفظة (كان) يفيد اتصافه الدائم بذلك.

٢ ـ عن يونس الشيباني، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: **كيف مداعبة بعضكم بعضاً؟ قلت: قليل!! قال: فلا تفعلوا، فإن المداعبةَ من حسن الخلق، وإنك لتدخل بها السرورَ على أخيك، ولقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يداعب الرجلَ يريد أن يسرَّه)**[٢].

٣ ـ عن الحسين بن زيد، قال:

قلتُ لجعفر بن محمد عليه السلام: **جعلت فداك وهل كانت في النبي صلى الله عليه وآله مداعبة؟! فقال: وقد وصفه الله بخلقٍ عظيمٍ في المداعبة. وإن الله تعالى بعث أنبياءَه فكانت فيهم كزازةٌ**[٣]**، وبعث محمدا صلى الله عليه وآله بالرأفة والرحمة وكان من رأفته لأمته مداعبته لهم؛ لكيلا يبلغ بأحدٍ منهم التعظيمُ حتى لا يُنظَر إليه.**

ثم قال [أي الإمام الصادق عليه السلام]: حدثني أبي محمد، عن أبيه علي، عن أبيه الحسين، عن أبيه علي عليه السلام، قال: **كان رسول الله صلى الله عليه وآله ليسر الرجلَ من أصحابه؛ إذا رآه مغموماً، بالمداعبة)**[٤].

٤ ـ روي أن رجلاً قال له صلى الله عليه وآله: **احملني يا رسول الله! فقال: إنّا حاملوك**

---

(١) كتاب الأخلاق للكوفي، وعنه: جامع أحاديث الشيعة، ج١٥، ص٥٤٦، كتاب العِشرة، باب ما ورد في الدعابة والمزاح والضحك، الحديث ٢.

(٢) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص١١٢، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ٨٠ ـ استحباب المزاح والضحك من غير إكثار ولا فحش، الحديث ٤.

(٣) وهي الانقباض.
أقول: يجب حمل هذه الكزازة ـ إن صح الخبر ـ على ما لا يتنافى وعصمة الأنبياء عليهم السلام.

(٤) كتاب الأربعين لابن زهرة، وعنه: جامع أحاديث الشيعة، كتاب العِشرة، باب ما ورد في الدعابة والمزاح والضحك، الحديث ٢.

على ولد ناقة! فقال: ما أصنع بولد ناقة؟! قال (صلى الله عليه وآله): وهل يلد الإبل إلا النوق)(١).

٥ ـ استدبر ﷺ رجلاً من ورائه، وأخذ بعضده، وقال: **من يشتري هذا العبدَ؟! يعنى أنه عبدالله)**(٢).

٦ ـ عن زيد بن أسلم أن النبي ﷺ قال لامرأةٍ ذكرت زوجها: **أهذا الذي في عينيه بياض؟! فقالت: لا ما بعينيه بياضٌ! وحكت لزوجها، فقال: أما ترين بياضَ عيني أكثرَ من سوادها؟)**(٣).

٧ ـ قالت عجوز من الأنصار للنبي عليه السلام: **ادع لي بالجنة، فقال: إن الجنة لا يدخلها العجوز**(٤)**! فبكت المرأة، فضحك النبي (صلى الله عليه وآله)، وقال: أما سمعتِ قول الله تبارك وتعالى** ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ [الواقعة/ ٣٥ ـ ٣٦])(٥).

٨ ـ قال عليه السلام للعجوز الأشجعية: **يا أشجعية! لا تدخل العجوزُ الجنةَ! فرآها بلالٌ باكيةً، فوصفها للنبي (صلى الله عليه وآله)، فقال (صلى الله عليه وآله): الأسود كذلك! فجلسا يبكيان، فرآهما العباسُ فذكرهما له فقال (صلى الله عليه وآله): والشيخ كذلك! ثم دعاهم، وطيَّب قلوبَهم، وقال: ينشئهم الله كأحسن ما كانوا، وذكر أنهم يدخلون الجنة شباناً**(٦) **منوَّرين، وقال (صلى الله عليه وآله): إن أهل الجنة جردٌ، مردٌ، مكحَّلون)**(٧).

---

(١) المناقب لابن شهرآشوب، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٨، ص٤١٠، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ٦٦ ـ استحباب المزاح والضحك، من غير إكثار ولا فحش، الحديث ٦.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٦.

(٣) المصدر السابق، الحديث ٧.

(٤) في المصدر: العجز.

(٥) المصدر السابق، الحديث ٩.

(٦) في المصدر: شباباً.

(٧) المصدر السابق، الحديث ١٠.

وذكر مثل ذلك لامرأة رمصاء العينين، وأوضح لها أنه لا يدخلها الأعمى أعمى، ولا الأعور أعور[١].

وجاء أعرابي فقال: يا رسول الله بلغنا أن المسيح ـ يعني الدجال ـ يأتي الناس بالثريد، وقد هلكوا جميعاً جوعاً، أفترى بأبي أنت وأمي أن أكف من ثريده تعففاً وتزهداً! فضحك (صلى الله عليه وآله) ثم قال: **بل يغنيك الله بما يغني به المؤمنين)**[٢].

ومع التأكيد على أن الضحك؛ كما أبانته هذه النصوص وغيرها، ليس مذموماً بالمطلق، لكن يجب ملاحظةُ أن (الأنس) يجب أن لا يخرج عن حدود الحق.

ففي الخبر عن صالح بن عقبة عن عبدالله بن محمد الجعفي، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: **إن الله يحب المداعِب في الجماع بلا رفث)**[٣].

وكذلك ينبغي تجنب الإكثار منه، وعلى هذا يُحمل ما ورد في النهي عنه، كما في الخبر عن محمد بن علي الباقر عليه السلام، أنه قال لرجل: **أوصيك بتقوى الله، وإياك والمزاح، فإنه يذهب هيبة الرجل، وماء وجهه...)**[٤].

ولنقرأ نصاً آخرَ يبيِّن خلفيات مثل هذا النهي، وهو ما روي عن أبي جعفر عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال، في وصيته لابنه الحسن عليه السلام: **المزاح يورث الضغاين** (إلى أن قال) **إياك أن تكثر من الكلام هذراً، وأن تكون مضحِكاً؛ وإن حكيت ذلك عن غيرك** (هذا على نقل المستدرك، ولكن في نهج البلاغة **٩٢٩**

---

(١) المصدر السابق، الحديث ٤.

(٢) المصدر السابق، الحديث ١١.

(٣) من لا يحضره الفقيه، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص١١٣، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ٨٠ ـ استحباب المزاح والضحك من غير إكثار ولا فحش، الحديث ٥.

(٤) المصدر السابق، الحديث ٦، عن السرائر لابن إدريس.

هكذا) **إياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحِكاً؛ وإن حكيت ذلك عن غيرك)**[١].

وكذلك ما رواه الإمام الصادق عليه السلام، قال: **قال أمير المؤمنين عليه السلام إياك والمزاحَ؛ فإنه يجر السخيمةَ، ويورث الضغينة، وهو السبّ الأصغر)**[٢].

والسخيمة هي: الحقد.

أما الضغينة فقد تُفسَّر بالحقد، قد تُفسَّر بالعداوة. والأنسب بالمقام تفسيرها بالثاني حفظاً للتغاير.

ومثله ما رواه عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **كثرة المزاح تذهب بماء الوجه، وكثرة الضحك تمحو الإيمان، وكثرة الكذب تذهب بالبهاء)**[٣].

وفي الفقرة ـ مورد الشرح من الوصية ـ لا يذم النبي صلى الله عليه وآله الضحك مطلقاً، بل يقدح ويذم ما كان منه غير مُسوَّغ ولا معقول ومقبول (**الضحك من غير عجب**)؛ فالآفة ليست في الضحك نفسه، بل هو عمل مباح ومشروع، بل مندوب. لكن من الجهل حصولُه بغيرِ موجِبٍ؛ كما في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام[٤]، كما أنه

---

(١) نهج البلاغة، وكشف المحجة، وعنهما: جامع أحاديث الشيعة، ج١٥، ص٥٥٠، كتاب العِشرة، باب ما ورد في الدعابة والمزاح والضحك، الحديث ٢٨.

(٢) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص١١٨، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ٨٠ ـ استحباب المزاح والضحك من غير إكثار ولا فحش، الحديث ٩.
أقول: في نسخة الوافي (السباب) بدل (السب). انظر ج٥، ص٦٢٩.

(٣) المصدر السابق، ص١١٨ ـ ١١٩، الحديث ١٢، عن أمالي الصدوق.

(٤) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الدعابة والضحك، الحديث ٧. وفيه، عن يونس الشيباني، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: **كيف مداعبةُ بعضكم بعضاً؟**
قلت: قليل!
قال: فلا تفعلوا؛ فإن المداعبةَ من حسنِ الخلق، وإنك لتدخل بها السرورَ على أخيك. ولقد كان رسولُ الله (صلى الله عليه وآله) يداعب الرجلَ يريد أن يسرَّه).

قد يكون مذموماً؛ بسبب توقيته، أو طريقته، أو قبح دواعيه، أو الإكثار منه، ونحو ذلك من أسبابٍ تحوّله من فعلٍ حسنٍ إلى فعلٍ قبيحٍ.

وهذا ما انتهى إليه الفقهاء على مستوى الفتوى.

قال المجلسي الأول (ت١٠٧٠هـ): ويُستحب الدعابة، وإكثارها مكروه؛ للأخبار الكثيرة)[١].

وقال الشيخ الحر العاملي: يُستحبّ المزاح والضحك من غير إكثار ولا فحش)[٢].

وقال السيد الجزائري: ... أما أصل المزاح في بعض الأوقات؛ لتنشيط الطبيعة؛ حيث يكون مطلوباً، وتطييب قلب الصاحب؛ مع خلوه عن الرفث والكذب وسائر الآفات، فمرغَّبٌ فيه قولاً وفعلاً)[٣].

المحطة الثانية: الكسل

(الكسل) عُرِّف بأنه: التثاقل عن الشيء، والقعود عن إتمامه، أو عنه)[٤]. أو: التثاقل عمّا لا ينبغي التثاقل عنه)[٥] وبعبارة أخرى هو: حالة الخمول التي تصيب الإنسان؛ في روحه ونفسه، فلا يندفع ـ بسببها ـ نحو ما يجب، أو ينبغي، عمله.

وقد يعبَّر عنه بمفردات أخرى؛ من قبيل: التهاون، صغر الهمة، ضعف الهمة، الوهن، الإهمال، التضييع، التفريط، التخاذل، السأم، الملل.

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد تقي (ت١٠٧٠ هـ)، روضة المتقين، ج٢، ص٦٧٩.

(٢) الحر العاملي، الشيخ محمد حسن (ت١١٠٤ هـ)، هداية الأمة إلى أحكام الأئمة، ج٥، ص١٦٢.

(٣) الجزائري، السيد عبدالله (ت١١٧٣ هـ)، تحفة السنية في شرح النخبة المحسنية (مخطوط)، ص٣٢٣، باب الكلام.

(٤) ابن فارس، أحمد (ت٣٩٥ هـ)، معجم مقاييس اللغة، مادة (كسل).

(٥) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد (ت٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، مادة (كسل).

والكسلُ مذمومٌ بقدر ما يكون سبباً في التقاعس عن أداء ما يجب، أو ينبغي، أداؤه من مهام مطلوبةٍ.

وهو مذمومٌ جداً في الإسلام باعتبار أن قواعد هذا الدين وبنيته تقومان على أساس (العمل)؛ فإن الله تعالى يقول ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة/ ١٠٥]. أما (الكسل) فهو حالةٌ معاكسةٌ تماماً.

أجل، يمكن تفهُّم الكسل والخمول وتسويغُه؛ بمعنى عدم النشاط والعمل، إذا كان له ما يسوِّغه؛ من: مرض، أو شيخوخة، أو سهو، أو غفلة، ونحو ذلك.

فالمريض قد يكسل لأنّ بدنه، أو عقله، أو نفسيته، تفقد بعض عوامل النشاط؛ فتخور قواه عن أداء عمل ما أو مجموعة أعمال. ومن هنا أُعفي المريض من الجهاد في سبيل الله ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور/ ٦١].

وكذلك القول في إعفاء كلّ مَن كان مبتلى بما يفقده القدرةَ على أداء مهمةٍ تتطلب نشاطاً ينافيه الكسلُ. قال الله تعالى ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة/ ٩١].

وهذا يعني أن مَن كان به سبب للابتلاء بـ(الكسل) فلن يلحقه ذمٌّ، إلا أن يكون السببُ اختيارياً؛ بمعنى أن الكسول هو مَن تسبب بوقوعه، أو كان قادراً على دفعه إن لم يُبتلَ به بعد لكنه لم يفعل، أو كان قادراً على رفعه إن ابتُلي به لكنه لم يفعل.

ومن أسباب الكسل ودواعيه (السهو)؛ الذي هو: حالةٌ ذهنيةٌ تجعل صاحبَها في غفلةٍ عن أمورٍ معينةٍ.

وبالطبع، فإن هذه الغفلة لا تُذم إذا كانت أسبابُها خارجةً عن الاختيار، لكنها مذمومةٌ جداً إذا كانت أسبابُها في معرض اختيار الغافل.

الكسل العقلي والجسدي

من نافلة القول التأكيد على أن الكسل نوعان:

النوع الأول: الكسل العقلي

وهو الخمول الذي يصيب الإنسان في عقله؛ فيحول بينه وبين إعماله؛ كلياً أو جزئياً. ويعقب ذلك خمولٌ وتبلُّدٌ؛ لا يُتاح معه للكسول عقلياً أن يحكم بطريقةٍ صائبةٍ على ما يتعاطاه من الأمور؛ فيركن ـ غالباً ـ إلى التسليم بما هو معروفٌ عنده ومألوفٌ لديه وإن كان باطلاً، وإلى رفضِ ما لا يعرفه وإن كان حقاً، فتحكمه العصبية والانغلاق؛ فتنقلب لديه المفاهيم، ويصبح المعروفُ منكراً والمنكرُ معروفاً، والباطلُ حقاً والحقُّ باطلاً، وهكذا.

ويتبع هذا الكسلَ ما يمكن وصفه بـ(الكسل العلمي)؛ الذي ينتهي بصاحبه إلى (الجهل المعرفي)؛ فلا يحسن الكسولُ معه الفهمَ؛ حيث يرتكس في الخمول؛ فلا يدرس، ولا يقرأ، ولا يحاور، ولا يقوم بنشاطٍ يتيح له قدراً نافعاً من المعرفة.

وهذان النوعان من الكسل بقدر ما يصيبان الأفراد فإنهما يصيبان الجماعات والشعوب.

ولهذا، تتفاوت الأمم بين أمم منتجة وأخرى مستهلكة، وأمم متقدمة وأخرى متخلفة، بغضِّ النظر عن وجود أعداء خارجيين قد يشكِّلون عائقاً دون قيام هذه الأمة أو تلك بما يلزم ـ أو ينبغي ـ من نشاطٍ.

ذلك أن الفرد النشط والأمم النشيطة (تقاوم) عدوان المعتدين؛ فلا تسمح لهم بأن يفرضوا عليها حالات (الكسل).

النوع الثاني: الكسل الجسدي

وهو الخمول الذي يصيب الإنسان في جسده؛ فلا ينجز ما يجب، أو يجدر به، أداؤه؛ من: قيام بأمرٍ ما، أو ذهاب إلى جهةٍ ما، ونحو ذلك.

ذم الكسل

أما أن (الكسل) مذمومٌ فقد تضافرت النصوص الدينية في الكتاب والسنة على ذلك. ولنورد نزراً منها؛ لنعرف أضراره ووجوه قبحه:

١ ـ قال الله تعالى عن المنافقين ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء/ ١٤٢]؛ أي: متثاقلين متباطئين غير راغبين، كما يقوم المكرَه.

والآية الكريمة تحذر المؤمنين من بعض الممارسات المذمومة؛ ومنها الكسل. وذلك، من خلال وصف حال المنافقين؛ الذين كانوا يصلون لكن ليس عن رغبة ونشاط، بل يدفعهم إلى ذلك خوفهم على حياتهم، أو رجاء تحصيل محبة الناس لهم.

وهذا الذم؛ وإن كان وارداً بصدد الكسل عن الصلاة، لكنه كافٍ في بيان قبح الكسل عموماً.

٢ ـ قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة/ ٣٨].

وهذه الآية تقرِّع المتثاقلين عن تلبية الأمر الإلهي بالجهاد وتثاقلهم عن تنفيذه.

وهذا التقريع؛ وإن كان عن الكسل عن خصوص الصلاة، لكنه ـ كسابقه ـ كافٍ في الكشف عن قبح التراخي والتثاقل عن أداء ما يلزم ـ أو يحسن ـ فعلُه بحكم الشرع أو مدرَك العقل.

٣ ـ روي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: **آفةُ النُّجح الكسلُ**[(١)].

والإمام عليه السلام ـ في هذا النص الجلي ـ يكشف حقيقةً عامةً؛ مفادها: أن الكسلَ مضادٌّ للنجاح؛ الذي هو: تحقيق المقاصد في الحياة. والمقاصد هي ما ينشدها كلُّ عاقلٍ.

ومن ثَم، فإن العاقلَ لا يجنح نحو الكسلِ، ولا يرضى بما يؤدي به إليه، وإن هو فعل ذلك فقد أضرَّ بنفسه.

وبالطبع، فإن عدمَ النجاحِ هو النتيجةُ الطبيعيةُ لحالة (الكسل)؛ ولو في موردٍ

(١) غرر الحكم، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص٦٧، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ٦٦ ـ كراهة الضجر والكسل، الحديث ٨.

واحدٍ، والنتيجة الطبيعية والمنطقية هي أن (مَن دام كسلُهُ) فقد (خاب أملُهُ) كما روي عنه عليه السلام[١].

٤ ـ في نصٍّ آخر يُروَى عنه عليه السلام قوله: **إن الأشياءَ لما ازدوجت ازدوج الكسلُ والعجزُ؛ فنتجا بينهما الفقر)**[٢].

ولعل الإمام عليه السلام يلمح إلى بدء الخليقة؛ حيث تعلقت مشيئةُ الله تعالى أن يزاوج بين الأشياء؛ ليقترن كلُّ شيءٍ بما يناسبه؛ لينتج منهما ما يتناسب وإياهما؛ فكان الكسل والعجز زوجين أنتجا الفقرَ.

٥ ـ في نصٍّ ثالث له عليه السلام جاء فيه: **وإن مِن أبغضِ الرجال إلى الله لعبداً وكَله الله إلى نفسه، جائراً عن قصد السبيل، سائراً بغير دليلٍ. إن دُعِي إلى حرث الدنيا عمل، وإن دُعِي إلى حرث الآخرة كسل)**[٣].

وهذا النصُّ واضحٌ في الدلالة على ما للكسل من سلبيات؛ يجدر بالإنسان السويِّ أن يحرص على تجنبها ـ بسبب مآلاتها الخطيرة ـ وخاصةً في ما يتعلق بالمصير النهائي لهذا المخلوق الكريم.

وهو عليه السلام يشير إلى أن الكسل عن حرث الآخرة والنشاط في مصالح الدنيا يكشف عن خللٍ معرفيٍّ في بنية الإنسان؛ جعله يسيء الاختيار بالاستقلال عن ربه تعالى.

٦ ـ نخلص في نصٍّ أخيرٍ إلى ما أكد عليه الإمام الباقر عليه السلام؛ من مخاطر الكسل؛ الشاملة لكلّ ما يجب على العاقل أن يحوطه بالرعاية والاهتمام؛ علماً وعملاً؛ حيث قال عليه السلام: **الكسلُ يضر بالدين والدنيا)**[٤].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٧، ص٦٠، كتاب التجارة، أبواب مقدماتها، الباب ١٨ كراهة الكسل في أمور الدنيا والآخرة، الحديث ٨.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٣.

(٤) الحراني، ابن شعبة (ق ٤)، تحف العقول، باب ما روي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام، قصارى كلماته.

والمؤمن لا يسمح لنفسه أن يكون كسولاً في أمور دينه ودنياه معاً؛ لأنه يعرف حقيقة مفادها (**عدوُّ العملِ الكسلُ**)[١]. عموماً، كما روي عن الإمام علي عليه السلام، أنه (**يُفسِد الآخرةَ**)[٢].

ولهذه الحقائق والمسلَّمات الواضحة فقد ورد في النصوص الدينية التحذيرُ المؤكَّد من الكسل.

ومن تلك النصوص ما جمعه الشيخ الحر العاملي رحمه الله ـ في كتاب التجارة من موسوعته الحديثية المسماة (وسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة) ـ، بعنوان (باب كراهة الكسل في أمور الدنيا والآخرة)، وهي:

ـ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: **إني لأبغض الرجل، أو أبغض للرجل، أن يكون كسلاناً عن أمر دنياه، ومَن كسل عن أمر دنياه فهو عن أمرِ آخرته أكسلُ**)[٣].

ـ عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: **مَن كسل عن طهوره وصلاته فليس فيه خيرٌ لأمر آخرته، ومَن كسل عمّا يصلح به أمر معيشته فليس فيه خيرٌ لأمرِ دنياه**).

ـ عن مسعدة بن صدقة، قال: كتب أبو عبدالله عليه السلام إلى رجلٍ من أصحابه: **أما بعد فلا تجادل العلماءَ، ولا تمارِ السفهاءَ، فيبغضك العلماءُ ويشتمك السفهاءُ. ولا تكسلْ عن معيشتك؛ فتكون كَلاًّ على غيرك. أو قال: على أهلك**).

ـ عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: قال أبي لبعض ولده: **إياك والكسل والضجر؛ فإنهما يمنعانك من حظك من الدنيا والآخرة**).

ـ عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: **لا تستعِن بكسلان، ولا تستشيرنَّ عاجزاً**).

---

(١) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٧، ص٥٩، كتاب التجارة، أبواب مقدماتها، الباب ١٨ كراهة الكسل في أمور الدنيا والآخرة، الحديث ٤.

(٢) غرر الحكم، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٣، ص٤٥، كتاب التجارة، أبواب مقدماتها، الباب ١٥ ـ كراهة الكسل في أمور الدنيا والآخرة، الحديث ٣.

(٣) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٧، ص٥٩، كتاب التجارة، أبواب مقدماتها، الباب ١٨ ـ كراهة الكسل؛ في أمور الدنيا والآخرة، الحديث ١.

ـ عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: **لا تكسلوا في طلب معائشكم، فان آباءنا كانوا يركضون فيها ويطلبونها)**(١).

ـ في الخبر عن إسماعيل بن يسار، قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: **إياكم والكسل! إن ربَّكم رحيمٌ يشكر القليلَ. إن الرجلَ يصلي الركعتين تطوعاً؛ يريد بهما وجهَ الله؛ فيدخله الله بهما الجنةَ، وإنه ليتصدق بالدرهم تطوعاً؛ يريد به وجهَ الله؛ فيدخله الله به الجنةَ، وإنه ليصوم اليوم تطوعاً؛ يريد به وجهَ الله؛ فيدخله الله به الجنة)**(٢).

ف(الكسل) ـ إذاً ـ خُلُقٌ قبيحٌ، وطبيعةٌ مذمومةٌ؛ لِما يترتب عليه من ضررٍ على دين الإنسان ودنياه.

وقد ذمَّه الرسولُ صلى الله عليه وآله ـ في وصيته مورد بحثنا ـ في سياق وصفه للواقع الغالب على الناس، ضمن وصيته لأبي ذرٍّ (رضوان الله عليه)؛ ومبيِّناً بعض موانع السير على الصراط المستقيم؛ وهذا المانع هو أنهم يكسلون **(من غيرِ سهوٍ)**(٣)؛ أي: من غير سببٍ وجيهٍ.

---

(١) المصدر السابق، الأحاديث ١، ٢، ٣، ٥، ٦، ٨.

(٢) التهذيب، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١، ص١١٥، أبواب مقدمة العبادات، الباب ٢٨ ـ عدم جواز استقلال شيء من العبادة...، الحديث ٤.

(٣) في نسخة الوافي (سهر). والمعنى حينئذ واضحٌ، وهو أن الكسل ـ أي الفتور ـ من دون مسوِّغ؛ كالسهر، خلقٌ مذمومٌ.



الفصل التاسع والثلاثون

التديُّن بين الشكل والمضمون

تحت هذا العنوان نصل ـ في تجوالنا بين مقاطع وصية النبي ﷺ لأبي ذر (رضوان الله عليه) ـ إلى فقراتٍ تعالج مشكلةً طالما كانت ـ ولا تزال ـ آفةً سرطانيةً للدين والتدين؛ ألا وهي (الشكلانية).

ولهذه الآفة أسبابٌ وعواملُ كثيرةٌ، كما أن لها تبعاتٍ وآثاراً خطيرةً. وبين هذه وتلك يصبح التدين (أجوف)؛ يتصف بكلٍّ ما يعبر عن التدين من حيث الظاهر غير أنه يخلو من حقيقة التدين.

ولو وقفت المشكلةُ عند هذا الحد لهانت المصيبة، لكنها تجاوزت ذلك ليلفح لهبُها الدينَ نفسَه، بدون أن يكون الدينُ قد ساهم في شيءٍ من ذلك بقطميرٍ!

وقد عالجت الوصيةُ آفة الشكلانية هذه؛ في فقرات ثلاث، تناولت الأولى مظهراً للشكلانية، وتناولت الثانيةُ والثالثةُ ما يصلح أن يُعدَّ سبباً لها. والفقرات هي:

- [الفقرة/ ٨٠]:

(يا أبا ذرّ! ركعتان مقتصدتان في التفكُّر خيرٌ من قيام ليلة والقلبُ ساهٍ).

ففي ما يخصُّ الصلاة ـ التي هي عمود الدين ـ ينبغي أن تؤدَّى بالطريقة التي يتحقق من ورائها أثرُها المرجوُّ، وهو أنها ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت/ ٤٥]. وتحقيق هذه الغاية من الصلاة يتوقف على تحقيق الإيمان في

العقل والوجدان؛ من أجل أن يشكِّل ذلك أرضيةً للفلاح، كما قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون/ ١].

والإيمان ـ بدوره ـ له أسبابٌ، أو مظاهرُ، يأتي في صدارتها الخشوعُ في الصلاة، فهم ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون/ ٢].

ولَما كانت آفةُ السهو على درجةٍ عاليةٍ من الخطورة فقد وضع النبي ﷺ؛ في النص مورد البحث، النقاطَ على الحروف، مؤكِّداً على أمورٍ:

الأول: أن المطلوب هو الكيف في الدرجة الأولى، فـ(**ركعتان**)، وهما قليلٌ في الميزان الكمِّي، توفَّر فيهما أسبابُ القبولِ عند الله والتأثيرِ في عقل العابد ووجدانه، (**خيرٌ**)، وأهمُّ (**من قيامِ ليلةٍ**)، مع تفوُّقها كمياً على الركعتين، إذا افتقدت عناصرَ القبول والتأثير.

ونقرأ في القرآن الكريم أن الله تعالى امتحننا وابتلانا بالعمل موصوفاً بأنه (أحسن)، وليس بأنه (أكثر).

وذلك في آيات عديدة، منها: قوله تعالى ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك/ ١ ـ ٢].

الثاني: أن للـ(تفكر) دوراً رئيساً في تحويل القليل ـ كمياً ـ إلى كثيرٍ؛ حيث إن الميزانَ هو القبولُ، وما يُتَقبَّل لا يكون قليلاً، فـ(**لا يقلُّ عملٌ مع التقوى. وكيف يقلُّ ما يُتقبَّلُ**)[1].

الثالث: أن (القلب)، ويُحتمل أن يُراد به ـ هنا ـ العقل، كما يحتمل الفؤاد، الذي هو محل التدين، والذي ينبغي تنميتُهُ وتربيتُهُ بما يجعله منبعَ ثراءٍ وعطاءٍ، لا أن يبقى في حدودِ العطاءِ المتواضع والهزيل؛ لأنّ المطلوب ـ في الصراط المستقيم ـ هو التنافس في باب الخير ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين/ ٢٦]، فـ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٣].

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٩٥.

الرابع: أنّ مرض القلب في ما يتعلق بالعبادة هو السهو ـ الذي يعني: الغفلة ـ حيث يكون القلبُ ساكناً لا حراكَ فيه، خالياً من الانتماء إلى هذا أو ذاك.

ويتأكد هذا المعنى إذا وضعنا بعين الاعتبار ما جاء في النصوص الدينية من أهمية التفكر والتعقّل والتفقّه في العبادة، حتى قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على إبليسَ من ألفِ عابدٍ)**[1].

ولنقرأ معاً نصاً معصومياً رائعاً يُحلّل فيه الإمامُ عليه السلام النفسيةَ الإنسانيةَ وتقلباتِها بين الحق والباطل، وبين السموّ الروحي والانحطاط:

فقد روى الشيخ الكليني بسنده عن سلام بن المستنير، قال: **كنتُ عند أبي جعفر عليه السلام، فدخل عليه حمران بن أعين وسأله عن أشياء. فلمّا همَّ حمرانُ بالقيام قال لأبي جعفر عليه السلام: أخبرك ـ أطال الله بقاءك لنا، وأمتعنا بك ـ أنا نأتيك فما نخرج من عندك حتى ترقَّ قلوبُنا، وتسلو أنفسنا عن الدنيا، ويهون علينا ما في أيدي الناس من هذه الأموال، ثم نخرج من عندك فإذا صرنا مع الناس والتجار أحببنا الدنيا؟**

قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: إنَّما هي القلوب مرةً تصعب، ومرةً تسهل.

ثم قال أبو جعفر عليه السلام: أما إنّ أصحاب محمد (صلّى الله عليه وآله) قالوا: يا رسول الله! نخاف علينا النفاق!

قال: فقال: ولِمَ تخافون ذلك؟!

قالوا: إذا كنا عندك فذكَّرتنا، ورغَّبتنا، وجِلنا، ونسينا الدنيا، وزهَدنا؛ حتى كأنا نعاين الآخرة والجنة والنار ونحن عندك، فإذا خرجنا من عندك، ودخلنا هذه البيوت، وشممنا الأولاد، ورأينا العيال والأهل، يكاد أن نحوَّل عن الحال التي كنا عليها عندك، وحتى كأنا لم نكن على شيء!!

أفتخاف علينا أن يكون ذلك نفاقاً؟!

---

(١) الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن (ت٤٦٠ هـ)، الأمالي، ص٣٦٦، المجلس الثالث عشر.

فقال لهم رسول الله (صلّى الله عليه وآله): كلا، إنّ هذه خطوات الشيطان فيرغِّبكم في الدنيا. واللهِ! لو تدومون على الحالة التي وصفتم أنفسكم بها لصافحتكُم الملائكةُ، ومشيتُم على الماء. ولولا أنكم تذنبون فتستغفرون الله لخلق الله خلقاً حتى يذنبوا، ثم يستغفروا الله فيغفر [الله] لهم، إن المؤمن مفتَن[1] تواب، أما سمعت قول الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة/ ٢٢٢]، وقال ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود/ ٥])[2].

٢ ـ يضيف النبيُّ ﷺ بيانَ ما يمكن أن يشكلَ السببَ وراء الغفلة والسهو اللذين يعرُضان على القلب، فيتآكل معهما التدينُ، وُيحرَّف معهما الدينُ، فقال النبيُّ ﷺ:

- **[الفقرة/ ٨١]:**

(يا أبا ذرّ! الحقُّ ثقيلٌ مرٌّ، والباطلُ خفيفٌ حلوٌ).

فلا ينبغي أن يظنّ أحدٌ أنّ التدين ـ الذي هو: التزام الحق قولاً وعملاً ـ خفيفُ المؤونةِ!

إنه ليس كذلك؛ لأنه منهجٌ يجب التزامُهُ في تفاصيل الحياة؛ ظاهرها وباطنها، في سرّائها وضرّائها.

وهذا يعني الكثيرَ، ومن ذلك التركيزُ أولاً، والصلاةُ ثانياً، والثباتُ على الحقِّ ثالثاً.

لذلك: صحَّ أن يُوصَف الحقُّ بأنه (مُرٌّ)[3]؛ فهو على خلافِ مشتهَيات

---

(١) الممتحن بالذنب يقترفه ويتوب ثم يقترفه ويتوب وهكذا.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٤٢٤، كتاب الإيمان والكفر، باب تنقل أحوال القلب، الحديث ١.

(٣) في نسخة الوافي (مريء). ويكون معنى الجملة حينئذ هو: أن الحق مع ثقله وصعوبته على النفس، لكنه حلو من حيث عاقبته وقبل ذلك من حيث مواءمتُه للفطرة، وإن بدا في الوهلة الأولى أنه خلاف ذلك.

النفس[١]. وصح أن يُوصَف ـ أيضاً ـ بأنه (**ثقيلٌ**)؛ بلحاظِ لوازمهِ، وتبعاتهِ على المحقِّ وعلى أعدائهِ.

٣ ـ يختمُ النبيُّ ﷺ شرحَ طبيعةِ الحقِّ بما هو سببٌ ـ في أغلب الأحيان ـ للانحراف والضياع، بقوله ﷺ:

● **[الفقرة/ ٨٢]:**

(ورُبَّ شهوةٍ ساعةٍ تورِثُ حزناً طويلاً).

وذلك أن انحرافات الإنسان إنَّما يندفع نحوها ـ في الغالب ـ بسببِ اتِّباعِهِ لأهوائه وشهواتِهِ.

والنبيُّ ﷺ ينبِّه ـ في هذه الفقرة ـ إلى خطورة الوقوع في المعصية استجابةً لضغوطِ الشهوةِ؛ ولو لمرةٍ واحدةٍ. فهذه المرَّة الواحدة قد تكون هي مفتاحَ الانزلاق في مشوار المعاصي المغري بطبيعته.

---

(١) وقد روي أن نقش خاتم الإمام الحسن بن علي المجتبى عليه السلام كان (الحق مر). كما ذكر ذلك الشيخ محمد الزرندي الحنفي، في كتابه معارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرسول والبتول، ص٧٨.



الفصل الأربعون

العمل النقي والمؤمن التقي

من المصطلحات التي نالها الكثيرُ من التحويرِ والتغييرِ مصطلح (الفقه)؛ الذي يعني ـ في اللغة ـ: التعمق في الفهم. لكنه في الأوساط العلمية الشرعية صار يعني خصوص: السعي لنيل رتبة علمية معينة تتيح لصاحبها أن يستنبط الأحكام الفقهية.

ولكننا حينما نرجع إلى المصادر الإسلامية الأصلية؛ أعني الكتاب والسنة، نجد أن للتفقه ثلاثة إطلاقات؛ تتداخل من جهات، وتتمايز من جهات.

وهذه الإطلاقات هي:

الأول: معنى يلتقي مع المعنى اللغوي؛ أي التعمق في فهم الشيء.

ولما كانت معارفُ الدين ذاتَ أبعادٍ شموليةٍ واسعةٍ؛ تستوعب تفاصيلَ الوجود بالرؤية النظرية والموقف العملي، صح أن يوصف العارف بها بـ(الفقيه).

الثاني: معنى يلتقي مع ما هو سائد في الأوساط العلمية. فلا يوصف بـ(الفقيه) مَن لا يكون على درايةٍ تامةٍ أو جيدةٍ بمعارف الدين، وإن كان يسمى متفقِّهاً؛ أي سائراً في درب الفقاهة.

الثالث: معنى يجمع بين المعرفة والعمل، فلا يكون الإنسان فقيهاً ـ وفق هذه الرؤية ـ مَن لا يكون على معرفةٍ عقليةٍ بالموقف الديني:

أ ـ في ما هو مقبولٌ وما هو مرفوضٌ، من جهةٍ.

ب ـ وعلى إيمانٍ وقناعةٍ بهذا الموقف بحيث يترجمها السلوك، من جهةٍ ثانيةٍ.

والتفقهُ ـ بمعناه الثالث ـ يلتقي في بعضٍ وجوهِهِ مع المعنيين الأول والثاني، ولكنه يختلف عنهما قليلاً أو كثيراً في بعض الجهات؛ كما لا يخفى على من تأمل[١].

وفي هذا السياق يأتي قول النبي ﷺ في هذا المقطع من الوصية:

● [الفقرة/ ٨٣]:

(يا أبا ذرّ! لا يفقه الرجلُ كلَّ الفقهِ
حتى يرى الناسَ ـ في جنب الله ـ أمثال الأباعر).

وهنا محطّتان ينبغي الوقوف عندهما؛ لاستلهام ما يجب استلهامه من فنون التربية النبوية:

المحطّة الأولى: لِنعملْ لله لا للناس

إنّ الرسول ﷺ يرسم لنا مساراً نتبيّن فيه أنّ للفقهِ مراتبَ، فهناك مرتبةٌ دنيا من الفقه، قد يُشار إليها بقولنا (بعض الفقه)، وهناك مرتبةٌ أعلى أشار إليها ﷺ بقوله **(كلَّ الفقهِ)**.

ثم يضع لنا ـ من خلال وصيته لأبي ذرّ (رضوان الله عليه) ـ معلَماً من معالم الصراط المستقيم، نكتشف ـ من خلاله ـ متى نبلغ هذه المرتبة العالية، وهو أن نتعرَّف على الدين، ونعرِّفه، بأنه: **علاقةُ استقامةٍ بين العبد وربه، لا يُلحظ فيها رضا الناس ولا سخطُهم.**

نقول إنه كذلك حتى لا يكون الدافعُ للتدين مشوباً بشائبةٍ تَحول بين المتدين وبين التحليق في ملكوت الطهارة؛ حيث الله تعالى الذي لا يَقبل إلا الجميلَ. والمشوبُ غيرُ جميلٍ؛ كما لا يخفى على متأمِّلٍ.

وإن من أكثر المطبَّات خطورةً مطبةَ الخلط بين الدافع النبيل للتديُّن؛ وهو

---

(١) قدمنا بعض ما يتعلق بالمقام؛ في الفصل ٢٧: الفقه في الدين والزهد في الدنيا؛ فراجع.

الخلوصُ فيه، وبين إرضاءِ الناس لجلبِ مصالحَ عاجلةٍ نرجوها منهم، أو لدفعِ ضررٍ نتوقعه منهم.

وإذا وقع المتديِّنُ في هذه الحفرة انبثق عن هذه الآفة ثلاث مفاسد:

الأولى: التشوُّهُ في التدينِ.

الثانية: الشللُ في الفاعليةِ الحقيقيةِ.

الثالثة: التشويه للدين.

وهذه الآفة ـ بشعبها الثلاث ـ تتناقض مع ما جاء الدين من أجله، قال تعالى ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة/ ٥].

وعليه، فلا يصحّ للمتديّن ـ الصادقِ في تديُّنِهِ ـ أن يُراعِي ما يقوله الناسُ؛ بحيث يجعل رضاهم ميزاناً للحقِّ، وسخطَهم معياراً للباطلِ. وذلك، لأنّ الحقَّ هو ما يرضاه الله تعالى، ويُعرَف رضاه من خلال أمره أو إذنه، والباطلَ هو ما لا يرضاه تعالى، ويُعرَف ذلك بنهيه عزَّ وجلَّ.

وأمّا بالنسبة للدافع؛ الذي يحرِّك المؤمنَ للعمل الديني، فإنما هو الله تعالى وحده، وليس الناسَ؛ مهما علت مراتبهم، فهم ـ في مسألة الدافع هذه ـ والأباعرُ سواءٌ.

ولعلّك تسأل وتقول: كيف يسوِّي النبي ﷺ بين الناس والأباعر، مع أن الإنسان هو أكرمُ مخلوقٍ لله تعالى؛ طبقاً لقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء/ ٧٠]؟

ونجيب: إنّ النبيّ ﷺ ليس في صدد التقليل من كرامة الإنسان؛ ليجعله كالبعير، وحاشا النبيّ ﷺ أن يفعل ذلك، وإنما هو في صدد تصحيح الدافع؛ الذي يجب أن يكون نبيلاً، ولا يكون كذلك إلا إذا كان خالصاً لوجه الله سبحانه، وكما قال تعالى ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان/ ٩].

ولعلّ النبيَّ ﷺ اختار تعبير (أمثال الأباعر) للإشارة إلى ذلك. فكما أنّ

الإنسانَ لا يرائي إرضاءً للأباعر؛ لأنها لا تملك نفعَه ولا ضرَّه، فينبغي له أن يرى في الناس ـ وهم كذلك ـ أنهم لا يضرونه ولا ينفعونه، وأنه إذا عمل لهم فسيكون قد جعل أعمالَه هباءً منثوراً.

المحطة الثانية: الموضوعية في النظر إلى الذات

في هذه المحطةِ ينبِّه الرسولُ ﷺ؛ وهو الناصحُ المشفقُ والرؤوفُ الرحيمُ بالمؤمنين، إلى ضرورةِ تخليصِ أعمالِ المسلمِ والمؤمنِ من شوائبَ ملوِّثةٍ. وهذه الشوائب قد تكون أخفى من الرياء الذي يدعونا إليه ضعفُنا أمام الناسِ، وغيابُ حقيقةِ أنهم فقراءُ مثلُنا.

وهذه الشوائبُ تنبع من ضعفنا. وهذا الضعف يوقعنا في العُجبِ والغرورِ ونحوِهما؛ من قبيل: الرضا عن النفسِ، واعتقادِ الاستحقاقِ الذاتيِّ النابعِ من (الأنانية) بمفهومِها السلبيِّ.

لذلك، فإن النبيَّ ﷺ يقول: (**ثم يرجع إلى نفسه فيكون هو أحقرَ حاقرٍ لها**) [الفقرة/ ٨٣].

وهو ﷺ يلفت نظرَنا إلى درجةٍ من الوعيِ الواقعِ والنفسِ يجب أن لا يخلوَ المؤمنُ منها؛ وهي أن نضعَ أنفسَنا في موضعِها الصحيحِ، وهذا هو معنى الحكمةِ.

وذلك أن الإنسانَ إذا رجع إلى نفسِهِ لن يجد فيها ما تَستحق معه أن تكون معبودةً؛ من دون الله، أو معه[1]؛ بحيث نعمل إرضاءً لها، ونسعى لتنفيذِ

---

(١) عبادةُ النفس قد تكون مستغرَبة بعض الشيء، فهل يُعقَل أن يعبد الإنسانُ نفسَهُ؟ وكيف يكون ذلك؟

الجواب: أن المقصود بذلك هو (الطاعة والانصياع التام). وقد أشير إلى ذلك، ونُهي عنه، في قوله تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس/ ٦٠]. ومن البيِّن والواضح أن الناس ما كانوا يعبدون الشيطان؛ بمعنى السجود والركوع له، واعتقاد أنه إله، وإنما كانوا يطيعونه في المعاصي بالاستجابة إلى وساوسه ونزغاته.

أما أصل (عبادة النفس):

فقد أشير إليها ـ قرآنياً ـ في موردين: =

رغباتِها، ولو على حسابِ الأوامرِ الإلهيةِ، فـ(**لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ**)[1]. فإذا كنا منهيين أن نجعلَ الآخَرِين آمِرِين وناهِين إلى جانب الآمِرِ والناهِي الحقيقي والأصيل؛ وهو الله تعالى؛ لأنه وحده المولى، والأمرُ والنهيُ مظهرٌ لهذه المولوية، إذا كان حالنا مع الآخرين هو هذا، فليست النفسُ أفضلَ حالاً من الآخرين؛ لأنها مخلوقٌ لله تعالى الذي هو الخالق، كما أن الآخرين مخلوقون لله سبحانه.

قال تعالى ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد/ ١٩].

= قوله تعالى ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ [الفرقان/ ٤٣].

قوله تعالى ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية/ ٢٣].

وأما كيفية ذلك:

فيتحقق باتباع الهوى كما لو كان معبوداً يُطاع فلا يُعصَى. فمن سعى وراء رغباته وشهواته، أو رغبات غيره وشهواته؛ بغضِّ النظر عن موقف الشريعة من ذلك، فهو ممن اتبع هواه، وعبد نفسه، سواء أدرك ذلك أو لم يدركه، وسواء سمَّاه بالعبادة أو لم يسمِّه.

قال الفيض الكاشاني «... مَن أطاع أحداً في ما يأمره به؛ خلافَ ما أمر الله تعالى به، فقد اتخذه رباً وعبَدَه من حيث لا يشعر» [الوافي، ج١، ص٢٣٩، باب التقليد].

وقال السيد الطباطبائي؛ في ذيل الآية الأولى: **المراد باتخاذ الهوى إلهاً طاعته واتباعه من دون الله)** [الميزان، ج١٥، ص١٧٢].

وقال ـ أيضاً ـ: «**اتباع الهوى عبادةٌ له**» [الميزان، ج٤، ص٣٤٦].

وقال ـ أيضاً ـ؛ في ذيل الآية الثانية: **معنى اتخاذِ الإلهِ العبادةُ. والمرادُ بها الإطاعةُ)** [الميزان، ج١٨، ص١٥٣].

وقال الشهيد السيد محمد الصدر؛ في بيان معنى الآية الثانية: **يعني جعل هواه إلهاً بدل أن يجعل اللهَ له إلهاً، وذلك لأنه أبدل طاعةَ الله بطاعة الهوى. فعصى ربه وأطاع نفسه...)** [ما وراء الفقه، ج١، ص١٢٩].

ونتبه أخيراً:

إلى أن اتباع الهوى هو شركٌ عرفانيٌ روحيٌّ، وليس شركاً على مستوى العقيدة، ليُرتب على مَن وقع في براثنه أحكامُ المشرك فقهياً؛ إلا إذا وصل إلى مستوى الاعتقاد بأن مع الله، أو من دونه، شريكاً لما له من الخصائص في ما يجب اعتقاد اختصاص الله تعالى به.

ولذلك تفصيلٌ يُطلب في مظانه من بحوث الفقه والاعتقاد المطولة.

(١) نهج البلاغة، الحكمة ١٦٥.

قال تعالى ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف/ ٤٠].

فالإنسان حقيرٌ؛ بمعنى أنه فقيرٌ، لا بمعنى أنه تافهٌ لا قيمةَ له، فهو عند الله تعالى كريمٌ حسنٌ؛ كما تؤكده آياتٌ وروايات كثيرةٌ، لكنه ـ إلى جانب ذلك ـ:

أ ـ **فقيرٌ**؛ بمعنى أنه لا يملك أمام الله تعالى شيئاً. قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر/ ١٥].

ب ـ **جاهلٌ**؛ بمعنى أنه لا يعلم شيئاً. قال تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة/ ٢١٦].

ج ـ **ضعيفٌ**؛ بمعنى أنه لا يملك ـ ذاتياً ـ من عناصر القوة شيئاً. قال تعالى ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء/ ٢٨].

ومَن لا يتصف بالغنى، ولا بالعلم، ولا بالقوة، فهو أمام الله سبحانه صغيرٌ فقيرٌ؛ أي إنه حقيرٌ.

***

حقيقة الإيمان

ثم ينعطف النبيُّ ﷺ ـ في وصيته التربوية والبنائية ـ إلى أمرٍ آخر؛ ليس بعيداً ـ في جوهره ـ عمّا مرَّ. وذلك ما عناه النبيُّ ﷺ بقوله:

- **[الفقرة/ ٨٤]:**

(يا أبا ذرّ! لا تصيب حقيقةَ الإيمان حتى ترى الناسَ كلَّهم حمقاء[1] في دينهم وعقلاء في دنياهم).

(١) في المكارم (حمقى).

وهنا محطاتٌ ثلاثٌ نقف عند كلِّ واحدةٍ منها؛ بما يتيسّر لنا:

المحطّة الأولى: الإيمان مراتب

أشار النبيُّ ﷺ في وصيته هذه إلى حقيقة أنّ للإيمان مراتبَ، بعضها يمثل المظهرَ، وبعضها الآخر يشير إلى الجوهرِ. وذلك في قوله ﷺ **(حقيقة الإيمان)**.

وحقيقةُ الشيءِ ما يقابل ظاهرَهُ. فثمة ـ إذن ـ حقيقةٌ هي الجوهرُ، وإلى جانب ذلك ثمة ظاهرٌ للشيء؛ قد يكون مطابقاً له إلى حدٍّ ما وقد يكون مخالفاً له.

وهذا المعنى هو حقيقةٌ قرآنيةٌ ثابتةٌ؛ تعرَّض لها الله سبحانه في موارد عديدةٍ، يشير بعضُها إلى الحقيقة والباطن، ويشير بعضُها الآخرُ إلى إمكانية الوصول إليه لأفراد معينين تحلَّوْا بسماتٍ خاصة.

ومن تلك الموارد:

أ ـ قوله تعالى ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون/ ٨٨].

ب ـ قوله تعالى ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس/ ٨٣].

والنصان ـ معاً ـ يؤكدان أنّ للعالم (ملكوتاً)؛ يمثل حقيقة هذا العالم وباطنه بكلّ تفاصيل هذا العالم ومفرداته دون استثناء، فلكل شيء (ملكوتٌ).

٢ ـ أن الوصول إلى ملكوت الأشياء ليس متاحاً بالفعل لكلِّ أحدٍ. فقد بينت بعضُ الآيات أنّ ذلك متاحٌ لبعض الناس؛ كالأنبياء عليهم السلام.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام/ ٧٥].

والملكوت على وزان (فعلوت) مشتق من الملك، والتاء للمبالغة. وفُسِّر بأنه الوجه الخفي للأشياء، أو قل (هو وجود الأشياء من جهة انتسابها إلى الله سبحانه وقيامها به)[1].

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٧، ص١٧١، ذيل قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام/ ٧٥].

وأما إراءة إبراهيم عليه السلام ملكوتَ السماوات والأرض فذُكر فيه احتمالان:

١ ـ أن يكون ببصر العين؛ بأن يكون الله تعالى قوّى بصره، ورفع له كلَّ منخفَضٍ، وكشط له عن أطباق السماء والأرض حتى رأى ما فيهما ببصره.

٢ ـ وأن يكون المرادُ رؤية القلب؛ بأن أنار قلبه حتى أحاط بها علماً.

والأول أظهر نقلاً، والثاني عقلاً.

والظاهر ـ على التقديرين ـ أنه أحاط علماً بكل ما فيهما من الحوادث والكائنات. وأما حمله على أنه رأى الكواكب وما خلقه الله في الأرض على وجه الاعتبار والاستبصار، واستدلّ بها على إثبات الصانع؛ فلا يخفى بعدُهُ عمّا يظهر من الأخبار)[1].

٣ ـ ثمة طائفة ثالثة من الآيات تتوسع لتشير إلى أن ذلك متاحٌ للجميع، بل إنه مطلوبٌ منهم، إن هم توفروا على الشروط والمستلزمات، كقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف/ ١٨٥].

وفي ما نحن فيه فإن النبي صلى الله عليه وآله يرشد أبا ذر (رضوان الله عليه)، وينبهه، إلى أنه قد يحدد لنفسه مستوى إيمانياً لا يتجاوز به ظاهر الإيمان، ولا يصيب حقيقته.

وبطبيعة الحال، فإنّ ما يترتّب على الأول من فوائد يقصر بمراتب عمّا يترتب على الثاني، فظاهر الإيمان يقصر عن حقيقته.

وحقيقة الإيمان هي مرتبةٌ كاملةٌ في مدارج الإيمان الكثيرة.

ولا بأس بإيراد بعض النصوص المروية عن المعصومين عليهم السلام؛ للتأكيد على حقيقة أنّ للإيمان مراتب؛ بعضها أعمق من بعض، مع ذكر بعض الملامح الدالة على حقيقته:

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج١٢، ص٦٢، الباب ٣ ـ إراءته عليه السلام ملكوت السماوات والأرض...، ذيل الحديث ٦.
والترقيم منا.

١ ـ ما رواه الشيخ البرقي في باب الثلاثة، بسنده عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، أنه قال: **لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه خصال ثلاث: التفقه في الدين، وحسن التقدير في المعيشة، والصبر على الرزايا)**[١].

فللإيمان ـ إذن ـ حقيقةٌ، لا ينالها صاحبُها إلا بعد التحلّي بخصال يستكمل بها:

أ ـ في عقله، وهي: التفقه في الدين.

ب ـ في سلوكه المعيشي؛ وهي: حسن التقدير في المعيشة.

جـ ـ في روحه ونفسه، وهي: الصبر على الرزايا.

٢ ـ فيه ـ أيضاً ـ عن الأصبغ بن نباتة، قال: قال علي عليه السلام: **لا يجد عبد حقيقة الإيمان حتى يدع الكذب؛ جِدَّه وهزلَه)**[٢].

وفي هذا النص تبيانٌ لأحد موانع بلوغ حقيقة الإيمان، وهو رذيلة (الكذب)؛ التي تحول بين المؤمن وبين الرقيّ في مدارج التكامل الإيماني.

٣ ـ روى زرارة، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: **إن من حقيقة الإيمان أن تؤثر الحقَّ؛ وإن ضرك، على الباطل؛ وإن نفعك، وأن لا يجوز منطقُك علمَك)**[٣].

وفي هذا النص الشريف كشفٌ لسِمَةٍ من سمات الإيمان الحقيقي والعميق؛ وهي:

أولاً: أن يفنى المؤمنُ في إيمانه، فيرى الباطلَ نقيضاً للإيمان، لا يجتمع وإياه أبداً. لذلك، فإنّ في الميل إليه عزوفاً عن الإيمان؛ وهو ما لا يرضاه المؤمنُ البالغُ حقيقةَ الإيمان.

---

(١) المحاسن، وعنه: بحار الأنوار، ج١، ص٢١٣، كتاب العلم، الباب ٦ ـ العلوم التي أمر الناس بتحصيلها وينفعهم، الحديث ١١.

(٢) المصدر السابق، ج٦٩، ص٢٦٢، كتاب الإيمان والكفر، الباب ١١٤، الحديث ٤١.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص١١٤، كتاب العلم، الباب ١٦ ـ النهي عن القول بغير علم، والإفتاء بالرأي، وبيان شرائطه، الحديث ٧.

ثانياً: أن لا يتحدث في ما لا علم له به؛ فإن ذلك حديث بالباطل؛ وهذا سلوكٌ ينافي حقيقة الإيمان.

٤ ـ في حادثةٍ معبِّرةٍ؛ رواها الإمام الصادق عليه السلام، نقرأ تعريفاً بما يجب أن تكون عليه قناعات المؤمن بإيمانه ولوازمه، والحادثة هي:

أتى رجلٌ[(١)] النبيَّ صلى الله عليه وآله، فقال: بايعني يا رسول الله[(٢)] فقال: على أن تقتل أباك! قال: فقبض الرجلُ يدَهُ، ثم قال: بايعني يا رسول الله! قال: على أن تقتل أباك؟! فقال الرجل: نعم! على أن أقتل أبي.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **الآن لن تتخذ[(٣)] من دون الله، ولا رسوله، ولا المؤمنين، وليجةً. إنا لا نأمرك أن تقتل والديك، ولكن نأمرك أن تكرمهما)[(٤)].**

فالولاء الأول والمطلق ـ إذن ـ يجب أن يكون لله تعالى. وهذا مبدأ إسلاميٌّ أصيلٌ، لا نجده في السنة المطهرة فقط، بل إن القرآن الكريم سبق إلى ذلك.

وكشاهدٍ على ذلك قولُهُ تعالى ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة/ ٢٢].

٥ ـ في نصٍّ لافتٍ يبيّن أمير المؤمنين عليه السلام أن على مَن أراد بلوغَ حقيقة الإيمان أن يعمل بما أمر الله تعالى الناس به في قوله ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل/ ٤٣]؛ لأنّ دورَ أهلِ الذكر هو تعليمُ الناس ما لا يعرفون، فقال عليه السلام في خطبة له:

(١) في المصدر: أتى أعرابي.

(٢) في المصدر: بايعني يا رسول الله على الإسلام.

(٣) في نسخة: [الآن لم تتخذ].

(٤) كنز الكراجكي، وعنه: بحار الأنوار، ج٢٤، ص٢٤٥، كتاب الإمامة، الباب ٦١ ـ ما نزل في النهي عن اتخاذ كلّ بطانة ووليجة وولي من دون الله وحججه عليهم السلام، الحديث ٤.

اللهمَّ وإني لأعلم أن العلمَ لا يأزِر[١] كلُّهُ، ولا ينقطع موادُّهُ، وأنك لا تخلي أرضَك من حجةٍ لك على خلقك؛ ظاهرٍ ليس بالمطاع، أو خائفٍ مغمورٍ، كيلا تبطل حججُك ولا يضل أولياؤُك بعد إذ هديتهم.

بل أين هم؟ وكم؟ أولئك الأقلون عدداً، والأعظمون عند الله جل ذكره قدراً، المتَّبِعون لقادة الدين الأئمة الهادين، الذين يتأدبون بآدابِهم، وينهجون نهجَهم، فعند ذلك يهجم بهم العلمُ على حقيقة الإيمان.

فتستجيب أرواحُهُم لقادة العلم، ويستلينون من حديثهم ما استوعر على غيرِهِم، ويأنسون بما استوحش منه المكذِّبون، وأباه المسرفون...)[٢].

وهو نصٌّ عميقُ الدلالة في الكشف عن ضرورة أن يكون للعلم دورٌ محوريٌّ في المسيرة الإنسانية الراشدة، وأن الإنسانَ ـ بغير العلم ـ سيقع في الإسراف الفكري، مستتبعاً ذلك إسرافاً سلوكياً، واستكباراً يؤدي بصاحبه إلى التنكر للحقائق.

أما المؤمنون الواعون الباحثون عن الحق والحقيقة فلا تسكن نفوسهم بغير البينات والبصائر، فهم في لهثٍ دائم عن العلم لدى أهله. لوضوح أن العلمَ ـ وحده ـ ينتهي بهم إلى ما يريدون، فتلين قلوبُهُم للحق، ولا يستوعرونه؛ كما يفعله الجهّال المسرفون.

٦ ـ حقيقة الإيمان؛ هذه، هي التي جاءت النبوَّات من أجلها، وهي التي أخفق كثيرٌ من الناس في الوصول إليها. لذلك، نجد في ما روي من السيرة العطرة لرسول الله ﷺ ترحيبَهُ الشديدَ بِمَن نال هذه المرتبة، حتى في الدائرة التي لم تكن تعيش في كنفه.

---

(١) تستعمل في معنيين متضادين، هما: القوة، والضعف. والمراد ـ هنا ـ: الثاني؛ أي: الضعف.
وإذا قُرِئت الكلمة (يأرز)؛ كما احتمل، فمعناها الاجتماع والانضمام، فيكون معنى الكلمة هنا الانحسار.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص٣٣٥، كتاب الحجة، باب نادر في حال الغيبة، الحديث ٣.

فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال:

بينا رسولُ الله ﷺ في بعض أسفاره، إذ لقيه ركبٌ، فقالوا: السلام عليك يا رسول الله!

فقال: ما أنتم؟

فقالوا: نحن مؤمنون يا رسول الله!

قال: فما حقيقةُ إيمانكم؟

قالوا: الرضا بقضاء الله، والتفويضُ إلى الله، والتسليمُ لأمر الله.

فقال رسول الله ﷺ: علماء، حكماء، كادوا أن يكونوا من الحكمة أنبياء.

فإن كنتم صادقين فلا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون)[1].

وهذا النص يكشف عن جملة أمور، منها:

١ ـ سرور النبي ﷺ بهؤلاء القوم.

٢ ـ ندرتهم.

٣ ـ حرصه على كشف حالهم أمام مَن كان معه.

٤ ـ تكميله ﷺ؛ لإيمانه بتعريفهم ما من شأنه أن يصون حقيقة إيمانهم.

وكم هو دقيقٌ سؤال النبي ﷺ لهم بـ(ما أنتم)، دون (من أنتم)، وذلك لأنه كان يريد التعريف بهم على مستوى تكوينهم الإيماني وليس الشخصي، فكان المناسبُ سؤالَهم بـ(ما أنتم)، وليس بـ(مَن أنتم).

٧ ـ كان لدعوةِ الإسلام وجهودِ النبي ﷺ المباركةِ أثرٌ بارزٌ في النفوس المستعدة؛ التي نأسف على أن المؤرخين أغفلوا الوقوف عند أحوالهم، بما يكفي للتعرف على الأسباب المباشرة وغير المباشرة التي جعلت تلك الجهود مؤثرةً فيهم.

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٤٨، كتاب الإيمان والكفر، باب خصال المؤمن، الحديث ٤.

ونؤكد ـ مع ذلك ـ أن القرآن والسنة مشحونان بالكليات والجزئيات المعرفية لصنع المؤمن القوي؛ الذي انتهى به المطاف إلى حقيقة الإيمان التي نوَّرت قلبَه، وملأت كيانَه؛ ليعزف ـ تبعاً لذلك ـ عن سفاسف الدنيا وزخارفها؛ فيكون من الزاهدين، ويحلِّق في عالم الملكوت الأعلى؛ عشقاً وتولهاً للجمال المطلق؛ المتمثِّل في (الله) تعالى.

وفي هذا الصدد نقف عند الحادثة؛ التي رواها إسحاق بن عمار، قال: سمعتُ أبا عبدالله عليه السلام يقول: **إن رسولَ الله ﷺ صلى بالناس الصبحَ، فنظر إلى شابٍّ في المسجد، وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفَراً لونُهُ، قد نحف جسمُه، وغارت عيناه في رأسه. فقال له رسول الله ﷺ: كيف أصبحتَ يا فلان؟**

قال: أصبحتُ ـ يا رسولَ الله ـ موقِناً.

فعجب رسولُ الله ﷺ من قولِهِ.

وقال: إن لكلِّ يقينٍ حقيقةً، فما حقيقةُ يقينِك؟

فقال: إن يقيني ـ يا رسولَ الله ـ هو الذي أحزنني، وأسهر ليلي، وأظمأ هواجري، فعزفتْ نفسي عن الدنيا وما فيها، حتى كأني أنظر إلى عرشِ ربي وقد نصب للحساب، وحُشِر الخلائقُ لذلك؛ وأنا فيهم، وكأني أنظر إلى أهل الجنة، يتنعمون في الجنة، ويتعارفون، وعلى الأرائك متكئون، وكأني أنظر إلى أهل النار، وهم فيها معذَّبون مصطَرِخون، وكأني ـ الآن ـ أسمع زفيرَ النار، يدور في مسامعي.

فقال رسولُ الله ﷺ لأصحابه: هذا عبدٌ نوَّر الله قلبَه بالإيمان.

ثم قال له: الزَم ما أنت عليه.

فقال الشاب: ادع الله لي ـ يا رسولَ الله ـ أن أُرزَق الشهادةَ معك.

فدعا له رسول الله ﷺ. فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي ﷺ، فاستشهد بعد تسعةِ نفرٍ؛ وكان هو العاشر)[1].

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٥٣، باب حقيقة الإيمان واليقين، الحديث ٢. =

فهذا المؤمنُ شابٌّ صالحٌ، وما أكثرهم في زمنه ﷺ، أسعفنا التاريخُ بقصته على إيجازٍ؛ يعرّف فيها عن نفسه، ويصدِّق رسولُ الله ﷺ دعواه؛ لنتلمس ـ من خلالها ـ كم أثمرت جهوده التربوية المباركة في نفوس أولئك المستعدين؛ الذين جاهدوا في الله فهداهم الله؛ فنالوا مرتبة (اليقين)؛ حقيقةً لا ادعاءً، بعد أن فقِهوا ما هم عليه؛ من حيث أسبابه، وموانعه، وثمراته، وبداياته، ونهاياته، وكل ما ينبغي لأهل الإيمان أن يكونوا على درايةٍ به.

واللافِتُ أن هذا الشاب المؤمن تجاوز ـ في ما ناله بإيمانه، وجناه من ثمرات ـ حدودَ الدنيا إلى الآخرة، فأصبح (كأنه) يرى الجنةَ ونعيمَها، والنارَ وعقابَها، ويبصر المنعَّمين؛ فيطمح أن يكون منهم، والمعذّبين؛ فيستجير بالله أن يكون معهم.

لينتهي به الحال إلى (الزهد) في الدنيا، إلى الحد الذي لم يعُد له من همٍّ سوى نيل الشهادة؛ التي تعني الاستعداد التامّ لـ(التضحية) بالدنيا بأرقى مراتب التضحية.

٨ ـ إن علينا؛ من أجل تحصيل (حقيقة الإيمان)، أن نكون على حذرٍ بالغٍ من كلِّ ما من شأنه الحؤولُ دونها. بخاصة ما يكون أقرب إلى نفوسنا ومشتهياتنا؛ التي يصعب عادةً أن نتخلى عنها، وإن كنا ندرك مسبقاً أنها ليست أموراً ضروريةً، بل قد يتأكد لنا أنها غيرُ ضروريةٍ، ومع ذلك ليس من السهل أن نتخلى عنها.

ومثالاً على ذلك: عادة (الكلام)؛ التي هي محبَّبةٌ إلى نفوس الناس؛ فيقعون في شباكها وحبالها؛ فتأسرهم؛ ليتحدثوا في المفيد وغير المفيد، والضروري وغير الضروري، بل في النافع والضار، دون أن يحسبوا لِما بعد ذلك حساباً. وما أكثر ما يجر (كلام الناس) إلى مخاطر وآفات قد تصل إلى الحروب.

= وقد روى الحادثةَ عددٌ من المحدثين العامة باختلافٍ يسيرٍ، منهم: ابن أبي شيبة في مصنفه، ج٦، ص١٧٠، والطبراني في المعجم الكبير، ج٣، ص٢٦٦.

وأما هذا الشاب فقيل إنه: مالك بن عوف، وقيل: الحارثة بن عوف، وقيل: حارثة بن النعمان، وقيل الحارث بن مالك، وقيل: حارثة بن سراقة. انظر: معرفة الصحابة لأبي نعيم، وأسد الغابة لابن الأثير.

وفي هذا روي عن رسول الله ﷺ قوله لبعض أصحابه: **أمسِكْ لسانَك، فإنَّها صدقةٌ تصدَّقُ بها على نفسِك.**

ثم قال: **ولا يعرف عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتى يخزِن لسانَه)**[1].

فالنبيُّ ﷺ يربط بين خَزن اللسان ـ الذي هو: القدرة على ضبطِ الإنسان نفسه ـ وتحكُّمِهِ فيه؛ فلا يتكلم إلا حسبما تقتضيه الحاجةُ والفائدةُ وحسب. وهو ﷺ يربط بين الخزن وبين (حقيقة الإيمان).

وستكون النتيجة: أن مَن لم يملك هذه القدرة لا نصيبَ له من تلك الحقيقة.

٩ ـ أن (حقيقة الإيمان) لها ملامح ومعالم، ولها ـ أيضاً ـ (لوازم) لا تنفك عنها. ومن أجل أن تقوم المفاهيمُ على أساس (الإيمان) فعلى المؤمن أن يعرف الإيمانَ، وملامحَه، ولوازمَه؛ حتى لا تختلط عليه الأمورُ؛ فيقع في المحظور.

فقد يكون المحبوبُ عند عموم الناس مبغوضاً عند خصوص المؤمن بلحاظ إيمانه، وما هو مبغوضٌ عندهم يكون محبوباً عنده للسبب نفسه.

والسر في ذلك: أن رؤية المؤمن ومواقفه يحددها (الإيمان)، بينما يحدد غيرُ المؤمنين، أو غير البالغين لحقيقة الإيمان، رؤاهم ومواقفَهم على أساسٍ آخر.

وفي هذا الصدد نقف عند ما رواه أبان بن تغلب، وآخرون، قالوا:

كنا عند أبي عبدالله عليه السلام جلوساً، فقال عليه السلام: **لا يستحق عبدٌ حقيقةَ الإيمان حتى يكون الموتُ أحبَّ إليه من الحياةِ، ويكون المرضُ أحبَّ إليه من الصحةِ، ويكون الفقرُ أحبَّ إليه من الغنى، فأنتم كذا؟!**

فقالوا: لا واللهِ! جعلنا الله فداك.

وسُقِط في أيديهم، ووقع اليأسُ في قلوبهم.

فلما رأى ما داخلهم من ذلك، قال: أيسُرُّ أحدَكم أنه عُمِّر ما عُمِّر ثم يموت على غيرِ هذا الأمرِ، أو يموت على ما هو عليه؟!

---

(١) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة، ج١٢، ص١٨٤، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١١٧ ـ استحباب الصمت والسكوت إلا عن الخير، الحديث ٨.

قالوا: بل يموت على ما هو عليه الساعةُ.

قال: فأرى الموتَ أحبَّ إليكم من الحياةِ.

ثم قال: أيسُرُّ أحدَكم أن بقي ما بقي لا يصيبه شيءٌ من هذه الأمراضِ والأوجاعِ حتى يموتَ على غيرِ هذا الأمرِ؟

قالوا: لا يا ابنَ رسولِ اللهِ!

قال: فأرى المرضَ أحبَّ إليكم من الصحةِ.

ثم قال: أيسُرُّ أحدكَم أنَّ له ما طلعتْ عليه الشمسُ وهو على غيرِ هذا الأمرِ؟

قالوا: لا يا ابنَ رسول اللهِ.

قال: فأرى الفقرَ أحبَّ إليكم من الغنى)[1].

فعلى المؤمن ـ إذن ـ:

١ ـ أن يدرك قيمة إيمانه.

٢ ـ أن يكون يقِظاً للمخاطر التي تحدق بإيمانه.

٣ ـ أن يكون على يقينٍ أن (إيمانه) كلَّما ازداد عمقاً فسيكون أشدَّ نفعاً له، وسيكون هو أكثرَ استعداداً للتضحية بكلِّ شيءٍ آخر؛ لأنه لا يساوي (شيئاً) دون هـذا الإيـمـان ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الفرقان/ ١٧].

***

فهذه النصوصُ؛ وغيرُها كثيرٌ، تؤكد ـ بأجمعها ـ على أن للإيمان عمقاً لا يوفَّق لبلوغِهِ جميعُ الناس، بل يصيبه قلةٌ قليلةٌ ممن سعَوا بجدٍّ واجتهادٍ في سبيل الوصول إليه؛ فاستحقوا وعدَ الله تعالى في قوله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت/ ٦٩].

وهذا العمق يؤسِّس لحالةٍ من الصلابة في المؤمن تجعله أقوى من الجبال

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، الكافي، ج٨، ص٢٥٣، الحديث ٣٥٧.

ومن زبر الحديد، لا يكل، ولا يمل؛ مهما كانت التحديات والصعاب، ولا تعرقله عن تحقيق هدفه الأسمى؛ الذي هو جنةٌ ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران/ ١٣٣].

المحطة الثانية: الناس بين قاصِر ومقصِّر

نتساءل هنا، ونقول:

هل الناس سواءٌ في تبني هذا الهدف النبيل لحياتهم؟!

وهل هم سواء في التخطيط الدقيق والتنفيذ الدقيق لتحقيقه؟! أم أنهم يتفاوتون؟!

ستبادر بالجواب قائلاً: بالطبع ليسوا سواء.

فلو جلتَ بناظريك لرأيت الناس ـ غالباً ـ بين:

أ ـ قاصر

لا يكاد يستوعب هدفاً لحياته إلا تأمين لقمة العيش التي قد يشفعها بوصف (الكريم!). فهو ـ بهذه الذريعة ـ يكدح ليلاً ونهاراً في سبيل ذلك، يتناول إفطاره الصباحي على عجلٍ، ثم يذهب إلى دكانه، أو متجره، أو دائرة عمله، واضعاً نصبَ عينيه بعضَ المال ليجنيه ـ بطريقة أو بأخرى ـ ثم يصرفه على مسكنه، وملبسه، ومشربه، ومأكله.

ويكرر ذلك كلَّ يومٍ، وكلَّ شهرٍ، وكلَّ سنةٍ، حتى ينقضي العمر. فلا همَّ له غير ذلك، ولا شيء عنده وراءه. فهو وُلِد ليعيش، وهو مشغولٌ بالعيش، ولا شيءَ آخر.

أما المستقبل البعيد ـ الذي هو (الآخرة) ـ فهو يحتاج إلى جهدٍ مضاعفٍ لا ترقى إليه همتُهُ، أو إنه لا محلَّ له من الإعراب في سلسلة اهتماماته! أو أنه لا يشكِّل أولويةً في تلك الاهتمامات!!

ب ـ مقصِّر

يعرف ما جاء به الأنبياء عليهم السلام، وأنه محكوم لله الواحد القهار...، لكنه ضعيفٌ

أمام شهواته، لا يستطيع أن يقاوم نوازعَها. فهو في لهثٍ دائمٍ، من متعةٍ إلى متعةٍ، ومن لذةٍ إلى لذةٍ. وهو بين شهوةِ فرجٍ إلى شهوةِ بطنٍ، لا شغل له في شيء وراء هذا وذاك.

أسباب القصور والتقصير:

النبي الأعظم ﷺ يرى في هذا الفريق من الناس؛ القاصر منهم والمقصِّر، أنهم حمقى.

وذلك، أن الأحمق ـ هنا ـ هو مَن لا يحسن التصرفَ أمام المهمات الموكلة له، مع امتلاكه كاملَ القدرة على تنفيذها على الوجه المطلوب. يدفعه إلى ذلك واحدٌ من أمرين:

أ ـ **شبهة فكرية** يستطيع رفعها، بالتعلم والتفقه، وتبصر الأمور، فلا يفعل ذلك.

ب ـ **شهوة في استمتاع**؛ بأكل، أو شرب، أو جنس، أو تملك، ونحو ذلك، ويتيسر له مقاومتها، لكنه لا يفعل ذلك.

وللأسف الشديد فإن هذا هو الغالب على حال الناس، ويصدِّق ذلك قول الحق تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ/ ١٣].

وأما النبي ﷺ فيقول في هذه الوصية: **(يا أبا ذرّ! لا تصيب حقيقةَ الإيمان حتى ترى الناسَ كلَّهم حمقاء**[1] **في دينهم وعقلاء في دنياهم)** [الفقرة/ ٨٤].

المحطة الثالثة: الإنسان بين العقل والحمق

استكمالاً لرسم المشهد نضيف أن النبي ﷺ لم يكتفِ بتصنيف الناس إلى ما ذكرناه في المحطة السابقة؛ من أنهم قاصرون ومقصِّرون. وإنما أشار إلى خلفية هذا التصنيف؛ وهو أن ثمة قوتين متضادتين تتصارعان على توجيه الإنسان والتحكم فيه، وهما:

---

(١) في المكارم (حمقى).

أ ـ **العقل**؛ الذي هو: القدرة على ضبط السلوك؛ بما تقتضيه الحكمة ومعارف الدين.

ب ـ **الحمق**؛ الذي هو: الجهل والطيش وقلة التبصر، والانسياق عملياً وراء الشهوات والغرائز، دون اهتمام بما عدا ذلك.

والذي نجده في أحوال الناس ـ غالباً ـ أنهم يدققون؛ بكلِّ ما تقتضيه أحكامُ العقلِ ومدركاتُهُ، في شؤونهم الدنيوية. فلا يعقدون أيَّ صفقةٍ تجاريةٍ إلا بعد الوثوق الكامل من ربحها، وتوفر الفرص المناسبة واللازمة.

أما الشؤون الدينية فإنها لا تلقى لدى هذا الفريق الاهتمام اللائق، وكأن الأنبياء عليهم السلام ـ الذين هم أعقل الناس، وأحكمهم ـ بذلوا ما بذلوه من غالٍ ونفيسٍ إلى حد الاستشهاد، كانوا يمزحون في اشتغالهم الحثيث بإرشاد الناس وهدايتهم، وإخراجهم من القصور والتقصير، نعوذ بالله تعالى من ذلك.

فهل هناك حمقٌ أبلغ من هذا؟!

وهل يكون مَن يجاري الناس في ما يقومون به ويصنع ما يصنعون، ويتبنى فلسفتهم هذه في تسيير حياته، قد بلغ حقيقة الإيمان؟!

أولسنا بحاجة إلى أن نكون عقلاءَ فنضع كلَّ شيءٍ في موضعه، ونعيد الأمورَ إلى نصابها، ونرجع إلى فطرةِ الله وصبغته ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة/ ١٣٨]؟!

ولو سألت: كيف يكون ذلك؟

لأجبتك بالقول: أن نكون كما أراد الله لنا أن نكون؛ لنرجع إليه بلا شائبةٍ، خالِصين، مخلَصين.

لذلك، قال تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم/ ٣٠].



الفصل الحادي والأربعون

محاسبة النفس... مراجعة وانطلاقة

١ ـ ما هي أهمية المحاسبة؟

٢ ـ ماذا تعني المحاسبة؟

٣ ـ ماذا يترتب عليها؟

***

تلكم أسئلة ثلاثة نحاول الإجابة عنها؛ من خلال تسليط الضوء على نصين شريفين من الوصية النبوية لأبي ذر رحمه الله[١].

ولا تفوتنا الإشارةُ إلى أن مسألة (محاسبة النفس) قد يقال بأنها واجبةٌ فقهياً ببعض الاعتبارات، على تفصيل يُطلب في الرسائل العملية[٢].

---

(١) للتنويه نقول: إن النص الثاني لم يأتِ عقيبَ النص الأول، وإنما بعد عدة فقرات، لكنا آثرنا ـ مراعاةً للمنهجية، ووحدة الموضوع ـ أن نربط بينهما، وسيتبين موضعهما من خلال الترقيم.

(٢) وقد عقد المحدث الحر العاملي في كتابه (وسائل الشيعة) باباً حمل الرقم (٩٥) بعنوان (باب وجوب محاسبة النفس كلّ يوم، وملاحظتها، وحمد الله تعالى على الحسنات، وتدارك السيئات)، ضمن أبواب جهاد النفس وما يناسبه، وذلك في ج١٦ طبع وتحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام.
وتابعه في ذلك المحدث النوري في مستدرك وسائل الشيعة؛ في ج١٢، من طبع وتحقيق المؤسسة نفسها.
وفعل مثله الفقيه السيد حسين البروجردي في ج١٣؛ من موسوعته جامع أحاديث الشيعة، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٢ ـ ما ورد في ذم النفس، وتأديبها، ومحاسبتها، وحمد الله على الحسنات وترك السيئات، وجبران ما فات، وكثرة التحفظ عند زيادة العمر.

قال الشيخ الأردبيلي: ... فيجب على المؤمن أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب)[١].

قال العلامة الشيخ محمد أمين زين الدين:

يجب على المكلف أن يحاسب نفسه على عمله في كلّ يوم يمر عليه، فإن وجد ما عمله صالحاً حمد الله على توفيقه وهدايته، وسأل منه المزيد من الهداية والعون، وإن وجده سيئاً ندم عليه واستغفر الله منه، وتداركه بالتوبة. والروايات الدالة على هذا كثيرةٌ، بل مستفيضةٌ)[٢].

أما النص الأول من الوصية التي نحن بصددها فقد جاء فيه قوله ﷺ:

● [الفقرة/ ٨٥]:

(يا أبا ذرّ! حاسب نفسَك قبل أن تُحاسَب فهو أهونُ لحسابِك غداً. وزِنْ نفسَك قبل أن تُوزَن. وتجهَّز للعرض الأكبر يومَ تُعرض لا تخفى منك على الله خافية).

وقد تضمن هذا النصُّ ـ بفقرتيه ـ عدداً من المطالب:

الفقرة الأولى: مبدأ المحاسبة

(يا أبا ذرّ! حاسب نفسَك قبل أن تُحاسَب فهو أهونُ لحسابِك غداً.
وزِنْ نفسَك قبل أن تُوزَن) [الفقرة/ ٨٥].

وهي تشتمل على أمرين اثنين:

الأول: الأمر بمحاسبة النفس

الثاني: الأمر بوزن النفس

---

(١) الأردبيلي، الشيخ أحمد (ت٩٩٣ هـ)، زبدة البيان في أحكام القرآن، ص٤٠٣.

(٢) زين الدين، الشيخ محمد أمين (ت١٣١٩ هـ)، كلمة التقوى، كتاب الجهاد، المسألة ٧٤، الجزء ٢، ص٣٥٢.

والأمران ـ من حيث المضمون ـ متقاربان؛ إذ إن المطلوب من الإنسان هو أن يقوم بمراجعةٍ شاملةٍ ودقيقةٍ لأعماله.

فإن تبين بعد المراجعة أنها مرْضيةٌ استزاد منها، وإن كانت غير ذلك استغفر منها، وعزم على تركها.

فعن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال لعبدالله بن جندب: **حقٌّ على كلّ مسلم يعرفنا أن يعرض عملَه في كلّ يوم وليلة على نفسه، فيكون محاسبَ نفسِهِ. فإن رأى حسنةً استزاد منها، وإن رأى سيئةً استغفر منها، لئلا يخزى يوم القيامة)**[1].

وإن أمكن حملُ (المحاسبة) ـ هنا ـ على اكتشاف الجانب السيئ من الأعمال، وحملُ (الوزن) على اكتشاف الجانب الصالح من الأعمال. فإن الله تعالى يعاقب عاملَ القبيح، إن هو لم يحاسب نفسَه ويستدركْ تقصيره. كما أنه تعالى يجازي عاملَ الحسن على فعله، وإن كان قليلاً، ما لم يزِن صاحبُ العمل نفسَه ليستدرك تقصيره أيضاً.

ولا يكتفي الرسول المربي صلى الله عليه وآله بالأمر، بل إنه يشفعه بالسبب، في قوله صلى الله عليه وآله: **(قبل أن تُحاسَب، فهو أهونُ لحسابِك غداً)**.

فهو صلى الله عليه وآله يذكِّر، والذكرى تنفع المؤمنين، بيوم الحساب الذي يواجه فيه الإنسان بما عمل ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة/ ٦ ـ ٨].

وأما النص الثاني فينتقل فيه الوعظُ النبويُّ إلى تبيان عدةِ نواحٍ، ويقول صلى الله عليه وآله فيه:

(يا أبا ذرّ! لا يكون الرجلُ من المتقين حتى يحاسِب نفسَه أشدَّ من محاسبةِ الشريك شريكَهُ، فيعلم:

من أين مطعمه؟

---

(١) تحف العقول، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة، ج١٢، ص١٥٢، أبواب جهاد النفس، الباب ٩٥ ـ وجوب محاسبة النفس كلّ يوم وملاحظتها، وحمد الله على الحسنات، الحديث ٢.

ومن أين مشربه؟

ومن أين ملبسه؟

أمن حلٍّ أم من حرام؟!

يا أبا ذرّ! مَن لم يُبالِ من أين يكتسب المالَ لم يبالِ الله عزّ وجلّ من أين أدخله النار؟!) [الفقرتان/ ١٢٢ ـ ١٢٣].

ولنقف عند نواحي هذا النص[1]:

الناحية الأولى: المحاسبة طريق التقوى

في هذه الناحية يؤكد النص النبوي المعجز على أن طريق التقوى التي يجب على الإنسان أن يسلكها لا تتأتى بغير (المحاسبة)، فيقول:

(يا أبا ذرّ! لا يكون الرجلُ من المتقين حتى يحاسِب نفسَه أشدَّ من محاسبةِ الشريك شريكَهُ) [الفقرة/ ١٢٢].

والسر في ذلك واضحٌ، فإن مَن يحاسب نفسَه إنَّما يقوم بذلك بغرض التعرُّف على نقاط القوة والضعف، وعلى وجوه الخطأ والصواب، وعلى الحسنات والسيئات؛ ليختار الحقَّ منها على الباطلِ.

وكلما كان الرجل؛ وهو ـ هنا ـ مثالٌ على الإنسان مطلقاً، محاسِباً لنفسه كان أقربَ للتقوى والمتقين؛ إذ لا يُعقل أن يحاسب الإنسانُ نفسَهُ، ويرى خطأَهُ، ومع ذلك يُصر عليه؛ فإن مبدأ المحاسبة يستبطن الصدقَ في النية والعزيمةَ على تشخيص الداء والدواء معاً من قِبل مَن يحاسب نفسَه.

فلو أن مسلماً لم يعتمد (المحاسبة) مبدأً من مبادئه؛ مع إقراره على نفسه بأنه

---

(١) مع التأكيد على أن المجال لا يتسع لمعالجة مسألة (المحاسبة) بإسهابٍ، لضيق المجال. وننصح بمراجعة كتاب (محاسبة النفس) الذي ألفه المرحوم الشيخ إبراهيم الكفعمي.
مع شعورنا بالحاجة الماسَّة للتدوين في هذا الموضوع بما يتناسب واللغة المعاصرة من جهة، والمعطيات التربوية الحديثة من جهة أخرى. ونسأل الله أن يقيِّض لذلك من هم أهله.

غيرُ معصومٍ من الخطأ والخطيئة، فهو من غير المتقين؛ لأنه سيكون ـ في أحسن التقادير ـ غيرَ مبالٍ بما وقع منه من خطأٍ، أو وقع فيه من خطيئةٍ.

قال المولى المازندراني:

محاسبه النفس: ضبط الإنسان على نفسه الأعمال الخيرية والشرية، ليحلّيها بما ينبغي، ويخلّيها عمّا لا ينبغي.

وينبغي أن يكون حالُ العقل مع النفس كحالِ الإنسانِ مع الشريكِ، فينبغي أن يتولى حسابَها في كلّ يوم؛ وينظرَ إلى قيامها وقعودها وأكلها وشربها وحركتها وسكونها في الأعمال الظاهرة والباطنة، ويزنَ جميعَ ذلك بميزان الشرع ليعلم مداخل الزيادة والنقصان.

كما أن التاجرَ يصنع ذلك بشريكه، ويفتش عن حساب الدنيا، بالحبة والقيراط، ويتحفظ مداخل الزيادة والنقصان)[1].

وقال العلامة الطباطبائي؛ في تعريف المحاسبة أنها:

النظر في الأعمال التي قدموها ليوم الحساب:

أهي صالحة؛ فليرج بها ثواب الله.

أو طالحةٌ؛ فليخشَ عقابَ الله عليها، ويتداركْ بالتوبة والإنابة)[2].

الناحية الثانية: دقة المحاسبة

في هذه الناحية يؤكد النبي المربي ﷺ على ضرورة أن تكون (المحاسبة) دقيقةً. فإن النوازع الكامنة في النفس الإنسانية؛ والتي تدعو صاحبها إلى المعصية، لا ينبغي الاستهانةُ بها. فمن يحاسب نفسه إنَّما يقاوم؛ بل يحارب

---

(١) المازندراني، المولى صالح (ت١٠٨١هـ)، شرح أصول الكافي، ج١٠، ص٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١٩، ص٢١٨، ذيل قوله تعالى ﴿...وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ...﴾ [الحشر /١٨].

ويجاهد، نفسَهُ التي بين جنبيه؛ وهي أعدى أعدائه، كما ورد في الخبر الشريف[١].

وفي هذا الصدد يقول ﷺ:

(لا يكون الرجلُ من المتقين حتى يحاسِب نفسَه أشدَّ من محاسبةِ الشريك شريكَهُ) [الفقرة/ ١٢٢].

فكما أننا ـ كتجار ـ نحرص أشدَّ الحرص على أن لا تفوت منا مصلحةٌ ماديةٌ؛ مهما تضاءلت قيمتُها، فنحاسب بمنتهى الدقةِ، فإن اللازمَ أن نكون أحرصَ على محاسبةِ النفسِ التي تمثل جانبَ الحيوانيةِ فينا، فتدعونا إلى (الجهل)، مقابل العقل الذي يمثل جانب (الإنسانية) فينا فيدعونا إلى (التعقل).

الناحية الثالثة: مجالات المحاسبة

ما دمنا بصدد (المحاسبة) ـ وصولاً إلى التقوى ـ فإننا أمام مهمةٍ نحدد من خلالها ما يجب أن نتجنبه من سلوكيات تجرنا إلى الحرام؛ تبعاً لمنشَئِها المحرَّم.

وحيث إن قسماً مهماً من آثامنا يعود إلى:

١ ـ ما نأكله من محرمات في نفسها، أو في ثمنها، أو في طريقة الحصول عليها.

٢ ـ ما نشربه كسابقه.

٣ ـ ما نلبسه، كسابقيه.

لذلك، أكّد النبيُّ ﷺ على أن المحاسبةَ تتأكد في هذه المجالات الثلاثة، وما يتشعب منها بالطبع، بقوله:

(فيعلم: من أين مطعمه؟ ومن أين مشربه؟ ومن أين ملبسه؟ أمن حلٍّ أم من حرام؟!)

---

(١) رُوي عن النبي ﷺ قوله: **أعدَى عدوك نفسُكَ التي بين جنبيك)** [عدة الداعي، ص٣٠٧، وعنه: بحار الأنوار، ج٦٧، ص٤٥، كتاب الإيمان والكفر، الباب ٤٥ ـ مراتب النفس، وعدم الاعتماد عليها...، الحديث ١].

مبيِّناً ﷺ أن المهم في كلّ ذلك ـ وما شابهه ـ أن نتعرّف على موافقته للضوابط الشرعية (**أمِن حِلٍّ ذلك أم من حرامٍ**).

الناحية الرابعة: مخاطر ترك المحاسبة

يكمل النبيُّ ﷺ وصيته بالكشف عن مخاطر ترك المحاسبة، قائلاً:

(يا أبا ذرّ! مَن لم يُبالِ من أين يكتسب المالَ لم يبالِ الله عزّ وجلّ من أين أدخله النار؟!) [الفقرة/ ١٢٣].

فالواجب على المسلم أن لا يقع في دائرة (اللامبالاة)؛ في ما يتعلق بمكاسبه ومقتنياته؛ فإنه إن فعل ذلك سيؤكد ـ من حيث يريد أو لا يريد، ومن حيث يشعر أو لا يشعر ـ أن معبوده وغايته هو (المال) وليس (الله) تعالى.

وذلك، أن الله سبحانه جوادٌ لا بُخل في ساحته، لا ينقص من ملكه أن ينيل فلاناً أو فلاناً شيئاً من المال؛ قلَّ أو كثُر، وكل ذلك في ساحته قليلٌ. وإنما يهمه أن يكون العبد (مسلِماً) نفسه له تعالى؛ فـ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران/ ١٩].

ولكي تزداد الصورةُ وضوحاً ـ في ما يتعلق بأهمية المحاسبة، ودورها في بناء الإنسان في عالم الصلاح والتقوى ـ نورد بعض النصوص التي وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

أولاً: محاسبة النفس في الكتاب الكريم

١ ـ قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر/ ١٨ ـ ٢٠].٢
ـ قال تعالى ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة/ ٢٨٤].

ثانياً: محاسبة النفس في السنة المطهرة

عقد المحدثون أبواباً للمحاسبة، ضمَّنوها نصوصاً من السنة المطهرة المروية عن النبي ﷺ وآله المطهرين ﵈.

كما نجد ذلك في كتاب أصول الكافي للشيخ الكليني، في باب جعل عنوانه (باب محاسبة العمل)، عالجت نصوصه المسألة من زوايا كثيرة، نكتفي بما يلي:

١ ـ بسنده عن أبي حمزة، عن علي بن الحسين ﵉، قال: **كان أمير المؤمنين ﵇ يقول: إنَّما الدهرُ ثلاثةُ أيامٍ أنت في ما بينهن:**

مضى أمسِ بما فيه فلا يرجع أبداً؛ فإن كنتَ عملتَ فيه خيراً لم تحزن لذهابه، وفرحت بما استقبلته منه[1]، وإن كنتَ قد فرَّطتَ فيه فحسرتُك شديدةٌ لذهابِهِ وتفريطِك فيه.

وأنت في يومك الذي أصبحت فيه من غدٍ في غِرَّة، ولا تدري لعلك لا تبلغه، وإن بلغته لعل حظَّك فيه في التفريط مثل حظك في الأمس الماضي عنك.

فيوم من الثلاثة قد مضى أنت فيه مفرطٌ، ويوم تنتظره لست أنت منه على يقينٍ من ترك التفريط، وإنما هو يومكم الذي أصبحت فيه.

وقد ينبغي لك إن عقلتَ وفكرتَ في ما فرَّطتَ في الأمس الماضي؛ ممَّا فاتك فيه؛ من حسنات ألا تكون اكتسبتها، ومن سيئات ألا تكون أقصرتَ عنها. وأنت مع هذا مع استقبالِ غدٍ على غيرِ ثقةٍ من أن تبلغه، وعلى غيرِ يقينٍ من اكتساب حسنةٍ أو مرتدع عن سيئةٍ محبِطةٍ.

فأنت من يومك الذي تستقبل على مثل يومك الذي استدبرت، فاعمل عملَ رجلٍ ليس يأمل من الأيام إلا يومَه الذي أصبح فيه وليلته، فاعمل، أو دعْ، والله المعين على ذلك)[2].

---

(١) في بعض النسخ: أسلفته.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٤٥٣، باب محاسبة العمل، الحديث ١.

والنص عظيم الفوائد، وشديد التركيز، في بيان ضرورة انتهاز الفرصة؛ التي هي ـ بطبعها ـ سريعةُ الفوات.

٢ ـ بسنده عن أبي الحسن الكاظم (صلوات الله عليه)، قال: **ليس منا من لم يحاسب نفسه في كلِّ يومٍ، فإن عمل حسناً استزاد اللهَ، وإن عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه)**[١].

وهذا النص يؤكد على أمرين اثنين:

الأول: مبدأ المحاسبة، وضرورته

الثاني: فائدته

وهي: تنمية الخير، والقضاء على الشر في النفس البشرية وفعلها.

٣ ـ بسنده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، **قال: يا أبا النعمان! لا يغرَّنَّك الناسُ من نفسك، فإن الأمرَ يصل إليك دونهم، ولا تقطعْ نهارَك بكذا وكذا؛ فإن معك مَن يحفظ عليك عملك، وأحسِن فإني لم أرَ شيئاً أحسنَ دركاً، ولا أسرعَ طلباً، من حسنةٍ محدَثةٍ لذنبٍ قديمٍ)**[٢].

وهذا النص يركز على: خطرين، وفائدة:

أما الخطر الأول، فهو: التحذير من الاغترار بمدح الناس للإنسان بالتقوى.

وأما الخطر الثاني، فهو: التحذير من تضييع العمر دون شغله بالعمل الصالح، وأن ثمة مَن يحصي على الإنسان أنفاسه؛ وهم الملائكة ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار/ ١٠ ـ ١٢].

وأما الفائدة، فهي: ضرورة تحسين العمل، وأهميته في محو الذنوب.

٤ ـ بسنده عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام، قال:

جاء رجل إلى أبي ذر، فقال: يا أبا ذرّ! ما لنا نكره الموت؟

---

(١) المصدر نفسه، الحديث ٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٥٤، الحديث ٣.

فقال: لأنكم عمَّرتم الدنيا، وأخربتم الآخرة، فتكرهون أن تنقلوا من عمران إلى خراب.

فقال له: فكيف ترى قدومنا على الله؟

فقال: أما المحسن منكم فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء منكم فكالآبق يرد على مولاه.

قال: فكيف ترى حالنا عند الله؟

قال: اعرضوا أعمالكم على الكتاب، إن الله يقول ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار/ ١٣ ـ ١٤].

قال: فقال الرجل: فأين رحمة الله؟

قال: رحمةُ الله ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف/ ٥٦]....)[١].

فالمحاسبة ـ كما فهمها أبوذر رحمه الله، وأمضاه الإمام الصادق عليه السلام ـ هي: عرض الأعمال على الكتاب، والتعرفُ ـ من خلال ذلك ـ على وجوه الخطأ والصواب فيها.

الناحية الرابعة: كيفية المحاسبة

في ما يتعلق بكيفية المحاسبة روي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، في التفسير المنسوب إليه، عن آبائه، عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله، أنه قال:

أكيسُ الكيِّسين مَن حاسب نفسَه، وعمل لِما بعد الموت.

فقال رجلٌ: يا أمير المؤمنين! كيف يحاسب نفسه؟

قال: إذا أصبح ثم أمسى رجع إلى نفسه، وقال: يا نفسي! إن هذا يومٌ مضى عليك لا يعود إليك أبداً، واللهُ يسألك عنه بما أفنيته، فما الذي عملتَ فيه، أذكرتَ الله أم حمدته؟ أقضيتَ حوائجَ مؤمنٍ فيه؟! أنفَّستَ عنه كربةً؟! أحفظته بظهر الغيب في أهله وولده؟ أحفظتَه بعد الموت في مخلَّفيه؟! أكففتَ عن غيبةِ أخٍ مؤمنٍ؟! أعنتَ مسلماً؟! ما الذي صنعتَ فيه؟

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٥٩، الحديث ٢٢.

فيذكر ما كان منه، فإن ذكر أنه جرى منه خيرٌ حمد الله وكبَّره على توفيقه، وإن ذكر معصيةً، أو تقصيراً، استغفر اللهَ، وعزم على ترك معاودته)(١).

والنصُّ في غنى عن التعليق؛ لوضوح مضمونه، وجلاء مفرداته.

الناحية الخامسة: فوائد محاسبة النفس

بعد ما قدمناه لا نظن ـ قارئنا الكريم ـ أن فائدةَ المحاسبة خفيت عليك، وأنت الفطن اللبيب.

ومع ذلك فلا بأس بالتبرك ببعض ما روي عن الأئمة من آل البيت عليهم السلام في هذا المجال من فوائد:

أ ـ التوقي من التفاف النفس

فقد روي عن الإمام علي عليه السلام قوله: **مَن تعاهد نفسه بالمحاسبة، أمن فيها المداهنة)**(٢).

ب ـ التعرف على الأخطاء ومعالجتها

روي عنه عليه السلام أنه قال: **مَن حاسب نفسَه وقف على عيوبه، وأحاط بذنوبه، واستقال الذنوب، وأصلح العيوب)**(٣).

ج ـ صلاح النفس وفوزها

عنه عليه السلام أنه قال: **ثمرة المحاسبة صلاح [إصلاح] النفس)**(٤).

---

(١) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٦، ص٩٨، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٩٦ ـ وجوب محاسبة النفس كلّ يوم، الحديث ٨.

(٢) غرر الحكم، وعنها: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص١٥٤، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ٩٥ ـ وجوب محاسبة النفس كلّ يوم وملاحظتها، وحمد الله على الحسنات، الحديث ٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

وقال عليه السلام: **مَن حاسب نفسه ربح، ومَن غفل عنها خسر، ومَن خاف أمن)**[١].

د ـ السعادة

روي عنه عليه السلام: **مَن حاسب نفسَه سعد)**[٢].

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.



الفصل الثاني والأربعون

الحياء من اللَّه طريق الولاية

يصل بنا الحديث التربوي في هذه الوصية العظيمة إلى فضيلةٍ أخلاقيةٍ من أهمّ الفضائل؛ عُدَّت ـ بحقٍّ ـ (من شرائف الصفات النفسية)[1]، ولا غنى عنها للسائر في الصراط المستقيم على طريق الكمال.

فما هو الحياء؟

تعريف الحياء:

يمكن تعريف الحياء بأنه: تلك الحالة المعروفة التي تعتري الإنسانَ؛ صغيراً وكبيراً، إذا وقع في ما هو مذمومٌ عند عاقلٍ ملتفِتٍ؛ بحيث يتمنى لو أنه لم يقع فيه.

وقد ذُكر في تعريفه، وبيان حقيقته، صيغٌ كثيرة، منها: أنه: الانفعال عن ارتكاب ما يُذَمُّ شرعاً، أو عقلاً، أو عرفاً)[2].

ونرى أن نعرِّفه بأنه: خُلُق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حقّ ذي الحقّ.

وضدُّ الحياء: (الوقاحةُ).

---

(١) النراقي، الشيخ محمد مهدي (ت١٢٠٩ هـ)، جامع السعادات، ج٣، ص٣٦.

(٢) المصدر السابق.

ومن لوازم الحياء الحقيقي تركُ موجِبه. وقد يُطلق عنوان (الحياء) ويراد به واحدٌ من لوازمه، فلا تغفل.

الحياء في الرؤية الشرعية:

ورد التأكيد في النصوص الشرعية على: فضيلة الحياء، وضرورة الالتزام به، مع بيان ثواب ذلك، والفوائد المترتبة عليه، ومخاطر تركه؛ حتى ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **لا إيمانَ لمَن لا حياءَ له)**[١].

وكنموذج على تلكم النصوص ما جاء في القرآن الكريم من قصة بنت نبي الله شعيب عليه السلام، في قوله تعالى ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص/ ٢٥].

أمّا رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول ـ في ما رُوي عنه ـ عن الحياء أنه: **لا يأتي إلا بخيرٍ)**[٢].

والوجه في ذلك أنّ الإنسان الحيِيَّ حريصٌ ـ أشدَّ الحرص ـ على تجنب كلِّ فاحشةٍ وقبيحٍ. وبطبيعة الحال، سيكون ملازماً للمعروف والإحسان.

ومن ثَمَّ، كان الحياءُ ـ كما قال الرسول صلى الله عليه وآله ـ لا يأتي إلا بخيرٍ؛ لأنه ـ ببساطةٍ شديدةٍ ـ: **سببٌ إلى كلِّ جميلٍ)**[٣] كما قال مَن سار على خطى رسولِ الله صلى الله عليه وآله ومَن هو باب مدينة علمه؛ أعني أخاه ووصيه علي بن أبي طالب عليه السلام. وفي قوله الآخر: **الْحياءُ مفتاحُ كلِّ خيرٍ)**[٤]. وقوله: **أحسنُ ملابسِ الدنيا الحياءُ)**[٥].

---

(١) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٥، ص٥٣، كتاب الصلاة، الباب ٢٩ ـ استحباب لبس الثوب الغليظ والخلق في البيت لا بين الناس...، الحديث ٢.

(٢) رواه البخاري، باب الحياء.

(٣) تحف العقول، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة، ج٨، ص٤٦٦، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٩٣ ـ استحباب الحياء، الحديث ٢٢.

(٤) الريشهري، الشيخ محمد، ميزان الحكمة، مادة (الحياء).

(٥) المصدر السابق.

ولذلك، سهل علينا أن نستوعب وصفه عليه السلام للحياء بأنه: **تمامُ الكرمِ، وأحسنُ الشِّيَم**)[١].

وفي تحليلٍ رائعٍ رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام نصٌّ وضعَ فيه الحياءَ على رأس المكارم، وذلكَ في قوله: **إن خصالَ المكارم بعضُها مقيَّدٌ ببعضٍ؛ يقسمها اللهُ، حيث تكون في الرجل ولا تكون في ابنه، وتكون في العبد ولا تكون في سيده: صدق الحديث، وصدق البأس[٢] وإعطاء السائل، والمكافأة على الصنائع، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والتودد إلى الجار والصاحب، وقِرى الضيف، ورأسهن الحيا**[٣])[٤].

وذاك مأخوذ ممَّا رووه عن النبي صلى الله عليه وآله، حيث يقول: **إن لكلِّ دينٍ خلقاً، وخلقُ الإسلامِ الحياءُ**)[٥].

وقوله الآخر عن الحياء: **هو الدينُ كلُّه**)[٦].

والحياءُ ـ كما نلمسه بالوجدان ـ مقرونٌ بالعقل؛ ينمو بنموه، ويضمر بضموره، فكلما كان الإنسانُ أعقلَ كان أشدَّ حياءً، وكلما كان أقلَّ تعقلاً كان أكثرَ قحةً.

ولهذا، فإن المجانينَ قد يفتقدون الحياءَ لأنّ سببه؛ وهو العقلُ، مفقودٌ عندهم. كما أن الأطفالَ غيرُ المميِّزين لا يُعاب عليهم لو وقعوا في مُنافي الحياء.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) في المصدر: الناس.

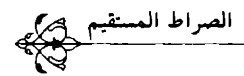
(٣) في أمالي الطوسي؛ كما في مستدرك وسائل الشيعة ١١/ ١٩١ (الحياء). وكذلك في بحار الأنوار ٦٦/ ٣٧٥.

(٤) أمالي الصدوق، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١١، ص٤٣٤، كتاب الحج، أبواب آداب السفر، الباب ٤٩ ـ خصال الفتوة والمروءة، الحديث ٤.

(٥) روضة الواعظين، وعنه: مستدرك الوسائل، ج٨، ص٤٦٥ ـ ٤٦٦، باب استحباب الحياء....، الحديث ١٩.

وفي الموطأ يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله أنه قال (لكلِّ دينٍ خلقٌ. وخلقُ الاسلامِ الحياءُ) ج٢، ص٩٠٥، باب الحياء.

(٦) البيهقي، أحمد بن الحسين (ت٤٥٨ هـ)، السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق...



وقد تسأل، وتقول: كيف يمكن اختزال الإيمان في الحياء، بل كيف يكون جزءاً منه؟ مع أن الحياءَ صفةٌ يمكن أن تكون في غير المؤمن.

الجواب: إنما جُعل (الحياء) من الإيمان لأنه ـ كما قال بعض العلماء ـ:

١ ـ قد يكون تخلقاً واكتساباً؛ كسائر أعمال البر.

٢ ـ قد يكون غريزةً، ولكن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اكتسابٍ ونيةٍ وعلم، فهو من الإيمان. لهذا، ولكونه باعثاً على أفعال البر ومانعاً من المعاصي)[(١)].

وفي النص ـ مورد البحث ـ حضّ رسول الله ﷺ على فضيلة الحياء هذه بصياغات متعددة. ولنقف عند كلّ واحدة منها:

● **[الفقرة/ ٨٦]**:

> **١ ـ (يا أبا ذرّ! استحيي[(٢)] من الله، فإني والذي نفسي بيده! لأظل[(٣)]؛ حين أذهب إلى الغائط، متقنّعاً[(٤)] بثوبي؛ أستحي من الملكين اللذين معي)[(٥)].**

---

(١) المباركفوري، محمد (ت١٣٥٨ هـ)، تحفة الأحوذي، ج٦، ص١٢٦، نقلاً عن القاضي عياض وغيره.

(٢) في المكارم (استح).

(٣) في المكارم (لا أزال).

(٤) في المكارم (مقنعاً).

(٥) أورد هذه الفقرة، وتاليتها، الشيخ الحر العاملي في وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، كتاب الطهارة، أبواب أحكام الخلوة، الباب ٣ ـ استحباب تغطية الرأس والتقنع عند قضاء الحاجة، الحديث ٣.
وكذلك السيد البروجردي؛ في جامع أحاديث الشيعة، كتاب الطهارة، أبواب أحكام التخلي، الباب ٦، الحديث ٥.
وذُكِرت ضمن ما استُدل به على استحباب التقنع عند التخلي، كما في جواهر الكلام للشيخ النجفي، ج٥، ص٥٦؛ ومستمسك العروة الوثقى للسيد الحكيم، ج٢، ص٢٣٥؛ والتنقيح للسيد الخوئي، ج٣، ص٤٥٠، وغيرهم.

والنبيُّ ﷺ يؤكد ـ هنا ـ على أهمية التزام الحياء من الله تعالى خصوصاً، فالحياءُ من الإنسان إذا كان محموداً من الناس، فهو أحمدُ إذا كان في حق الله تعالى.

ولما كان قضاءُ الحاجة أمراً يتطلَّب التسترَ فيه، فإن النبيَّ ﷺ يجعل من التقنع[١] من آثار حيائه ﷺ من الملَكَين؛ الذين هما رسولا ربِّه عنده.

وإذا كان ﷺ يستحيي منهما، فالله أولى بأن يُستَحيى منه.

ومن هنا، فإن الحياءَ عاملُ حياةٍ حقيقيةٍ في عالم التكامل، لأنّ الحيِيَّ من الله تعالى يراقبه دائماً، وهو ـ لذلك ـ لا يقع في ما يستقبحه خالقُهُ، ولا يدع ما ألزمه به.

ومعه يتبين لنا السرُّ في الربط الوثيق بين الحياء والإيمان، وبين الحياء والدين؛ بحيث إذا افتقد الإنسانُ الحياءَ زال بسبب ذلك إيمانُهُ، بل دينُهُ.

● **[الفقرة/ ٨٧]:**

٢ ـ (يا أبا ذرّ! أتحب أن تدخل الجنة؟!
قلت: نعم؛ فداك أبي!
قال ﷺ: فاقصر من الأمل، واجعل الموتَ نصبَ عينيك.
واستحِ من الله حقَّ الحياء)[٢].

وهذه الفقرة من الوصية النبوية تتضمن الأمرَ بثلاث صفات:

---

(١) التقنع: تغطية الرأس؛ بطرف الرداء ونحوه؛ للاستتار من الغير، أو التوقي من الحر أو البرد، أو مطلق الضرر. ويستحب فعله عند قضاء الحاجة. انظر: جواهر الكلام، ج٢، ص٥٥، فصل استحباب تغطية الرأس حال التخلي.

(٢) أورد هذه الفقرة السيد البروجردي في جامع أحاديث الشيعة، ج١٤، ص٢٨٣، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٦٨ ـ أن الحياء جُماع كلِّ جميلٍ، وأنه حياءان: حياء عقلٍ، وحياء حمقٍ، الحديث ١٨.

الصفة الأولى: قصر الأمل

المقصود بقِصر الأمل عدم توقُّع العيش المديد، وفي مرحلة أعلى توقُّع حلول الموت في كلّ لحظة. ومن شأن مَن طال أمله أن يسوء عمله.

الصفة الثانية: حضور حقيقة الموت

نعني بحضور حقيقة الموت: أن لا يغيب عن البال أن عمر الإنسان ـ على هذه الأرض ـ محدودٌ، وأن الموتَ مدركُه عاجلاً أو آجلاً؛ فـ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران/ ١٨٥].

ومن شأن استحضار هذه الحقيقة الدفعُ بالإنسان إلى مواجهة الواقعِ بعيداً عن أوهام الواهمين، فالموتُ لا شك قادمٌ اليوم أو غداً، ولا مناصَ من وقوعه علينا، ولا مفرَّ بعده من مواجهة السؤال والحساب، فالثوابُ على الصالحات، أو العقابُ على السيئات.

الصفة الثالثة: الحياءُ من الله حقَّ الحياءِ

إن من الحياء ما يكون شكلياً، لا يترتب عليه آثاره الحقيقية.

فلما سمع أبوذر (رضوان الله عليه) ما سمع، بادر بقوله:

(قلت: **يا رسولَ الله كلنا نستحيي من اللهِ!**).

فأجابه النبيُّ المربي ﷺ بالتفرقة بين الجوهر والمظهر؛ فقال:

(**ليس ذلك الحياء**).

وكأن الرسول ﷺ أراد بيان أن للحياء مراتبَ، وما ذكره أبو ذر رحمه الله؛ من أن الجميع يستحون من الله تعالى؛ إن صح، فهو مرتبةٌ من مراتب الحياء، وليس جميعَ مراتبِهِ.

ثم أضاف أن مقصودَه من الحياء، والمرتبةَ التي كان هو بصدد الحديث عنها؛ فقال:

(ولكن الحياء من الله: أن لا تنسى المقابر والبِلى، وتحفظ الجوفَ وما وعى، والرأسَ وما حوى) [الفقرة/ ٨٧][١].

معالم الحياء:

فالحياءُ ـ إذن ـ له واقعٌ يمثله، ومعالم تعبر عنه، وهذه وذاك نستعرضها في المعالم التالية:

المعلم الأول: عدم نسيان المقابر والبالي فيها

(المقابر) جمع مقبرة، والمراد بها: المساحات الجغرافية التي تودع فيها أجساد الموتى.

وأما (البِلى) فالظاهر أن المقصود بها رفات الموتى.

وعدم نسيان المقابر والبِلى يُعد أمارةً وعلامةً على الوعي بواقع الموت وما بعده. الأمر الذي يتطلب سعياً حثيثاً بالعمل الصالح في كلّ الاتجاهات، وترك السيئات بمختلف صنوفها؛ فإن الموت وما بعده لا يسمحان بطول الأمل.

وقد أشير إلى هذا المعلم بقول النبيِّ ﷺ:

(أن لا تنسى المقابر والبِلى).

المعلم الثاني: التحرز في المأكل والمشرب

التحرز في المأكل والمشرب يراد به: إعمال الدقة والاحتياط ـ قدر المستطاع، ووفقاً للشرع ـ في الاقتصار على تناول ما هو مباحٌ، ممَّا لم يخالطه حرامٌ أو شُبهة؛ من حيث: تحصيله، أو تحضيره وإعداده، وأخيراً تناوله.

وذلك أن المسلم ـ والمؤمن خصوصاً ـ يحرص على التزامِ جميعِ أوامرِ الشريعة؛ التي منها: أن لا يؤكل كلُّ شيء، ولا يُشرب كلّ شيء، وإنما يُقتصر في كلّ ذلك على ما أباحه الله، دون ما حرّمه.

---

(١) أورد هذه الفقرة السيد البروجردي في جامع أحاديث الشيعة، ج١٤، ص٢٨٣، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٦٨ ـ أن الحياء جُماع كلِّ جميلٍ، وأنه حياءان: حياء عقلٍ، وحياء حمقٍ، الحديث ١٨.

قال تعالى ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف/ ١٥٧]، وقال تعالى ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة/ ٤]، وقد ورد في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام؛ كما رواه زرارة، تفسير الطيبات بـ**(الرزق الحلال)**[1].

وبالطبع، فإن هذا المبدأ ليس مقصوراً على الأكل والشرب، بل إنه يقتضي التحرزَ عن السعيِ في الكسب المحرم أيضاً.

وقد أشير إلى هذا المعلم بقول النبيِّ صلى الله عليه وآله:

(وتحفظ الجوفَ وما وعى).

والجوف هو باطن الإنسان، والبطن منه خاصة؛ تنبيهاً إلى المأكل والمشرب؛ حيث يكون البطن وعاءً لهما بعد الأكل والشرب.

المعلم الثالث: التحرز في المعارف والعلوم

المفاهيم والمعارف والعلوم هي التي تشكل وعيَ الإنسان؛ وينعكس ذلك في سلوكه؛ قولاً وفعلاً.

وبطبيعة الحال، فإن ذلك يعني:

أ ـ أن الإنسان لا يتقبل أيَّ معلومةٍ، ولا يتسيَّب في الاتصال بكلِّ صاحبِ زعمٍ؛ إلا في حدود ما ينسجم وتلك المفاهيم والمعارف والعلوم.

ب ـ أن ذلك يعني ـ أيضاً ـ أن يتحرَّز عن النظرِ إلى كلِّ شيءٍ، أو الاستماعِ إلى أيِّ شيءٍ؛ لأنّ ذلك ممَّا حواه الرأس.

وقد أشير إلى هذا المعلم بقول النبي صلى الله عليه وآله:

(والرأس وما حوى).

حيث يشتمل الرأس على وسائل التواصل المعرفي؛ من: الأذنين، والعينين،

---

(١) تفسير فرات، وعنه: بحار الأنوار، ج١١، ص٥٨، كتاب النبوة، الباب ١ ـ معنى النبوة، وعلة بعثة الأنبياء...، الحديث ٦٢.

والأنف، واللسان. والتي بها نحصل على المعلومات التي تحوَّل إلى جهاز التفكير الذي قد يقال إنه المخ، أو أن للمخ دوراً أساسياً فيه.

كما أن هذا الرأس يحوي المعلومات والمعارف؛ التي قلنا إنها تشكِّل وعيَ الإنسان؛ فتجعله يختار الإقدام حيناً والإحجام حيناً، ونحو ذلك من مواقف في هذا الاتجاه أو ذاك.

فهذه هي معالم الحياء الصادق والعميق من الله؛ والتي ينبغي للإنسان أن يجعلها علامةً على تحلِّيه بهذه الفضيلة؛ حتى لا يقع في وهمه أنه متحلٍّ بها دون أن يكون كذلك في الواقع.

وبعد ذلك يختم النبيُّ ﷺ هذا المقطعَ بالتأكيدِ على: أن الإنسانَ لا ينبغي له أن يغفل عن أن الدنيا ضُرةُ الآخرة، وأن كرامةَ هذه قد تستلزم الحرمانَ من تلك، مؤكِّداً على أهمِّ ما ينبغي للإنسان أن يجعله هدفاً له، وهو (ولاية الله)؛ بكل ما يعنيه ذلك من قربٍ متبادل بين العبد وربه تعالى، ومن نصرته عز اسمه لوليه ودفاعه عنه، وحظوته؛ أي العبد، برضا الله ورضوانه.

وكل ذلك جاء في قول النبي ﷺ:

● [الفقرتان/ ٨٨ ـ ٨٩]:

(ومن أراد كرامةَ الآخرة فليدَع زينةَ الدنيا.
فإذا كنتَ كذلك أصبتَ ولايةَ الله)[(١)].

وفي هذا الكلام شرطٌ، ونتيجة.

أما الشرط فهو: التخلي عن زينة الدنيا، أي كمالياتها وزوائدها؛ ممَّا لا يكون ضرورياً منها، وفيها، ولها.

---

(١) أورد هذه الفقرة السيد البروجردي في جامع أحاديث الشيعة، ج١٤، ص٢٨٣، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٦٨ ـ أن الحياء جُماع كلِّ جميلٍ، وأنه حياءان: حياء عقلٍ، وحياء حمقٍ، الحديث ١٨.

وأما النتيجة فهي: كرامة الآخرة؛ التي هي ولاية الله تعالى؛ حيث يكون العبد ولياً لله تعالى، والله تعالى ولياً للعبد.

وهذا ينسجم ـ تماماً ـ مع ما قامت على أساسه الرؤيةُ الإسلاميةُ الأصيلةُ؛ التي عبر عنها الإمام جعفر الصادق عليه السلام، في ما روي عنه من الخبر، أنه قال ـ في حديثٍ ـ: **أبى الله أن يجري الأشياءَ إلا بأسبابٍ، فجعل لكلِّ شيءٍ سبباً...**)[1]. في تأكيدٍ جليٍّ على بناء الكون؛ في بعديه المادي والمعنوي، على (قانون السببية)، كما قال الله تعالى ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم/ ٣٩].

ولعل المقصود بإصابة ولاية الله تعالى أن التخلي عن زينة الدنيا؛ وهو مقام الزهد الحقيقي، لا يوفق له إلا مَن بلغ مقام ولاية الله تعالى؛ وهذا المقام هو ما يتشكل من شرط الزهد وينتج كرامة الآخرة. وفقنا الله والقراء إلى ذلك، وجعلنا من أهله.

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أُصول الكافي، ج١، ص١٨٣، كتاب الحجة، باب معرفة الإمام والرد إليه، الحديث ٧.



الفصل الثالث والأربعون

الدعاءُ شرطٌ مشروطٌ

لـ(الدعاء) في الرؤية الإسلامية حضورٌ واسعٌ في الوجود الإنساني. فقد قال تعالى ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان/ ٧٧].

والدعاء ـ في حقيقته وجوهره ـ ليس سوى إقرارٍ وجدانيٍّ وعمليٍّ من العبد/ الداعي لربه: أن الآمرَ والناهيَ ـ على مستوى التشريع ـ، وأن المعطيَ والمانعَ ـ؛ على مستوى التكوين ـ ليس إلا الله تعالى.

ومن ثَمَّ، كان لـ(الدعاء) كلّ هذه الأهمية؛ حتى جاء الخبر عن النبي ﷺ حيث يقول: **الدعاءُ مخُّ العبادةِ**[1]. وهذا التعبير يبين ما لـ(الدعاء) من سعة في المعنى، وشموليةٍ في الوظيفة والدور. حتى ورد في الخبر عن أمير المؤمنين عليه السلام

(١) عدة الداعي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ٧، ص٢٧، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، الباب ٢ ـ استحباب الاكثار من الدعاء، الحديث ٩. ورواه الترمذي في سننه، باب فضل الدعاء. وقال ابن الأثير؛ تعليقاً على الحديث:
إنما صار مخاً لها لأنه تبرؤٌ من الحول والقوة، واعترافٌ بأن الأشياءَ كلَّها له، وتسليمٌ إليه؛ إن كان رزقاً، أو عافيةً، أو نوالاً، أو دفعَ عقابٍ، فمنه. إذا سأله فقد تبرأ من الاقتدار والتملك والحول والقوة. والدعاءُ سؤالُ حاجةٍ وافتقارٍ فإنما يظهر على القلب، ثم على اللسان. فما على القلب يسمى عبودة، وما على اللسان عبادة) نوادر الأصول في أحاديث الرسول؛ ج٢، ص١١٣، الأصل السابع والعشرون بعد المائة ـ في بيان أن الدعاء لم صار مخ العبادة.

أنه قال: **أحبُّ الأعمالِ إلى الله عزّ وجلّ في الأرضِ الدعاءُ**)[1]. وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: **ما من شيءٍ أحبُّ إلى الله، من أن يُسأل**)[2].

كما أن الدعاءَ هو ـ في مضمونه وحقيقته ـ مصداقٌ بارزٌ لـ(العمل الصالح). لذلك، فإنه يدخل ضمن الشروط الرئيسة للفلاح ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر].

للدعاء شكلان:

ثم إن الدعاء ـ في الرؤية الإسلامية أيضاً ـ يأخذ شكلين:

١ ـ الدعاء اللفظي

نعني بـ(الدعاء اللفظي): ما نحدد فيه مطالبَ معينةً ـ إثباتاً، أو نفياً ـ كلٌّ بحسبه، ضروريةً كانت تلك المطالبُ أو كماليةً. ونصوغها في قوالبَ لفظيةٍ؛ ننطق بها بين يدي الله تعالى؛ رغبةً في تحصيل تلك المطالب.

٢ ـ الدعاء الوجودي

نعني بـ(الدعاء الوجودي): المطالبَ التكوينيةَ التي نحتاج تحصيلَها؛ من أجل

---

(١) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ٧، ص٣١، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، الباب ٣ ـ استحباب اختيار الدعاء على غيره من العبادات المستحبة، الحديث ٤.
وقال ابن الأثير؛ تعليقاً على الحديث:
إنما صار مخاً لها لأنه تبرؤٌ من الحول والقوة، واعترافٌ بأن الأشياءَ كلَّها له، وتسليمٌ إليه؛ إن كان رزقاً، أو عافيةً، أو نوالاً، أو دفعَ عقابٍ، فمنه. إذا سأله فقد تبرأ من الاقتدار والتملك والحول والقوة. والدعاءُ سؤالُ حاجةٍ وافتقارٍ فإنما يظهر على القلب، ثم على اللسان. فما على القلب يسمى عبودة، وما على اللسان عبادة) نوادر الأصول في أحاديث الرسول؛ ج٢، ص١١٣، الأصل السابع والعشرون بعد المائة ـ في بيان أن الدعاء لم صار مخ العبادة.

(٢) المحاسن، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٥، ص١٦٣، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، الباب ٢ ـ استحباب الاكثار من الدعاء، الحديث ٨.

تأمينِ ما لابد منه لنا، أو نفيه إن كان ضاراً. ويشمل ذلك مكوناتِ أبدانِنا وعقولِنا ومشاعرِنا... ممَّا لا غنى لنا عنه.

وفي هذا الصنف من الدعاء يقول تعالى ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم/ ٣٤].

وهذا الشكلُ من الدعاءِ وذاك يعدان شرطَيْن أساسيين من شروط الإيمان والإسلام، فمَن لا يدعو الله تعالى يُعد متمرداً تارةً، ومتكبراً أخرى، وجاهلاً ثالثةً.

لكن يمكننا القول إن هذا الشرط؛ الذي هو الدعاء، هو ـ بدوره ـ مشروطٌ بـ(العمل).

إنما يتقبل الله من المتقين:

للقرآن منطقُهُ؛ ولا مناصَ من الالتزامِ به؛ إذا ما أردنا أن نكون سعداءَ بعملٍ مقبولٍ؛ ينتهي بصاحبِهِ إلى حيث يرغب ويتمنى عند مليكٍ مقتدِرٍ.

ويمكن تلخيصُ هذا المنطقِ في (التزام طريق التقوى)؛ وبعبارة أخرى (الصراط المستقيم).

وهذا الصراط هو ـ وحده ـ الطريق الذي يؤدي بسالكِهِ إلى أن يحرص على: الفعلِ تارةً، وعلى الترك أخرى؛ حسب ما تقتضيه التقوى. وأي عملٍ لا يكون قائماً على أساس (التقوى) فهو هباءٌ منثورٌ؛ ليس لصاحبه إلا الحسرةُ والأسى.

وفي تبيان هذه المطالب يوصي رسول الله ﷺ أبا ذر (رضوان الله عليه) في فقرتين:

الفقرة الأولى: قوله ﷺ:

● [الفقرة/ ٩٠]:

(يا أبا ذرّ! يكفي من الدعاء؛ مع البِرّ، ما يكفي الطعامَ من الملح)(١).

فالدعاء لا غنى عنه؛ إذ إن لعطاء الله تعالى أسباباً يأتي الدعاء في مقدمتها. لذلك، قال (يكفي)؛ التي تعني الضرورةَ واللزومَ من جهةٍ، وعدمَ الحاجة إلى الإكثار منه من جهةٍ أخرى.

لكن النبيَّ ﷺ يوضح ـ في الوقت نفسه ـ أن الدعاءَ؛ مع أهميتِهِ الفائقة، يجب أن لا يُفهم خطأً. ويحصل ذلك إذا ظُنَّ أننا ما دمنا ـ نحن الفقراءَ المحتاجين ـ بصدد الطلب؛ الذي هو منتهى السؤال بخضوعٍ وذلةٍ مصحوباً باعتقاد (الربوبية) في المسؤول ـ الذي هو الله تعالى؛ وهو الجواد القادر ـ فيجب أن نكثر منه أولاً، ونكتفي به ثانياً.

يبيِّن لنا النبي ﷺ أن القليلَ من الدعاء كافٍ؛ إذا توفَّر شرطه. فإن الدعاء ـ في بعض مستوياته ـ هو تعبيرٌ رمزيٌّ عن الخضوع لله تعالى والإقرار بربوبيته وغناه.

وأما الشرط وطبيعته فيبيِّنه قولُ النبيِّ ﷺ (مع البِرّ). فإذا كان الداعي من أهل البِر؛ أي كان من الصالحين في ذواتهم وأفعالهم، فإن عطاءَ الله تعالى لهم حاصلٌ بغيرِ شكٍّ. وذلك، أن العالَم محكومٌ بسُنَن تفرض أن ينالهم جودُ الله ويشملهم عطاؤُهُ. فيبقى عليهم التعبيرُ الرمزيُّ، والقليلُ من هذا يكفي. ليتحول الدعاءُ اللفظيُّ ـ حينئذٍ ـ إلى تكميلِ ما هو تامٌّ في نفسِهِ، كما يكمل الطعامُ إذا أضيف إليه الملحُ.

لذلك، فإن الدعاء ـ بشكله اللفظيِّ ـ ليس واجباً، وإنما هو مستحبٌّ(٢).

---

(١) أورد هذه الفقرة الشيخ الحر العاملي في وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٧، ص٨٤، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، الباب ٣٢ ـ استحباب ملازمة الداعي للصبر، وطلب الحلال وطيب المكسب، الحديث ٣.

(٢) إلا ما كان من قبيل (اللهم صل على محمد وآل محمد) في الصلاة؛ التي هي واجبة لا تصح الصلاة=

البر الشامل:

مما نلحظه ـ هنا ـ أن النبي ﷺ لم يقيِّد فعلَ البِر ضمن مجالٍ من المجالات، بل أطلقه ليستوعب كلَّ أبوابِهِ؛ الخاصةِ على مستوى النفس، والعامة على مستوى الآخر.

بل إن شمولية البِر تستوعب فعلَ البِر في حق الناس أجمعين؛ حتى المخالف منهم، كما يُستفاد ذلك ـ بوضوحٍ تامٍّ ـ من نصوص قرآنية ومعصومية أخرى من قبيل قوله تعالى ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة/ ٨].

وفي الخبر عن مرازم، عن مصادف، قال: **كنت مع أبي عبدالله عليه السلام بين مكة والمدينة، فمررنا على رجلٍ في أصلِ شجرةٍ، وقد ألقى بنفسه، فقال: مِل بنا إلى هذا الرجل؛ فإني أخاف أن يكون قد أصابه عطشٌ. فمِلنا إليه فإذا رجلٌ من الفراشين[(١)]، طويل الشعر، فسأله أعطشانٌ أنت؟**

فقال: نعم.

=بغيرها. وانظر تفصيل ذلك في كتب الفقه المطولة والمختصرة.

وكنموذجٍ على ذلك جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية، ج٢٧، ص٢٣٥، مادة (الصلاة على النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم)، ما لفظه:

ذهب جمهور الفقهاء إلى وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم في مواطن، واستحبابها في مواطن. واختلفوا في مواطن الوجوب) ثم ساقوا لذلك تفصيلاً؛ لا تخلو مراجعته من فائدة.

وجاء في كتاب الشرح الكبير على متن المقنع، ج١، ص٥٧٩، في الفقه الحنبلي، في بيان حكم الصلاة على النبي في الصلاة، ما لفظه:

وفي وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم روايتان (أصحهما) وجوبها؛ وهو قول الشافعي وإسحاق). بعد أن ذكر صيغة، بقوله: ثم يقول اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وإن شاء قال: كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وكما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم).

(١) قال محققو الوسائل: في المصدر (الفراسين)، وقد كتب في المخطوط على نقاط الشين علامة نسخة.
وأقول: علّق العلامة الشعراني عليها بقوله: كأنهم طائفة من النصارى؛ كان من شعارهم تطويل الشعر؛ تركاً لزينة الحياة الدنيا على مقتضى رهبانيتهم، والله العالم) الوافي ج١٠، ص٥١٠.

فقال لي: انزل ـ يا مصادف ـ فاسقِه.

فنزلتُ، وسقيته، ثم ركبت وسرنا[1]، فقلت: هذا نصراني! أفتصدق على نصراني؟!

فقال: نعم، إذا كانوا في مثل هذا[2] الحال)[3].

الفقرة الثانية: قول النبيِّ ﷺ:

● [الفقرة/ ٩١]:

(يا أبا ذرّ! مثلُ الذي يدعو بغير عملٍ كمثل الذي يرمي بغيرِ وَتَر)[4].

فالشرط اللازم ـ هنا ـ هو (العمل)؛ الذي يجب أن يكون ـ بطبيعة الحال ـ صالحاً.

وفي تقرير حقيقة هذا الاشتراط تصحيحٌ للفهم عن الاعوجاج في ما يتعلق بالدعاء؛ حيث يظن كثيرٌ من الناس أن اللفظي منه كافٍ؛ متذرِّعين بقوله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر/ ٦٠].

وقد غفل هؤلاء عن أن أخطر ما يمكن أن يصاب به الدين والفهم الديني هو آفة (الاجتزاء)، بمعنى الوقوف عند بعض الآيات دون ملاحظة غيرها، ممَّا يمكن أن يكون شرطاً وقيداً، أو شطراً وجزءاً من المفهوم؛ لا يُتوقع حصول نتائجه بغير توفره أو توفيره.

وقد عِيب على بني إسرائيل آفة الاجتزاء والانتقائية هذه، فقال تعالى ﴿ثُمَّ أَنتُمْ

---

(١) زيادة من بعض النسخ (هامش المخطوط).

(٢) في نسخة: هذه (هامش المخطوط).

(٣) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٩، ص٤٠٩، كتاب الزكاة، أبواب الصدقة، الباب ١٩ ـ استحباب الصدقة؛ ولو على غير المؤمن؛ حتى دواب البر والبحر، الحديث ٣.

(٤) أورد هذه الفقرة الشيخ الحر العاملي في وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٧، ص٨٤، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، الباب ٣٢ ـ استحباب ملازمة الداعي للصبر، وطلب الحلال وطيب المكسب، الحديث ٣.

هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة/ ٨٥].

فليس من الصواب ـ إذن ـ أن نوقع أنفسَنا في فهمٍ خاطئٍ لطبيعةِ العطاء الإلهي. فهو تعالى ـ وإن كان جواداً، ونحن محتاجون، وتضرعنا إليه بالدعاء ـ قد خلق هذا الكونَ وجعله يسير بسننٍ صارمةٍ؛ لا تختلف ولا تتخلف ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب/ ٦٢].

ونلحظ في تعبير النبي ﷺ ـ في الفقرة مورد البحث ـ أنه شبَّه الداعيَ بغير عملٍ بالرامي بغيرِ وترٍ. والوترُ هو واحد من أربعة أجزاء في عملية الرمي، وهي:

١ ـ القوس؛ وهو: العصا المقوسة، أو ما يكون بمثابتها.

٢ ـ الوتر؛ وهو ما يُربط بين طرفي القوس، ويُشد إلى الخلف في عملية الرمي.

٣ ـ السهم؛ وهو: ما يرمى لإصابة الهدف.

٤ ـ شد الوتر والسهم إلى الخلف لرميه.

وفقدانُ واحدٍ من هذه الأجزاء يحبط عمليةَ الرمي برمتها.

ونيل المبتغَى من الله تعالى لا يكتفى فيه بالدعاءِ اللفظيِّ، بل ولا الدعاء الوجودي؛ وهو أن نكون مخلوقين ـ حقيقةً ـ لله تعالى لا نستغني عن فيضه لحظةً، ولا الدعاء الوجداني؛ وهو الانقطاع الذهني والقلبي إلى الله واعتقاد أن الخير منه، بل لا بد من جزئه أو شرطه؛ وهو (العمل).

موانع فاعلية الدعاء:

ما أروع ما روي عن ربيب خاتم النبيين ﷺ ووصيه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه خطب ـ في يوم جمعة ـ خطبةً بليغةً، قال في آخرها: **أيها الناس!**

سبع مصائبَ عظام؛ نعوذ بالله منها: عالم زلَّ، وعابد ملَّ، ومؤمن خَلّ، ومؤتمن غَلَّ، وغني أقلَّ، وعزيز ذلَّ، وفقير اعتل.

فقام إليه رجل فقال: صدقتَ ـ يا أمير المؤمنين ـ أنت القبلة إذا ما ضللنا، والنور إذا ما أظلمنا، ولكن نسألك عن قول الله تعالى ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر/ ٦٠]، فما بالنا ندعو فلا يُجاب؟

قال: إن قلوبكم خانت بثماني خصال:

أُولاها: أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقَّه كما أوجب عليكم، فما أغنت عنكم معرفتُكم شيئاً.

والثانية: أنكم آمنتم برسوله، ثم خالفتم سنته، وأمتُّم شريعته، فأين ثمرة إيمانكم؟!

والثالثة: أنكم قرأتم كتابه المنزل عليكم، فلم تعملوا به، وقلتم سمعنا وأطعنا، ثم خالفتم.

والرابعة: أنكم قلتم إنكم تخافون من النار، وأنتم في كلّ وقت تقدمون إليها بمعاصيكم فأين خوفكم؟!

والخامسة: أنكم قلتم إنكم ترغبون في الجنة، وأنتم في كلّ وقت تفعلون ما يباعدكم منها، فأين رغبتكم فيها؟!

والسادسة: أنكم أكلتم نعمةَ المولى ولم تشكروا عليها.

والسابعة: أن الله أمركم بعداوة الشيطان، وقال ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر/ ٦]، فعاديتموه بلا قولٍ، وواليتموه بلا مخالفةٍ[1].

والثامنة: أنكم جعلتم عيوبَ الناس نصبَ عيونِكم، وعيوبِكم وراء ظهوركم، تلومون مَن أنتم أحقُّ باللوم منه، فأيُّ دعاءٍ يُستجاب لكم مع هذا؟! وقد سددتم

(١) قال محقق الكتاب: كذا في نسخة الأصل بخطه (قدس سره) مكتوباً على السطر كذا، والظاهر: «فعاديتموه بالقول: وواليتموه بالمخالفة».

أبوابه وطرقه؟ فاتقوا الله وأصلِحوا أعمالَكم، وأخلِصوا سرائرَكم، وائمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر؛ فيستجيب الله لكم دعاءكم)(1).

***

ونخلص إلى أن للدعاء المستجاب شرطاً؛ هو (البِرّ = العمل)، وأن هذا العمل له شكلان:

١ ـ التزام أوامر الله تعالى.

٢ ـ اجتناب نواهيه.

وكلما كان الإنسانُ أعملَ بهذا الشرط كلّما كان دعاؤه أقربَ للاستجابة؛ لأنه سيكون (أتقى)، وبالتالي سيكون (أكرم) عند الله. ف﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات/ ١٣].

وعندما تتحقق التقوى فقد ضمنّا القبولَ عند الله تعالى؛ لقوله عز اسمه؛ حاكياً قول ابن آدم المرضي ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة/ ٢٧].

---

(1) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣٧٦ ـ ٣٧٧، الباب ٢٤ ـ علة الإبطاء في الإجابة، والنهي عن الفتور فيه، والأمر بالتثبت والإلحاح فيه، الحديث ١٧.



الفصل الرابع والأربعون

الصلاح بذرة خير للفرد والمحيط

● **[الفقرة/ ٩٢]:**

(يا أبا ذرّ! إن الله يصلِح؛ بصلاح العبد، ولدَهُ وولدَ ولدِهِ، ويحفظه في دويرتِهِ والدُّورِ حوله؛ ما دام فيهم)[١].

في العملية التربوية عموماً؛ وفي الوصول إلى الصراط المستقيم خصوصاً، عناصرُ كثيرةٌ؛ يشكِّل بعضُها ما يمكن عدُّه محفِّزاً من قِبَل المربي للمتربي؛ لئلا يصيبه الوهن، ويقع في الكسل، وينتهي إلى الفشل، ولا يحقق الغاياتِ التربويةَ.

ومن تلك المحفِّزات تشجيعُهُ على التزامه بالمضمون التربوي؛ من خلال التذكير بمحاسن وفوائد عمله بها على نفسه أو من يعنيه أمره.

وفي هذه الفقرة من الوصية أورد النبيُّ ﷺ محفِّزاً لا يمكن للحصيف

(١) أورد هذه الفقرة الشيخ الحر العاملي في وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٧، ص٨٤، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، الباب ٣٢ ـ استحباب ملازمة الداعي للصبر، وطلب الحلال وطيب المكسب، الحديث ٣.

وكذلك أوردها السيد البروجردي في جامع أحاديث الشيعة، ج١٥، ص٢٩٥، كتاب الصلاة، أبواب الدعاء، الباب ٢٤ ـ مَن سره أن تستجاب دعوته فليُطِب مكسبه، وليصل رحمه، ويقدم صدقته، وليطع ربه، ويجتنب عصيانه، وليصلح عمله، الحديث ٩.

والمخلص إلا أن يوليه عنايته. وهذا المحفِّز هو (الصلاح)؛ الشخصي والعام، بالخصوص في أوساط مَن يحبهم من ذريته وأصدقائه.

فالنبيُّ ﷺ يؤكد أن للصالح مكافأة من الله على صلاحه، وذكرها في بندين:

الأول: **(إنَّ الله يُصلِح بصلاحِ العبدِ ولدَه وولدَ ولدِهِ)**

الثاني: أن الله تعالى**(يحفظ الصالح)** في بيتين اثنين:

أ ـ **(دُويرَته)** ـ تصغير دار ـ؛ وهي: محلته ومحيطه الخاص.ب ـ **(والدُّورِ حوله)**، وهي محيطه الأوسع.

والسؤال هو:

ما هي طبيعة الارتباط بين صلاح الشخص وصلاح أقاربه ومن حوله؟

فهل هو أمرٌ غيبيٌّ صِرفٌ لا يُتاح لنا الاطلاعُ عليه؟ أم أنه واقعٌ وحقيقةٌ محكومةٌ بسننٍ وقوانين؟

الجواب: إن استيعابَنا لمعنى الصلاحِ في الإنسان الصالح يسهِّل علينا إدراكَ طبيعةِ هذا الارتباطِ.

معنى الصلاح، والطريق إليه:

الصلاحُ هو النقيضُ للفساد، والأشياءُ تُعرَف بأضدادها، وفسادُ كلِّ شيءٍ بحسبه. ففسادُ الفاكهة هو عدمُ صلاحيتها للأكل، وفسادُ الورق هو عدمُ صلاحيتِهِ للكتابة عليه ونحوه، وفسادُ الموظف هو عدمُ صلاحيتِهِ للاعتماد عليه في ما هو موكول إليه، وهكذا.

ولكي يتأتى لنا فهمُ الصلاح في الإنسان يجب علينا أن نتعرَّف على الدور المرسوم له، ونتبين الوجهةَ التي هو بصدد التحرك نحوها، وتوفرَهُ على ما يجب أن يتوفَّر عليه من أجل تحقيقِ غايتِهِ ووصولِهِ إلى مبتغاه، ونتلمس نأيَهِ بنفسِهِ عن كلِّ ما من شأنِهِ إعاقتُهُ عن ذلك.

الإنسان خليفة الله:

خلق الله تعالى الإنسانَ لغايةٍ محدَّدةٍ وواضحةٍ؛ وهي (الخلافة)، وقد بيَّن ذلك في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة / ٣٠].

والاستخلافِ ـ وهو: الثبات على مبدأِ العبوديةِ لله تعالى ـ يُعد مهمةً عظيمةَ الشأنَ، ومحفوفةً بالمخاطر. ولا يبدو ـ من ظواهرِ الأمورِ ـ أن الإنسانَ ـ بصورتِهِ التي بدت للملائكة على الأقل ـ يملك القدرةَ على ذلك.

ولعل ذلك هو الذي دفع بالملائكة إلى المبادرة إلى التساؤل عن الوجه في هذا الاستخلاف؛ قائلين ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ .

ومن أجل بَعث الاطمئنان في أنفسهم من قِبل الحقِّ عز اسمُهُ؛ بأن لدى هذا الإنسان قدراتٍ هائلةً على تحقيق ما تعلقت مشيئتُنا بإيجاده من خلاله، قال تعالى ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة / ٣٠].

وتتحقق هذه الخلافةُ بتحقيق العبودية؛ التي هي الهدف السامي، أو قُل: الطريق إلى تحقيق الخلافة. قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦].

وهذه العبودية إنَّما يتوفر عليها الإنسانُ عبر السير على الصراط المستقيم وفيه؛ بدايةً وانتهاءً؛ وهو الأمر الذي لا مناص منه. قال تعالى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام/ ١٥٦].

في ظل هذه الشروط يمكننا القول إن الصلاح في الإنسان هو: أسمى مراحل تكامل الإنسان)[1].

---

(١) الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم (معاصر)، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٢، ص٣٧٢.

وهذا الصلاح هو ما جهد الأنبياءُ عليهم السلام ـ جميعاً ـ إلى بلوغه في أنفسهم وذويهم ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه/ ١٣٢].

ولنقرأ النصوص القرآنية التالية؛ من أجل التعرف على أهمية الصلاح وشروطه:

١ ـ إبراهيم عليه السلام؛ وهو شيخ الأنبياء، نجده يدعو الله تعالى أن يلحقه بركب الصالحين، فيقول ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء/ ٨٣].

٢ ـ كافأ الله تعالى إبراهيم عليه السلام على صلاحه بأن جعل النبوةَ في ذريته، ووهبه أبناء صالحين، فقال تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت/ ٢٧].

٣ ـ كان إبراهيم عليه السلام لحوحاً على الله تعالى بأن لا ينقطع الصلاح في سلالته، وكان من دعائه قوله ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات/ ١٠٠]. وقد استجاب الله تعالى دعاءَه هذا، وجاء في ذلك بشارةٌ، فقال تعالى ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات/ ١١٢].

٤ ـ نجد نبي الله يوسف عليه السلام يلهج بشكر الله تعالى على ما وهبه من نعم عظمى، لكنه يضع نصب عينيه ما يتوِّج تلك النعم؛ وهو الصلاح، فيقول ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف/ ١٠١].

٥ ـ لو تساءلنا عن الطريق إلى الصلاح لأجابنا الله تعالى بقوله ـ الذي يهدي للتي هي أقوم ـ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت/ ٩].

وهذا العمل الصالح، وذاك الإيمان، إنَّما نحصل عليهما من خلال السير على خطى الأنبياء عليهم السلام. قال تعالى ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة/ ١٣٠].

٦ ـ يجب أن نلاحظ ـ هنا ـ أن للصلاح فرصةً واحدةً لا تتكرر؛ وهذه الفرصة هي (الدنيا)، فمن فرَّط فيها فاته حظُّه. قال تعالى ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ

قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون/ ١٠].

٧ ـ بعد كلّ هذا يجب أن نلفت النظر إلى أن كلّ ما تقدم يحتاج إلى توفيق من الله، فـ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل/ ٥٣].

وإذا كان العبد صالحاً؛ بمعنى أنه سار على درب الأنبياء عليهم السلام، وسار بسيرتهم؛ التي هي بطبيعتها إصلاحية شاملة للنفس وللآخرين، فلا يمكن إلا أن يكون مصباحَ هدايةٍ لنفسه ولمن يحيط به، ولا يمكن أن يكون جزاؤه من الله تعالى إلا عظيماً.

وهل ثمة جزاءٌ أفضل من أن يصلح الله تعالى ذرية العبد الصالح، ويصلح محيطَه؟!

ولعل ما يرشدنا إلى أن المسألة ليست غيبيةً بحتةً هو الشرط الذي وضعه رسول الله ﷺ في ثنايا كلامه؛ وهو قوله **(ما دام فيهم)**؛ إن كان قيداً للجملة السابقة كلها.

وذلك، لأنّ هذا الصالح سيتحمل مسؤوليته الصالحة والإصلاحية؛ بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتربية، والتعليم. قال تعالى ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة/ ٧١].

فإذا كان هذا في الدائرة العامة، فهو في الدائرة الخاصة من باب أولى. ويشهد لذلك قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم/ ٦].



الفصل الخامس والأربعون

الإنسان بين الربانيّة والأنانيّة

تتأرجح المسيرة الإنسانية؛ أفراداً وجماعاتٍ، بين سِمَتين؛ تحكي كلٌّ واحدةٍ منهما نموذجاً:

الأول: نموذجٌ سامٍ؛ وهو (الرباني).

الثاني: وهو دون سابقه؛ وهو (الأناني).

وما جاء جميع الأنبياء عليهم السلام من أجله إنَّما هو صنع الإنسان الرباني؛ عبر اعتماد خطةٍ ترتكز على أساسين:

الأساس الأول: العلم والمعرفة بالذات، وبالله تعالى؛ الذي يُنتج بدوره (الإيمان).

الأساس الثاني: العمل الصالح؛ على المستويين الفردي والعام.

وبهذين الأساسين نرسي قواعد (الربانية)؛ التي عليها قامت أركان الخير كله، ونقوِّض أسس (الأنانية)؛ التي بُني عليها جميعُ الشرور في العالم.

وانطلاقاً من هذه الرؤية، فإننا بين يدي بنودٍ من هذه الوصية الإلهية؛ التي وضع النبيُّ ﷺ فيها النقاطَ على الحروف؛ في ما يتعلق بثلاثة أدواء وثلاثة أدوية.

فقال نبينا الأسوة الحسنة ﷺ:

● [الفقرة/ ٩٣]:

(يا أبا ذرّ! إن ربَّك عزّ وجلّ يباهي الملائكةَ بثلاثةِ نفرٍ:
رجلٍ في أرض قفر؛ فيؤذّن ثم يقيم ثم يصلي، فيقول ربك للملائكة:
انظروا إلى عبدي؛ يصلي ولا يراه أحدٌ غيري! فينزل سبعون ألف ملك
يصلون وراءه، ويستغفرون له إلى الغد من ذلك اليوم.
ورجلٍ قام من الليل فصلّى وحده فسجد، ونام وهو ساجدُ؛ فيقول الله
تعالى: انظروا إلى عبدي؛ روحه عندي، وجسدُهُ ساجدٌ.
ورجلٍ في زحف فرَّ أصحابُهُ، وثبت هو يقاتل؛ حتى يُقتَل).

***

ولبيان ذلك نقول:

لـ(الدين) ـ في الرؤية الإسلامية الأصيلة ـ مضامينُ تغيب عن بالِ كثيرٍ من المتدينين؛ وهم الذين يقفون عند حدود مظاهر الدين وطقوسه.

وآفة تسطيح تعاليم الدين ومعارفه ـ هذه ـ لم تكن حكراً على أهلِ دينٍ معينٍ، بل نجدها مستشريةً لدى المتدينين بمختلف الأديان.

وفي ذلك يقول تعالى ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾ [البقرة/ ٧٧ ـ ٧٨].

وهؤلاء القشريون يغفلون عن أخطر الأمراض وأشدها؛ التي جاءت الديانات ـ كلها ـ لمعالجتها جذرياً؛ أعني بذلك العبوديات الثلاث:

الأولى: العبودية للمجتمع

حيث يكون إرضاءُ الناسِ؛ الأقارب والأباعد، المؤالفين والمخالفين، هو الهمَّ الأول والأساس.

الثانية: العبودية للأنا

حيث تكون الذات؛ في بعدها العالي؛ أي العقل والهوى [الأنا]، هي الحاكمَ.

الثالثة: العبودية للجسد

حيث تكون الذات؛ في بعدها الداني؛ أي الشهواتُ والغرائزُ والنزوات، هي المتحكِّم.

ودرءاً لآفة السطحية والقشرية هذه، وقطعاً لدابر تلك العبوديات الثلاث، تأتي هذه الفقرة في وصية النبي ﷺ لأبي ذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيث بيَّن له فيها مضامينَ عميقةً للتدين الصادق، يرتبط بعضها بتنمية العلاقة بالله؛ بعد تعميق المعرفة به تعالى، ويرتبط بعضها الآخر بتأكيد الانتماء الصادق للدين، فقال ﷺ **(يا أبا ذرّ! إن ربَّك عزّ وجلّ يباهي الملائكةَ بثلاثةِ نفرٍ)**.

فالمسألة ـ هنا ـ هي اعتزازٌ من الله تعالى؛ الذي له العزة كلها، إلى حدِّ المباهاة أمام ملائكته، بكل ما لهم من جلال القدر والمنزلة لديه، يباهيهم بثلاثة أصناف من الناس والمباهاة ـ هنا ـ لا تخلو من تفضيل للمباهَى به على المباهَى:

الصنف الأول: رجلٍ في أرضٍ قفرٍ؛ فيؤذّن ثم يقيم ثم يصلي، فيقول ربك للملائكة: انظروا إلى عبدي؛ يصلي ولا يراه أحدٌ غيري! فينزل سبعون ألف ملك يصلون وراءه، ويستغفرون له إلى الغد من ذلك اليوم).

والذي يظهر من سبب هذه المباهاة والاعتزاز، هو واقع العبودية الخالصة التي أعلَت من شأن هذا العبد عند الله العليّ؛ خصوصاً مع ملاحظة أن دافعه إلى الصلاة ـ التي هو حريصٌ على أدائها ـ مع مراعاة آدابها من الأذان والإقامة، هو عنايته على أمرين اثنين:

الأول: تحقيق عنوان (إقامة الصلاة).

الثاني: تحقق الإخلاص في عمله وتنقية دوافعه من الشوائب والعوالق.

ومَن كان هذا شأنه فهو جديرٌ بأن يُكافأ بمكافأتين خطيرتين:

المكافأة الأولى: أن يكون للمتقين إماماً لمأمومين في مستوى الملائكة.

المكافأة الثانية: أن يستغفر له أولئك الملائكة حتى اليوم التالي، ليخرج بعد ذلك برصيدٍ يجعله أنقى من كلِّ خبثٍ، وليكون أتقى لربه، وأكرمَ لديه مِن سواه.

والداء الذي أشار إليه هذا البند هو (المراءاة)؛ التي هي العمل من أجل الناس، فينشط العاملُ العابدُ! إذا كان في جمعٍ من الناس؛ بالصلاة والحج ونحو ذلك، لكنه يكسل إذا كان وحده.

فجاء رسول الله ﷺ في حديثه التربوي ـ هنا ـ بالدواء الذي يستأصل هذا الداءَ، ويجتث هذه الآفةَ.

وذلك من خلال التركيز على أن التدينَ الصادقَ إنَّما يتحقق إذا كان الدافع للعمل متمثلاً في الحبِّ لله تعالى من جهةٍ، وفي الخشيةِ من عقابه من جهةٍ ثانيةٍ؛ بعيداً عن رضا الناس وسخطهم.

وهنا تأتي أهمية العمل العبادي في الصحارى وأمثالها؛ حيث يكون المتعبِّد فيها وحده، وحيث لا يطلع عليه سوى ربه الذي لا تخفى عليه خافيةٌ.

وهذا الإنسان قد تخلص ـ بمنهجه هذا ـ من شوائب العبودية للمجتمع، وأصبح حراً ربانياً لا أمرَ للناس في مملكته ولا نهيَ، وتهاوت عند أسوارها صنمية المجتمع.

الصنف الثاني: ورجلٍ قام من الليل فصلى وحده، فسجد؛ ونام وهو ساجدٌ. فيقول الله تعالى: انظروا إلى عبدي؛ روحه عندي، وجسدُه ساجدٌ).

وأما هذا الصنف فقد باهى به الله تعالى بما قدَّمه من إرادة الله على هواه. فالإنسان يحتاج إلى أن ينام ليريح بدنَهُ من عناء العمل وتبعات اليقظة وصخب الحياة، غير أن المؤمن الصادق والمحبّ لا يرضى لنفسه الانغماسَ في تلبية حاجات الجسد؛ خصوصاً إذا كان ذلك سبباً في تفويت ما هو أبقى؛ من النعيم. وفلسفة المؤمن وشعاره في الحياة الدنيا هو ما جاء في قول الله تعالى ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت/ ٦٤].

وهذه الفلسفة وهذا الشعار يولِّدان في روح العبد الصادق قلقاً دائماً؛ يدفعه إلى التطلع الدائم للتحليق في عالم الملكوت.

وهذا ما يجعله دؤوباً على ركوب مطية الليل من أجل بلوغ عالم الرضا والرضوان.

الأمر الذي يجعله يعيش متطلبات عالمين:

١ ـ الروح وآفاقها.

٢ ـ المادة ومتطلباتها.

لذلك؛ فإن مَن يستيقظ في جوف الليل؛ حباً في الله، ورغبةً في ثوابه، ويقوم إلى الصلاة، فيغلبه النوم الذي هو حاجةُ جسدِهِ، يكون قد غلَّب إرادةَ الله على إرادته، وأجهد نفسه في رضا ربه؛ فـ(**بدنه منه في تعب**)[1]؛ خلافاً للغالبية العظمى من الناس؛ حيث يأسرهم اللعب واللهو، وتهيمن عليهم الرغبةُ في الراحة.

ومثل هذا المحبِّ الولهانِ لحقيقٌ وجديرٌ بأن يباهي به ربُّهُ؛ لأنه قد تحرر من أسر (الأنا) وشوائبها، فلم يعُد لها عليه من سلطان، ووصل إلى مقام ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف/ ٤٠]، ولأن صنميةَ ذاتِهِ تآكلت وتلاشت فلم يعُد مصداقاً لـ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان/ ٤٣].

الصنف الثالث: ورجلٍ في زحف فرَّ أصحابُهُ، وثبت هو يقاتل؛ حتى يُقتَل).

وأما هذا الصنف فإن مباهاة الله تعالى به تسبَّب فيها تحلِّيه بـ(الشجاعة)؛ التي تعني ـ هنا ـ: الاستعداد للتضحية بأغلى ما يملك؛ في سبيل محبوبه ومعشوقه؛ وهو الله تعالى.

وتتجلَّى شجاعتُهُ الفائقةُ ليس في مشاركتِهِ في سوح الجهاد في سبيل الله

---

(١) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة، ج١٥، ص١٨٥، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، باب استحباب ملازمة الصفات الحميدة...، الحديث ٩.

فحسب، وإنما في ثباته حتى في حال فرار شركائه؛ ممن لم يتحلَّ بالصدق إلى درجة تغليب محبتهم لله على محبتهم لأنفسهم. وبجهاده وثباته في مثل هذا المقام فإنه يحطم صنميةَ الجسد، ويكرِّس ألوهيةَ الله تعالى وحاكميتَهُ على حياته.

إن هذا الصنفَ لجديرٌ بأن يباهي الله تعالى به؛ لأنه أصبح واحداً من عوامل غلبة الحق على الباطل، وصار علامةً على ما يمكن للإنسان أن يبلغه من كمالٍ وجوديٍّ يجعله أقربَ إلى الله وأحبَّ.

وحينما يأتي النص النبوي ـ هنا ـ بهذا التصنيف فليس معنى ذلك أننا أمام اختيار هذا أو ذاك؛ إذ إن من الممكن ـ بل من الضروري ـ أن يكون الإنسانُ جامعاً لصفات هذه الأصناف الثلاثة في آنٍ واحدٍ، أو ساعياً في هذا السبيل.

قال تعالى ـ ملقِّناً خليله إبراهيم عليه السلام ما يجب أن يكون عليه ـ ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام/ ١٦١ ـ ١٦٣].



الفصل السادس والأربعون

ذكرُ اللَّه ركنٌ وجوديٌّ

لدى استحضارنا الغايةَ من خَلق الإنسان سنجد أنها تتلخص في أصلين أساسيين:

الأصل الأول ـ (خلافة الله)؛ كما قال تعالى مخاطباً ملائكته الكرام ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة/ ٣٠].

الأصل الثاني ـ (حمل الأمانة)؛ كما قال تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب/ ٧٢].

وهذان الأصلان يستلزمان القيامَ ـ مع ذلك ـ بأصلٍ ثالثٍ يعد مهمةً ثالثةً؛ ويتوقف على هذه المهمة وهذا الأصل النجاحُ في الأصلين والمهمتين السابقتين. وهذه المهمة الثالثة هي:

الأصل الثالث ـ (عبادة الله)؛ كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦].

آفاق العبادة:

لدى استعراضنا لآفاق العبادة نجدها تتسع لتشمل مستويين:

المستوى الأول: علاقة الخضوع والتذلل الخاص بين يدي الله تعالى. سواء تمثلت في:

أ ـ القول باللسان؛ تسبيحاً، أو تهليلاً، أو تكبيراً، ونحو ذلك.

ب ـ الفعل؛ بالركوع، والسجود، ونحوهما.

جـ ـ الفكر؛ بالتأمل في عظمة الله وآياته، ونحوه.

د ـ الوجد؛ بالتوله من المحب للمحبوب، ونحوه.

المستوى الثاني: علاقة الخضوع لله تعالى بالعمل الصالح في التعامل مع الخلق؛ استجابةً لأوامر الله ونواهيه. وهذه بدورها تتمثل في نحوين:

النحو الأول: القيامُ بأفعالٍ معينةٍ، أمر بها الله تعالى ـ إحساناً إلى الناس، وبراً بهم ـ كالتصدق، أو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصح، والتعليم، ونحو ذلك.

النحو الثاني: تجنُّب أفعالٍ معينةٍ، نهى الله تعالى عنها؛ كالفحش في القول، والغش، والتدليس، ونحو ذلك.

وفي مقام التخاطب واللغة الشرعية يغلب استعمال مصطلح (العبادة) على المستوى الأول؛ أعني العلاقة الخاصة بين العبد والمعبود مباشرةً. وهي ما يُشاع استعمالُهُ في مقام وصفِ فردٍ من الناس؛ حينما يقال (فلان عابد)، أو (متعبد)، ويُجمع على (عُبَّاد) و(متعبِّدين).

وفي هذا الصدد نقف بين يدي هذه الفقرة من الوصية النبوية، وفيها يقول النبيُّ ﷺ:

● [الفقرة/ ٩٤ ـ ٩٥]:

(يا أبا ذرّ! ما من رجلٍ يجعل جبهته في بقعةٍ من بقاع الأرض إلا شهدت له بها يوم القيامة. وما من منزل ينزله قومٌ إلا وأصبح ذلك المنزلُ يصلي عليهم أو يلعنهم.

يا أبا ذرّ! ما من صباحٍ ولا رواحٍ إلا وبقاعُ الأرض ينادي بعضُها بعضاً: يا جارة! هل مرَّ بك مَن ذكر الله تعالى؟ أو عبدٌ وضع جبهتَه عليك ساجداً لله؟

فمن قائلةٍ: لا. ومن قائلةٍ: نعم

فإذا قالت: نعم؛ اهتزت، وانشرحت، وترى أن لها الفضلَ على جارتها).

وفي هاتين الفقرتين عدة وقفات؛ نذكر منها ما يلي:

الوقفة الأولى: الحثّ على استيعاب العبادة للحياة الإنسانية

مَن يجول ببصره في تضاعيف النصوص الإسلامية ـ كتاباً، وسنةً ـ لا يتوقف في القول بأن الله تعالى يريد من العبد أن ينسجم مع عبوديته؛ التي تعني أن يحافظ على علاقةٍ سليمةٍ ومنطقيةٍ بينه وبين مولاه. الأمر الذي يستلزم ـ بطبيعة الحال ـ (الذكرَ)؛ بمعناه الشامل، من الذاكر؛ الذي هو العبد، للمذكور؛ الذي هو المعبود تعالى.

ولا فرق في ضرورةِ ذلك وأهميتِه بين مكان ومكان، ولا بين زمان وزمان، ولا بين حال وحال. فالعبودية من اللوازم الذاتية لـ(الإنسان)، والربوبية من اللوازم الذاتية لـ(الله).

وما دام الأمر كذلك، فممارسة ما ينافي ذلك ويضاده تدخُل ضمن التنكر لحقائق الوجود، وهو ما يسمى في اللغة الدينية بـ(الكفر)؛ إن وصل إلى حد

إنكارها بأجمعها، أو إنكار بعضها ممَّا يستلزم إنكار أصولها؛ وهو ما يُعرف بإنكار الضروري؛ ممَّا يستلزم ردَّ ما جاء من عند الله تعالى، أو تكذيبَ النبي ﷺ في ما أخبر به(١).

الوقفة الثانية: التفاعل الوجودي بين مفردات الوجود

كما أن فقرتينا ـ مورد البحث ـ تشيران إلى أن ثمة تفاعلاً، على مستوى الشهادة، بين العابد ومكان عبادته، فـ(**ما من رجلٍ يجعل جبهته في بقعةٍ من بقاع الأرض إلا شهدت له بها يوم القيامة. وما من منزل ينزله قومٌ إلا وأصبح ذلك المنزلُ يصلي عليهم أو يلعنهم**).

فنحن ـ إذن ـ بين موجوداتٍ حيةٍ ذاتِ شعورٍ وإدراكٍ لِما يدور حولها، تسجل من خلاله عبادة العابد فتدعو له، وكفر الكفر فتدعو عليه. فبقاع الأرض ومنازلها خاضعة لله تعالى، تراقب عبادَ الله، وتشهد لهم؛ بل وتصلي عليهم؛ إن هم أطاعوا، وتشهد عليهم، بل تلعنهم؛ إن هم عصوا.

ولا عجب في ذلك، فالقرآنُ ناطقٌ بحقيقةٍ لا تُرد؛ وهي قوله سبحانه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء/ ٤٤].

الوقفة الثالثة: بذكر الله تطمئن القلوب

في هاتين الفقرتين تأكيدٌ على ما نص عليه القرآن الكريم؛ من أن الموجودات

---

(١) لمعرفة تفاصيل ذلك يراجع أبواب الطهارة من كتب الفقه؛ في مسألة تحديد الكافر، ونجاسة منكر الضروري.
أقول: المسألة طويلة الذيل، متشعبة الأطراف؛ حتى قال بعض المحققين أن المقام: لا يخلو عن غموضٍ وإشكالٍ، وكذا تعيين ما يفيد إنكاره الكفرَ، وأنّ المعتبر في الضرورة هل هي الضرورة بالنسبة إلى المنكر؟ أو بالنسبة إلى المجتهد؟ وهل يكفي فيه ظنُّ المجتهد بأنه ضروريٌّ وظنُّه بأن المنكِر أنكره مع كونه ضرورياً عنده؟ أو يجب العلم به؟) [غنائم الأيام في مسائل الحلال والحرام للميرزا القمي رحمه الله، ج٣، ص٣٩٤، [المبحث] الرابع: المشهور وجوب الغسل لكلِّ مسلمٍ، عدا الخوارج، والنواصب، والغلاة، وكلِّ مَن أنكر ما ثبت من الدين ضرورةً].

الممكنة؛ خصوصاً الإنسان، إنَّما يحظى بالاطمئنان والرضا بحسن العلاقة بالله سبحانه، وخلاف ذلك لن ينال غير الشقاء والعناء.

قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد/ ٢٨]. وقال تعالى ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ [الزخرف/ ٣٦ ـ ٣٨].

وفي وصيتنا هذه يقول ﷺ :**(ما من صباحٍ ولا رواحٍ إلا وبقاعُ الأرض ينادي بعضُها بعضاً: يا جارة! هل مرَّ بك مَن ذكر الله تعالى؟ أو عبدٌ وضع جبهتَه عليك ساجداً لله؟**

فمن قائلةٍ: لا. ومن قائلةٍ: نعم).

فهذا التفاضلُ، وذاك الانشراحُ، يدلان على أن الموقفَ الموضوعيَّ للمخلوقات هو أن تكون قريبةً من الله بـ(الذكر) و(الشكر).

وكما تنشرح الموجودات؛ التي نسميها غير عاقلة، بذكر الله تعالى من قِبَل مَن يمر عليها، فالأولى بنا؛ نحن (العقلاء!)، أن نكون أشدَّ فرحاً منها، وأكثرَ سعياً في العمل على توسعة قاعدة التعبد لله تعالى، فـ**(الله هو السلام، ومنه السلام، وإليه السلام)**[1].

الوقفة الرابعة: صلاح الناس صلاح الكون

ثم ينتقل النصُّ النبوي إلى مسألة وثيقة الصلة بما قدمناه من وقفات؛ وهي أن بين استقامة الموجودات على خط العبودية وبين عطائها صلةً واضحةً، وفي ذلك يقول النبيُّ ﷺ:

---

(١) أمالي الطوسي، وعنه: بحار الأنوار، ج١٦، ص١، تاريخ نبينا ﷺ، الباب ٥ ـ تزوجه (صلى الله عليه وآله) بخديجة (رضي الله عنها)، وفضائلها، وبعض أحوالها، الحديث ١.

● **[الفقرة/ ٩٦]:**

(يا أبا ذرّ! إن الله جل ثناؤُهُ لَمَّا خلق الأرضَ، وخلق ما فيها من الشجر، لم يكن في الأرض شجرةٌ يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعةً؛ فلم تزل الأرضُ والشجرُ كذلك حتى تكلَّم فجرةُ بني آدم بالكلمة العظيمة؛ قولهم ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾[1].

فلما قالوها اقشعرت الأرضُ، وذهبت منفعةُ الأشجارِ).

وهي فقرة واضحة الدلالة في أن الارتباطَ بين عالَمَي الغيب والشهادة قائمٌ؛ سواء أدركه الناسُ أم لم يدركوه.

وحيث إن ما ينطق به رسول الله ﷺ هو ـ في معتقدنا ـ ﴿وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم/ ٤]، فإننا نتعامل مع مقولاته ﷺ على أساس الواقعية الكاملة.

والنبيُّ ﷺ يؤكد في مقولته هذه أن خيرات الأرض تزيد وتنقص حسب استقامة الناس على أساس عبوديتهم لله تعالى. وهكذا كانت خيراتُ الأرض وأشجارها متاحةً للناس حتى كفر مَن كفر منهم، بما نسبوه إلى الله سبحانه من ولد زوراً وبهتاناً، فكان ما كان من شحٍّ في الخيرات.

ويصدِّق الترابط الوجودي؛ إثباتاً ونفياً، ويؤكده قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف/ ٩٦].

وقوله تعالى ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود/ ٥٢].

ونقرأ في سيرة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه) أن واقع العالم يُملأ ظلماً وجوراً **(حتى يبعث الله رجلاً في آخر الزمان، وكَلَب من الدهر، وجهلٍ من**

---

(١) سورة البقرة، الآية ١١٦. وسورة يونس، الآية ٦٨، وسورة الكهف، الآية ٤.

الناس. يؤيده الله بملائكته، ويعصم أنصاره، وينصره بآياته، ويظهره على أهل الأرض حتى يدينوا طوعاً وكرهاً، يملأ الأرضَ قسطاً وعدلاً، ونوراً وبرهاناً، يدين له عرضُ البلاد وطولُها، لا يبقى كافر إلا آمن به، ولا صالح إلا صلح، ويصطلح في ملكه السباع، وتخرج الأرض نبتها، وينزل السماء بركتها، وتظهر له الكنوز، يملك ما بين الخافقين أربعين عاما.

فطوبى لمن أدرك أيامه، وسمع كلامه)[١].

---

(١) الطبرسي، أحمد (ت٥٤٨ هـ)، الاحتجاج، ج٢، ص١١، احتجاجات الإمام الحسن.



الفصل السابع والأربعون

منـزلة المؤمن

● [الفقرات/ ٩٧ ـ ٩٩]:

(يا أبا ذرّ! إن الأرضَ لتبكي على المؤمن؛ إذا مات، أربعين صباحاً.
يا أبا ذرّ! إذا كان العبدُ في أرضٍ قي [يعني قفر](١) فتوضأ، أو تيمّم، ثم أذّن، وأقام، وصلى، أمر الله عزّ وجلّ الملائكةَ فصفوا خلفه صفاً لا يُرى طرفاه، يركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده، ويؤمِّنون على دعائه.
يا أبا ذرّ! مَن أقام ولم يؤذِّن لم يصلِّ معه إلا ملكاه اللذان معه).

للمؤمن ـ في الفكر الإسلامي ـ منزلةٌ سامية، أُشير إليها بصيغٍ مختلفةٍ، من قبيل ما جاء في هذه الوصية من بكاء الأرض أربعين صباحاً على المؤمن إذا مات، كما جاء في هذه الوصية؛ وفي غيرها من نصوص(٢).

---

(١) في المكارم، والأمالي، (أرض قفر).

(٢) وهذا الأمر يمكن عدُّهُ من المستفيض نقله، وقبوله. وكنموذج على ذلك:

أ ـ روى الشيخ الكليني رحمه الله في أصول، باب فقد العلماء، عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال: **إذا مات المؤمنُ بكت عليه الملائكةُ وبقاعُ الأرضِ؛ التي كان يعبدالله عليها، وأبوابُ السماء؛ التي كان يصعد فيها بأعمالِهِ، وثُلِم في الإسلام ثلمةٌ لا يسدها شيءٌ؛ لأنّ المؤمنين الفقهاءَ حصونُ الإسلامِ؛ كحصن سور المدينة لها).**

ب ـ روي ذلك عن ابن عباس، قال: **الأرض تبكي على المؤمن أربعين صباحاً)** مصنف ابن أبي شيبة، =

ونتساءل: ما هو السر في هذا الافتجاع من الأرض على المؤمن؟

=ج٧، ص١٣٦، كتاب الزهد، كلام ابن عباس. ورواه عنه أيضاً النسائي في كتاب المواعظ من سننه الكبرى، ج١٠، ص٤٠٢.

وممن رواه: الحاكم؛ في كتاب التفسير من مستدركه؛ في تفسير قوله تعالى ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ﴾ [الدخان/ ٢٩]، قال ابن عباس: بفقد المؤمن أربعين صباحاً) وعقبه الحاكم بقوله: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه على ذلك الذهبي في تعليقته. [المستدرك على الصحيحين للحاكم، ج٢، ص٤٨٧].

أقول: قد يقال إن كلام ابن عباس ـ مع جلالة قدره ـ لا يعتبر حجةً علينا، فما علمه بالغيب ليتحدث عنه كما لو كان محيطاً به؟

والجواب: إن هذا النوع من المعارف ليس من شأن ابن عباس أن يقوله من تلقاء نفسه؛ لأنه أمرٌ غيبيٌّ؛ وهو أجلُّ من الحديث في ذلك إلا راوياً عن النبي ﷺ. ويعززه:

جـ ـ ما حكاه الرازي عن الواحدي في (البسيط)، قال:

روى أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم قال: ما من عبد إلا وله في السماء بابان؛ باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل فيه عمله، فإذا مات فقداه وبكيا عليه)، وتلا هذه الآية. قال [أي الواحدي]: وذلك لأنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً فتبكي عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء كلامٌ طيبٌ ولا عملٌ صالحٌ؛ فتبكي عليهم. وهذا قول أكثر المفسرين) [التفسير الكبير، ج٢٧، ص٦٦٠].

د ـ ما قاله وأخرجه الثعلبي في تفسيره؛ في ذيل قوله تعالى ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾، بما لفظه: وذلك أن المؤمن إذا مات بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحا.

وقال عطاء: في هذه الآية بكاؤها حمرة أطرافها.

وقال السدي: لما قتل الحسين بن علي (رضي الله عنهما) بكت عليه السماء، وبكاؤها حمرتها.

حدثنا خالد بن خداش، عن حماد بن زيد، عن هشام، عن محمد بن سيرين، قال: أخبرونا أنّ الحمرة التي مع الشفق لم تكن، حتى قُتِل الحسين رضي الله عنه.

أخبرنا ابن بكر الخوارزمي، حدثنا أبو العياض الدعولي، حدثنا أبو بكر بن أبي خثيمة، وبه عن أبي خثيمة، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا سليم القاضي، قال: مطرنا دماً أيام قتل الحسين.

أخبرنا أبو عبدالله بن فنجويه، حدثنا أبو علي المقري، حدثنا أبو بكر الموصلي، حدثنا أحمد بن إسحاق البصري، حدثنا مكي بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة الرمدني، أخبرني يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم إنه قال: ما من عبد إلا له في السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه عمله وكلامه، فإذا مات فقداه وبكيا عليه. وتلا هذه الآية ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾، وذلك إنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم، ولم يصعد إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلامٌ طيبٌ ولا عملٌ صالحٌ فتفقدهم فتبكي.

أخبرنا عقيل بن محمد: أن المعافى بن زكريا أخبره، عن محمد بن جرير، حدثنا يحيى بن طلحة،=

الجواب: إن فهمَ ذلك يتوقف بشكلٍ رئيسٍ على فهم حقيقة الإيمان من جهةٍ، وعلى واقع المؤمن من جهةٍ أخرى.

فإذا عرفنا أن المؤمنَ هو مَن بادر إلى الاستجابة إلى دعوة الله تعالى، وطبَّقها على مستوى جوارحه وجوانحه، ودفع في سبيل ذلك الغاليَ والنفيسَ، أو هو على أتم الاستعداد لذلك، كما أنه لم يهِن ولم ينكُل، فسنكتشف السرَّ وراء ذلك.

وللإستزادة في توضيح هذا الأمر نتناول جهتين:

الجهة الأولى: الإيمان والمؤمن في القرآن الكريم

يتعامل منطق القرآن مع (الإيمان) باعتباره المحطة الوجودية التي لا يسوغ لأحد أن يتخلَّف عنها، والتي تشكل فاصلاً بين الحياة والموت الحقيقيين، وليسا الماديين.

أ ـ قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال/ ٢٤]. فالإيمانُ بما جاء من عند الله تعالى ونطق به رسوله ﷺ هو (حياةٌ)، فيكون خلافه هو الـ(موت)، فالمؤمنُ ـ إذن ـ حيٌّ، والكافر ميتٌ.

ب ـ قال تعالى ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات/ ١٧]. فالإيمان؛ وفقاً للآية الكريمة، هو نعمةٌ ربانيةٌ، ومنَّةٌ إلهيةٌ، تستوجب الشكرَ، فهو ليس جهداً بشرياً مستقلاً، وإنما هو تهيئةٌ من الله أولاً، وفعلٌ من الإنسان ثانياً، وجزاءٌ من الله تعالى ثالثاً.

وعلى هذا الأساس فالمؤمن:

أولاً: هو مَن أعد واستعد لاستقبال توجيهات الله، وتلقاها بقوةٍ؛ ليجزيه في

=حدثنا عيسى بن يونس، عن صفوان بن عمر، عن شريح بن عبيد الحضرمي: قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: **إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً، ألا لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه، إلا بكت عليه السماء والأرض**. ثمّ قرأ رسول الله ﷺ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾، ثمّ قال: **إنّهما لا تبكيان على الكافر**) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج٨، ص**٣٥٣**.

مقابلها حكمةٌ تمثل الخيرَ كله. قال تعالى ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة/ ٢٦٩].

ثانياً: هو مَن تعامل مع أمانة الإيمان بمنتهى الصدق والحزم، على مستوى الذات والآخر، فأصبح شعلةً من: الفعل، والتفاعل، والبذل، والعطاء.

وقد أسهب القرآن الكريم في التعريف: بالإيمان، وأسبابه، وآثاره ونتائجه، وموانعه، وسائر ما يتعلق به. ونحن معذورون عن تبيان ذلك هنا؛ لأنه يخرج عن حدود ما رسمناه لهذا الكتاب.

الجهة الثانية: الإيمان والمؤمن في السنَّة المطهَّرة

إذا ما انعطفنا نحو السنَّة المطهَّرة سنجد تفصيلاً أكبر؛ نورد منه ما يلي:

١ ـ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال: **العقلُ دليلُ المؤمنِ**)[1]. وهذا النصُّ الشريفُ يكشف عن سرٍّ من أسرار سموّ منزلة المؤمن؛ وهي أنه (عاقل). لذلك، فإنه: لا يقدِم، ولا يحجِم، ولا يصمت، ولا ينطق، إلا بعد أن يعقِل ويفهم فعلَهُ وقولَهُ، ويعقِل المصلحةَ من وراء ذلك؛ فإن وجده خيراً فعله، وإلا تركه.

وبالطبع، فإن ذلك لا يعني أن يراه الناسُ كذلك، بل أن يكون معقولاً ومقبولاً بما تقتضيه قوانين الحكمة في واقع الحال، وفي حدود ما يراه العاقل كذلك، ويكون معه معذوراً أمام الله تعالى.

أما رضا الناس وسخطهم فلم يكن يوماً، ولن يكون في المستقبل، ميزاناً للحق والباطل. وفي سيرة الأنبياء (صلوات الله عليهم) والأئمة عليهم السلام والأولياء الصالحين خيرُ مثالٍ على ذلك، فقد ردهم أكثرُ الناس؛ في الوقت الذي كانوا فيه من أهل الحكمة؛ إلى حد العصمة، أو الكمال البشري العالي، فلا تغفل!

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص٢٥،كتاب العقل والجهل، الحديث ٢٤.

٢ ـ عن سلام الجعفي، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الإيمان، فقال: **الإيمانُ أن يُطاعَ الله فلا يُعصَى)**[1].

وهذا ـ أيضاً ـ نابعٌ من عقلانيته؛ التي أدرك بها أن للهِ تعالى حقاً لا مناص معه من طاعته، ولا مجال فيه إلى معصيته.

٣ ـ في نصٍّ مطوَّلٍ يبيِّن الإمامُ الصادق عليه السلام المجال الرحب للإيمان، بحيث لا يُستثنى فيه جانبٌ من جوانب الحياة الإنسانية؛ دون أن تكون مشمولةً بتغطيته لها، ومن خلال ذلك نتعرف على منزلة الإيمان وكرامة المؤمن.

والنص هو: عن القاسم بن بريد، قال: حدثنا أبو عمرو الزبيري، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال:

قلتُ له: أيها العالم! أخبرني أيُّ الأعمال أفضل عند الله؟

قال: ما لا يقبل الله شيئاً إلا به.

قلت: وما هو؟

قال: الإيمانُ بالله؛ الذي لا إله إلا هو، أعلى الأعمالِ درجةً، وأشرفُها منزلةً، وأسناها حظاً.

قال: قلت: ألا تخبرني عن الإيمان؛ أقولٌ هو وعملٌ؟ أم قولٌ بلا عملٍ؟

فقال: الإيمانُ عملٌ كلُّهُ. والقولُ بعضُ ذلك العمل؛ بفرضٍ من الله بيِّنٍ في كتابه، واضحٍ نورُهُ، ثابتةٍ حجتُهُ. يشهد له به الكتابُ، ويدعوه إليه.

قال: قلت: صِفه لي ـ جُعلت فداك ـ حتى أفهمَه.

قال: الإيمانُ حالاتٌ، ودرجاتٌ، وطبقاتٌ، ومنازلُ.

فمنه: التامّ المنتهى تمامه، ومنه: الناقص البين نقصانه، ومنه: الراجح الزائد رجحانه.

قلت: إن الإيمان ليتم، وينقص، ويزيد؟!

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٣٣، كتاب الإيمان والكفر، باب بدون عنوان، الحديث ٣.

قال: نعم.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لأنّ الله تبارك وتعالى فرض الإيمانَ على جوارح ابن آدم، وقسَّمه عليها، وفرَّقه فيها. فليس من جوارحه جارحةٌ إلا وقد وُكِّلت من الإيمان بغيرِ ما وُكِّلت به أختُها.

فمنها: قلبه؛ الذي به يعقل، ويفقه، ويفهم. وهو أميرُ بدنِهِ؛ الذي لا ترِد الجوارحُ، ولا تصدر، إلا عن رأيه وأمره.

ومنها: عيناه؛ اللتان يبصر بهما.

وأذناه؛ اللتان يسمع بهما.

ويداه؛ اللتان يبطش بهما.

ورجلاه؛ اللتان يمشي بهما.

وفرجه؛ الذي الباه من قِبله.

ولسانه؛ الذي ينطق به.

ورأسه؛ الذي فيه وجهه.

فليس من هذه جارحةٌ إلا وقد وُكِّلت من الإيمان بغيرِ ما وُكِّلت به أختُها؛ بفرضٍ من الله تبارك اسمه، ينطق به الكتابُ لها، ويشهد به عليها.

ففرض على القلب غيرَ ما فرض على السمع، وفرض على السمع غيرَ ما فرض على العينين، وفرض على العينين غيرَ ما فرض على اللسان، وفرض على اللسان غيرَ ما فرض على اليدين، وفرض على اليدين غيرَ ما فرض على الرجلين، وفرض على الرجلين غيرَ ما فرض على الفرج، وفرض على الفرج غيرَ ما فرض على الوجه.

فأما ما فرض على القلب؛ من الإيمان:

- فَالإِقْرَارُ
- والمعرفةُ

ـ والعقدُ

ـ والرضَا

ـ والتسليمُ؛ بأن لا إلهَ إلا اللهُ، وحده لا شريكَ له؛ إلهاً واحداً، لم يتخذْ صاحبةً ولا ولداً، وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ ﷺ.

ـ والإقرارُ بما جاء من عند اللهِ؛ من نبيٍّ أو كتابٍ.

فذلك ما فرض الله على القلبِ؛ من: الإقرارِ، والمعرفةِ. وهو عملُهُ.

وهو قولُ الله عزَّ وجلَّ ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل/ ١٠٦]، وقال ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد/ ٢٨]، وقال ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المائدة/ ٤١]، وقال ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة/ ٢٨٤].

فذلك ما فرض الله عزَّ وجلَّ على القلبِ؛ من: الإقرارِ، والمعرفةِ، ؛ وهو عملُهُ؛ وهو رأسُ الإيمانِ.

وفرض الله على اللسانِ:

ـ القولَ

ـ والتعبيرَ عن القلبِ؛ بما عقد عليه، وأقرَّ به.

قال الله تبارك وتعالى ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة/ ٨٣]، وقال ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت/ ٤٦].

فهذا ما فرض الله على اللسانِ؛ وهو عملُهُ.

وفرض على السمعِ:

ـ أن يتنزَّه عن الاستماعِ إلى ما حرَّم اللهِ.

ـ وأن يُعرِض عمّا لا يحلُّ له؛ ممَّا نهى الله عزّ وجلّ عنه.

ـ والإصغاءَ إلى ما أسخط الله عزّ وجلّ

فقال في ذلك ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا

﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء/ ١٤٠]، **ثُمَّ اسْتَثْنَى الله عَزَّ وَجَلَّ مَوْضِعَ النِّسْيَانِ؛ فَقَالَ** ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنعام/ ٦٨]، **وقال** ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر/ ١٧ ـ ١٨]، **وقال عزَّ وجلَّ** ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون/ ١ ـ ٤]، **وقال** ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [القصص/ ٥٥]، **وقال** ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان/ ٧٢].

فهذا ما فرض الله على السمعِ؛ من الإيمانِ، أن لا يصغي إلى ما لا يحل له، وهو عملُهُ، وهو من الإيمانِ.

وفرض على البصرِ:

ـ أن لا ينظر إلى ما حرَّم الله عليه.

ـ وأن يُعرِض عمّا نهى الله عنه؛ ممَّا لا يحل له؛ وهو عمله، وهو من الإيمان.

فقال تبارك وتعالى ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ﴾ [النور/ ٣٠]، **فنهاهُم أن ينظروا إلى عوراتِهم، وأن ينظرَ المرءُ إلى فرج أخيهِ، ويحفظَ فرجهُ أن يُنظَرَ إليه، وقال** ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور/ ٣١] **من أن تنظر إحداهن إلى فرجِ أختِها، وتحفظَ فرجَها من أن يُنظر إليه.**

وقال: كلُ شيء في القرآنِ من حفظِ الفرجِ فهو من الزنا؛ إلا هذه الآية، فإنها من النظَر.

ثم نظم ما فرض على القلب، واللسان، والسمع، والبصر، في آية أخرى فقال ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت/ ٢٢]؛ **يعني بالجلودِ الفروجَ والأفخاذَ، وقال** ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء/ ٣٦].

فهذا ما فرض الله على العينين؛ من غضِّ البصرِ عمّا حرم الله عزّ وجلّ؛ وهو عملهما؛ وهو من الإيمان.

وفرض الله على اليدين:

ـ أن لا يبطش بهما إلى ما حرَّم اللهُ.

ـ وأن يبطش بهما إلى ما أمر الله عزّ وجلّ.

وفرض عليهما؛ من: الصدقةِ، وصلةِ الرحم، والجهادِ في سبيلِ اللهِ، والطهورِ للصلاةِ، فقال ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة/ ٦]، وقال ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد/ ٤].

فهذا ما فرض الله على اليدين؛ لأنَّ الضربَ من علاجِهما.

وفرض على الرِّجلَين: أن لا يمشيَ بهما إلى شيء من معاصي اللهِ.

وفرض عليهما: المشيَ إلى ما يُرضِي الله عزَّ وجلَّ؛ فقال ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء/ ٣٧]، وقال ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان/ ١٩]، وقال في ما شهِدت الأيدي والأرجل؛ على أنفسِهما، وعلى أربابهما؛ من تضييعهما لما أمر الله عزَّ وجلَّ به، وفرضه عليهما ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس/ ٦٥].

فهذا أيضاً ممَّا فرض الله على اليدين، وعلى الرجلين؛ وهو عملهما، وهو من الإيمان.

وفرض على الوجهِ السجودَ له بالليل والنهار، في مواقيت الصلاة؛ فقال ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج/ ٧٧].

فهذه فريضةٌ جامعةٌ على الوجهِ واليدينِ والرِّجلَين، وقال في موضعٍ آخر ﴿وَأَنَّ

ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن/ ١٨]، وقال في ما فرض على الجوارح؛ من: الطهور، والصلاة بها، وذلك أن الله عزّ وجلّ؛ لَما صرف نبيَّه ﷺ إلى الكعبةِ عن البيتِ المقدسِ، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة/ ١٤٣]، فسمّى الصلاةَ إيماناً.

فمن لقي الله عزّ وجلّ حافظاً لجوارحِهِ؛ موفياً كلَّ جارحةٍ من جوارحِهِ ما فرض الله عزّ وجلّ عليها، لقي الله عزّ وجلّ مستكمِلاً لإيمانِهِ، وهو من أهل الجنة، ومن خان في شيءٍ منها، أو تعدَّى ما أمر الله عزّ وجلّ فيها، لقي الله عزّ وجلّ ناقصَ الإيمانِ.

قلت: قد فهمت نقصانَ الإيمانِ وتمامَهُ، فمن أين جاءت زيادتُهُ؟

فقال: قول الله عزّ وجلّ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة/ ١٢٤ ـ ١٢٥]، وقال ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف/ ١٣]. ولو كان كلُّهُ واحداً لا زيادةَ فيه، ولا نقصانَ، لم يكن لأحدٍ منهم فضلٌ على الآخر، ولاستوت النعمُ فيه، ولاستوى الناسُ، وبطل التفضيلُ، ولكن بتمامِ الإيمان دخل المؤمنون الجنةَ، وبالزيادةِ في الإيمانِ تفاضَلَ المؤمنون بالدرجات عند اللهِ، وبالنقصانِ دخل المفرِّطون النارَ)[1].

وهذه الروايةُ الشريفةُ غنيةٌ بالمضامين في التعريف بأبعاد الإيمان وجوانبه، وبالمساحة الواسعة التي يجب أن يستوعبها الإيمان؛ على مستوى القول والفعل والشعور، وقبل ذلك على مستوى الرأي والاختيار، وانتهاءً بما يترتب على الإيمان من مكانةٍ عاليةٍ ومقعد صدق عند مليك مقتدر.

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٣٣، كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإيمان مبثوث على جوارح البدن كلها، الحديث ١.

حق المؤمن:

فإذا كان المؤمن عاملاً بهذه التعاليم، فإن منطقَ الأمورِ يفرض أن يكون محبوباً من قِبَل الله تعالى، ووجب حقُّهُ.

فقد روى عقبة بن خالد، قال: **دخلتُ؛ أنا والمعلى وعثمان بن عمران، على أبي عبدالله عليه السلام فلمّا رآنا قال: مرحباً، مرحباً بكم، وجوهٌ تحبنا ونحبها، جعلكم الله معنا في الدنيا والآخرة.**

فقال له عثمان: جُعِلت فداك!

فقال له أبو عبدالله عليه السلام: نعم! مه[1].

قال: إني رجل موسِر.

فقال له: بارك الله لك في يسارك.

قال: ويجيء الرجلُ فيسألني الشيءَ؛ وليس هو إبان زكاتي؟

فقال له أبو عبدالله عليه السلام: القرض عندنا بثمانية عشر، والصدقة بعشرة. وماذا عليك إذا كنت ـ كما تقول ـ موسِراً أعطيته، فإذا كان إبان زكاتك احتسبتَ بها من الزكاة؟! يا عثمان! لا ترده؛ فإن ردَّه عند الله عظيمٌ. يا عثمان! إنك لو علمت ما منزلة المؤمن من ربه ما توانيتَ في حاجته. ومَن أدخل على مؤمنٍ سروراً فقد أدخل على رسولِ الله (صلى الله عليه وآله)، وقضاءُ حاجة المؤمن يدفع الجنونَ والجذامَ والبرصَ)[2].

ومن كان هذا شأنَه فسيكون فقدانُه خسارةً كبرى. ولهذا، ورد في الخبر عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: **إذا مات المؤمنُ الفقيهُ ثُلِم فِي الإسلامِ ثُلمةٌ لا يَسدُّها شيءٌ)**[3].

---

(١) أي: ما مطلبك. والهاء للسكت، وأصله «فما» أي فما تريد.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، الكافي، ج٤، ص٣٤، باب القرض، الحديث ٤.

(٣) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص٣٨، كتاب العلم، باب فقد العلماء، الحديث ٢.

وحيث كان الأرض والسماوات من (عبيد) الله الطائعات المتناغمات مع ما يرضيه ويسخطه، فستكون كلُّها مستجيبةً لفرح الله تعالى وسخطه.

وعلى أساس ذلك، جاء الخبر عن علي بن أبي حمزة، قال: سمعت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، يقول: **سمعتُ أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام يقول: إذا مات المؤمنُ بكت عليه الملائكة وبقاع الأرض؛ التي كان يعبدالله عليها، وأبوابُ السماء؛ التي كان يصعد فيها بأعماله، وثُلِم في الإسلام ثلمةٌ لا يسدها شيءٌ؛ لأنّ المؤمنين الفقهاءَ حصونُ الإسلام كحصن سور المدينة لها)**[1].

ولو توغلنا في شخصية المؤمن؛ كما يراها الإسلام، لوجدنا أن هذه المكانة مسوَّغةٌ تماماً، وأنها لم تنبع من فراغ، بل إن لها جذورها الضاربة في العمق حسب المنظومة الفكرية الإسلامية، ولها أغصانها الكثيرة وثمارها الطيبة.

وكنموذج على بيان ذلك نورد النص التالي، والذي روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله ضمن كلام وجهه إلى تلميذه ووصيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، جاء فيه:

يا علي: ينبغي أن يكون في المؤمن ثماني خصال: وقارٌ عند الهزاهز، وصبرٌ عند البلاء، وشكرٌ عند الرخاء، وقنوعٌ بما رزقه الله عزّ وجلّ، لا يظلم الأعداءَ، ولا يتحامل على الأصدقاءِ، بدنُه منه في تعبٍ، والناسُ منه في راحة)[2].

وتأسيساً على هذا، فإن شخصية المؤمن هي الشخصية التي حظيت من قِبَل صاحبها بالاهتمام والرعاية والتقدير؛ عبر جهوده التي توفر عليها، وجهاده الذي سعى فيه، فنال رعايةً من ربه تعالى ميَّزته من غيره؛ فكان ـ إلى حد ما ـ من المصطفَين المجتبَين.

ولعلّ أهمَّ ما امتازت به هذه الشخصية من بين النماذج الإنسانية هو حالة (التكاملية).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، **من لا يحضره الفقيه**، ج٤، ص٣٥٤، باب النوادر؛ وهو آخر الأبواب، وصية رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام.

ويشهد لذلك النص الشريف التالي:

سُئل أميرُ المؤمنين عليه السلام عن الإيمانِ، فقال: إن الله عزّ وجلّ جعل الإيمانَ على أربعِ دعائمَ؛ على: الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد.

أ ـ فالصبر ـ من ذلك ـ على أربع شُعَب:

على:

ـ الشوق

ـ والإشفاق

ـ والزهد

ـ والترقُّب

فمَن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومَن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيباتُ، ومَن راقب الموتَ سارع إلى الخيرات.

ب ـ واليقين على أربع شُعَب:

ـ تبصرة الفطنة

ـ وتأول الحكمة

ـ ومعرفة العبرة

ـ وسنة الأولين

فمَن أبصر الفطنةَ عرف الحكمة، ومَن تأول الحكمةَ عرف العبرة، ومَن عرف العبرة عرف السنةَ، ومَن عرف السنةَ فكأنما كان مع الأولين، واهتدى إلى التي هي أقوم، ونظر إلى مَن نجا بما نجا، ومَن هلك بما هلك. وإنما أهلك الله مَن أهلك بمعصيته، وأنجى مَن أنجى بطاعته.

ج ـ والعدل على أربع شعب:

ـ غامض الفهم

ـ وغمر العلم

ـ وزهرة الحكم

ـ وروضة الحلم

فمَن فهم فسَر جميعَ العلم، ومَن علم عرف شرائعَ الحكم، ومَن حلم لم يفرِّط في أمره وعاش في الناس حميداً.

د ـ والجهاد على أربع شعب؛ على:

ـ الأمر بالمعروف

ـ والنهي عن المنكر

ـ والصدق في المواطن

ـ وشنآن الفاسقين.

فمَن أمر بالمعروف شدَّ ظهرَ المؤمن، ومَن نهى عن المنكر أرغم أنفَ المنافق وأمِن كيدَه، ومَن صدق في المواطن قضى الذي عليه، ومَن شنئ الفاسقين غضب لله، ومَن غضب لله غضب الله له.

فذلك الإيمان، ودعائمه، وشعبه)[١].

والنص ـ كما ترى ـ عميق المضمون، متشعب الأبعاد، لا يتسع المقام لتفصيل مضامينه. لكنه مع إيجازه الشديد أبان عن طبيعة الإيمان وحقيقته، وعن دعائمه التي يقوم عليها، وشعبه التي تتفرع عنه.

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٥٠ ـ ٥١، كتاب الإيمان والكفر، صفة الإيمان، الحديث ١.



الفصل الثامن والأربعون

نعمة الشباب في طاعة اللّه تعالى

● [الفقرة/ ١٠٠]:

(يا أبا ذرّ! ما من شابٍّ ترك الدنيا[(١)]، وأفنى شبابه في طاعة الله، إلا أعطاه الله أجرَ اثنين وسبعين صدِّيقاً).

تلتقي النعمُ ـ جميعاً ـ في أنها من عند الله تعالى، كما يفيده قول الله تعالى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل/ ٥٣]. ولكنها ـ في الوقت نفسه ـ تتفاوت من حيث الأهمية، فليست النعمُ سواءً في ذلك.

ـ فبعضها يصنف ضمن الـ(مهمٌّ).

ـ وبعضُها الآخر يُصنف ضمن الـ(أهم).

وإذا ما أردنا أن نصنف نعمة (الشباب) في أيٍّ من الصنفين هي، لوجدنا أنه ينخرط في صنف (الأهم)، ولا مجال للشك؛ أو التشكيك، في ذلك.

ويكمن السبب ـ وراء ذلك ـ في زاويتين:

الأولى: القيمة الذاتية والموضوعية

من حيث إن مرحلة (الشباب) هي مرحلة الحيوية والنشاط والطموح؛ بكل ما يعنيه ذلك من طاقات متفجِّرة في جميع الاتجاهات؛ وروح وثَّابة؛ يفتقدها،

(١) في نسخة الأمالي: الدنيا ولهوها.

ويتأسى عليها، من افتقدها من الكهول والشيوخ. قال الله تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم/ ٥٤]، وقال تعالى ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يس/ ٦٨].

الثانية: المخاطر المحدقة

من حيث إن الشاب يتعرض فيها ـ عادةً ـ إلى صعوباتٍ شديدةٍ؛ تحول بينه وبين التكامل؛ كاشتداد أوار الشهوة الجنسية، والقصور المعرفي، وتواضع الخبرة، ونحو ذلك؛ ممَّا يعاني منه جيل الشباب في الغالب.

مهام الشاب:

بملاحظة الزاويتين المذكورتين فإن على الشابّ ـ ذكراً كان أو أنثى ـ عدداً من المهمات يمكن إجمالُها في التالي:

أولاً: أن يضاعف جهدَه من أجل المحافظة على ما يتحلى به من قيمةٍ ذاتيةٍ وموضوعيةٍ، ويحسن استثمارها في بناء نفسه وتطويرها في مسيرة التكامل الشاملة؛ وهي ما نعنيه بـ(الصراط المستقيم).

ثانياً: أن يكون دقيقاً جداً، وموضوعياً بصرامةٍ؛ في تشخيص ما يواجهه من مخاطر وعقبات.

ثالثاً: أن يكون صلباً قويَّ الإرادة والشكيمة؛ في تحمُّل تبعات المواجهة للمخاطر، فـ(**الجنةُ محفوفةٌ بالمكارهِ...، وجهنم محفوفةٌ باللذات والشهوات**)؛ كما جاء في الأخبار عن الأئمة عليهم السلام[1].

فالشاب ـ إذن ـ بين يدي مهمةٍ شاقةٍ يستحق؛ إن هو أداها على الوجه الأكمل، أن ينال رضا الله تعالى ورضوانَه.

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٨٩، باب الصبر، الحديث ٧.

وانظر ـ أيضاً ـ: تحف العقول، باب ما روي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، ص٣٩٠، وصيته عليه السلام لهشام وصفته للعقل.

ويسهل علينا ـ بعد هذا ـ استيعابُ ما نطق به رسول الله ﷺ؛ حيث يقول في الفقرة مورد البحث والشرح:

(يا أبا ذرّ! ما من شابٍّ ترك الدنيا[1]**، وأفنى شبابه في طاعة الله، إلا أعطاه الله أجرَ اثنين وسبعين صدِّيقاً)** [الفقرة/ ١٠٠].

والنبيُّ الخاتم ﷺ يشير إلى أن الشابَّ ـ أيّ شابّ ـ هو مدعوٌّ إلى:

١ ـ أن يزهد في الدنيا.

وقد قدمنا ـ في فصلٍ سابقٍ ـ ما هو المراد بـ(الدنيا)، كما بيَّنا فيه تفسيراً دقيقاً لـ(الزهد)[2].

٢ ـ أن يتجنب الشواغل والملهيات.

وهي ـ باختصارٍ شديدٍ ـ: كلّ ما من شأنه تعطيل مسيرةَ التكامل في الصراط المستقيم، أو عرقلتها. من دون فرق بين أن تكون هذه الشواغل والملهيات من: المحرمات، أو المكروهات، وإن كان الأمرُ في المحرم أعظمَ.

٣ ـ أن يستثمر شبابَه في العمل الصالح.

ولا يتحقق ذلك بغيرِ طاعةِ الله تعالى؛ التي تستوعب جميعَ مناحي الحياة الخاصة والعامة، والظاهرة والباطنة. وقد أجاد مَن أفاد بقوله: الأعمال الصالحة هي التي تحفظ الأخلاق الحسنة. والأخلاقُ الحسنةُ هي التي تحفظ المعارف الحقة والعلوم النافعة والأفكار الصحيحة)[3].

ثم إنه ﷺ، وهو الصادق، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم/ ٣ ـ ٤]، يعِد مَن يكون كذلك بمكافأةٍ تشرئب لها نفوسُ أهلِ العقل والحكمة، وهي: أن الله تعالى سيعطيه أجراً مضاعفاً يعدل ما يعطيه لسبعين صدِّيقاً.

---

(١) في نسخة الأمالي: الدنيا ولهوها.

(٢) انظر: الفصل ٢٦ من هذا الكتاب تحت عنوان (كيف نتعامل مع الدنيا).

(٣) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٥، ص٢٦٩، ذيل قوله تعالى، كلام في طريق التفكر...

وقد تسأل، قائلاً: من هو الصدِّيق الذي يحفزنا رسولُ الله ﷺ أن نعمل ما نحظى بأجر سبعين من أمثاله؟

والجواب: إن الله تعالى يقول ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد/ ١٩]. فالصدِّيق؛ على هذا، هو المؤمنُ حقاً (الذي يبالغ في الصدق؛ فيقول ما يفعل، ويفعل ما يقول، لا مناقضة بين قوله وفعله)[١].

والصدِّيق صيغة مبالغةٍ من الصدق. لذلك، فإن الصدِّيق هو (الذي لا يكذب أصلاً، وهو الذي لا يفعل إلا ما يراه حقاً من غير اتباع لهوى النفس، ولا يقول إلا ما يرى أنه حقٌّ، ولا يرى شيئاً إلا ما هو حقٌّ؛ فهو يشاهد حقائقَ الأشياء، ويقول الحقَّ ويفعل الحقَّ)[٢].

وفي الخبر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: **أعينونا بالورع، فإنه من لقي الله عزّ وجلّ منكم بالورع كان له عند الله فَرَجٌ، وإن الله عزّ وجلّ يقول ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء/ ٦٩]. فمنّا النبي، ومنا الصدِّيق، والشهداء، والصالحون)**[٣].

---

(١) المصدر السابق، ج١٤، ص٥٦، ذيل قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم/ ٤١].
وقال رحمه الله في موضع آخر: هو أن يرى الصدقَ في كلِّ مدخلٍ منه ومخرج، ويستوعب وجوده؛ فيقول ما يفعل، ويفعل ما يقول، ولا يقول ولا يفعل إلا ما يراه ويعتقد به. وهذا مقام الصديقين) [الميزان في تفسير القرآن، ج١٣، ص١٧٦، ذيل قوله تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ...﴾ الإسراء/ ٨٠].

(٢) المصدر السابق، ج٤، ص٤٠٨، ذيل الآية الكريمة.
وقال رحمه الله في موضع آخر: هو أن يرى الصدقَ في كلِّ مدخلٍ منه ومخرج، ويستوعب وجوده؛ فيقول ما يفعل، ويفعل ما يقول، ولا يقول ولا يفعل إلا ما يراه ويعتقد به. وهذا مقام الصديقين) الميزان في تفسير القرآن، ج١٣، ص١٧٦، ذيل قوله تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ...﴾ [الإسراء/ ٨٠].

(٣) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٧٨، كتاب الإيمان والكفر، باب الورع، الحديث ١٢.

وأخيراً، فإنه لا غرابة في أن يكون الصدِّيق ـ بهذا التعريف وهذه الخصائص ـ له هذه المكانة بأجرها ونورها عند الله تعالى.

كما لا غرابة في أن يحفِّزنا نحو الصراط المستقيم بأن يعِدنا بأجرٍ سبعين من هذا الصنف من الناس، جعلنا الله وإياكم منهم.



الفصل التاسع والأربعون

الذكر في الغفلة

● [الفقرة/ ١٠١]:

(يا أبا ذرّ! الذاكرُ في الغافلين كالمقاتل في الفارِّين).

سبق أن قدّمنا فصلاً بعنوان (الذكر الواعي)؛ وهو الفصل (٣٥)؛ بيَّنَّا فيه أهمية الذكر وفلسفته، فليُرَاجع.

وأما فقرتنا ـ هذه ـ فتؤكِّد على أهمية أن يكون الذكرُ مستوعِباً لحياة الإنسان؛ بأن لا يكون موسمياً مؤقتاً؛ تدعو له مصلحةٌ طارئةٌ، بل ينبغي أن يكون الذكرُ حاضراً في حياة الذاكر؛ بالخصوص في مواطن الغفلة؛ وفقاً للنص.

وأما الأسباب في أهمية الذكر في موطن الغفلة فعديدة؛ منها:

١ ـ أن الإنسانَ الذاكرَ؛ في موطن الغفلة، يؤكد أن الله تعالى سيادةً شاملةً وكاملةً على حياة الإنسان.

وينبغي التأكيدُ على أن الذكر يساوق العبادةَ؛ التي هي مفهومٌ واسعٌ يستوعب جميع مناحي الحياة. قال تعالى ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف/ ٤٠]. فقد ربطت الآية العبادة بالحكم، وحصرتهما معاً في الله تعالى، فلا حكم لغيره، ولا عبادة لسواه.

٢ ـ أن الذاكرَ يؤكد على أنه محتاجٌ دائماً للمذكور؛ وهو الله تعالى. قال

تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر/ ١٥]. لذلك، فإنه دائبٌ على ذكر الله تعالى.

٣ ـ أن الذاكرَ يؤكد محبته لله تعالى؛ بحيث لا يشغله عنه شاغلٌ. قال تعالى ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور/ ٣٧].

وتلخّص فقرةُ البحث من الوصية هذه الأسبابَ والأهميةَ؛ بتشبيه الذاكر في الغافلين بالمقاتل بين الفارّين. ولا يخفى أن المقاتلَ إذا قيس بالفارّ، فإنه يحكي الثباتَ والصدق في مقابل الخيانة للمبادئ.

ونخلص إلى: أن الذكرَ في حياة الإنسان التكاملية ـ على أساس الصراط المستقيم ـ هو أمرٌ ضروريٌّ جداً ضرورةَ مواجهةِ العدو في معركةٍ شرسةٍ.

ولا ينبغي الغفلةُ عن أن الأمرَ ليس مجردَ تشبيهٍ، ولا تفنناً في التعبير، فنحن ـ بحقٍّ ـ في معركةٍ ضاريةٍ.

قال تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس/ ٦٠ ـ ٦١].

وقال تعالى ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة/ ١٥١ ـ ١٥٢].



الفصل الخمسون

تصحيح القيم

(المجالسة والكلام والصحبة نموذجاً)

● **[الفقرة/ ١٠٢]**:

> **(يا أبا ذرّ! الجليسُ الصالحُ خيرٌ من الوحدة، والوحدةُ خيرٌ من جليسِ السوء، وإملاءُ الخير خيرٌ من السكوت، والسكوتُ خيرٌ من إملاء السوء).**

مع هذا المقطع؛ وما بعده، ينتقل بنا الرسولُ ﷺ في ساحةٍ من الساحات التي لا مناص من الاجتهاد الشديد فيها؛ تفهماً وتطبيقاً. وذلك، من أجل توفير البيئة الحاضنة لصناعة السائر على الصراط المستقيم.

ولما كانت (منظومة القيم) ذاتَ أهميةٍ فائقةٍ في هذا المجال، فقد اخترنا عنوان (تصحيح القيم) كمحور لمعالجة عددٍ من الفقرات في هذه الوصية، ساق لنا فيها نبينا الكريم ﷺ ثلاثةَ نماذج؛ ينبغي لنا أن نقف عندها طويلاً؛ مبتعدين ـ قدر الطاقة والوسع ـ عن التسيب فيها والابتذال، مقترِبين ـ ما استطعنا ـ من الانضباط في أعلى درجاته ومراتبه.

المسألة الأولى ـ القيم بين الاستقامة والاعوجاج

ماذا نعني بـ(تصحيح القيم)؟

الجواب: إن ما يحرك الإنسانَ؛ أيَّ إنسانٍ، إنَّما هو قيمُهُ، التي هي ليست سوى قناعاته التي آمن بها، ورؤاه التي تشكلت في وعيه؛ عن نفسه، وعن الواقع الخارج عن ذاته.

وهذه القيمُ يمكن أن تكون مطابقةً للواقع الموضوعي، ويمكن أن تكون مخالفةً له. وبالطبع، فإن جميعَ الناس تقريباً يرون صوابَ قناعاتهم وصحةَ رؤاهم. وهنا مكمنُ الخطر؛ فإن الجاهلَ إذا لم يكن يعرف فإن جهلَه سيكون مضاعفاً؛ لأنه جاهلٌ ولا يعرف أنه جاهلٌ، وهو مخطئٌ لكنه لا يرى أنه مخطئٌ! وهذا ما يُعرَف ـ في علم المنطق ـ بـ(الجهل المركب)[1].

ولو سألت: كيف نعالج جهلَ الجاهل، ونصوِّب خطأَ المخطئ؟

الجواب: إن لذلك عدةَ طرقٍ، منها:

أولاً: أن نعلّمه؛ فإنه إذا أدرك جهلَهُ أذعن لمعلِّمه.

ثانياً: أن نبيِّن له جهلَهُ بجهلِهِ.

ثالثاً: أن نسد عليه المنافذَ التي من شأنها أن تؤدي به إلى نتائجَ خاطئةٍ.

وهذا الأخير هو الذي صار النبي ﷺ بصدد التأكيد عليه؛ في هذا المقطع من الوصية؛ حيث نبَّه أبا ذر (رضوان الله عليه)؛ وكلَّ مستوصٍ، إلى لزوم تصحيح القيم؛ ببيان أنها إذا اعوجَّت أدَّت بصاحبها إلى عواقبَ وخيمةٍ، فقال:

---

(١) قال الشيخ محمد رضا المظفر في تعريفه: أن يجهل شيئاً وهو غير ملتفتٍ إلى أنه جاهلٌ به، بل يعتقد أنه من أهل العلم به، فلا يعلم أنه لا يعلم؛ كأهل الاعتقادات الفاسدة؛ الذين يحسبون أنهم عالِمون بالحقائق وهم جاهلون بها في الواقع).
وعن سبب وصف بالمركب، قال: يسمون هذا مركباً؛ لأنه يتركب من جهلين: الجهل بالواقع، والجهل بهذا الجهل) المنطق، ج١، ص١٩، مبحث الجهل وأقسامه.

١ ـ (يا أبا ذرّ! الجليسُ الصالحُ خيرٌ من الوحدة، والوحدةُ خيرٌ من جليسِ السوء) [الفقرة/ **١٠٢**].

فالناس ـ كما نلمس في أنفسنا ـ اجتماعيون عادةً. لذلك، فإنهم يكرهون الوحدة، وينشدون ـ غالباً ـ الصاحب والصديق والجليس؛ رجاء الأنس بهم، والانتفاع من خدماتهم، ودفع المكاره بمعونتهم.

وهذا ـ بالطبع ـ أمرٌ مشروعٌ وإيجابيٌّ، لكننا قد نبالغ ونفرِط في البحثِ عن الجليس، ولا يهمنا عندها لو كان سيئاً، مع كلّ ما يمكن أن يترتب عليه من مخاطرَ.

فجاء هذا التوجيهِ النبويِّ ليؤكد على أن قيمةَ المجالسةِ إنَّما تكون إيجابيةً بقدر ما يترتَّب عليها من منافع. وهذا لا يتحقق إلا من الجليس الصالح، فالجلوس مع مثل هذا الجليس هو **(خيرٌ من الوحدةِ)**.

أما جليس السوء؛ في قوله أو فعله أو مشاعره وفكره وتفكيره، فلا فائدةَ من مجالسته، بل هو الضرر والسم النقيع بعينه. ولهذا، صحت مقولة **(الوحدةُ خيرٌ من جليس السوءِ)**.

٢ ـ (وإملاءُ الخير خيرٌ من السكوت، والسكوتُ خيرٌ من إملاء السوء) [الفقرة/ **١٠٢**].

وهكذا نقول عن الحديث الذي تميل نفوسُنا إليه دائماً، غافلين عن أنه مسؤوليةٌ؛ فـ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق/ ١٨]. وليس هذا إلا لِما يترتَّب عليه من مخاطر لو كان الكلام غيرَ سديدٍ.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة، يؤكد الرسول ﷺ أن الكلام يجب أن يتسم بسمةِ الخير، وحين ذاك ـ فحسب ـ يكون الكلامُ قيمةً إيجابيةً. وعندئذٍ تتحقق مقولته ﷺ التي تنصّ على **(وإملاءُ الخيرِ خيرٌ من السكوتِ)**.

وإلا أصبح وبالاً على قائله، وانقلب إلى قيمةٍ سلبيةٍ تعود بصاحبه القهقرى، وينطبق الشق الآخر من هذا القانون، وهو قوله ﷺ **(والسكوتُ خيرٌ من إملاء الشرِّ)**.

المسألة الثانية ـ توسعة المفاهيم

من أجل المحافظة على جوهر هذه الوصية ينبغي أن نلفت النظرَ إلى أن ما ذكره النبي ﷺ يمكن توسعته؛ بإلغاء الخصوصية.

فنقول: إنه عالج قِيماً كبرى، وما ذكره ـ نصاً ـ ليس سوى نموذجٍ نتعرف من خلاله على قانونٍ عامٍّ؛ ينبغي أن تتأطر حياتُنا به؛ شكلاً ومضموناً.

فالمجالسة ـ الإيجابية والسلبية معاً ـ ليست مقصورةً على المجالسة الحية، بل إنها تتوسع إلى المجالسة غير المباشرة؛ كقراءة الكتب، ومطالعة وسائل الإعلام المرئية، ونحوها. كما أن إملاءَ الخير لا يقف عند حدود التلفظ باللسان، بل يشمل مختلفَ أشكال التعبير؛ اللفظي، والكتابي، والفني؛ ليدخل في ذلك كتّابُ الصحف والمؤلفون والإعلاميون، وأمثالهم ممن يزاول الكتابة؛ احترافاً أو هوايةً.

فعلى جميع هؤلاء أن يحرصوا على مجالسة الصالح؛ إنساناً أو كتاباً أو فيلماً... فالإنسان السيئ، والكتاب السيئ، والفيلم السيئ، وما أشبه ذلك، لا ينبغي أن يشغل الإنسانُ وقتَهُ بمجالسته؛ لأنّ ضررَ مجالسةِ مثلِهِ سيكون كبيراً، وعاقبة هذه المجالسة وخيمةً.

كما أن المتحدثين، والكتّاب، وأمثالهم، يلزمهم الاقتصارُ ـ في أحاديثهم، وكتاباتهم ـ على ما هو نافعٌ ومفيدٌ لهم وللآخرين؛ وإلا فإن السكوت من ذهب.

قال أبو حامد؛ عن اتساع عنوان الغيبة واشتماله لغير القول:

اعلم أن الذكر باللسان، إنّما حرُم لأنّ فيه تفهيمَ الغير نقصانَ أخيك، وتعريفَه بما يكرهه؛ فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول. والإشارة، والإيماء، والغمز، والهمز، والكتابة والحركة، وكلُّ ما يفهِم المقصودَ، فهو داخلٌ في الغيبة، وهو حرام)[1].

---

(١) الغزالي، أبو حامد (ت٥٠٥ هـ)، إحياء العلوم، ج٩، ص٥٣، بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان طرق الغيبة المختلفة وأمثلتها. وتبناها كلٌّ من الفيض الكاشاني في المحجة البيضاء، ج٥، ص٢٥٨. والشهيد=

المسألة الثالثة ـ الأصحاب والصحبة

لـ(الصحبة والصحابة) مداليلُ عديدةٌ، فهي لا تقف ـ عادةً ـ عند حدودِ مرافقةٍ في طريقٍ، أو مجالسةٍ في محفل، بل تتجاوز ذلك إلى التعريف بشخصيةِ الصاحب وصاحبه؛ على مستوى الرؤى والقيم والمواقف، لِما نعهده من التأثر والتأثير في الصاحب ومنه.

وعلى كلّ حال، فالنبيُّ ﷺ يوصي أبا ذر (رضوان الله عليه) ـ هنا ـ بأن يكون شديدَ الصرامة في تطبيق قواعد اختيار الأصحاب؛ وذلك بقوله:

- **[الفقرة/ ١٠٣]:**

٣ـ(يا أبا ذرّ! لا تصاحِب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامَك إلا تقيٌّ، ولا تأكل طعامَ الفاسقين).

فالمصاحبة ـ في المنطق النبوي ـ ينبغي أن تقتصر على المماثِل؛ وهو المؤمن؛ لأنّ للصحبةِ ـ كما قدمنا قبل قليلٍ ـ مداليلَ تفرض على المؤمن مصاحبةَ مثلِهِ، ويتحرَّج قدرَ المستطاع من مصاحبةِ أضدادِهِ. يدفعه إلى ذلك حرصُهُ الشديد على بقاءِ إيمانِهِ ونقائِهِ، وعزمه على العمل بتوجيه نبيه ﷺ؛ الذي يراعي مصلحتَه أشدَّ من مراعاته هو لمصلحةِ نفسِهِ.

كما أن المؤمن يحرص على أن لا يخالطه؛ في مأكله ومشربه، غيرُ المؤمنين؛ لأنّ لذلك آثاراً سلبيةً تمنعه من مثل هذه المخالطة. كما أنه شديدُ الحرص على التأكد من توفُّر الضوابط الشرعية في ما يأكله.

ومن هنا، فإنه لا يأكل طعامَ الفاسقين؛ الذين لا يهمهم توفُّر مثل تلك الضوابط؛ في ما يأكلونه ولا في ما يقدمونه لمصاحبيهم. والفاسقون منسجمون ـ

=الثاني رحمه الله؛ في أقسام الغيبة والترهيب عنها، من كشف الريبة ص١٤. ونقلها عنه الشيخ المجلسي في ج٧٢، ص٢٢٤. وكذلك ذكرها الشيخ النراقي في جامع السعادات؛ عن نفسه، في فصل جعل عنوانه (لا تنحصر الغيبة باللسان)، ج٢، ص٢٢٨.

في ذلك ـ مع قناعاتهم ومنطلقاتهم الفكرية. فالمؤمن لا يفرِّط في إيمانه ولا يخالف قناعاته، كما أن الفاسقَ لا يعنيه أن يأكل حلالاً أو حراماً.

● [الفقرة/ ١٠٤]:

٤ ـ (يا أبا ذرّ! أطعِم طعامَك مَن تحبه في اللهِ.
وكُلْ طعامَ مَن يحبك في الله عزّ وجلّ).

في هذه الفقرة يؤكد النبيُّ ﷺ على أبي ذر ﵁ أن يجسد إيمانَهُ في سلوكه الاجتماعي؛ فلا يعيش العزلةَ، بل ينبغي له أن يقترب من المؤمنين أمثاله؛ فيصحبهم كما يصحبونه، ويدعوهم إلى موائده، كما يفترض بأولئك المؤمنين أن يدعوه إلى موائدهم.

وينبغي أن يحفِّزه إلى دعوة المؤمنين وقبول دعوتهم حبُّهُ لله وحبُّ مَن يحبه اللهُ. فإن في مثل هذا السلوك الاجتماعي الرقيق تأكيداً للحمة الإيمانية للمجتمع؛ وهي المطلوبة، والمرفوضُ ـ مطلقاً ـ العملُ على تقويضها؛ بفعلِ ما لا يجيز الشارعُ المقدسُ فعلَهُ دون مُسوِّغ شرعيٍّ؛ وفقاً للتفاصيل المبيَّنة في كتب الفتوى والأخلاق.



الفصل الحادي والخمسون

اللسان بين النعمة والنقمة

قيل إن اللغة هي أعظم اختراعات الإنسان، أو أعظم إلهامات الله تعالى عنده. وهو كلامٌ دقيقٌ؛ باعتبار أن التواصلَ بين الناس، وما ترتب عليه من فوائد، لا يكاد يعدله شيءٌ آخر أهميةً، فلولا اللغة لَما تأتّى لأحدٍ أن يَفهم ما توصل إليه الآخرُ؛ من مفاهيم ورؤى، ولتخلّفت البشرية عمّا هي عليه الآن، ولظلت حبيسةَ بدائيتِها؛ التي كان عليها البشرُ في بواكير حياتهم الاجتماعية؛ ممَّا يُعرف بـ(ما قبل التاريخ).

وفي هذا السياق، امتنَّ الله تعالى على الإنسان بنعمة اللغة؛ حيث يقول ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن/ ٣ ـ ٤].

وفي الآيةُ الكريمة تأكيدٌ في الامتنان بالبيان؛ الذي هو تعبيرٌ آخرُ عن اللغة؛ التي هي القدرة الإنسانية على التعبير عمّا يجول بخاطره، ويغلب أن تكون باللسان؛ غير أنها قد تتخذ شكلاً ثانياً؛ وهو التعبير بالبنان؛ أعني (الكتابة).

وفسر البيان ـ كما ذكرناه في فصلٍ سابقٍ ـ بـ(النطق، والكتابة، والخط، والفهم، والإفهام؛ حتى يعرف ما يقول، وما يقال له)[1]. كما فُسِّر بأنه (التعبير عمّا في الضمير وإفهام الغير لما أدركه لتلقي الوحي وتعرف الحق وتعلم الشرع)[2].

---

(١) الطبرسي، أبو علي (ت٥٤٨ هـ)، مجمع البيان، ج٩، ص٣٣٠، ذيل الآية الكريمة.

(٢) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج٥٧، ص٢٨٣، الباب ٣٩ ـ فضل الانسان وتفضيله على الملك وبعض جوامع أحواله.

وفي هذا السياق صحّ القول إنّ (وضع الألفاظ وإحداث الموضوعات اللغوية من أعظم الألطاف الربانية، وأتم النعم الإلهية)[1].

ولولا اللغة/اللسان لَما أمكن للأنبياء عليهم السلام أن يبلّغوا ما كلّفهم الله بتبليغه. ومن هنا قال تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم/ ٤]. وهذا وجهٌ من وجوه النعمة.

غير أن ثمة وجهاً آخر لهذه النعمة؛ وهو أن يحوِّلها الإنسانُ إلى نقمةٍ، بقصدٍ حيناً وبغيرِ قصدٍ حيناً آخر.

وذلك بأن يوظفها توظيفاً سيئاً ـ بوعيٍ وقصدٍ تارةً، وبغيرِ قصدٍ ولا وعيٍ تارةً أخرى ـ قد ينتهي بصاحبه إلى أن يهوي من علياء الكمال إلى حضيض الانحطاط.

والرسولُ صلى الله عليه وآله؛ في وصيته هذه، بصدد تبيان جوامع الخير؛ التي على أبي ذر (رضوان الله عليه) وغيرِه؛ ممن يعنيه أمرُ نفسِهِ على أساس الصراط المستقيم، أن يعيها أولاً، ويرعاها ثانياً، فـ**(رواةُ العلمِ كثيرٌ، ورُعاتهُ قليلٌ)**[2]؛ كما قال الإمام علي عليه السلام.

لذلك، أخذ النبيُّ صلى الله عليه وآله في تعدادِ بعضِ هذه الآفات؛ باعتبارها تشكِّل أسباباً للمساءلة بين يدي الله تعالى، ومؤاخذته سبحانه لمرتكِبِها في الآخرة؛ بعد أن تترك آثارَها السلبيةَ على صاحبها في الدنيا، وهذه الآفاتُ عديدةٌ؛ ذكر النبيُّ صلى الله عليه وآله بين يديها؛ ومقدمةً لها، بعض المقدمات:

المقدمة الأولى: الرقابة الإلهية

- **[الفقرة/ ١٠٥]:**

> **(يا أبا ذرّ! إن الله عزّ وجلّ عند لسانِ كلِّ قائلٍ، فليتقِ الله امرؤٌ، وليعلمْ ما يقول).**

---

(١) الطاطبائي، السيد محمد علي (ت١٢٤١ هـ)، ص٢٦٤، طبعة حجرية دون تاريخ.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٩.

والنصُّ ـ هنا ـ واضحٌ؛ في أن اللازم على المتكلم ـ أياً كان، وفي أي زمان ومكان ـ أن يراعي في كلامه ما يلي:

أولاً ـ أن يعيَ الرقابةَ الإلهيةَ على الكلمة؛ تطبيقاً لقانونٍ لا يختلف، ولا يتخلف، نصَّ على أن الإنسان ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق/١٨].

ثانياً ـ أن يبني المتكلمُ ما يصدر عنه؛ بلسانه أو بنانه، على أساس العلم بأن ما يقوله؛ أو يكتبه، صحيحٌ أولاً، وأنه يقرِّبه إلى الله تعالى ثانياً.

المقدّمة الثانية: المسؤولية والمساءلة

- **[الفقرة/١٠٦]**:

(يا أبا ذرّ! اترك فضولَ الكلامِ، وحسبك؛ من الكلام، ما تبلغ به حاجتك).

هذه الفقرة؛ من الوصية الشريفة، تنبِّه السامعَ والقارئَ ـ معاً ـ أن الكلام؛ باللسان أو البنان، يجب أن يُراعَى فيه: أنه فعلٌ من الأفعال التي سيُسأل عنها صاحبُها يوم القيامة. فإن كانت من النوع الحسن أُثيب عليها، وإن كانت من النوع القبيح عُوقب؛ أو عُوتب، على فعله إياها؛ تطبيقاً لقانون ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف/٤٩].

وإذا كان الأمرُ على هذا النحو فإن على الإنسانِ أن يراعي الدقةَ التامةَ في أقواله وأفعاله، فلا يقوم بأيِّ شيءٍ منها إلا بعد أن يتحقق أنه مقرِّبٌ له إلى الله تعالى.

ومن المعلوم أنه ليس كلُّ كلام كذلك؛ كما لا يخفى على كلِّ عاقلٍ.

لذلك، فإن فضولَ الكلام ـ وهو ما لا فائدة فيه ولكنه في الوقت نفسه ليس مصداقاً بالضرورة للمعصية؛ حتى يكون سببٌ للعقاب ـ سبباً لحرمانِ قائلِه مِن فعل ما يُعلي من درجته. وسيكون ـ بالتالي ـ سبباً للعتاب والحسرة على الأقل.

ومن هنا، فلا ينبغي له أن يتلفظ به بلسانه، ولا يخطه بقلمه. بل عليه أن يحرص على أن يقتصر في الكلام على الحاجة؛ التي هي إيصال ما يُراد إيصاله؛ على وجه اللزوم أو الندب؛ من تبيينِ فكرةٍ صائبةٍ، أو تقويمِ خطأٍ، أو رفع خطيئةٍ، ونحو ذلك، ممَّا يكون منتظماً في سياق الأمر بالمعروف، أو النهي عن المنكر، أو إرشاد الضال، أو تعليم الجاهل، ونحو ذلك ممَّا يطلب شرعاً أو عقلاً.

وفي ذلك جاء الخبر الشريف؛ المروي ـ مستفيضاً ـ عند الفريقين: **من حُسنِ إسلامِ المرءِ تركهُ ما لا يعنيهِ)**[(١)].

المقدّمة الثالثة: الوقاية قبل العلاج

● **[الفقرة/ ١٠٨]:**

(يا أبا ذرّ! ما من شيءٍ أحقُّ بطولِ السجن من اللسان)[(٢)].

في هذه الفقرة بيانٌ لِما ينبغي أن نعتمده كخطةٍ ومنهجٍ للتعامل مع شهوة

---

(١) روي هذا الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وروي ـ أيضاً ـ عن بعض أهل بيته عليهم السلام.
فقد رواه في وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، كتاب الحج، أبواب العشرة، باب وجوب أداء حق المؤمن، الحديث ٢٤، عن الإمام السجاد عليه السلام، عن قرب الإسناد. ورواه ـ أيضاً ـ في ج١٢، ص١٩٠، في الباب ١٢٠ ـ كراهة كثرة الكلام بغير ذكر الله، من أبواب العشرة من كتاب الحج، عن كتاب الزهد للأهوازي، عن الإمام الباقر عليه السلام، الحديث ١١.
ورواه الشيخ النوري في مستدرك الوسائل، ج٩، ص٣٤، كتاب الحج، أبواب العشرة، ١٠٣ ـ باب كراهة كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى، الحديث ٢٢.
ورواه مالك؛ عن النبي صلى الله عليه وآله؛ في الموطأ، ج١، ص٢٢٤، باب حفظ اللسان؛ وكذلك ابن ماجة؛ في سننه، ج٢، ص١٣١٥، باب كف اللسان في الفتنة، برقم (٣٩٧٦).

(٢) أورد هذه الفقرة الشيخ الحر العاملي؛ في وسائل الشيعة، ج١٢، ص١٨٨، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١١٨ ـ استحباب اختيار الكلام في الخير، الحديث ١، وقد جاء في ما رواه (سمع) بدل (يسمع).
وأوردها السيد البروجردي، في جامع أحاديث الشيعة، ج١٣، ص٤٩٣، كتاب الجهاد، أبواب جهاد=

الكلام؛ التي هي مركوزةٌ في بني آدم جميعاً. ولكننا ـ في الوقت نفسه ـ ندرك بوعينا أن على كلٍّ منا ضبطَ شهواتِهِ في أغلب الأحيان.

وما من شك في أن اللسان ـ بالخصوص ـ يجب أن يمارَس في حقه أعلى درجات الضبط (الحبس)؛ وإلا فإن الخطرَ عظيمٌ. وقد صدق رسول الله ﷺ؛ حيث قال لمن استوصاه: **احفظْ لسانَك، وهل يُكِبُّ الناسَ على مناخرِهم في النارِ إلا حصائدُ ألسنتِهم)**[1].

وبالطبع، فإن المقصودَ ليس هو الصمت مطلقاً، فإن هذا محرمٌ في شريعة الإسلام[2]؛ لأنّ ذلك يعني أن نهمل بعض الواجبات كالصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الواجبين. وإنما يُقصد منه الصمت عن الكلام المحرم، أو الكلام المكروه.

المقدّمة الرابعة: إطلاقُ اللسان نارٌ محرقةٌ

● [الفقرة/ ١١٠]:

(يا أبا ذرّ! ما عمل مَن لم يحفظ لسانه)[3].

=النفس وما يناسبه، الباب ٣٠ ـ استحباب الصمت والسكوت إلا عن الخير، واستحباب اختيار الكلام في الخير، الحديث ٤٩.

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص١١٥، كتاب الإيمان والكفر، باب الحفظ والصمت، الحديث ١٤.

وهي إحدى فقرات هذه الوصية، ووضعناها تحت الرقم (١٤٥)، وسنتعرض لها لاحقاً إن شاء الله تعالى.

(٢) قال الفقيه النراقي؛ في سياق تعداد أنواع الصوم المحظور:

الرابع: صوم الصمت، ولا خلاف في حرمته، بل عليه الإجماع...) مستند الشيعة، ج١، ص٥١٠.

وقال ابن قدامة في المغني، ج٣، ص٢٠٢:

وليس من شريعة الإسلام الصمت عن الكلام، وظاهر الأخبار تحريمه). وذكر ذلك أيضاً صاحب الشرح الكبير على المقنع، ج٣، ص١٤٩.

(٣) ابتداءً من هذا الفصل راعينا الترتيب الموضوعي للفقرات، مع الإشارة إلى ترقيمها ليعرف تسلسلها=

ما من أحدٍ يعمل صالحاً إلا وهو يفرح بما عمل، ولا يؤثّر ذلك ـ سلبياً ـ في عمله، ولكن كثيراً من هؤلاء الناس يغفلون عن أن حفظَ العمل أهمُّ كثيراً من أصل العمل.

ومن هنا، جاءت هذه الفقرة لتحذر من أن الكلام قد يأتي على أعمالنا الصالحة فيفنيها عن آخرها؛ بسبب ما تحدثه من حرائق تأكل الأخضر واليابس، وسيأتي ما يناسب المقام؛ عند حديثنا عن قول النبي ﷺ؛ في وصيته هذه:

(**يا أبا ذرّ! إن الرجل يتكلم بالكلمةِ؛ في المجلس؛ ليضحكهم بها، فيهوي في جهنم ما بين السماء والأرض**) [الفقرة/ ١٤٦]؛ فانتظر.

المقدمة الخامسة: الكلامُ الحسنُ حسنٌ

- **[الفقرة/ ١١٣]:**

(يا أبا ذرّ! الكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ، وكلُّ خطوةٍ تخطوها إلى الصلاة صدقةٌ).

وأخيراً، فإن الرسول ﷺ ينبهنا إلى أن التحذير من الكلام لا يعني ـ أبداً ـ السكوتَ والصمتَ؛ لأنّ الكلام ـ كما قدمنا ـ نعمةٌ، والمطلوبُ إنَّما هو تجنُّبُ سوءِ التوظيف فحسب.

أما إذا أردنا من الكلام ـ بكل صنوفه ـ قولَ الخير والتحدثَ بـ(الكلمة الطيبة)؛ التي هي: كلّ ما فيه نفعٌ للعباد والبلاد، فإننا نكون ـ بذلك ـ قد حوَّلنا الكلامَ إلى محرابٍ نمارس فيه تعبداً لله تعالى؛ نستحق عليه الثواب والجزاء بالأحسن، تماماً كما نُثاب على فعل الصلاة، بل على كلّ خطوةٍ نخطوها في سبيلها.

=ضمن فقرات الوصية. وعلى من أراد متابعة الفقرات في الوصية؛ كما رويت، مراجعة نصها؛ الذي أثبتناه في أول الكتاب.

عن أبي عبدالله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: **قال رسول الله: والذي نفسي بيده! ما أنفق الناسُ من نفقةٍ أحبَّ من قولِ الخير)**[(١)].

ومن لطائف ما لَفَتَ الرسولُ صلى الله عليه وآله نظرَنا إليه ـ في هذه الفقرة ـ هو أن الكلام مع الآخرين نظيرٌ للصدقة على المستحِق من الناس. ونعرف ـ جميعاً ـ ما للإنفاقِ في سبيلِ الله من فضلٍ عظيمٍ[(٢)].

والشرط ـ هنا ـ ليس أكثرَ من اتصاف الكلمة بأنها (طيبة)؛ أي مفيدةٌ ونافعةٌ؛ وهو وصفٌ مطلقٌ يعمّ ما كان للدنيا أو للآخرة.

كما أن هذه الفقرة تفتح الأفق للناس ـ جميعاً ـ على أبواب الخير. ذلك أن الأغنياء قد يتمكنون من الصدقة؛ وهي من أفضل المندوبات، غير أن الفقراء المعدمين قد يحسبون أنهم محرومون من الصدقة؛ باعتبارهم فقراء لا يملكون ما يتصدقون به.

فجاء هذا الهدي النبوي ليقول للفقراء: لم تُغلَق دونكم أبوابُ الخير، فإن لم تكونوا ممن يملك المال فتتصدقوا به وتكونوا من المتصدقين، فإنكم ـ بالتأكيد ـ تملكون الكلام، وبإمكانكم أن تتصدقوا به؛ عبر تخيُّر الطيب منه. كما أنكم تتمكنون من السير إلى المساجد لأداء الصلاة فيها؛ جماعات وأفراداً، وكل خطوة في هذا الطريق تحتسب لكم صدقة؛ وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال **(كل معروف صدقة)**[(٣)].

---

(١) المحاسن للبرقي، وعنه: وسائل الشيعة، ج١٦، ص١٢٣، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي، الباب ١ ـ وجوبهما، وتحريم تركهما، الحديث ١٥.

(٢) وفي الخبر عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام، قال: **إن الله يقول: ما من شيءٍ إلا وقد وكَّلتُ به مَن يقبضه غيري؛ إلا الصدقة؛ فإني أتلقفها بيدي تلقفاً؛ حتى أن الرجل يتصدق بالتمرة؛ أو بشق تمرة، فأربيها له كما يربي الرجل فلوه وفصيله؛ فيأتي يوم القيامة وهو مثل أُحُد؛ وأعظم من أحد)** [الكافي، وعنه وسائل الشيعة، ج٩، ص٣٨٢، كتاب الزكاة، أبواب الصدقة، الباب ٧ ـ استحباب الصدقة؛ ولو بالقليل، على الغني والفقير، الحديث ٧].

(٣) قطعة من حديث رواه الشيخ الطوسي في الأمالي، وعنه: وسائل الشيعة، ج٩، ص٣٨١، كتاب الزكاة، أبواب الصدقة، الباب ٧ ـ استحباب الصدقة ولو بالقليل على الغني والفقير، الحديث ٥. =

وبهذا التوجيه يسد النبي ﷺ أبواب الكسل على السائرين في الصراط المستقيم، أو الراغبين في السير فيه. فلا مندوحة لأيٍّ منهم عن أن يضيف إلى رصيده المذخور عند الله تعالى رصيداً جديداً؛ يثبت نفسه ـ بسببه ـ على الصراط، ويقطع الطريق على الشيطان الترصد له ليضله عن سبيل الله.

وبطبيعة الحال، فإن هذا توفيقٌ يناله أهلُه، جعلنا الله وإياكم منهم. فقد روي عن أبي حمزة الثمالي أنه سمع الإمام الباقر عليه السلام، يقول: **إن من أحب عباد الله ـ إلى الله ـ لَمن حُبِّب إليه المعروفُ، وحُبِّب إليه فعالُهُ**[1].

خاتمة

وما أحسن ما ذكره النبيُّ ﷺ؛ في وصيته هذه، لأبي ذر (رضوان الله عليه)؛ من قولٍ يصلح أن يكون خاتمةً لهذا البحث، وهو:

(**يا أبا ذرّ! مَن ملك ما بين فخذيه وبين لحييه دخل الجنةَ**) [الفقرة/ ١٤٥][2].

فهو ﷺ يجعل خطرَ الكلمة غير المنضبطة بضوابط الشريعة مثيلاً لخطر الشهوة الجنسية؛ إذا لم تنضبط بضوابط الشرع الحنيف؛ بكل ما نعرفه من مخاطرها؛ التي أودت بكثيرين صار مصيرُهم العقوبة الصارمة في الدنيا والعقوبة الأشد في القيامة.

= كما رواه الكليني في الكافي، وعنه وسائل الشيعة، ج٩، ص٤٥٩، أبواب الصدقة، الباب ٤١ ـ استحباب فعل المعروف، وأحكامه، الحديث ١. كما رواه الشيخ الحر في مواضع من كتابه.

ورواه البخاري في صحيحه، في باب حمل عنوان الحديث نفسه، من كتاب الأدب.

كما رواه مسلم في صحيحه، في كتاب الزكاة، الباب ١٦ ـ بيان أن اسم الصدقة يقع على كلّ نوع من المعروف.

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، الكافي، ج٤، ص٢٥، أبواب الصدقة، باب المعروف، الحديث ٣.

(٢) أورد هذه الفقرة الشيخُ الحرُّ العامليُّ؛ في وسائل الشيعة، ج١٢، ص٢٥١، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١٤٠ ـ تحريم الكذب في الصغير والكبير، الحديث ٤.

وأوردها ـ أيضاً ـ السيد البروجردي في جامع أحاديث الشيعة، ج١٣، ص٤٩٤، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٣٠ ـ استحباب الصمت والسكوت إلا عن الخير، واستحباب اختيار الكلام في الخير، الحديث ٥١.

علاج آفات اللسان:

لَما كان أبو ذر (رضوان الله عليه) تلميذاً نجيباً لرسول الله ﷺ فقد بادر إلى التساؤل بقوله:

(قلت: يا رسول الله! وإنا لنؤاخذ بما تنطق به ألسنتنا؟!

قال: يا أبا ذرّ! وهل يُكبُّ الناسَ على مناخرهم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم؟ إنك لا تزال سالماً ما سكتَّ، فإذا تكلمتَ كتب الله لك أو عليك) [الفقرة/ ١٤٥][(١)].

وما أعظمه من هدي وتوجيهٍ؛ فالنبي ﷺ ينبهه؛ وإيانا، إلى أننا لو كنا في مقام المحاسبة الكمية للأسباب التي أودت بأهل النار إليها، لوجدنا البارز فيه هو (الكلمة السيئة)؛ فإنها التي تذهب بهم إلى النار مخذولين مرذولين. ليجعل النبيُّ ﷺ ذلك تمهيداً لِما يجب، أو ينبغي، أن يكون عليه المؤمنُ والمسلمُ؛ من تحري الانضباط والاحتياط التامين؛ لأنّ الأمرَ لا يحتمل التهاون أو التراخي، فيقول ﷺ:

(يا أبا ذرّ! إن الرجل يتكلم بالكلمةِ؛ في المجلس؛ ليضحكهم بها، فيهوي في جهنم ما بين السماء والأرض) [الفقرة/ ١٤٦][(٢)].

وهنا نلفت النظرَ إلى ما يقع فيه كثيرٌ من الناس من استرسالٍ في الأحاديث

---

(١) أورد هذه الفقرة الشيخُ الحرُّ العامليُّ؛ في وسائل الشيعة، ج١٢، ص٢٥١، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١٤٠ ـ تحريم الكذب في الصغير والكبير، الحديث ٤.
وأوردها ـ أيضاً ـ السيد البروجردي في جامع أحاديث الشيعة، ج١٣، ص٤٩٤، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٣٠ ـ استحباب الصمت والسكوت إلا عن الخير، واستحباب اختيار الكلام في الخير، الحديث ٥١.

(٢) أورد هذه الفقرة الشيخُ الحرُّ العامليُّ؛ في وسائل الشيعة، ج١٢، ص٢٥١، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١٤٠ ـ تحريم الكذب في الصغير والكبير، الحديث ٤.
وأوردها ـ أيضاً ـ السيد البروجردي في جامع أحاديث الشيعة، ج١٣، ص٤٩٤، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٣٠ ـ استحباب الصمت والسكوت إلا عن الخير، واستحباب اختيار الكلام في الخير، الحديث ٥١.

الفكاهية والمزاح؛ ممَّا يحرص مرتادو مجالس التفكه والأنس على الاشتغال به عادةً، غافلين عن أن هذا النوع من المجالس هو ما يمكن أن يكون مرتعاً للشيطان؛ يسرح فيه ويمرح؛ بغرض الإيقاع بالمؤمنين في حباله، والوقيعة في ما بينهم؛ بوعيٍ منهم وغير وعيٍ.

فليس كلُّ مزاحٍ يكون مباحاً، بل يجب مراعاة أقصى درجات الانضباط؛ لئلا نقع في ما هو محرمٌ شرعاً؛ من قبيل: إهانة مؤمنٍ يجب احترامُه، أو إيغار صدرِ جماعةٍ على أخرى؛ عبر نكتة تصدر عنّا دون إدراك لأثرها السلبي، وهكذا.

وإن لم نراعِ الانضباط فقد نكون مصداقاً لمن يقصد إضحاك الناس فنهوي في جهنم؛ من حيث لا نريد، أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

ولنورد بعض آفات اللسان؛ كما جاءت في الوصية مورد الشرح:

الآفة الأولى ـ الانطباع الخاطئ

● **[الفقرة/ ١٠٧]:**

(يا أبا ذرّ! كفى بالمرء كذباً أن يحدِّثَ بكلِّ ما يسمع[١])[٢].

هذه الفقرة يمكن تفسيرها بوجوه، منها:

الوجه الأول: أن يقال إنها بصدد تبيين ما يترتب على الهذر من الكلام، الملفوظ منه والمكتوب.

---

(١) في نسخة الأمالي للطوسي (سمعه).

(٢) أورد هذه الفقرة الشيخ الحر العاملي؛ في وسائل الشيعة، ج١٢، ص١٨٨، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١١٨ ـ استحباب اختيار الكلام في الخير، الحديث ١، وفيه (سمع) بدل (يسمع).

وأوردها السيد البروجردي، في جامع أحاديث الشيعة، ج١٣، ص٤٩٣، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٣٠ ـ استحباب الصمت والسكوت إلا عن الخير، واستحباب اختيار الكلام في الخير، الحديث ٤٩، وفيه (سمعه) بدل (يسمع).

ورواها مسلم في صحيحه، ج١، ص٨، عن أبي هريرة، بلفظ: كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع)، باب النهى عن الحديث بكل ما سمع.

وذلك أن السامعين والقراء يرسمون في أذهانهم انطباعاً عن الإنسان من خلال ما يسمعون منه أو يقرؤون له. فإن كان موجِزاً في قوله ودقيقاً كان انطباعهم عنه إيجابياً، وإن كان مسهِباً والكلامُ مهلهلاً كان الانطباع عندهم سلبياً؛ باتهامه ـ على الأقل ـ بعدم الدقة أولاً، ثم بعدم المصداقية ثانياً، انتهاءً بالكذب في المراحل النهائية. وهي أحكامٌ انطباعيةٌ لا يرجوها متكلمٌ لنفسه.

نقول ذلك لعدم احتمال إرادة الكذب بمجرد كثرة الكلام؛ إذ لا تلازمَ بينهما كما لا يخفى.

الوجه الثاني: أن تحمل على أن المقصود بالنهي هو الحديثُ بكل ما يُسمع؛ دون فحص ولا تدقيق، وهذا ما قد يكون سبباً للوقوع في الكذب؛ لأنّ بعضَ ما نسمعه هو بالتأكيد غيرُ صحيحٍ، فإذا تصدينا لنقله وصفنا العارفون بالواقع بالكذب[١].

الوجه الثالث: أن يقال إنّ ما نسمعه ليس صالحاً بأجمعه للنقل، فبعضه ممَّا لا يسوغ نقلُهُ؛ وذلك إذا كان من الأمور الخاصة؛ التي لا يأذن أصحابها، والمعنيون بها، بأن تُشاع وتُذاع؛ ولما كانت المجالس بالأمانات فلا بد من مراعاة هذه الخصوصية، فمَن خالف ذلك لم يفِ بوعده بالمحافظة على ما اؤتمن عليه، وهو بالمعنى العامّ (كذب).

الوجه الرابع: ما حمله بعضهم؛ من: أن المرادَ التحذيرُ عن الظن بسوءٍ في المسلمين، وفي ما يجب فيه القطع من الاعتقاديات)[٢].

والغرض هو لزوم التحرز في النقل؛ بالخصوص في المسائل التي يترتب

---

(١) **أقول**: بعد مدةٍ من تدويني لِما ذكرته أعلاه وجدتُ ابن الجوزي قال: وذلك لأنّ مَن حدث بكل ما سمع؛ من غير أن يميز بين ما تقبله العقول ممَّا لا تقبله، أو من يصلح أن يسمع ما يحدث به ممن لا، نُسب إلى الكذب) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ج٣، ص٥٥٠.

(٢) المباركفوري، محمد عبدالرحمن (ت١٣٥٨ هـ)، تحفة الأحوذي، ج٦، ص١٠٦، باب ما جاء في المزاح.

عليها أثرٌ مهمٌّ؛ من قبيل الأحكام الشرعية والمعارف الدينية. كما أن المطلوب هو النقل بوعي ودراية بالمنقول.

ففي الخبر عن عبد الأعلى بن أعين، قال: **قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جُعِلتُ فداك! حديث يرويه الناسُ أن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قال: حدِّث عن بني إسرائيل ولا حرج).**

قال: نعم.

قلت: فنحدِّث عن بني إسرائيل بما سمعناه ولا حرج علينا؟!

قال: أما سمعتَ ما قال؟! ((كفى بالمرء كذباً أن يحدِّث بكل ما سمع)).

فقلت: وكيف هذا؟

قال: ما كان في الكتاب أنه كان في بني إسرائيل فحدث أنه كان في هذه الأمة ولا حرج)[1].

الآفة الثانية ـ المبالغة في الكلام؛ إيجاباً أو سلباً

● **[الفقرة/ ١١١]:**

(يا أبا ذرّ! لا تكن عيَّاباً، ولا مدَّاحاً، ولا طعَّاناً، ولا ممارياً).

من الآفات التي نُبتلَى بها أننا نبالغ في كلامنا؛ بحيث يتحول الحسن أحياناً إلى قبيحٍ؛ ولو بسبب المبالغة والتضخيم.

أما القبيح فبالتأكيد سيزداد بشاعةً وقبحاً، فمثلاً:

أ ـ التعييبُ

التعييب يحمل على وجهين:

١ ـ إحداث عيبٍ في شيءٍ ما.

---

(١) معاني الأخبار للشيخ الصدوق، وعنه: بحار الأنوار، ج٢، ص١٥٩، كتاب العلم...، الباب ٢١ ـ آداب الرواية، الحديث ٥.

٢ ـ ادعاء وجود العيب في الشيء؛ سواء كان موجوداً أو غيرَ موجودٍ.

والمقصود بالنهي ـ هنا ـ ما كان قبيحاً ومحرماً. وذلك، إذا صدر بالباطل في حقِّ مؤمنٍ؛ لأنه انتهاكٌ لحقه الواجبِ احترامُهُ ومراعاتُهُ، ولكنه يزداد قبحاً إذا صار سمةً من سمات الشخصية، وعادةً من عادات الإنسان؛ وهذا هو الـ(عيَّاب)؛ وهو: مَن يكثر منه التعييب المذموم.

ب ـ المدَّاحُ

المقصود بالمدَّاح ـ هنا ـ: المبالغة في الثناء على ذات أو فعل أو وصفٍ حسنٍ. وهو حسنٌ إذا صدر في حقٍّ من يستحقه، لكنه يتحول إلى عملٍ مذمومٍ إذا كثُر وتجاوز المقدار المحمود؛ حتى صار تكلُّفاً وتملُّقاً، وتحوَّل إلى سببٍ من أسبابِ ازدراءِ مَن يفعله.

والمدح ـ على هذا النحو ـ مضافاً إلى أنه عملٌ مذمومٌ، هو يشيع النفاقَ والمجاملةَ على حساب الحق في المجتمع؛ وهو ما لا يرضاه الله تعالى ولا يتناغم وقيمَ الإسلام الكبرى.

جـ ـ الطعن

الطعنُ هو: هتكُ الشخصية بالافتراء والبهتان ونحوهما من صنوف الباطل؛ وهو قبيحٌ، لكن قبحُه ـ هذا ـ يشتد إذا أدمن عليه صاحبُه؛ لأنه يحوِّله إلى وحشٍ لا يراعي إلاًّ ولا ذمةً في مَن حقُّهُ عند الله عظيمٌ؛ وهو المؤمن.

والطعَّان صيغةُ مبالغةٍ من الطعن؛ فهو مَن يقع في هذا الفعل القبيح على نحوٍ مضاعفٍ.

وهو قبيحٌ ومحرمٌ إذا صار سبباً من أسباب دخول فاعلِهِ إلى جهنم.

د ـ المماراةُ

المماراة هي: المجادلة واللجاج فيها. وهي قبيحةٌ، ويتضاعف قبحُها إذا تحوَّلت إلى جزءٍ من كينونة الشخص فأصبح مماريًا؛ لأنها لا تخلو من التعدي على حقوق الآخرين.

وفرقٌ كبيرٌ بين أن نتباحث في المسائل بطريقةٍ علميةٍ وشديدةٍ، وبين أن

نمارس اللجاجَ؛ وهو نوعٌ من العناد؛ في قبول الحق، أو فرض الرأي، أو محاولة إقناع مَن لا يُتوَقع منه القبول والاقتناع.

والنهيُ قد يُحمَل هنا على الحرمة، وقد يُحمَل على الكراهة. وذلك، تبعاً لاختلاف مراتب العيب والمدح والطعن والمماراة.

فإن مَن كان عيَّاباً، أو مدَّاحاً، أو طعَّاناً، أو ممارياً، لا يُتصوَّر أنه ينجو ـ بنحوٍ مؤكَّدٍ ـ من هتكِ حرمة الآخرين الواجب مراعاتها، أو الكذب والغيبة ونحوهما من المحرمات.

والعياب إن نجا من الوقوع في الحرام قد لا يسلم مَن الوقوع في مكروهٍ يجعله مذموماً عند الله تعالى، ومحروماً من فيضه تعالى.

الآفة الثالثة ـ الكذبُ غير مشروعٍ

الكذب هو: الإخبار؛ قولاً أو فعلاً، بخلاف الواقع.

ولذلك، نميِّز بين المخطئ والكاذب، فالأول هو مَن يخبر خلافاً للواقع وهو لا يعلم بالمخالفة، أما الكاذب فهو المخبِر بخلاف الواقع وهو يعلم بالمخالفة[1].

والكذبُ قبيحٌ مطلقاً لا يستحسنه أحدٌ، ومع ذلك نجد كثيرين يمارسونه، ولكنهم في الوقت نفسه لا يَرضون بأن يُوصفوا بالكذب؛ لأنهم يعرفون قبحَه، بل نجدهم يسوِّغون ويبحثون عن قشةٍ يتعلقون بها؛ لتسويغ ما وقعوا فيه من كذبٍ.

وهذا المنطلقُ الوجدانيُّ كافٍ في التنبيهِ على قبحِهِ.

---

(١) لكن قد يوسَع استعماله لِما يشمل الأمرين معاً.

قال في المصباح: **هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو، سواء فيه العمد والخطأ** [المصباح المنير ـ مادة (كذب)].

وقال السيد المصطفوي في تعريفه: **هو ما يقابل الصدق، فهو ما يخالف الواقعية والحق، كما أن الصدق هو ما يكون على حقٍّ وعلى واقعيةٍ.**

وهذا إما في قول، أو في عمل، أو في أمر خارجي أو معنوي. والجامع عدم كون الأمر على واقعيةٍ وحقٍّ [التحقيق في كلمات القرآن ـ مادة (كذب)].

ولأهمية الأمر، وخطورة الكذب، نورد عدداً من النصوص الواردة في تحريم الكذب، كما أوردها الشيخ الحر العاملي في كتابه وسائل الشيعة:

١ ـ عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: **إن الله عزّ وجلّ جعل للشرِّ أقفالاً، وجعل مفاتيحَ تلك الأقفال الشرابَ، والكذبُ شرٌّ من الشراب**)[1].

٢ ـ عنه عليه السلام ـ أيضاً ـ، أنه قال: **إن الكذبَ هو خرابُ الإيمان**)[2].

٣ ـ عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يقول: **إياكم والكذبَ، فإن كلَّ راجٍ طالبٌ، وكلَّ خائفٍ هاربٌ**)[3].

٤ ـ عن الإمام الرضا عليه السلام، قال: **سُئل رسولُ الله صلى الله عليه وآله: يكون المؤمنُ جباناً؟**

قال: نعم.

قيل: ويكون بخيلاً؟

قال: نعم.

قيل: ويكون كذّاباً؟ قال: لا)[4].

٥ ـ قال الشيخ الصدوق: من ألفاظ رسول الله صلى الله عليه وآله: **أربى الربا الكذبُ**)[5].

٦ ـ كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: **ألا فاصدقوا؛ إن الله مع الصادقين، وجانِبوا الكذبَ؛ فإنه يجانب الإيمانَ. ألا وإن الصادقَ على شفا منجاةٍ وكرامةٍ.**

---

(١) الحر العاملي، الشيخ محمد حسن (ت١١٠٤ هـ)، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص٢٤٤، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١٣٣ ـ تحريم الكذب، الحديث ٣.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٤.

(٣) المصدر السابق، ص٢٤٥، الحديث ٨.

(٤) المصدر السابق، ص٢٤٥ ـ ٢٤٦، الحديث ١١.

(٥) المصدر السابق، ص٢٤٦، الحديث ١٢.

قال الشيخ المجلسي في تفسيره:

الربا: الزيادة والنمو؛ أي لا يزيد ولا ينمو عقاب معصية كما ينمو عقاب الكذب.

أو المراد أن عقابه أكثر من الربا.

فالمناسبة من جهة أن الربا زيادة في المال بغير حقٍّ، والكذب زيادة في القول بغير حق) بحار الأنوار، ج٢١، ص٢١٤.

ألا إن الكاذبَ على شفا مخزاةٍ وهلكةٍ. ألا وقولوا خيراً تُعرَفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله....)[(١)].

وهذه النصوصُ واضحةُ الدلالة في حرمة الكذب؛ لقبحه ومضاره وأخطاره على دين الإنسان ودنياه. وهذا ما لا يرضاه الله تعالى لعباده، قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة/ ١٠٨].

وفي هذا الصدد يوصي النبي ﷺ أبا ذر (رضوان الله عليه) وكلَّ مستوصٍ بتجنب الكذب، مهما كانت دواعيه نبيلةً، بلا فرق بين أن يكون جداً أو هزلاً، ويقول:

- **[الفقرة/ ١٤٧]:**

> **(يا أبا ذرّ! ويلٌ للذي يحدِّث ويكذب؛ ليُضحِك به القومَ، ويلٌ له، ويلٌ له، [ويلٌ له]).**

وهذا الـ(ويل) إما وادٍ في جهنم[(٢)]؛ كما قيل، وإما أنه مصطلح للذم الشديد للفعل القبيح[(٣)].

---

(١) المصدر السابق، ص٣٤٦، الحديث ١٣.

(٢) روي ذلك عن النبي ﷺ والإمام الباقر عليه السلام كما في مقدمة تفسير البرهان. انظر مستدرك سفينة البحار للشيخ النمازي مادة (ويل). وقيل غير ذلك، وللتفصيل يراجع كتب التفسير ذيل قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أوائل البقرة.

(٣) قال السيد المصطفوي:

الكلمة تستعمل في مقام إنشاء ذمٍّ شديدٍ وقدحٍ أكيدٍ أو دعاءٍ على ضررٍ وشرٍّ، وهذا هو الأغلب في استعمالها.

والويل بمعنى البليّة الشديدة القريبة من الهلاكة.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [٢/ ٧٩].

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [١٠٤/ ١].

﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [٢١/ ١٨].

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [٤٥/ ٧].

فالويل كلمة وعيد وتهديد تدلّ على بليّة وهلاكة، في مقام الإنشاء) [التحقيق في كلمات القرآن ـ مادة (ويل)].

ويضيف النبي ﷺ؛ في بيان قبح الكذب، أن قبحه هذا لا استثناء فيه، وأن خيارَ الصمت هو المفضَّل؛ إذا دار الأمرُ بينه وبين الكذب، فيقول ﷺ:

- **[الفقرة/ ١٤٨]**(١):

(يا أبا ذرّ! مَن صمت نجا، فعليك بالصدق، ولا تخرجنَّ من فِيك كذبةٌ أبداً).

وكما عوّدنا أبو ذرّ (رضوان الله عليه)؛ وهو التلميذ النجيب والألمعي، فإنه أحسنَ التلقيَ، وتوَّج ذلك بالتعرف على ما تقتضيه حالة التفاعل والتجسيد على مستوى السلوك، متسائلاً عمّا يكون ماحياً لآثار الكذب؛ لو أن أحداً وقع فيه؛ بسؤال بادر إلى إلقائه على مسامع الرسول ﷺ، وهو:

(قلت: يا رسول الله! فما توبةُ الرجل الذي كذب متعمداً؟)

وهو سؤالٌ دقيقٌ ينسجم مع ما نعرفه من أنفسنا أننا غير معصومين، الأمر الذي يعني إمكانيةَ أن يقع الواحدُ منا في الكذب، ولكنه (رضوان الله عليه) قيَّد سؤاله بوصف الكذب بال(تعمد)!

وقد سبق منا في الفصل السابق تعريف الكذب بما لا يتحقق إلا في صورة التعمد، فهل معنى ذلك أن هذا قيدٌ مستدرَكٌ؛ أي إنه أقرب إلى التوضيح منه إلى الاحتراز؟

الجواب: إن هذا القيد قد يكون أريد به مَن يمعن في الكذب! فإن مَن يكذب على صنفين:

الأول: صنف يكذب لأنه يجد نفسه مضطراً للكذب؛ دون أن يبلغ به الاضطرارُ حدَّ الإباحة الشرعية.

---

(١) أورد هذه الفقرة الشيخُ الحرُّ العامليُّ؛ في وسائل الشيعة، ج١٢، ص٢٥١، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١٤٠ ـ تحريم الكذب في الصغير والكبير، الحديث ٤.
وأوردها ـ أيضاً ـ السيد البروجردي في جامع أحاديث الشيعة، ج١٣، ص٤٩٤، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٣٠ ـ استحباب الصمت والسكوت إلا عن الخير، واستحباب اختيار الكلام في الخير، الحديث ٥١.

قال الشيخ الأعظم الأنصاري؛ في كتابه المكاسب المحرمة؛ ضمن حديثه عن مسوِّغات الكذب: **وقد اشتهر[(١)] أن الضرورات تبيح المحظورات. والأخبارُ[(٢)] ـ في ذلك ـ أكثرُ من أن تُحصَى، وقد استفاضت؛ أو تواترت، بجواز الحلف كاذباً؛ لدفع الضرر البدني، أو المالي، عن نفسه، أو عن أخيه[(٣)]**[(٤)].

الثاني: صنف يكذب استمراءً له، واعتياداً عليه، ليس إلا؛ أي دون مسوِّغٍ شرعيٍّ.

ولا شك أن قبحَ الكذب من الصنف الثاني أشدُّ وأشنعُ منه لو كان من الصنف الأول.

كما أن سؤال أبي ذر ﷺ؛ كما تفيد صياغتُهُ، ويؤكده الجواب النبوي، ليس مقتصِراً على مجرد الترك للكذب، بل إنه سعيٌ منه للتعرف على ما من شأنه محوُ آثاره كلها.

لذلك، نجد الجواب النبوي يُصاغ كالتالي:

(قال: الاستغفار، وصلوات[(٥)] الخمس تغسل ذلك) [الفقرة/ ١٤٨].

فهنا مرحلتان؛ يجب على مَن مارس الكذب متعمداً أن يمر فيهما. والمرحلتان هما:

المرحلة الأولى: الاستغفار

الاستغفار ـ في جوهره ـ هو: الأسف القلبي، والإذعان العقلي، بقبح الكذب؛ كما هو الحال في الاستغفار من كلِّ ذنبٍ.

والاستغفار لغةً ـ كما في الصحاح ـ مشتقٌّ من [غفر]؛ بمعنى التغطية. يقال: غفرت المتاع: جعلته في الوعاء. والغفرة: ما يغطى به الشيء. يقال: اغفروا هذا الأمر بغَفرته، أي أصلحوه بما ينبغي أن يُصلَح به.

---

(١) أي بين الفقهاء.

(٢) أي الأحاديث الواردة عن المعصومين ﷺ.

(٣) أي المؤمن الآخر، سواء كان ذكراً أو أنثى.

(٤) المكاسب المحرمة، المسألة الثامنة عشرة.

(٥) في المكارم (الصلوات).

قال الأصمعي: المغفر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس، يُلبس تحت القلنسوة)[(١)].

فالاستغفار ـ إذن ـ هو: طلب العفوِ من الله، ورجاء حمايتِهِ تعالى من آثار الذنب.

المرحلة الثانية: الممارسة العملية

المؤكِّدة للأسف والإذعان المذكورين، وإلا تحول الاستغفارُ إلى عمليةٍ قشريةٍ لا قيمةَ حقيقيةً لها، ولا أثرَ واضحاً لها.

والممارسة العملية ـ هنا ـ هي (الصلوات الخمس)؛ التي من شأنها أن تنهَى القائمَ بها عن الفحشاء والمنكر. قال تعالى ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت/ ٤٥].

ولعلنا مُبتَلَون بالكثير من هذه القشرية والسطحية؛ في التعامل مع مفاهيم في منتهى الجدية، تستدعي منا أن نتعامل معها بما هو من سنخ ما خوطب به يحيى عليه السلام؛ حيث يقول الله تعالى له ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۖ﴾ [مريم/ ١٢]، وبمثل ما خوطب به بنو إسرائيل في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة/ ٦٣].

وقد عمل الرسول صلى الله عليه وآله على هذا الأمر؛ كما تورده النصوص الشرعية. ففي ما رواه أبو جعفر الباقر عليه السلام، قال: **قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صلى الله عليه وآله: المؤمن[(٢)] من ائتمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم (والمسلم)[(٣)] من سلم المسلمون من يده ولسانه، والمهاجر مَن هجر السيئات، وترك ما حرم الله.**

والمؤمنُ حرامٌ على المؤمن؛ أن يظلمه، أو يخذله، أو يغتابه، أو يدفعه دفعةً....)[(٤)].

---

(١) الصحاح مادة (غفر)، بتصرف.

(٢) في المصدر: ألا أنبئكم بالمؤمن؟

(٣) في المصدر: ألا أنبئكم بالمسلم؟

(٤) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل الشريعة، ج١٢، ص٢٧٨، كتاب الحج، أبواب العشرة...، باب تحريم اغتياب المؤمن ولو كان صدقاً، الحديث ١.

فهو تصحيحٌ للمفاهيم والتعاليم الإسلامية؛ ليُتعامل معها كما يريد الله تعالى، لا كما يريد الناسُ أن يقصروها ويحصروها بما يتنافى وعمقها المضموني.

والابتلاءُ بالسطحية والقشرية قديمٌ قدمَ الإنسان. فهذا إمام الأمة علي بن أبي طالب عليه السلام يسمع مَن يتلفظ بـ(أستغفر الله)؛ خاليةً من مضمونها، فإذا به ينبري له؛ موجِّهاً ومربِّياً؛ يخاطبه بقوله: **ثكلتك أمك! أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين. وهو اسم واقع على ستةِ معانٍ:**

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤديَ إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعةٌ.

والرابع: أن تعمدَ إلى كلِّ فريضةٍ عليك ضيَّعتَها فتؤدي حقها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان؛ حتى تلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة؛ كما أذقته حلاوة المعصية.

فعند ذلك تقول: أستغفر الله)[1].

والنصُّ واضحٌ غنيٌّ عن التعليق؛ فهو بيانٌ لحقيقة الاستغفار ومتطلباته، وأنها ذات مستويين رئيسين:

المستوى الأول: الاستغفار على مستوى العقل والروح

وذلك بالندم على ما مضى؛ عبر الاعتراف والإقرار بينه وبين نفسه؛ بأن ما وقع منه كان خطأً وخطيئةً، وأنهما يضران بعاجله وآجله، ضرراً يطال ظاهره وباطنه على السواء.

المستوى الثاني: على مستوى السلوك

وذلك عبر تصحيح العلاقة مع أطراف ثلاثة:

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٤١٧.

أ ـ مع الخالق

وذلك بتدارك ما ضيِّع من فرائض؛ بإهمالها أو بالتقصير فيها. سواء كانت هذه الفرائض عباديةً (كالصلاة، والصيام، والحج)، أو ماليَّةً (كالزكاة، والخمس، والكفارات)، أو روحيةً (كالاستغفار ـ والتوبة).

ب ـ مع المخلوق

وذلك بسداد ديون الدائنين والوفاء بما لهم من التزاماتٍ ماليةٍ. وهذا قد يستلزم إذابةَ اللحم الذي نبت على الحرام. وقد يكون التعبيرُ ـ بإذابة اللحم ـ إشارةً إلى اللوازم التي على المستغفِر الصادق والجاد أن يلتزم بها. وعلى هذا، يكون التخلص من أموال الحرام مهما كثُرت مثالاً آخر لإذابة اللحم.

ج ـ مع الذات

وذلك بالعمل على إصلاح النفس وتهذيبها وتزكيتها؛ عبر العمل بكلٍّ ما افترضه الله تعالى وتجنُّب نواهيه، وهذا يشمل جميعَ الأحكام الشرعية؛ دون استثناء. ولكن يمكن التأكيد على (التفقه في الدين، والعزم على عدم العودة إلى الذنب والمعصية)؛ باعتبارهما واضِحَي الارتباط بالذات أشدَّ من ارتباطه بطرفٍ آخر. وكذلك يمكن الإشارةُ إلى إذابة اللحم النابت على الحرام، وإذاقة البدن ألم الطاعة بدل ألم المعصية، وأنه من هذا القبيل.

فما لم يكن الاستغفار بهذا الشمول، فإنه لا يعد استغفاراً كاملاً، ولا حقيقياً.

الآفة الرابعة ـ الغيبة أشد من الزنا

الغيبةُ واحدةٌ من الآفات الخطيرة التي يمكن أن نمارسها باللسان/ الكلام. وذلك أن نذكُر المؤمن في مغيبه بسوء.

ويمكن أن يُقرأ فعل (الغيبة) من زوايا ثلاث:

الزاوية الأولى: الحق الشخصي

الزاوية الثانية: الحق العام

الزاوية الثالثة: الحق الإلهي

ويلخص الإمام علي عليه السلام هذه الزوايا الثلاث بقوله: **إياك والغيبةَ، فإنها تُمقِتك إلى الله والناسِ، وتُحبِط أجرَك)**[١].

فالمقتُ إلى الله نابعٌ من أن الغيبةَ هي تَعدٍّ على حقِّ الله تعالى. وأما المقتُ إلى الناس فنابعٌ من أنها تَعدٍّ على حقوق المجتمع؛ التي لا يرضى أيٌّ منهم بالتعدي عليها.

مضافاً إلى أنه إخلال بالتماسك الاجتماعي؛ الذي يمثل الحقَّ العامَّ.

وأما حبطُ الأجر ـ الذي تسببه الغيبةُ ـ فهو العدوان على الحق الشخصي.

ولو استعرضنا الرواياتِ ـ بغرض التعرف على تفصيل أزيد لهذه الزوايا ـ فيمكن أن نوزعها ضمن طوائف:

الطائفة الأولى: ما يدلّ على أن الغيبة تنافي الطبيعة الإيمانية

ومثاله ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: **قال رسول الله صلى الله عليه وآله: المؤمن**[٢] **من ائتمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم، (والمسلم)**[٣] **مَن سلم المسلمون مِن يده ولسانه. والمهاجرُ من هجر السيئات، وترك ما حرَّم الله. والمؤمنُ حرامٌ على المؤمن؛ أن يظلمه، أو يخذله، أو يغتابه، أو يدفعه دفعةً)**[٤].

والنصُّ يؤكد على حرمة الغيبة؛ باعتبارها تَعدِّياً على حقوق المؤمن، وكذلك باعتبارها تعدِّياً على حقِّ الله تعالى، فهي ـ إذن ـ تنافي طبيعة الإيمان؛ التي تقضي بأن يأمن الناسُ المؤمنَ، ولما كانت الغيبةُ إضراراً بالشخصية، فهي ـ إذن ـ عدوانٌ عليها.

الطائفة الثانية: ما يدلّ على أن للمؤمن حقوقاً تنافيها الغيبة

وكنموذج عليها نورد عدداً من النصوص المروية عن الأئمة المعصومين عليهم السلام:

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، وعنه: ميزان الحكمة، مادة (الغيبة).

(٢) في المصدر: ألا أنبئكم بالمؤمن؟

(٣) في المصدر: ألا أنبئكم بالمسلم؟

(٤) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل الشريعة، ج١٢، ص٢٧٨، كتاب الحج، أبواب العشرة...، باب تحريم اغتياب المؤمن ولو كان صدقاً، الحديث ١.

١ ـ ما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: **مَن عامل الناسَ فلم يظلمهم، وحدَّثهم فلم يكذِبهم، وواعدهم فلم يخلِفهم، كان ممن حرمت غيبتُهُ، وكملت مروَّتُه، وظهر عدلُهُ، ووجب أُخوَّتُه)**[١].

وهذا النصُّ واضحُ الدلالة على أن للمؤمن حقوقاً متى ما ظهر إيمانُهُ بين الناس؛ من خلال سلوكه الظاهر؛ المتمثل في العدل في تعامله مع الناس والصدق في حديثه معهم والتزام الأمانة في علاقته بهم، فهو مؤمنٌ. ومَن كان مؤمناً فإن له حقوقاً، وهذه الحقوق لها ما ينافيها، والغيبةُ واحدٌ من تلكم المنافيات.

٢ ـ في نص آخر روي ـ أيضاً ـ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **المسلمُ أخو المسلمِ؛ هو: عينُهُ، ومرآتُهُ، ودليلُهُ، لا يخونُه، ولا يخدعُه، ولا يظلمُه، ولا يكذِبُه، ولا يغتابُه)**[٢].

وهذا النص يؤكد أن الإسلام إذا آمن به المسلمُ جعل بين المنتمِين إليه ولايةً متبادلةً، تفرض على كلٍّ منهما أن يحمي الآخرَ من خلال النصح والنصرة، وهذا معنى (**عينُهُ، ومرآتُه، ودليلُه**)، وأن للمؤمن حقوقاً؛ ينافيه ما هو ـ بطبيعته ـ ضدٌّ لها؛ ومنها (الغيبة).

الطائفة الثالثة: ما يدلّ على أن الغيبة انتهاك للحق الاجتماعي العام

ومثاله ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام ـ أيضاً ـ أنه قال: **مَن قال في مؤمنٍ ما رأته عيناه، وسمعته أذناه، فهو من الذين قال الله عزّ وجلّ** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور/ ١٩])[٣].

وفي هذا النص الشريف تأكيدٌ على أن الغيبةَ فعلٌ منكرٌ، وأنه من الصنف الذي يصح تصنيفه ضمن من يحبون إشاعة الفواحش، أي أن الغيبة ترقى في

---

(١) المصدر السابق، الحديث ٢.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٣.

(٣) المصدر السابق، ص٢٨٠، الحديث ٦.

بشاعتها وقبحها إلى مستوى الزنا واللواط؛ نعوذ بالله من ذلك كله. أي إن الغيبة ليست عدواناً على الحقوق الشخصية فحسب، بل إنها انتهاكٌ للحقوق العامة للمجتمع.

الطائفة الرابعة: ما يدلّ على مخاطر الغيبة على الدين

١ ـ ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام ـ أيضاً ـ أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **الغيبةُ أسرعُ في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه)**[١].

فالغيبة تفتك بالدين كما يفتك السرطان بالأعضاء الداخلية للبدن.

٢ ـ عن النبي صلى الله عليه وآله قال: **تحرم الجنةُ على ثلاثةٍ؛ على المنَّانِ، وعلى المغتابِ، وعلى مدمِنِ الخمر)**[٢].

والغيبة ـ بنص هذا الحديث ـ تحُول بين صاحبها والجنة، وكفى بذلك دليلاً على الحرمة والقبح.

٣ ـ ما جاء في حديث المناهي؛ من أن رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن الغيبة والاستماع إليها، ونهى عن النميمة والاستماع إليها، فقال: ... **مَن اغتاب امرءاً مسلماً بطل صومُهُ، ونقض وضوؤُهُ، وجاء يوم القيامة يفوح من فيه رائحةٌ أنتنُ من الجيفة يتأذى به أهلُ الموقف.**

وإن مات قبل أن يتوب مات مستحلاً[٣] **لِما حرَّم الله عزّ وجلّ.**

ألا ومَن تطول على أخيه؛ في غيبةٍ سمعها فيه في مجلسٍ، فردها عنه رد الله عنه ألف بابٍ من الشر في الدنيا والآخرة، فإن هو لم يَردَّها وهو قادر على ردها كان عليه كوزرِ مَن اغتابه سبعين مرةً)[٤].

---

(١) المصدر السابق، الحديث ٧.

(٢) المصدر السابق، الحديث ١٠.

(٣) في نسخة: وهو مستحل.

(٤) المصدر السابق، ص٢٨٢، الحديث ١٣.

والنبي ﷺ يتحدث عن عالَمٍ غيْبِيٍّ لا سبيل لنا لفهمه؛ إلا من خلاله باعتباره الناطق عن الله تعالى، ولا سبيلَ لنا للتنكر له باعتبارنا نؤمن بالغيب[1].

ورسولنا ﷺ يؤكد ـ في هذا النص أيضاً ـ أن الغيبةَ تنتِن الرائحةَ؛ حتى إنّ أهلَ المحشر؛ الذين هم مشغولون عن أقرب أقربائهم، يتأذون من الرائحة النتنة للمغتاب.

وقد أبان النبيُّ ﷺ ـ قبل ذلك ـ أن للغيبة أثراً ملكوتياً قبيحاً؛ هو التأثير في العبادات في آثارها الروحية المنشودة. فالوضوء ينتقض ملكوتياً، كما أن الصومَ لا قيمةَ له في هذا العالم الرفيع.

فما أعظم مخاطر الغيبة على الدين ـ إذن ـ!

الطائفة الخامسة: ما يدلّ على أن الغيبة تنفي آثار الدين الروحية

قال رسولُ اللهِ ﷺ: **الجلوس في المسجد ـ انتظاراً للصلاة ـ عبادةٌ؛ ما لم يحدث!**

قيل: يا رسول الله! وما يحدث؟!

قال: الاغتياب)[2].

وهذه الطائفةُ قريبةُ المضمون من الطائفة السابقة.

وانطلاقاً من هذه الرؤية، أخذ النبيُّ ﷺ بيد أبي ذر (رضوان الله عليه)، ومَن بلغته هذه الوصيةُ؛ ونأمل أن نكون ممن بلغته وسعى في العمل بمضمونها، أخذ به إلى الخطوات التي من شأنها الامتناع من الغيبة، عبر التالي:

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣.

(٢) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل الشريعة، ج١٢، ص٢٨٠، كتاب الحج، أبواب العشرة...، باب تحريم اغتياب المؤمن ولو كان صدقاً، الحديث ٨.

أولاً: التحذير منها

● [الفقرة/ ١٤٩][(١)]:

(يا أبا ذرّ! إياك والغيبة، فإن الغيبةَ أشد من الزنا[(٢)].
قلت: يا رسول الله! ولِمَ ذلك بأبي أنت وأمي؟!
قال: لأنّ الرجلَ يزني ويتوب إلى اللهِ؛ فيتوب الله عليه، والغيبةُ لا تُغفر حتى يغفرها صاحبُها).

والملاحظ ـ هنا ـ أن النبي ﷺ، وهو الصادق المصدَّق، يكشف عن أمرٍ بشعٍ في الغيبة؛ وهي أنها (أشدُّ من الزنا).

ولعلك تسأل وتقول:

إن هذا أمرٌ غريبٌ حقاً! وذلك أن شناعة الزنا لا تخفى على أحدٍ، ووجهُ قبحِه واضحٌ أيضاً، ولكن كيف تكون الغيبةُ أشدَّ؟! مع أن ظواهر الأمور قد لا تساعد على ذلك؟!

والجواب:

إن هذا السؤال ـ أو التساؤل ـ هو بعينه ما خطر لأبي ذر (رضوان الله عليه)، الأمر الذي دعاه لأنّ يتوجه بالسؤال إلى النبي ﷺ عن ذلك؛ ليأتيه الجوابُ بأن الغيبةَ عدوانٌ على الغير؛ إلى جانب كونه عدواناً على الله وعلى الذات.

---

(١) أورد هذه الفقرة الشيخ الحر العاملي في: وسائل الشيعة إلى تحصيل الشريعة، ج١٢، ص٢٨٠، كتاب الحج، أبواب العشرة...، باب تحريم اغتياب المؤمن ولو كان صدقاً، الحديث ٩.
وكذلك أوردها السيد البروجردي؛ في جامع أحاديث الشيعة، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ج١٦، ص٣٢٤، الباب ١١٩ ـ تأكد حرمة اغتياب المؤمن؛ عدا ما استثنى، الحديث ٢٠.

(٢) أورد هذه الفقرةَ كثيرٌ من الفقهاء؛ في سياق الاستدلال على الغيبة. ومنهم: الشيخ النجفي جواهر الكلام، ج٢٢، ص٦٦. وكذلك الشيخ الأنصاري في مبحث الغيبة من كتابه المكاسب المحرمة؛ حيث أوردها وما بعدها.

فإذا افترضنا أن الله سبحانه عفا وغفر، وأن (المغتاب)[1]؛ الذي هو اسم للفاعل؛ أي المرتكِب للغيبة، تاب واستغفر أيضاً من اغتيابه للآخرين، فإن ثمة طرفاً ثالثاً قد اعتُدِي عليه، وهو (المغتاب)؛ اسماً للمفعول؛ وهو مَن ارتُكِب بحقه الغيبةُ، ولابد ـ بمقتضى العدالة ـ أن يُعوَّض هذا المعتدَى عليه؛ بسبب العدوان الظالم الذي وقع في حقه.

فالغيبة ذات أطراف ثلاثة:

١ ـ الله تعالى المحرِّم للغيبة

٢ ـ فاعل الغيبة (المعتدي)

٣ ـ مَن اغتيب (المعتدى عليه)

بينما الزنا فعلٌ ذو طرفين، هما:

١ ـ (الله تعالى) المحرِّم للزنا.

٢ ـ الزاني (المعتدي على الله)

وليس ثمة طرفٌ ثالثٌ اعتُدِي عليه ليلزم استرضاؤه؛ وإن كان لفعل الفاحشة هذا آثارُه؛ المباشرةُ وغيرُ المباشرة، على الوسط الاجتماعي.

وقد يُضاف إلى ما ذكره الرسول ﷺ وجهٌ آخرُ، وهو: أن للوقوع في فاحشة الزنا ما يدفع الإنسانَ إلى فعلِه؛ ما لم يعتصم بالله ودينه. وهذا الدافع هو (الشهوة الجنسية)؛ التي تُلِح ـ بطبيعتها ـ على الإنسانِ أن يستجيب لها. أما الغيبةُ فلا دافعَ لها سوى الحقد والحسد والبغض ونحو ذلك من الرذائل الأخلاقية.

ومن ثَم فإن الغيبةَ ـ من هذه الزاوية ـ أشنع وأبشع.

---

(١) (المغتاب)؛ كـ(المختار)، صيغة مشتركة بين اسم الفاعل واسم المفعول، ويُعرف المراد منها بالسياق أو القرائن. ويُراد بها ـ هنا ـ اسم الفاعل.

ثانياً: وجوب الدفاع

لا يكتفي النبيُّ ﷺ بالردع عن الغيبة، بل يضيف إلى ذلك حكماً إلزامياً آخر؛ وهو وجوب الدفاع عن من يُغتاب؛ مراعاةً لحقوقه المكفولة، فيقول ﷺ:

● **[الفقرة/ ١٥١]:**

(يا أبا ذرّ! مَن ذبَّ عن أخيه المسلم الغيبةَ كان حقاً على الله أن يُعتِقه من النار).

فالنبيُّ ﷺ يعِد ـ وهو الصادقُ ـ بأن الله تعالى ملتزِمٌ بأن يكافئ المدافعَ عن المؤمن ـ إذا اغتِيب ـ أن يُعتقه من النار. وما أجزله من عطاء، وما أفضله من جزاء، على فعل قد يكون ظاهرُهُ صغيراً، لكنه عند الله تعالى عظيمٌ عظمَ منزلةِ المؤمن عنده، وكيف لا يكون كذلك والمؤمن ولي الله وحبيبه؟

ثالثاً: مقتضى الولاية والأخوة

يواصل النبي ﷺ بيان المسألة بالكشف عن خلفية هذا الإلزام وتكفُّله المكافأة؛ بقوله:

● **[الفقرة/ ١٥٢]:**

(يا أبا ذرّ! مَن اغتِيب عنده أخوه المسلمُ؛ وهو يستطيع نصره، فنصره، نصره الله عزّ وجلّ في الدنيا والآخرة، فإن خذله؛ وهو يستطيع نصره خذله الله في الدنيا والآخرة).

فثمة أخوةٌ بين المسلم والمسلم؛ لا تسمح للظالم أن يمرر ظلمه دون أن يُرد ظلمُهُ، ولا للمظلوم أن لا يُعان على رد ظلامته. وفي هذه الحال، فإن طرف المعادلة؛ في الانتصار أو الخذلان معاً، إنَّما هو الله تعالى فمن نصر المؤمنَ نصره اللهُ، ومن خذل المؤمنَ خذله اللهُ.

ويجب التنبيه إلى: أن الله تعالى لم يكلف المسلمَ بما لا يستطيع؛ لَما أوجب

عليه نصرةَ أخيه المسلم. لذلك، فإن من يتلكأ عن ذلك فهو مخذولٌ بلا ريب، وأما من فعله فهو منصورٌ بلا شك.

وتأكيداً على حقوق المسلم يكتمل المشهد بإضافةٍ مهمةٍ؛ قال فيها النبيُّ ﷺ:

● **[الفقرة/ ١٥٠]**(١):

(يا أبا ذرّ! سِبابُ المسلم(٢) فسوقٌ، وقتالُه كفرٌ، وأكلُ لحمِهِ من معاصي الله، وحرمةُ مالِهِ كحرمةِ دمِهِ).

والأمران الأولان يبدو أنهما سِيقا لتأكيد فكرة أن للمؤمن حقوقاً لا يجوز انتهاكها.

والسِّباب هو: الكلام البذيء، والشتائم(٣).

والمرجع في تحديد مصاديق السب هو العرف(٤).

وهو ـ على المستوى التربوي ـ فسوقٌ وخروجٌ عن دائرة الإيمان؛ ما لم يكن له مُسوِّغُه الشرعيُّ.

وأما على مستوى الفتوى الفقهية فمنهيٌّ عنه إجمالاً، بل (أجمع المسلمون

---

(١) رُويت هذه الفقرة ـ كحديثٍ مستقلٍ ـ عن رسول الله ﷺ؛ كما في الكافي ج٢، ص٣٥٩ ـ ٣٦٠، باب السباب، الحديث ٢؛ عن طريق الإمام الباقر عليه السلام، وفيه: (سباب المؤمن)، بدل (سباب المسلم). ورواه الصدوق مرسلاً في من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٧٧؛ برقم (٥٧٨١).

(٢) في المكارم (المؤمن).

(٣) قال المازندراني: والسِّباب ـ بالكسر ـ مصدر سابَّ؛ كقتال مصدر قاتل. وهو:
ـ إمّا بمعنى السب.
ـ أو على بابه للطرفين. والإضافة إلى المفعول، أو إلى الفاعل على احتمال.
وسابَّه بأن يقول ـ مثلاً ـ: (يا شارب الخمر)، أو (يا آكل الربا)، أو (يا ملعون)، أو (يا خائن)، أو (يا حمار)، أو (يا كلب)، أو (يا خنزير)، أو (يا فاسق)، أو (يا فاجر)، أو أمثال ذلك) شرح أصول الكافي، ج١٠، ص١٥.

(٤) الأنصاري، الشيخ مرتضى (ت١٢٨١ هـ)، المكاسب المحرمة، المسألة التاسعة.

على تحريمه) من حيث المبدأ[١]. ومنهم مَن فصل في ذلك فمنع منه تحريماً أو كراهةً، وأجازه في موارد[٢].

والسِّباب قد يقع بين المسلم والمسلم؛ إذا لم يعمل المسلم على ترويض نفسه وتهذيبها؛ على أساس التحلِّي بالنبل الأخلاقي والتعالي عن الدنايا القولية والفعلية.

وأما إذا تجاوز العدوانُ على المؤمن من السِّباب إلى القتال، فقد خرج المقاتِل للمؤمن؛ بسبب إيمانه، عن دائرة الإسلام ليدخل في دائرة الكفر؛ نعوذ بالله تعالى من ذلك.

ويثلِّث النبي ﷺ بالعودة إلى الغيبة؛ من خلال تسليط الضوء على طبيعتها القبيحة؛ وهي أنها أكلُ لحمِ المؤمن، وأن ذلك لا يقل بشاعةً وحرمةً عن سفكِ دمِهِ.

تعريف الغيبة:

لكي لا يبقى الأمر غامضاً بادر أبوذر ﵁ إلى السؤال عن طبيعة الغيبة؛ بعد أن بلغه في هذه الوصية ما بلغه من قبحٍ وبشاعةٍ تتسم به، فقال:

- **[تابع الفقرة/ ١٥٠]:**

(قلتُ: يا رسولَ الله! وما الغيبةُ؟ قال: ذكرُك أخاك بما يَكره).

فكل مَن ذكر أخاه المؤمن أو أخته المؤمنة ـ قولاً، أو فعلاً ـ بما يسوؤه أو

(١) الطوسي، الشيخ أبو جعفر (ت٤٦٠ هـ)، المبسوط، ج٨، ص٢٢٧.

وقال المجلسي الأول: وعن أبي حنيفة [وهو راوٍ من رواتنا، وليس إمام الحنفية المعروف]، قال: سألت أبا عبدالله ﵇ عن رجل قال لآخر: يا فاسق.

قال: **لا حدَّ عليه، ويُعزَّر**).

وفي القوي، عن جراح المدائني، عن أبي عبدالله ﵇، قال: **إذا قال الرجل للرجل أنت خبيث، وأنت خنزير، فليس فيه حدٌّ، ولكن فيه موعظةٌ، وبعض العقوبة)** [روضة المتقين، ج١٠، ص١٠٨ ـ ١٠٩].

وقال الشيخ الأنصاري: سب المؤمنين حرام في الجملة بالأدلة الأربعة؛ لأنه ظلم وإيذاء وإذلال...) [المكاسب المحرمة، المسألة التاسعة].

(٢) جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: =

يسيء إليه، فهو من الغيبة. سواء في ذلك أن يكون ما يكرهه أمراً يتعلق بحسبه، أو نسبه، أو قوله، أو فعله، أو طبعه، أو حال من أحواله، لكنه أمرٌ مستورٌ عن الناس؛ كما يستفاد ذلك من نصوص أخرى(١).

البهتان أشد من الغيبة:

ثمة رذيلةٌ أخرى هي من سنخ الغيبة؛ في طبيعتها، وفي دوافعها، وفي حكمها، لكنها أشدُّ وأبشعُ؛ وهي (البهتان).

ولكي لا يختلط الأمران سأل أبوذر (رضوان الله عليه) النبيَّ ﷺ ما بيَّن ذلك:

● **[تابع الفقرة/ ١٥٠]:**

(قلتُ: يا رسولَ الله! فإن كان فيه ذاك الذي يُذكر به؟
قال: اعلم أنك إذا ذكرتَه بما هو فيه فقد اغتبتَه،
وإذا ذكرتَه بما ليس فيه فقد بهتَّهُ).

فهنا رذيلتان:

الرذيلة الأولى: الغيبة.

وهي: ذكرُ المؤمن بعيبٍ فيه.

= المستقرئ لصور السب يجد أنه تعتريه الأحكام الآتية:
أولاً: الحرمة: وهي أغلب أحكام السب. وقد يكفر الساب، كالذي يسب الله تعالى أو يسب الرسول صلى الله عليه وسلم أو الملائكة.
ثانياً: الكراهة: كسَبِّ الحِمى.
ثالثاً: خلاف الأولى: وذلك إذا سب المشتومُ شاتمَه بقدر ما سبه به، عند بعض الفقهاء.
رابعاً: الجواز: نحو سب الأشرار، وسب الساب بقدر ما سب به عند أكثر الفقهاء) [الموسوعة الفقهية الكويتية، ج٢٤، ص١٣٥، مادة (السب)، الفقرة ٥].

(١) للاستزادة في التعرف على الغيبة، تعريفاً وأحكاماً، راجع رسالة الشهيد الثاني في الغيبة، وجامع السعادات للشيخ محمد مهدي النراقي. وكذلك ما دوَّنه الفقهاء في بحوث المكاسب المحرمة؛ استدلالاً وفتوى.

الرذيلة الثانية: البهتان.

وهو: التعدي على المؤمن ـ ذكراً أو أنثى ـ بذكره بعيبٍ ليس فيه.

وبطبيعة الحال، فإن البهتانَ أشدُّ؛ لأنه عدوانٌ مضاعفٌ.

الآفة الخامسة ـ النميمة

● **[الفقرتان/ ١٥٣ ـ ١٥٤][١]:**

> **(يا أبا ذرّ! لا يدخل الجنةَ قتَّاتٌ.**
> **قلت: وما القتَّاتُ؟ قال: النَّمَّام.**
> **يا أبا ذرّ! صاحبُ النميمة لا يستريح من عذابِ الله عزّ وجلّ في الآخرة).**

في هذا المقطع أشار النبي ﷺ إلى حكمين لمن حوَّل نعمة اللسان إلى نقمة، من خلال النميمة:

الحكم الأول: أن الجنةَ محرمةٌ على النمَّام.

الحكم الثاني: أن عذابَ النمَّام في النار مستمرٌّ.

ولعلك أخي القارئ تتساءل قائلا:

ماذا تعني النميمة؟

الجواب: قيل في تعريف النميمة ـ لغةً ـ أنها: نقل الحديث من قوم إلى قوم؛ على جهة الإفساد والشر)[٢]. ومن هذا التعريف؛ وبالخصوص من التعليل، يتبيَّن أنها تنطبق على نقل الحديث من شخصٍ إلى شخصٍ.

ويلتقي الفقهاءُ ـ في تعريفهم الاصطلاحي للنميمة ـ مع اللغويين في تعريف النميمة، مع ذكر بعض القيود.

---

(١) أورد هذه الفقرةَ الشيخُ الحرُّ العامليُّ؛ في وسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص٢٥٩، كتاب الحج، أبواب العشرة...، الباب ١٦٤ ـ تحريم النميمة والمحاكاة، الحديث ٤.

(٢) تاج العروس، مادة (نمم).

فقد ذكر بعضُهم أنها خصوص (قول الغير في المقول فيه)[١]. وقال آخر هي: أن يحكي لشخص انتقاصَ غيرِهِ له)[٢].

ويُلحظ ـ هنا ـ أن مادة الاشتقاق تفيد أن النميمةَ يغلب عليها الحديثُ الخفيُّ والخاصُّ؛ لأنها مشتقةٌ ـ كما قيل ـ من (النَّم)؛ وهو: الصوت الخفي من حركة شيء)[٣].

ولعل هذا هو السر في عدِّ النميمة من جملة السحر، كما في الخبر عن إمامنا الصادق عليه السلام، جاء فيه أنه عليه السلام قال: **...وإن من أكبر السحرِ النميمةَ؛ يُفرِّق بها بين المتحابَّيْن، ويُجلَب العداوةُ على المتصافِيَين، ويُسفَك بها الدماءُ، ويُهدَم بها الدورُ، ويُكشَف بها الستورُ، والنمامُ أشرُّ مَن وطئ الأرضَ بقدمٍ...)**[٤].

وهذا هو الغالب على النميمة، باعتبار أن النمَّام هو الساعي في نقل الأحاديث؛ بطريقة غير محسوسةٍ وغير ظاهرةٍ، متنقلاً بين المجالس ليظهر للمنقول له أنه موالٍ له وأن فلاناً من الناس ـ وهو المنقول عنه ـ عدوٌّ، أو خصمٌ، أو منافسٌ له، ونحو ذلك.

ولسنا بحاجةٍ إلى تكبدِ عناءٍ؛ في التأكيد على أن مثلَ هذا الشخص (النمام) مبتلى ـ في نميمته ـ برذائل أخلاقيةٍ عديدةٍ؛ منها:

١ ـ الجبن

النمَّام لا يملك الشجاعةَ للرد على مَن يراه مخطِئاً، بل يتحول إلى واشٍ ومخبِرٍ أثيمٍ لآخرين؛ يرى ويقر أنهم أشجعُ منه في اتخاذ الموقف المناسب.

---

(١) الشهيد الثاني، زين الدين العاملي (ت٩٦٥ هـ)، كشف الريبة في أحكام الغيبة، ص٩٠. وننبه إلى أن ترقيم الأسباب منا.

(٢) الحكيم، السيد محمد سعيد، منهاج الصالحين، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فصل (جملة من المحرمات) المحرم السادس والثلاثون.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الاحتجاج، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٩، ص١٥١، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١٤٤ ـ تحريم النميمة والمحاكاة، الحديث ٧.

ونصِف النمامَ بأنه جبانٌ لسببٍ واضحٍ. هو: أن الواجب ـ أخلاقياً ـ أن ينصر المؤمنُ أخاه إذا سمع إساءةً في حقه. فإذاً استبدل وظيفته هذه بوظيفة نقل الإساءة إلى مَن قيلت في حقِّه فإنه يمارس نوعاً من الفتنة والإفساد بين المؤمنين!!

٢ ـ الخيانة

النمَّام خائنٌ. وذلك لأنّ محدِّثه ائتمنه على ما حدَّثه به، وما كان ينبغي له الحكاية والوشاية؛ لأنها تتنافى وفضيلةَ الأمانة؛ التي تستلزم أن ينصح أخاه المؤمنَ، كما أن من النصيحة لمجتمعِه؛ الذي ينتمي إليه، أن لا يسعى في تفتيت لحمته؛ من خلال نقل السوء من طرفٍ إلى طرفٍ.

٣ ـ البغض والكراهية

النمَّام يحمل بين جوانحه بغضاً وكراهيةً لا يليق به أن يتصف بهما. وذلك، أن النمَّام لا يحمل وداً لمن ينقل عنه الأحاديثَ؛ التي من شأنها تعكير الصفو بين المؤمنين. كما أنه لا يحمل وداً لأخيه المؤمن ـ ولا لمجتمعه ـ؛ الذي ينقل إليه تلك الأحاديث؛ ولو كان محباً ـ لأخيه أو لإخوانه المؤمنين ـ لَما فعل ذلك.

بواعث النميمة:

قال الشهيد الثاني؛ معدِّداً بواعثَ النميمة:

والسبب الباعث على النميمة:

١ ـ إما إرادة السوء بالمحكي عنه.

٢ ـ أو إظهار الحب للمحكي له.

٣ ـ أو التفرج بالحديث.

٤ ـ أو الخوض في الفضول)[1].

والنميمة؛ بهذا المعنى وهذه البواعث، ممَّا يُخرج المؤمنَ من إيمانه ويجعله

---

(١) الشهيد الثاني، زين الدين العاملي (ت٩٦٥ هـ)، كشف الريبة في أحكام الغيبة، ضمن مجموعة الرسائل، ص٨٠.

خارجاً من دائرة (العدول)؛ كما ذكره الفقيه المقدس الأردبيلي؛ وغيره، في سياق تعداد المعاصي المسقطةِ أهليةَ الشاهد عن الشهادة[١].

بل عدَّها بعض الفقهاء من الذنوب الكبائر[٢].

وقد تسأل: لِمَ كلُّ هذا العذاب للنمام حتى تكون الجنةُ محرمةً عليه؟

الجواب: إن النبيَّ ﷺ حينما يتحدث؛ في أي شأن، فهو المطَّلِع ـ بتعليم الله تعالى ـ على عوالم غيبيةٍ؛ لا نحيط بها علماً. وحيث إنه الصادق؛ فلا مناص من الإذعان بصحة ما يقول؛ سواء أحاطنا بها علماً أو لا.

ثم إن تلك البواعث؛ المشار إليها في كلام الشهيد الثاني، كفيلةٌ بتصنيف النمَّام ضمن أهل النار.

ولنسُق بعضَ النصوص الشرعية الدالة على ذلك:

أولاً: النميمة في القرآن

١ ـ قال تعالى ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم/ ١٠ ـ ١١]. وتقريب دلالتها: أن الله تعالى نهى نبيه ﷺ عن متابعة وطاعة مَن اتصف بالمشي بين الناس بـ(النميمة)، وهذا يدلّ على أنها رذيلةٌ تُخرِج (النمام) من دائرة المؤمنين، وهذا يدلّ على قبحها وحرمتها.

٢ ـ قال تعالى ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء/ ٨٥]. ودلالة الآية تتجلى واضحةً بلحاظ أن الآية أشارت إلى فريقين:

الأول: الفريق الساعي في الشفاعات؛ أي الوساطات، الحسنة والخيرة، بما يترتب عليها من تعاونٍ وإحسانٍ بين الناس.

الثاني: الفريق الساعي في الشفاعات السيئة والقبيحة؛ ومنها النميمة والوشاية، بكل ما يترتب عليها من فُرقةٍ وإحنٍ ومحنٍ.

---

(١) الأردبيلي، الشيخ أحمد (ت٩٩٣ هـ)، مجمع الفائدة والبرهان، كتاب الشهادات، ج١٢، ص٣٤١.

(٢) الأنصاري، الشيخ مرتضى (ت١٢٨١ هـ)، المكاسب المحرمة، المسألة الرابعة والعشرون، ص٦٣.

ولكلٍّ من الفريقين نصيبٌ من نتائجِ عملِهِ؛ إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم/ ٣٩].

٣ ـ قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [الأحزاب/ ٥٧]. ودلالة الآية على قبح النميمة، وحرمتها، مبنيٌّ على أن السعاية والوشاية بين الناس هي النقل ـ بداعٍ غير مشروع ـ لكلام، أو فعل، أو مشاعر، من هذا الطرف إلى الآخر، وما يترتبُ عليه من الفُرقة، ممَّا لا يرضاه الله تعالى، بل ممَّا يؤذيه؛ فإن المؤمنَ وليُّ الله وحبيبُه.

ففي الحديث القدسي: **قال الله عزّ وجلّ: ليأذن بحربٍ مني مَن آذى عبدي المؤمن...)**[1]. وفي حديث آخر: **قال الله تبارك وتعالى: مَن أهان لي ولياً فقد أرصد لمحاربتي)**[2].

ولا ريب في أن النميمة إيذاءٌ للمؤمن؛ فالنمام ـ إذن ـ ملعونٌ.

ثانياً: النميمة في السُّنَّة

النصوص الواردة في النميمة وتقبيحها، والتنبيه إلى مخاطرها، كثيرةٌ جداً، نقتصر على بعضها؛ كما رواها الشيخ الحر العاملي، في كتابه وسائل الشيعة؛ حيث عقد باباً جعل عنوانه (تحريم النميمة والمحاكاة)؛ ضمن أبواب العِشرة في كتاب الحج.

١ ـ عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام، قال: **قال رسول الله ﷺ: ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: المشاؤون بالنميمة، المفرِّقون بين الأحبة، الباغون للبراء المعايبَ)**[3].

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٣٥٠، كتاب الإيمان والكفر، باب من أذى المسلمين واحتقرهم، الحديث ١.

(٢) المصدر السابق، ص٣٥١، الحديث ٣.

(٣) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص٣٠٦، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١٦٤ ـ تحريم النميمة والمحاكاة، الحديث ١. =

٢ ـ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: **الجنةُ محرمةٌ على القتَّاتين، المشائين بالنميمة)**[١].

٣ ـ عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال؛ في خطبة له: **ومَن مشى في نميمةٍ بين اثنين سلط الله عليه في قبره ناراً تحرقه إلى يوم القيامة، وإذا خرج من قبره سلط الله عليه تنيناً أسودَ ينهش لحمَه؛ حتى يدخل النار)**[٢].

٤ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: **بينما موسى عليه السلام يناجي ربَّه إذ رأى رجلاً تحت ظل عرش الله، فقال: يا رب! مَن هذا الذي قد أظله عرشك؟ قال: هذا كان باراً بوالديه، ولم يمش بالنميمة)**[٣].

٥ ـ ذو اللسانين

من العيوب التي تحوِّل اللسانَ/ الكلامَ من نعمةٍ إلى نقمةٍ أن يكون الشخصُ ذا لسانين. فما هو المقصود بذلك؟

الجواب: المطلوب ـ إسلامياً، وأخلاقياً ـ أن يكون الإنسانُ صادقاً؛ مع نفسه، ومع ربه، ومع الناس.

وهذا ما يستفاد من عدد من الآيات الكريمة. منها:

قوله تعالى ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود/ ١١٢].

قوله تعالى ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة/ ١١٩].

= قال المحدث المجلسي: (البراء) كرِام، وكفُقهاء، جمع البريء، وهنا يحتملهما، وأكثر النسخ على الأول).

ثم قال: الظاهر أن المراد به مَن يُثبت لمن لا عيبَ له عيباً؛ ليُسقِطه من أعين الناس. ويُحتمَل شموله لمن يتجسس عيوب المستورين؛ ليفشيها عند الناس، وإن كانت فيهم؛ فالمراد البراء عند الناس) [بحار الأنوار، ج٧٢، ص٢٦٧، باب النميمة].

(١) المصدر نفسه، الحديث ٢.

(٢) عقاب الأعمال، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص٣٠٨، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١٦٤ ـ تحريم النميمة والمحاكاة، الحديث ٦.

(٣) تهذيب الأخبار، وعنه: المصدر السابق، ج١٢، ص٣١٠، الحديث ١٢.

قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة/ ١١٩].

وهذا يستلزم أن يكون للكلام مسارٌ واحدٌ، فليس للمسلم والمؤمن أن يكون صادقاً مع فلان كاذباً مع فلان! فإن مَن كان على هذه الصفة فهو مصداقٌ لعنوان ذي اللسانين.

ومن كان كذلك صار عنصرَ إفسادٍ وتخريبٍ. وفي هذا السياق، قال النبي ﷺ في وصيته لأبي ذر (رضوان الله عليه):

(يا أبا ذرّ! مَن كان ذا وجهينِ ولسانينِ في الدنيا فهو ذو لسانينِ في النار) [الفقرة/ ١٥٥][(١)].

فهو يخبره أن طبيعة الإنسان في الآخرة ليست سوى انعكاسٍ لطبيعتِهِ في الدنيا، وهو ما ينسجم مع ما ورد في القرآن الكريم من قبيل:

١ ـ قوله تعالى ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف/ ٤٩].

فكتاب الإحصاء ذاك، وهذه المحاسبة، سيكونان على أساس أن ما عملناه بنفسه سيكون حاضراً.

أجل، سيحصل ذلك وِفقاً لطبيعتِهِ الأخروية وليس الدنيوية.

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل/ ٩٠].

والآية ظاهرةٌ في معناها. وهي ـ أيضاً ـ واضحةُ الدلالة على أن جزاءَ أعمالنا هو ـ بعينه ـ أعمالُنا.

---

(١) أورد هذه الفقرةَ الشيخُ الحرُّ العامليُّ؛ في وسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص٢٥٩، كتاب الحج، أبواب العشرة...، الباب ١٦٤ ـ تحريم النميمة والمحاكاة، الحديث ٤.
وأورد نحواً منها عدةَ أحاديثٍ عن النبي وآله (صلوات الله عليه وعليهم)؛ في الباب ١٤٣ ـ تحريم كون الإنسان ذا وجهين، فراجع.

وعليه، فإذا كان الشخصُ ذا لسانين في عالم الدنيا، فإنه ممن يسعى في التخريب على الآخرين، ويفتن بينهم من جهةٍ، ويصور نفسَه؛ كذباً وزوراً، على غيرِ ما هو عليه من جهةٍ ثانيةٍ. ومن كان كذلك فهل هناك استغرابٌ في أن يكون ذا لسانين؛ يكشفان عن قبحِ مآلِهِ وسوءِ عاقبتِهِ في الآخرة؟!

٦ ـ إفشاء الأسرار

آخر العيوب؛ التي قد يُبتلى بها الناس، وأشار إليها النبيُّ ﷺ في هذه الوصية، هي: أن يخون المسلمُ أمانتَهُ؛ بإفشاء أسرار الآخرين.

ولتجلية الأمر نسوق بين يدي الحديث مقدماتٍ؛ تعين على استجلاء الموقف من ذي اللسانين، ونقول:

المقدمة الأولى: إن حياةَ الناس ليست مكشوفةً ـ بالمطلق ـ للآخرين، ولا ينبغي أن تكون كذلك.

فإن بعضَ جوانب الحياة يقبح ـ عقلاً، وعقلائياً ـ كشفُهُا:

١ ـ كالأخطاء والخطايا التي يمكن أن يقع فيها الإنسانُ غيرُ المعصوم؛ حيث يحرم شرعاً، أو يكره، كشفُها للغير(١).

٢ ـ كذلك العورات الجسدية لا يجوز كشفُها للآخر، إلا مَن استثني؛ كالزوج بالنسبة لزوجته، والعكس، وكذلك حالات الضرورة القصوى كالحالات الطبية الحرجة(٢).

المقدمة الثانية: إن من الطبيعي أن يكون لحياة الإنسان دوائرُ خاصةٌ، يتناول

---

(١) للتوسع انظر: وسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة، ج١٦، ص٦٣ وما بعدها، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٨٤ ـ باب وجوب ستر الذنوب، وتحريم التظاهر بها.
وقد ورد في الخبر عن الإمام علي عليه السلام أنه قال؛ تعليقاً على رجل أقر على نفسه بالزنا: **ما أقبح بالرجل= =منكم أن يأتي بعضَ هذه الفواحش فيفضح نفسَه على رؤوس الملأ، أفلا تاب في بيته؟! فواللهِ لتوبتُهُ في ما بينه وبين الله أفضلُ من إقامتي عليه الحد)** وسائل الشيعة، ج٢٨، ص٣٦، كتاب الحدود والتعزيرات، الباب ١٦ ـ أن مَن تاب قبل أن يؤخذ سقط عنه الحد، الحديث ٢.

(٢) للتعرف على تفصيل ذلك انظر: مبحث التخلي من كتاب الطهارة، ومبحث الستر في الصلاة، ومبحث النكاح، وغيرها من بحوث الفقه؛ فتوى واستدلالاً؛ والتي تناولت ما يجب ستره وما يجوز كشفه.

فيها بعضَ الأحاديث لأشخاصٍ دون آخرين؛ كأن يكون الرابطُ بينهم هو الانتماء الوظيفي أو علاقة النسب أو المصاهرة، ونحو ذلك. فقد ورد في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: **استعينوا على أمورِكم بالكتمان؛ فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ**)[1].

المقدمة الثالثة: إن ثقافة الإسلام تقوم على بناء العلاقة بين المؤمنين على أساس (الولاية). قال تعالى ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة/ ٧١].

وهذا يستلزم العملَ على تفعيل ثلاثِ قيمٍ:

القيمة الأولى: المحبة بين المؤمنين والمسلمين

القيمة الثانية: نشر الثقة بينهم

القيمة الثالثة: التعاون

انطلاقاً من هذه المقدمات الثلاث؛ وما تستلزمه، نقول: إنه لا ريب في أن إفشاءَ أسرار الناس هو على النقيضِ تماماً من كلّ هذه القيم؛ فإن من يفشي أسرار الناس:

١ ـ لا يعبر عن محبةٍ للمنقول عنه، بل ولا للمنقول إليه أحياناً.

٢ ـ لا يكشف عن ثقةٍ كان يجب أن يتحلّى بها الناقلُ.

٣ ـ لا يحقق عنوانَ التعاون بنقلِهِ المغرِضِ هذا، بل إنه يجسد عنوان التعاون على الإثم والعدوان؛ المنهي عنه شرعاً.

وقد أحسن من أفاد بقوله: الأصل عدم الجواز [إفشاء الأسرار]؛ إلا إذا أحرز رضاهم بالإفشاء، ومع ذكر عدم الإفشاء يصير عدمُ الجواز آكدَ، وأخذ الميثاق يصير أشدَّ تأكيداً.

والظاهرُ عدمُ خصوصيةٍ للمجلس فيشمل الحكم المكالمات الهاتفية والمكاتبة وأمثالها)[2].

---

(١) الحراني، ابن شعبة (ق ٤ هـ)، تحف العقول، فصل قصار ما روي من كلماته ﷺ، ص٤٨.
ورواه ـ مسنداً ـ الطبرانيُ في معجميه الأوسط والأصغر، وأبو نعيم في الحلية، والقضاعيُ ـ واللفظ له ـ، برقم (٧٠٧)؛ في مسند الشهاب القضاعي، ج١، ص٤١٠.

(٢) محسني، الشيخ محمد آصف (معاصر)، الفقه والمسائل الطبية، المسألة الثالثة والعشرون ـ حول إفشاء الأسرار، ص١٩٤.

لكل هذا، جاء التوجيه النبوي بقوله ﷺ:

(يا أبا ذرّ! المجالسُ بالأمانة، وإفشاءُ سرِّ أخيك خيانةٌ) [الفقرة/ ١٥٦][(١)].

ليجعل النبيُّ ﷺ ذلك مقدمةً للموقف المطلوب؛ فيقول ﷺ: **(فاجتنِب ذلك)**.

ويزيد مربينا ﷺ ذلك إيضاحاً؛ بالنصّ على أن هذا موقفٌ مبدئيٌّ لا مجال للمساومةِ فيه، فهو لازمٌ حتى لو تطلَّب العزلةَ عن الأهل والأقارب، إذا توقفت مخالطتُهُم على الإفشاءِ المحرمِ لأسرار المؤمنين؛ ويقول النبيُّ ﷺ:

(واجتنِب مجلسَ العشيرة[(٢)]).

وهنا وجهٌ آخرُ؛ وهو: أن يُراد بتجنب مجلس العشيرة، تجنبُ ما يُذكر في مجلس العشيرة. وهو ـ بطبعه ـ مجلسٌ عائليٌّ؛ يتخفف المشاركون فيه من بعض الالتزامات الاجتماعية. لذلك، قد يصدر عنهم فيه ما لا يقولونه في مجالس أخرى، وبالتالي فما يقولونه فيه هو من مصاديق الأسرار؛ التي لا يسوغ نشرُها بغير إذنٍ منهم.

ويشهد لذلك ما قيل؛ تعقيباً على قول النبي ﷺ: **المجالس أمانة)**، أن: الرجل إذا كان في مجلس العشيرة لم يبالِ ما قال، وإذا كان في غيره تحفَّظ في كلامه)[(٣)].

ومثله لو كان اللفظ (**مجلس العشرة**)؛ حيث يكون مجلساً أخوياً بين شخصين بينهما مودةٌ خاصةٌ، أو شأنٌ خاصٌ، لا يشاركهما فيه غيرهما، أو يرغبان معاً، أو أحدهما، في أن لا يشاركهما فيه غيرهما.

وأما لو كان اللفظ (**مجلس العثرة**) فيمكن حمله على الدعوة إلى تجنب مجلس يمكن أن يكون مكاناً للمعصية، أو حمله على الدعوة إلى الستر على

---

(١) أورد هذه الفقرةَ السيدُ البروجرديُّ؛ في جامع أحاديث الشيعة، ج١٦، ص٣٥١، كتاب العشرة، الباب ١٢٤ ـ أن إذاعة سر المؤمن، ورواية ما يعيبه، وإفشاء سيئته، حرام، وإفشاء الخير مستحب، الحديث ١١.

(٢) في نسخة الوافي [ج ٦، ص١٩٨] (العشرة). وفي الوسائل [ج ١٢، ص٣٠٧] أشير إلى نسخة (العثرة).

(٣) العسكري، أبو هلال (ت٣٩٥ هـ تقريباً)، الأوائل، ص٣٠٥.

المؤمن إذا وقع في عثرة؛ أي معصية، في مجلس من المجالس. ويشهد لذلك ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: **المجالس بالأمانة؛ إلا ثلاثة مجالس. ولا يحل لمؤمنٍ أن يأثِر**[١] **عن مؤمن ـ** أو قال: **عن أخيه المؤمن ـ قبيحاً)**[٢].

وهنا استثناءان يجدر ذكرُهُما:

الاستثناء الأول: لا مانع من مخالفة هذا القانون العام في الحالات التي لا تنافي ما جُعل القانونُ من أجل حمايته. من قبيل ما إذا كان الحديثُ الدائرُ؛ في هذا المجلس، أمراً أذِن قائلُهُ أن يُذاع، أو أنه أمرٌ حسنٌ لا يمانع قائلُهُ من نقله عادةً.

وهذا ما جاء الخبر به عن الإمام الصادق عليه السلام؛ حيث قال: **المجالس بالأمانة، وليس لأحدٍ أن يحدِّث بحديثٍ يكتمه صاحبه؛ إلا بإذنه؛ إلا أن يكون ثقةً، أو ذكراً له بخيرٍ)**[٣].

الاستثناء الثاني: أن يكون ما دار في المجلس جريمةً لا يسمح الشرع الحنيف ـ بأيِّ وجهٍ ـ أن تقع، ففي مثل هذه الحالة يجوز النقل والحكاية؛ تقديماً للأهم على المهم.

وهذا ما ورد التنبيه إليه؛ في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: **المجالسُ بالأمانة؛ إلا ثلاثةَ مجالسَ: مجلسٌ سُفِك فيه دمٌ حرامٌ، أو مجلسٌ استُحِل فيه فرجٌ حرامٌ، أو مجلسٌ يُستحل فيه مالٌ حرامٌ بغيرِ حقِّهِ)**[٤].

---

(١) أي: يروي وينقل.

(٢) الطوسي، الشيخ أبو جعفر (ت٤٦٠ هـ)، الأمالي، ص٥٣، المجلس الثاني.

(٣) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص١٠٤، كتاب الحج، أبواب العشرة...، الباب ٧١ ـ أن من جالس أحداً فائتمنه على حديث لم يجُز له أن يحدث به إلا بإذنه...، الحديث ٣.

(٤) مجالس الطوسي، وعنه: المصدر السابق، ص١٠٥، الحديث ٤.



الفصل الثاني والخمسون

اللَّه تعالى أولاً وأخيراً

من الطبيعي أن تتفاوت الأشياءُ والموجوداتُ، وتتباين الغاياتُ والمقاصدُ، وعلى أساسها يتفاضل الناسُ.

ونريد ـ هنا ـ أن نقف عند ما أراد النبي ﷺ أن يركز انتباهنا عليه، ممَّا يكون نافعاً لنا في الدارين معاً، ويمكن القول إنه عصارة هذه الوصية الجامعة لطرق الخير وسبله، والآخذة بيد العامل بها إلى الصراط المستقيم.

قال النبيُّ ﷺ:

● **[الفقرة/ ١٣٨]**(١):

(يا أبا ذرّ! ألا أعلِّمك كلماتٍ ينفعك الله عزّ وجلّ بهن؟! قلت: بلى يا رسول الله! قال: احفظ الله يحفظْك. احفظ الله تجدْهُ أمامَك. تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفْك في الشدة. وإذا سألتَ فاسأل الله عزّ وجلّ. وإذا استعنتَ فاستعن باللهِ. فقد جرى القلمُ بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ، فلو أن الخلقَ كلَّهم جهدوا أن ينفعوك بشيء؛ لم يكتبْ لك، ما قدروا عليه، ولو جهدوا أن يضروك بشيءٍ؛ لم يكتبه الله عليك، ما قدروا عليه).

هذه وصايا أربع؛ وصفها النبي ﷺ بالـ(**كلمات**). وليس المقصودُ بها جمعَ

---

(١) روي في غيرِ مصدرٍ؛ من الفريقين، أن هذا الكلام قاله رسول الله ﷺ للفضل ابن العباس؛ كما في من=

(كلمة) بمعنى المفردة اللغوية، بل بمعنى المضامين التي تستقر في العقل، وتؤثر في الوجدان، وتُترجم عملياً في السلوك.

نقول هذا لأنّ الكلمات المجردة ليس من شأنها ـ وحدها ـ أن تحدِث الأثرَ المذكورَ، كما هو واضحٌ لكلّ ذي عقلٍ ولبٍّ.

وهذه الكلمات/الوصايا تناولت أبعاداً لا غنى للراغب في الصراط المستقيم عنها، وهذه الأبعاد تُعالج محورين أساسين:

المحور الأول: حق الله تعالى

يخطئ كثيرٌ من الناس في نهج التعامل مع الله تعالى. فهم يريدون منه لأنفسهم ما يتمنون من خيرٍ، لكنهم في الوقت نفسه لا يؤدون حقوق الله تعالى. مع أن من الشروط الموضوعية؛ والأخلاقية، لتصحيح العلاقة بين طرفين ـ حتى المتكافئين، فضلاً عن غير المتكافئين ـ هو أن يراعيَ كلٌّ منهما حقَّ الطرفِ الآخر. فإذا أخل أحدُ الطرفين في مراعاة حقِّ الطرف الآخر، فليس لهذا المقصِّر أن يطالب الآخرَ بأن يراعي حقوقَه.

لذلك، أشار النبي ﷺ في هذا المحور إلى بُعدَين اثنين، هما:

البعد الأول: الوفاء والصدق مع الله تعالى

لا يصح للعبد أن يرجو الخيرَ من الله تعالى وهو لا يحفظه!

والحفظ ـ هنا ـ يعني: أداء الحق، والمراعاة على مستوى الجوارح والجوانح. الأمر الذي يشكل الغايةَ العظمى من بعثة الأنبياء عليهم السلام.

قال تعالى ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ

=لا يحضره الفقيه [برقم ٥٩٠٠]، أو أخيه عبدالله؛ كما في مسند أحمد [مسند عبدالله بن عباس]، أو عبدالله بن جعفر؛ كما في المعجم الكبير للطبراني [ما رواه ابن أبي مليكة عن ابن عباس].

ولا مانع من تكراره منه ﷺ؛ كما هو شأنُ كلِّ مقولةٍ ذاتِ أهميةٍ؛ يرى مَن قالها؛ أو يتبناها، ضرورةَ نشرِها وإذاعتِها بين الناس؛ خصوصاً في أوساط من يحبهم ويحبونه.

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة/ ١٥٢].

فحفظ الله تعالى ـ إذن ـ يتمثل في: ذكره، وشكره.

أما الشكر فهو: حسن التعامل مع النعم الإلهية.

وأما الذكر فهو: ضمانة السير الصحيح في عالم التعامل مع النعم. فهما متلازمان. كما أنهما وصفان لا يتيسران إلا لمن حظي بلطفٍ إلهيٍّ؛ فشملته رعايةٌ نبويةٌ؛ عملت في الناس بتلاوة الآيات، وتزكية النفوس، وتعليم الكتاب والحكمة، وأحسن هو الاستجابة؛ فاعتصم بحبل الله تعالى بالتمسك بمن وجبت مودته، وركب في سفينة النجاة بولايته، وجُعل سبباً للأمن من الضلال.

وقد أشار النبي ﷺ إلى كلّ ذلك بفقرتين، هما:

أ ـ (احفظ اللهَ، يحفظك).

ب ـ (احفظ اللهَ، تجده أمامك).

والمراد من قوله (**احفظ الله**) ـ في الفقرتين، وما شابههما ـ ليس حفظَ الذات الإلهية؛ فليست هي في معرض الضياع أو التضييع؛ فهو تعالى ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام/ ١٨، ٦١]، ولله تعالى ﴿ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم/ ٤]، ولا العبدُ قادرٌ على ذلك، وإنما الحفظ ـ بمعنى المراعاة ـ لـ:

١ ـ حدوده وعهوده؛ فلا تُتجاوز، ولا يُتعدَّى عليها.

٢ ـ أوامره؛ فتُمتَثل، ولا يُتراخَى فيها.

٣ ـ نواهيه؛ فلا تُخالَف، ولا تُعصَى.

وعليه، فلا يُستثنى من بند الحفظ؛ هذا، أمرٌ من أوامر الله، ولا شيءٌ من نواهيه. قال الله تعالى ـ في وصف المؤمنين المحمودين ـ ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة/ ١١٢].

فعليك ـ أيها الراغب في السير على الصراط المستقيم ـ أن تحفظَ الله تعالى، وأن تراعيَ حقَّهُ، ولن يقصرَ هو ـ أبداً ـ في الوفاء لك بأضعاف ذلك، فإنك إن سبقتَ إليه بخيرٍ ضاعف لك هو الخيرَ؛ فـ(**احفظْ الله يحفظْك**).

ولا يفوتنا التنبيه ـ أخيراً ـ إلى:

أن الفقرةَ تضمنت مكافأةً ثمينةً؛ يسعى وراءها جميعُ العقلاء؛ وهي: الحفظ؛ بمعنى السلامة والكفاية من المخاطر؛ الظاهرة والباطنة، العاجل منها والآجل. وذلك في قولِ النبيِّ ﷺ **(يحفظْك)**؛ التي هي الجزاء ـ أي المكافأة والنتيجة ـ لذاك الشرط والسبب **(احفظ اللهَ)**.

البعد الثاني: معرفة الله تعالى في الرخاء والشدة

في هذا البعد أوضح النبيُّ ﷺ خطأً شائعاً بين أكثر الناس. وهو أنهم ـ في الغالب ـ يلجؤون إلى الله تعالى إذا ضاقت بهم الدنيا، أما إذا كانوا في يسرٍ ورخاء فلا يسعون في ذلك.

وفي ذلك قال الله تعالى ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت/ ٦٥]. وهذا ـ كما لا يخفى ـ جفاءٌ منافٍ للوفاء؛ يستحق فاعلُهُ ـ في المقابل ـ أن يُجفى؛ فيعرَّف ويُبيَّن له ذلك إذا ألمَّت به شدةٌ؛ أو شدائدُ، نعوذ بالله من ذلك.

لذلك، يوصي النبيُّ ﷺ أن تكون العلاقةُ منطقيةً دائمةً أخلاقيةً؛ ومبنيةً على أساس الحاجة الحقيقية من الفقير للغني، ومن المحب للحبيب. وهذا يستلزم التساويَ بين حالي الشدة والرخاء.

فقال النبيُّ ﷺ: **تعرَّفْ على الله في الرخاء، يعرفْك في الشدة).**

والظاهر أن المقصود بالمعرفة ـ في هذه الفقرة ـ ما يلازمها؛ من الأنس والاطمئنان ونحوهما من علامات المعرفة المنتجة للمحبة؛ دون المعرفة بمعنى العلم. فهذه ـ إن حصلت ـ لا فرق فيها بين حالَي الرخاء والشدة.

وهذا التعبير يشبه ما نقوله لمن يكون بيننا وبينه علاقةٌ ومعرفةٌ، لكنه لا يقوم بلوازم تلك العلاقة والمعرفة؛ من تواصلٍ وتفقدٍ. فإذا وقع هو في شدةٍ وأعاد ما انقطع من الصلة والتواصل! يقال له: ألا تعرفنا؟! أو: لا تعرفنا؟! ونحو ذلك؛ على وجه الاستنكار والاستهجان للقطيعة والهجر اللذين وقعا منه!

ولقد ساق لنا القرآن الكريم حالَ فرعون؛ الذي كفر بالله تعالى، وتنكَّر له! بل إنه ادعى الربوبيةَ؛ وهو العارفُ ببطلانِ ما يدعيه وصوابِ ما دعاه إليه موسى وهارون عليهما السلام.

فقال تعالى فيه ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس/ ٩٠، ٩١].

فلا يليق بنا أن لا نسلِّم لله تعالى، ولا نحفظ حدوده، إلا في الشدة، أما في الرخاء فلا نلتزم بذلك! فإننا إن ابتلينا بذلك كان حالنا حالَ فرعون؛ أعاذنا الله وإياكم من حاله ومآله.

وما ذكرناه؛ من جزاءٍ وشرطٍ، في الفقرة السابقة جارٍ ـ بعينه ـ هنا؛ فلا نعيد.

المحور الثاني: حق العبد

في هذا المحور نوَّه النبيُّ ﷺ إلى ما لا يليق بالحكيم أن يغيب عن باله. وهو أن المنعِم إنَّما هو الله تعالى لا غير؛ فهو سبحانه المعطي، وهو المانع، وهو ـ مع هذا وذاك ـ الكافي من كلِّ سوءٍ.

ثم إنه لا يجدر بمن أراد الله تعالى له أن يكون عزيزاً أن يُذل نفسَه أمام أمثاله؛ ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً لنفسه؛ فضلاً عن غيرِهِ.

ومن ثم أوصى النبيُّ ﷺ أبا ذر (رضوان الله عليه) ببنودٍ ثلاثةٍ؛ تضمَن كلُّ واحدٍ منها أدباً أو معرفةً لازِمَين:

البند الأول: لا ترجُ إلا الله

قال النبيُّ ﷺ: **وإذا سألت، فاسأل الله عزّ وجلّ**). وذلك أن الخيرَ ليس إلا من قِبَله سبحانه؛ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل/ ٥٣]. فسؤالُ غيرِ الله تعالى ـ إذن ـ مذلةٌ وسفهٌ.

وبالطبع، ليس المرادُ من السؤال ـ هنا ـ أن تطلب الماءَ مثلاً من زوجتك، أو

من ولدك، أو من غيرهما، ونحو ذلك من شؤون التعاون الاجتماعي اليومي والمعاشي، وإنما هو أن تطلب ذلك معتقداً أن مَن تطلبه وتسأله شيئاً أو عوناً يملك الضرَّ والنفعَ بنحو الاستقلال عن الله تعالى.

ولا ريب أن ذلك خطأٌ أولاً، وخطيئةٌ ثانياً؛ إذ لا شك أن أحداً لا يملك ذلك سوى الله عز اسمه.

قال الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران/ ١٢٨] وهذا نفيٌ ربوبيٌّ صريحٌ لأنّ يكون أحبُّ الخلق إليه، وسيدُهم عنده؛ وهو خاتم النبيين والمرسلين ﷺ، يملك من الأمر شيئاً؛ في شؤون التدوين أو التكوين، فكيف بمن دونه من الخلق.

وهذا ما كان النبيُّ ﷺ يحمله شعاراً وعنواناً لدعوته ونبوته؛ بتكليفٍ من الله تعالى؛ حيث خوطب بآيةٍ كريمةٍ؛ جاء نصُّها على النحو التالي ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف/ ١٨٨].

فعلى مَن رغب أن يكون من أهل الصراط المستقيم؛ ابتداءً وانتهاءً، فإن ممَّا يلزمه ـ دائماً ـ هو أن يكون حافظاً لله تعالى؛ من أجل ينال مقامَ مَن يحفظهم الله تعالى؛ جعلنا الله وإياكم منهم.

البند الثاني: لا تستعِن بغير الله

قال النبيُّ ﷺ **(وإذا استعنتَ، فاستعِنْ بالله).**

الاستعانةُ مفهومٌ يختلف عن التعاون. فالمفهوم الأول/الاستعانة هي ما نقرأه في قوله تعالى ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة/ ٥]. وذاك محصورٌ في ما يكون الحلُّ والربطُ فيه ـ أولاً وآخِراً ـ بيد الله لا غير؛ وهي الأسباب العظمى.

أما الأمور الصغيرة؛ التي بنى الله سبحانه سيرورةَ الكون وِفقاً لها، فمن قبيل المفهوم الثاني/التعاون، وقد أمرنا تعالى به فيها، قائلاً ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾

[المائدة/ ٢]. وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام؛ في ما روي عنه ـ في حديثٍ ـ: **أبى الله أن يجري الأشياءَ إلا بأسبابٍ، فجعل لكلِّ شيءٍ سبباً...)**(١).

البند الثالث: الأمرُ كلُّه بيدِ الله

لم يقتصر النبيُّ صلى الله عليه وآله على الأمر بما ذُكر في البندين السابقين وما تقدمهما، بل أردف ذلك ببيانِ فلسفتِهِ والسرِّ فيه؛ بقوله صلى الله عليه وآله: **(فقد جرى القلمُ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، فلو أن الخلقَ كلَّهم جهِدوا أن ينفعوك بشيءٍ؛ لم يُكتب لك، ما قدروا عليه، ولو جهِدوا أن يضروك بشيءٍ؛ لم يَكتبه الله عليك، ما قدروا عليه).**

وهو بيانٌ واضحٌ؛ في أن ثمة أموراً كائنةً مكتوبةً مقدَّرةً لا يُرجى تغييرُها، ولا يُخشى تبديلُها، مهما اجتمعت العواملُ والأسبابُ. فما كان منها كائناً من نفع فهو حاصلٌ لا محالةَ، وما كان منها منفياً من ضرٍّ فلن يحصل بغير ريبٍ.

ومما لا شك فيه أن هذه الحقيقة اليقينية تبعث في نفس المؤمن بها حالةً من الاطمئنان والاستقرار؛ تحول بينه وبين اليأس والخوف والطمع والجشع، ممَّا تُبتلى به النفوس الضعيفة والعقول السخيفة؛ فتذل لهذا، وتنكسر أمام ذاك. قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد/ ٢٨].

والظاهر أن جملة **(جرى القلمُ بما هو كائنٌ)** جاءت في سياق بيان أن المقدراتِ الإلهيةَ محددةٌ، وأن الناس لا دور لهم في تغييرها.

فعلى المؤمن ـ إذن ـ أن ينظِّم حياتَه وِفقاً للمعادلات الإلهية لا غير، فيعمل ما أمره الله أن يعمله، ويترك ما أمره بتركه، ثم ينتظر ما قدَّره الله تعالى تبعاً لذلك.

وليس للمؤمن أن يعمل لإرضاء الناس؛ فيخالف أمرَ الله ونهيَه؛ برجاء تغيير المعادلات الإلهية، لأنّ ذلك لن يحصل بوجهٍ؛ فالله تعالى ليس (مقهوراً مغلوباً للعوامل والأسباب الخارجية مثلنا، والله يحكم لا معقب لحكمه)(٢).

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص١٨٣، كتاب الحجة، باب معرفة الإمام والرد إليه، الحديث ٧.

(٢) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١١، ص٣٧٦، ذيل قوله تعالى ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ...﴾ [الرعد/ ٣٩].

أما أن هذا الذي جرى القلم به يمكن أن يناله التغيير والتبديل بأمر الله عزّ وجلّ، فالجملة ليست بصدده والله العالم. ويرشد إلى ذلك قوله تعالى ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد/ ٣٩]؛ حيث يستفاد منها أن (حكمَ المحو والإثبات عامٌّ لجميع الحوادث التي تداخله الآجالُ والأوقاتُ؛ وهو جميعُ ما في السماوات والأرض وما بينهما)[١].

سنن ربانية:

من أجل أن نكون مع الله تعالى أولاً وآخراً، ظاهراً وباطناً، ومن أجل أن نرجوه سبحانه وحده، ونحظى بلطفه الشامل والكامل، فلا بد لنا أن نلتزم بما أوصانا به النبيُّ ﷺ؛ من خلال وصيته لأبي ذر رضي الله عنه وأمثالها.

لكن النبي ﷺ يضع لبلوغ هذه الحالة الرائعة شرطين مهمين؛ يلزم مراعاتهما دون تراخٍ، وهما:

الشرط الأول: الرضا

الرضا: خلاف السخط.

وهو أعلى درجات التسليم والقبول بقضاء الله وقدره؛ لأنه تعالى هو الحكيم في ما يفعل؛ عطاءً ومنعاً، وهو المحبُّ لعبدِه في العاجل والآجل. وبالتالي، فلن يفعل ما ليس في مصلحةِ عبدِهِ وحبيبِهِ.

الشرط الثاني: الصبر

الصبر هو: الحبس، والإمساك عن الشيء.

وشرط الصبر؛ هذا، يمثِّل ـ في المقام ـ مرحلةً متدنيةً لمن عجز عن تحقيق الرضا.

والسرُّ في ذلك أن عالمنا هو عالم الأسباب والامتحان، ولا بد من التسليم بهما، والخضوع لمقتضياتهما وتحملها.

ويقول النبي ﷺ؛ شارحاً هذين الشرطين:

---

(١) المصدر السابق، ص٣٧٧.

- **[الفقرة/ ١٣٨]:**

(فإن استطعتَ أن تعمل للهِ عزّ وجلّ بالرضا في اليقين فافعلْ. وإن لم تستطعْ فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً).

فالمطلوب ـ وفقاً للتوجيه النبوي ـ هو إحدى حالتين؛ أولاهما مقدمة على الثانية.

أما الأولى فهي: أن يحرص المؤمن على العمل انطلاقاً من حالة الرضا؛ التي تعني قبولَه التامَّ للتكاليف الإلهية. على أساسِ معرفتِهِ ويقينِهِ بأنها في مصلحتِهِ؛ سواءٌ تبيَّن له وجهُ المصلحة فيها ومنها، أو خفي عنه ذلك؛ كلُّه أو بعضُه.

وأما الثانية فهي: أن يعمل انطلاقاً من التسليم والصبر. على أساس أن الله تعالى غنيٌّ لا يرجو من وراء هذه التكاليفِ كلِّها مصلحةً لذاته، وأن المصلحةَ المرجوةَ من الأمر والنهي تعود ـ كلها ـ للمكلف نفسه. مع الضغط على نفسه إن استشعر منها التمرد؛ ملقناً إياها أن ما سيلقاه ـ تبعاً لهذا الصبر والتزام ذاك التكليف ـ سيكون خيراً كثيراً ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر/ ١٠].

وشرطا الرضا والصبر؛ بما يعنيانه من تكاملٍ أخلاقيٍّ في مَن اتصف بهما، يأتيان في مقدمة الشروط اللازم توفُّرها في مَن أراد السير على الصراط المستقيم.

وفي إيضاح الخلفية لهذين الشرطين جاءت الأخبار الكثيرة عن المعصومين ﷺ، ولنقف عند نزرٍ يسيرٍ منها:

١ ـ عن الإمام الصادق ﷺ أنه قال: **رأسُ طاعةِ الله الصبرُ والرضا عن الله؛ في ما أحب العبدُ أو كره. ولا يرضى عبدٌ عن الله؛ في ما أحب أو كره، إلا كان خيراً له في ما أحب أو كره)**[1].

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٦٠، كتاب الإيمان والكفر، باب الرضا بالقضاء، الحديث ١.

وهو نصٌّ واضحُ الدلالة على أهمية الصبر والرضا في ما يرتبط بتحقيق المصلحة الحقيقية للعبد؛ التي أُطلِق عليها أنها الخيرُ.

٢ ـ في نصٍّ آخرَ يبيِّن فلسفةَ تلك الأهمية بقوله عليه السلام: **إن أعلمَ الناسِ باللهِ أرضاهم بقضاء الله عزّ وجلّ**"[1]. فلا يتوفر على صفة الرضا إلا العارفون بالله تعالى، فما أشرفَها وأهمَّها من صفةٍ كماليةٍ!

٣ ـ في نص آخر يكشف النبي صلى الله عليه وآله، على لسان الله تعالى؛ في ما يرويه عنه امتداده إمامنا الباقر عليه السلام، وجوهَ المصلحة في حرمان الله تعالى عبدَه بعضَ الامتيازات، وكيف تكون لمصلحته لو أنه أدرك كنهها، فيقول: **قال الله عزّ وجلّ: إن من عبادي المؤمنين عباداً لا يَصلح لهم أمرُ دينهم إلا بالغنى والسعة والصحة في البدن، فأبلوهم بالغنى والسعة وصحة البدن، فيصلح عليهم أمرُ دينهم.**

وإن من عبادي المؤمنين لعباداً لا يصلح لهم أمرُ دينِهم إلا بالفاقة والمسكنة والسقم في أبدانهم، فأبلوهم بالفاقة والمسكنة والسقم، فيصلح عليهم أمرُ دينهم. وأنا أعلم بما يصلح عليه أمرُ دينِ عبادي المؤمنين.

وإن من عبادي المؤمنين لمن يجتهد في عبادتي فيقوم من رقادِهِ ولذيذِ وسادِهِ، فيتهجد لي الليالي، فيُتعب نفسَهُ في عبادتي، فأضربه بالنعاس الليلةَ والليلتين؛ نظراً مني له، وإبقاءً عليه، فينام حتى يصبح، فيقوم وهو ماقتٌ لنفسه، زارئٌ عليها. ولو أخلِي بينه وبين ما يريد من عبادتي لدخله العجبُ من ذلك، فيصيِّره العجبُ إلى الفتنة بأعماله، فيأتيه من ذلك ما فيه هلاكه؛ لعُجبه بأعماله، ورضاه عن نفسه، حتى يظنَّ أنه قد فاق العابدين، وجاز في عبادته حدَّ التقصير، فيتباعد مني عند ذلك، وهو يظن أنه يتقرَّب إليَّ.

فلا يتكلْ العاملون على أعمالهم؛ التي يعملونها لثوابي؛ فإنهم لو اجتهدوا، وأتعبوا أنفسهم، وأفنوا أعمارَهم في عبادتي، كانوا مقصِّرين، غيرَ بالغين في عبادتهم كنهَ عبادتي؛ في ما يطلبون عندي من كرامتي، والنعيمِ في جناتي، ورفيعِ درجاتي العلى في جواري، ولكن فبرحمتي فليثقوا، وبفضلي فليفرحوا، وإلى

---

(١) المصدر السابق، الحديث ٢.

حسن الظن بي فليطمئنوا، فإن رحمتي عند ذلك تداركُهُم، ومني يبلغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي، فإني أنا الله الرحمن الرحيم، وبذلك تسميت)(١).

والنصُّ مشحونٌ بفوائد ولطائف تؤكد ـ جميعها ـ على أن الله تعالى حكيمٌ في أمره ونهيه، وأنه لطيفٌ في عطائه ومنعه. فما على العباد من أهل الحصافة والحكمة ـ إن كانوا من السعاة لبلوغ الصراط المستقيم، والثبات عليه ـ سوى الرضا والصبر على ما يرد عليهم من ربهم الرؤوف العطوف؛ فهو الأعرف بهم، والأعلم بمصالحهم.

٥ ـ باعتبار أهمية شرطي الصبر والرضا سأل أحدهم الإمام الصادق عليه السلام، قائلاً: **بأي شيء يعلم المؤمن بأنه مؤمنٌ؟** فأجابه الإمام عليه السلام بقوله إن ذلك يكون: **بالتسليم لله والرضا؛ في ما ورد عليه من سرورٍ أو سخطٍ)**(٢).

٦ ـ كانت هذه الحالة هي السمة الشخصية لرسول الله صلى الله عليه وآله، فـ: **لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ـ لشيء قد مضى ـ: لو كان غيرُهُ)**(٣).

وفي فقرة البحث؛ من وصيتنا هذه، لا يكتفي النبيُّ صلى الله عليه وآله ببيانِ شرطيةِ كلٍّ من الصبر والرضا، وإنما أضاف إلى ذلك كلاماً من شأنه تطييب النفوس وتنشيطها، بالنص على حقائقَ ربانيةٍ تمثّل سنناً لا تتخلّف، وهي قوله:

(وإن النصرَ مع الصبرِ، والفرجَ مع الكربِ، وإن مع العسرِ يسراً) [الفقرة/ ١٣٨].

وهذه سننٌ ثلاثٌ جاء النص عليها في مواضع عديدة من القرآن الكريم، فـ:

١ ـ عن سنة النصر والصبر، قال الله تعالى ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج/ ٤٠].

٢ ـ عن سنة الفرج بعد الكرب، قال الله تعالى ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء/ ٧٦].

---

(١) المصدر السابق، الحديث ٤.

(٢) المصدر السابق، ص٦٢ ـ ٦٣، الحديث ١٢.

(٣) المصدر السابق، ص٦٣، الحديث ١٣.

٣ ـ عن سنة اليسر بعد العسر، قال الله تعالى ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح/ ٦].

ونخلص ـ من كلّ هذا ـ إلى:

أن المطلوب هو أن نكون مع الله تعالى؛ في السر والعلن، والخلأ والملأ، والسر والعلن، والقول والفعل، والرخاء والشدة، وأولاً وآخراً؛ ليكون هو تعالى معنا في كلّ ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل/ ١٢٨].



الفصل الثالث والخمسون

من الخلق إلى الحقّ

استمراراً في تبيان ملامح الصراط المستقيم يبيِّن الرسول الأعظم ﷺ أن على الإنسان عدمَ الاستغراق في الخلق؛ لئلا يقع في الغفلة عن الحق؛ فيشتغل بالخلق عن الخالق، وتلهيه الوسائلُ عن الغايات.

وذلك في مجموعة معالم؛ جاء سردها في فقرة البحث ـ هنا ـ كالتالي:

المعلم الأول: التقوى والورع

التقوى والورع مفردتان من أكثر المفردات رواجاً في النصوص الدينية، فالقرآن والسنة مشحونان بما لا يتيسر إحصاؤه بمعالجات ومقاربات مختلفة لمسألتي التقوى والورع، على مستوى: التعريف، والشروط، والموانع، واللوازم، واللواحق...

وباعتبار أن هذه الوصيةَ (**جامعةٌ لطرقِ الخيرِ، وسبلِه**) [الفقرة/ ٣]؛ وهي ما نعنيه بـ(الصراط المستقيم)، فإن من الطبيعي أن يكون للتقوى والورع حضورٌ مناسبٌ؛ بشكلٍ مباشرٍ وغيرِ مباشرٍ.

١ ـ في هذا السياق جاء هذا المعلَم؛ محدِّداً أن الطريق إلى الكرامة والتفاضل فيها إنَّما هو التقوى، فقال ﷺ:

● [الفقرة/ ١٢٤][(١)]:

(يا أبا ذرّ! مَن سره أن يكون أكرمَ الناسِ فليتق الله عزّ وجلّ).

والنبي ﷺ ـ هنا ـ يحرك فينا؛ من خلال هذه الفقرة من وصيته لأبي ذر ﵀، الأحاسيسَ الداخليةَ التي من شأنها الدفع بنا إلى ما يسرنا دون ما يسوؤنا. ويكشف لنا عن حقيقةِ مفادِها بأن السرور إنَّما هو:

أ ـ أن نكون من أهل الكرامة.

ب ـ أن نترقى فيها إلى مستوى التميز والتفرد.

ج ـ أن ذلك يتوقف على تقوى الله تعالى.

ولا يخفى على أيٍّ منا أن للتقوى مظهرَين:

المظهر الأول: مظهرٌ إيجابيٌّ

يتمثل في امتثال أوامر الله تعالى، والتحلي بالفضائل والقيم.

المظهر الثاني: مظهرٌ سلبيٌّ

يتمثل في تجنب نواهي الله تعالى، والتخلي عن الرذائل.

وهذا المظهران متداخلان، ومترابطان، يتآزران في تحقيق عنوان التقوى الكاملة والشاملة. فمَن اقتصر على أحدهما دون الآخر، فقد نال حظاً من التقوى، لكنه ليس بالضرورة يكفيه؛ لأنه قد يكون مصداقاً للإيمان ببعضِ الكتاب دون بعضٍ.

وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطباً بني إسرائيل ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا

(١) أورد هذه الفقرةَ الشيخُ النوريُّ؛ في مستدرك وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٦٤، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٢٠ ـ وجوب تقوى الله، الحديث ٦.

تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة/ ٨٥ ـ ٨٦].

وأما التلازم بين التقوى والكرامة؛ تلازمَ السبب والنتيجة، فهذا ما جاء النصُّ عليه في القرآن الكريم؛ في قوله تعالى ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات/ ١٣].

٢ ـ التواءات النفس، وعُقَدها، والواقع، وتعقيداته، كلّ ذلك يفرض على المتقي أن يكون في أعلى درجات الحذر والفطنة، والمؤمن (**كيّسٌ فطِنٌ**)[1]؛ لعلمه أنه يواجه عدواً شرساً، وشِراكاً خفيةً ومتعددةً، ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف/ ١٧].

وهذا يستلزم خطواتٍ استباقيةً واحتياطيةً؛ بتوقي ما ليس بحرامٍ حذراً من الوقوع في الحرام.

وفي ذلك يقول النبي ﷺ:

● **[الفقرة/ ١٢٦]:**

(يا أبا ذرّ! إن المتقين الذين يتقون [الله عزّ وجلّ][2] من الشيء الذي لا يُتّقَى منه؛ خوفاً من الدخول في الشبهة).

فالتقوى الحقيقية والكاملة تتطلب ذلك.

وما أجمل ما ذكره بعضُ الفقهاء في هذا الباب؛ حيث يقول: إن التقوى التجنبُ عن الشبهات، لئلا يقع في المحرمات، والورعَ هو التجنبُ عن المباحات؛ لئلا يقع في الشبهات)[3].

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج٦٤، ص٣٠٧، عن رسول الله ﷺ. وكنز العمال، ج١، ص١٤٣، في صفات المؤمنين، برقم (٦٨٩) عن مسند القضاعي.

(٢) ما بين المعقوفتين ليس في المكارم.

(٣) النجفي، الشيخ محمد حسن (ت١٢٦٦ هـ)، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج١٣، ص٣٦٧، شرائط إمام الجماعة.

وهذا المعنى مأخوذٌ من الأخبار؛ من قبيل ما نحن بصدد شرحِهِ من فقرةٍ.

٣ ـ يُتبع الرسولُ ﷺ بيانَه، قائلاً:

- **[الفقرة/ ١٢٨]:**

(يا أبا ذرّ! ملاك الدين الورعُ، ورأسه الطاعة).

فللدينِ عمقٌ لا يدركه السطحيون القاصرون، وفي هذا العمقِ أصلٌ يتفرع منه شُعَبٌ وأغصانٌ، وهذا العمق هو ما عُبِر عنه بـ(الملاك) ثم بُيِّن أنه (الورع)؛ الذي يعني: الكف عن الحلال والمباح، وعدم الاكتفاء بالكف عن الحرام[1].

وهذا الملاك ـ الذي هو (الورع) ـ هو الأساسُ الذي يقوم عليه فعل (الطاعة)، فمَن لا ورع له لا طاعةَ له. وإذا تيسَّر له الطاعة ـ أحياناً ـ وهو من غير أهل الورع، فلن تكون الطاعةُ شاملةً ولا كاملةً.

ثم يترقَّى النبيُّ ﷺ ليكشف أن ثمةَ ارتباطاً وثيقاً بين التفاضل بين الناس من جهةٍ، والورع من جهةٍ أخرى.

والسبب يكمن في أن الورعَ يمثل أعلى درجات العبودية لله تعالى. وهذا ـ بطبيعة الحال ـ هو جوهر الدين، وخيرة التدين، ويقول ﷺ:

- **[الفقرة/ ١٢٩]:**

(يا أبا ذرّ! كُن ورِعًا تكن أعبدَ الناس، وخيرُ دينِكِم الورعُ).

ويضيف النبيُّ ﷺ؛ إيضاحاً لشرطية الورع للتدين المحمود والمنشود، قوله:

- **[الفقرة/ ١٣١]:**

(واعلم أنكم لو صليتم؛ حتى تكونوا كالحنايا، وصمتم؛ حتى تكونوا كالأوتار، ما ينفعكم ذلك؛ إلا بورعٍ).

---

(١) انظر: تاج العروس، مادة (ورع).

فلا قيمةَ للصلاة حقيقةً، مهما أكثرَ منها المصلي؛ إلى الدرجة التي أصبح فيها كالقوس في انحنائه؛ كنايةً عن المبالغة في التعبد.

ولا قيمةَ ـ أيضاً ـ للصوم؛ وإن كثر حتى الذبول كأوتار الأقواس، ما لم تُشفَع تلك الصلاة، ويُقرن هذا الصوم، بـ(الورع).

والنتيجة المنطقية لكلِّ ذلك أن ينتهي الرسولُ ﷺ إلى القول:

- **[الفقرة/ ١٣٢]:**

(إن أهلَ الورعِ والزهدِ في الدنيا هم أولياءُ الله تعالى حقاً).

المعلَم الثاني: الوعي بالربوبية ولوازم العبودية

في هذا المعلَم يوصي النبيُّ ﷺ بما لا غنى للإنسان الساعي في الصراط المستقيم عنه؛ إن هو أراد بلوغ الكمال المنشود، يوصي باستحضار الذات الإلهية ومقام الربوبية؛ بما يستلزمه من إقرارٍ عقليٍّ ونفسيٍّ بعبودية العبد وفقره أمام الغنى المطلق والقدرة المطلقة.

وذكر النبيُّ ﷺ ذلك في عددٍ من البنود، وهي:

البند الأول:

- **[الفقرة/ ١٢٥]:**

(إن أحبَّكم إلى الله جلّ ثناؤه أكثرُكُم ذكراً له).

وهذا يعني أن مَن عرف الله تعالى، وأحبه، لن يقصِّر في الثناء عليه، بذكر جماله وجلاله، وسيمارس فعل الثناء هذا سراً وعلناً؛ أي بينه وبين نفسه وكذلك بين خلقه. وسيكون ـ بسبب ذلك ـ أحبَّ إلى الله تعالى؛ لأنه سيكون من الدعاة؛ قولاً وفعلاً، إلى قيم الحق والجمال، وسداً منيعاً أمام صنوف العدوان وقيم الباطل.

البند الثاني:

- [الفقرة/ ١٢٥]:

(وأكرمكم عند الله عزّ وجلّ أتقاكم له).

وهذا يعني أن مَن عرف الله تعالى، ورغب في ما عنده، يجب أن ينأى بنفسه عن كلِّ ما لا يصل إلى الله تعالى، ولا يصل به إليه؛ وهي المعاصي والذنوب والرذائل.

ومن كان متقياً فقد كرم عنصرُهُ، وحال بين نفسِهِ وبين السقوطِ في هاويةِ الخطيئةِ.

البند الثالث:

- [الفقرة/ ١٢٥]:

(وأنجاكم من عذاب الله أشدُّكم له خوفاً).

وهذا يعني أن مَن أراد النجاةَ والخلاصَ؛ من كلِّ ما يسوؤه ويؤذيه، فإن عليه أن يخاف من الله وسطوتِهِ، وكلما كان العبدُ أخوفَ كلَّما كان ذلك أدعى لنجاتِهِ.

وهذه البنود الثلاثة لا يخفى أن بينها نوعاً من الترتُّب المنطقي، فالمعرفة أولاً، تدفع بالعارف إلى التقوى ثانياً، وهذه بدورها تتوقف على استشعار الخوف ثالثاً.

وما دام لذكرِ الله تعالى كلُّ هذا الأثرِ، فقد ألحق النبيُّ ﷺ بما قاله فقرةً توضح حقيقةَ الذكرِ، وهي أنه؛ أي الذكر، تجسيدٌ لطاعة الله تعالى في العمل، عبر التزام الواجب وترك المحرم. ولا يُشترط في ذلك العملُ بالمستحبات، وإن كانت أمراً جيداً ومطلوباً، فقال:

- [الفقرة/ ١٢٧]:

(مَن أطاع الله عزّ وجلّ فقد ذكر اللهَ؛ وإن قلَّت صلاتُهُ، وصيامُهُ، وتلاوتُهُ للقرآن).

المعلَم الثالث: العلم

في هذا المعلَم نوّه النبيُّ ﷺ بقيمةٍ طالما أُهمِلت في الأوساط البشرية، فكان من جهود الأنبياء عليهم السلام العملُ بتكثيفٍ شديدٍ على الإشادةِ بها، والسعيِ في نشرها كأولويةٍ.

وهذه القيمة هي (العلم).

ونعني بها: الانتقال من ضفة التخبط إلى ضفة التنظيم، ومن ساحة التقهقر إلى ساحة المبادرة، ومن حضيض الخمول إلى قمة النشاط...

كل ذلك على أساس التحديد الواعي لِما يجب العملُ له، ولما ينبغي اعتماده من وسائل لتحقيق المساعدة المطلقة. قال تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر/ ٩].

ومن هنا قال النبيُّ ﷺ:

● **[الفقرة/ ١٣٠]:**

(فضلُ العلم خيرٌ من فضلِ العبادةِ).

فنحن ـ إذن ـ أمام قيمتين، هما:

١ ـ قيمة العلم

٢ ـ قيمة العبادة

وفقرة البحث تؤكد على أن الأولى تفضُل الثانيةَ، ووجهُ ذلك واضحٌ؛ فالعبادة؛ التي هي: التذلل، إنَّما تتحقَّق بشكلِها الصحيحِ من خلال العلم، فلولاه لما كان العابدُ عابداً. قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر/ ٢٨].

وهناك سببٌ آخر للتفضيل؛ وهو: أن العلمَ تتجاوز آثارَهُ وفوائدَهُ العالِمَ إلى المتعلِّمين، بينما تقف آثارُ العبادة عادةً عند حدود المتعبِّد نفسِهِ. ولذلك، قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ

ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة/ ١١].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام، أنه قال: **فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على إبليسَ من ألفِ عابدٍ)**[١].

والسببُ في ذلك واضحٌ؛ إذ إن الفقيهَ ـ ببركة فقهه وعلمه ـ يدرك أحابيلَ الشيطان وحيلَه؛ فيتجنبها؛ إن كان من أهل التقوى، ولا يستطيع الشيطانُ أن يعيقه عن أداء ما يجب، أو ينبغي، أن يؤديه من مهمات تجاه خالقه ونفسه والخلق.

أما العابدُ؛ غيرُ الفقيهِ، فإنه ربما اشتغل، بل انهمك، في العبادة، وهو غافلٌ تماماً عن أحابيل الشيطان؛ التي طوَّقه بها دون أن يشعر.

وبالطبع، فإن وصف الـ(فقيه) ـ هنا ـ لا يُراد به ما اصطُلِح عليه في الحواضر العلمية حصراً، بل يُراد به ما يشمله وكلُّ مَن يصح وصفُهُ بالعالم؛ وإن لم يبلغ رتبةَ الاجتهاد المعروفة.

المعلَم الرابع: الوثوق بالله، والتوكل عليه

ليس في الناس مَن لا يشعر بالرغبة القوية في أن يتحول حاله من السيِّئ إلى الحسن، ومن الحسن إلى الأحسن.

وهذه الرغبة ليست مذمومةً، بل إن الإسلام يؤكد على ذلك بقوة، فـ(**مَن استوى يوماهُ فهو مغبونٌ)**[٢]. ولا خلاف في ذلك بين جميع الناس.

---

(١) أمالي الطوسي، وعنه: بحار الأنوار، ج٢، ص١٦، كتاب العلم، الباب ٨ ـ ثواب الهداية والتعليم، وفضلهما، وفضل العلماء، وذم إضلال الناس، الحديث ٣٤.
ورواه ابن ماجة؛ في سننه عن رسول الله صلى الله عليه وآله، في باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، برقم (٢٢٢). وفيه (الشيطان) بدل (إبليس).

(٢) تهذيب الأخبار، وعنه: وسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة، ج١٦، ص٩٤، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٩٥ ـ أنه يجب على الإنسان أن يتلافى في يومه ما فرَّط في أمسه، الحديث ٥.
للتوسع في ذلك انظر: فصل (حسن التعامل مع النعم) من هذا الكتاب.

غير أن هؤلاء الناس ـ أفراداً، وجماعاتٍ ـ يختلفون أشدَّ الاختلاف في الخطط والبرامج والآليات التي من شأنها أن تحقق المراد في هذا السبيل.

وفي هذا الصدد، ومن أجل أن لا تختلط الأمورُ؛ على أبي ذر رَحِمَهُ اللهُ وعلينا، أخذ النبي ﷺ تبيان ما يقتضيه الصراط المستقيم من تحديد دقيق لِما ينبغي استهدافه على مستوى الغاية، واعتماده على مستوى الآليات، بقوله ﷺ:

(يا أبا ذرّ! إنْ سرَّك أن تكون أقوى الناس فتوكلْ على الله عزّ وجلّ.

وإن سرَّك أن تكون أكرمَ الناس فاتق اللهَ.

وإن سرَّك أن تكون أغنى الناس فكُن بما في يدِ الله عزّ وجلّ أوثقَ منك بما في يدك) [الفقرة/ ١٣٤].

وهنا أمور:

الأول: إقرارُ النبيّ ﷺ لمشروعيةِ نشدان القوة والكرامة والغنى، بل التفوقِ في ذلك كله.

الأمر الثاني: حضُّه ﷺ على توليد الباعث الداخلي بقوله **(إنْ سرَّك)**؛ مكرِّراً ذلك في الموارد الثلاثة.

ولعل السرَّ في ذلك يكمن في أن مَن لا يتولد في داخله الرغبةُ في السرور لن ينفعه أن يكون في الخارج واقعُ القوة والكرامة والغنى ووسائلُ ذلك، فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد/ ١١]. وفي ذلك تنبيهٌ وتوجيهٌ لنا أن نبحث عن التغيير في داخلنا أولاً.

الأمر الثالث: شموليةُ طرحه ﷺ للتفوق في مجالات ثلاثةٍ؛ يغطي كلُّ واحدٍ منها أفقاً من آفاق الحياة المتكاملة ومجالاً من مجالاتها؛ وهي ـ على التوالي ـ:

١ ـ المجال المادي

أشار النبي ﷺ إلى هذا المجال؛ المنشود من قِبل الناس، بقوله **(إن سرَّك أن تكونَ أقوى الناسِ فتوكَّل على الله)**.

والظاهر أن المراد بـ(القوة) ـ هنا ـ هو ما يرجع إلى المجالات المادية؛ بما يعنيه من: أعوان، وأموال، وإمكانات، ونحو ذلك.

والنبيُّ ﷺ يؤكد ـ هنا ـ على أن الطريقَ إلى ذلك يتمثَّل في(التوكل على الله).

والتوكلُ لا يعني الاتكاليةَ؛ لأنّ هذه تعني الكسلَ والاعتمادَ المطلقَ على الغير دون التوفر على أيِّ سببٍ من الأسباب. بينما التوكل يعني: فهمَ سنن الله تعالى في خلقِهِ، ومنها أن لكلّ شيء سبباً[1]، والتناغم مع هذه السنن، والثقة بحكمة الله ولطفه.

وبناءً على هذا التحليل للتوكل، فإن الواجب على المتوكل:

أولاً: السعي والعمل.

ثانياً: مراعاة القوانين الكونية والشرعية.

ثالثاً: الاعتقاد بأن الأمرَ بيد الله؛ ينجزه كيف شاء، ومتى شاء، ولمن شاء.

ولا شك أن مَن احتوت جوانحه على هذه القناعات والمعارف سيكون أقوى الناس؛ لأنه يعرف ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة/ ١٥٦]. ومن ثَمَّ ندرك مغزى قول الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد/ ٢٨].

٢ ـ المجال المعنوي

وقد أشار النبيُّ ﷺ إلى هذا المجال؛ المنشود أيضاً من قِبل الناس، بقوله **(إن سرَّك أن تكونَ أكرمَ الناسِ فاتَّقِ اللهَ)**.

ومفردة (أكرم) ـ هنا ـ مشتقة من صيغة (أفعل) التفضيلية؛ من مادة الكرامة؛ بمعنى النبل والسمو، وليس من الكرم بمعنى السخاء والجود. ونحن إنَّما نصف السخيَّ بـ(الكريم) باعتبار أن السخاءَ مظهرٌ من مظاهر الكرم، وليس هو تمامَ الكرم[2].

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص١٨٣، كتاب الحجة، باب معرفة الإمام والرد إليه، الحديث ٧.

(٢) ومما يلفت النظر أن بعض المحققين اللغويين لم يذكر الجودَ مصداقاً من مصاديق الكريم، مع أنه كذلك جزماً. =

ويشهد لذلك أن الله تعالى علّق (الأكرمية) على الأفضلية في التقوى، وليس على الجود والسخاء.

وعلى أيِّ حالٍ، فإن التفوقَ المعنويَّ، والأكرميةَ، أمرٌ لا يزهد فيه عاقلٌ، بل إن الناسَ يتنافسون عليه أشدَّ التنافس. ولكنهم ـ كما في المجال المادي ـ قد يختلفون في الوسائل والآليات.

والنبي ﷺ يؤكد ـ هنا ـ على أن الوسيلةَ المشروعةَ؛ والصحيحةَ، لهذا التفوق تتمثل في (التقوى).

والنتيجة: أن مَن كان تقياً فهو من كِرام الناس، ومَن تفوق فيها؛ وكان (أتقى)، فهو عند الله تعالى (أكرم).

ويدل على ذلك قولُ الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات/ ١٣].

٣ ـ المجال النفسي

لا يكفي الإنسانَ أن يتفوّق مادياً ومعنوياً، بل إنه بحاجةٍ إلى أن يتفوّق نفسياً. ونعني بالتفوُّق النفسي ذاك الشعورَ الذي يرتقي بالإنسان من حضيض الذلة إلى أعالي العزة.

وبطبيعة الحال، فإن هذا يتوقف على أن يشعر الإنسانُ ـ في داخله ـ بـ(الغنى) عن الناس.

= قال ابن فارس: (كرم)؛ الكاف والراء والميم، أصلٌ صحيحٌ له بابان:

أحدهما: شرفٌ في الشيء في نفسه، أو شرف في خلق من الأخلاق. يقال رجل كريم، وفرس كريم، ونبات كريم [إلى أن قال] والكرم في الخلق يُقال هو الصفح عن ذنب المذنب. قال عبدالله بن مسلم بن قتيبة: الكريم: الصفوح. والله تعالى هو الكريم الصفوح عن ذنوب عباده المؤمنين.

والأصل الآخر: الكرم، وهي القلادة...) معجم مقاييس اللغة، مادة (كرم)، ج٥، ص١٧٠ ـ ١٧١.

وأما ابن الأثير فقال:

في أسماء الله تعالى (الكريم) هو الجوادُ المعطي الذي لا ينفد عطاؤه. وهو الكريم المطلق. والكريم الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (كرم)، ج٤، ص١٦٦.

وليس المقصودُ بالغنى ـ هنا ـ أن يكون ثرياً؛ لأنّ الثراءَ من مظاهر القوة، وقد مرَّت الإشارةُ إلى ذلك. ثم إن الثريَّ ليس ـ بالضرورة ـ غنياً، فهو ـ إذا كان جشعاً وطماعاً ـ غنيٌّ بالمال لكنه فقيرٌ على مستوى الشعور. وهو كذلك إذا كان شحيحاً وبخيلاً.

ورُوي عن النبي ﷺ، أو عن الإمام علي عليه السلام، أنه قال (**القناعةُ كنز لا ينفدُ**)، وفي لفظ آخر (**لا يفنى**)[١]، وروي عن الإمام علي عليه السلام قوله: (**كفى بالقناعةِ مُلكاً**)[٢].

وفي هذا الصدد جاء الهديُ النبويُّ؛ مبِّيناً ما على الإنسان أن يكون عليه إذا أراد الغنى الحقيقي؛ وذلك بالقول:

● **[الفقرة/ ١٣٤]:**

> **(وإن سرَّك أن تكون أغنى الناس فكُن بما في يدِ الله عزّ وجلّ أوثقَ منك بما في يدك).**

ولا يحتاج الوصولُ إلى السرِّ وراء ذلك إلى أيِّ عناءٍ؛ فإن الغِنى الحقيقيَّ، والمِلكَ الحقيقيَّ، إنَّما هو لله تعالى، وكلُّ ما نحسب أنه مِلكٌ لنا فهو عاريةٌ عندنا؛ جاءت إلينا اليوم لتذهب عنا غداً.

فمن استحضر هذه الحقيقة، واستقر في عقله ووجدانه أن الخيرَ كلَّه من الله تعالى، وأن أحداً من الناس لا يفوقه غنى، فالجميع سواسية أمام الله في هذه

---

(١) روضة الواعظين، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٢٦، كتاب النكاح، أبواب النفقات، الباب ٩ ـ استحباب القناعة بالقليل، والاستغناء به عن الناس، الحديث ١٢.
وأخرج اللفظين؛ عن روضة الواعظين، السيد البروجردي؛ في جامع أحاديث الشيعة، ج٨، ص٤٦٣، كتاب الزكاة، أبواب ما يتأكد استحبابه من الحقوق...، الباب ٤٠ ـ استحباب القناعة، والتعفف، والاستغناء عن الناس، والتوكل على الله تعالى، وما ورد في فضلها، برقم ٩.
وأخرجه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور عن الرسول ﷺ، ج٢ ص٩٦.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٢٢٩.

المسألة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر/ ١٥]، فسيدرك السرَّ وراء ذلك.

ثم إن النبي ﷺ لا يقف عند هذا الحد في تبيان هذا المعلم بل يشفعه بفلسفته وسننيته، فيقول:

● **[الفقرة/ ١٣٥]:**

(يا أبا ذرّ! لو أن الناسَ كلَّهم أخذوا بهذه الآية لكفتْهُم ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ ﴿٣﴾﴾ [الطلاق/ ٢ ـ ٣]).

وأضاف النبيُّ ﷺ قولَه:

● **[الفقرة/ ١٣٧]:**

(يا أبا ذرّ! لو أن ابنَ آدمَ فرَّ من رزقِهِ كما يفر من الموت لأدركه كما يدركه الموتُ).

فرزقُك ـ أيها الإنسان ـ مضمونٌ، لن يأخذه أحدٌ، بل إنه لن يفر منك حتى لو فررتَ أنت منه.

وليس عليك ـ بالتالي ـ إلا أن تقوم بما يجب عليك أن تقوم به من أسبابٍ، وتلتزم ما خوطبتَ به من تكاليف، ولا داعيَ، بل لا مسوِّغ بعد ذلك، لطلب الرزق عبر وسائل غير مشروعةٍ؛ من قبيل: السرقة، والغصب، وأي شكلٍ من أشكال العدوان.

فنحن ـ إذن ـ أمام سننٍ ربانية. والسنن ـ كما نعرف ـ لا تختلف ولا تتخلف، مفادها أن الأمرَ كلَّه بيد الله، فمَن كان أقربَ إلى الله كان أقربَ إلى الكمال؛ في ظاهره وباطنه، وهو الأقوى، وهو الأكرم، وهو الأغنى.

والإنسان لا يكون معها؛ أعني السنن، ذليلاً أمام الناس، ولا ضعيفاً أمام

الشهوات والرغبات، ولا يكون خانعاً أمام أحدٍ، كما أنه لن يكون هيناً، ولا مستكيناً، في داخله.

وينتج من كلّ ذلك: أن على السائر على الصراط المستقيم أن يكون بعيدَ الهمة، طموحاً، قوياً، عزيزاً، غنياً...، يحمل بين جوانحه جميعَ أسباب القوة والمنعة؛ يدفع عن نفسه، ويدافع عن الآخرين، ويدفع كلَّ ما يهوي به وبهم إلى حضيض الضعة والهوان ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون/ ٨].

فهل يزهد أحدٌ في ذلك، أو يعزف عنه؟!

كلا وألف كلا.

المعلم الخامس: التوازن والتكامل في الشخصية

من اللوازم الأساسية للسائر نحو الصراط المستقيم أن يكون متوازناً ومتكاملاً في شخصيته، الأمر الذي يفرض عليه أن يتحلّى بسلسلة من السمات في أكثرَ من صعيدٍ.

وقد نص الرسولُ ﷺ ـ في هذه الفقرة ـ على ثلاثِ سماتٍ، ترجع اثنتان منها إلى البنية الذاتية للشخص؛ على مستوى عقله وسلوكه، وإلى منظومةِ علاقاتِهِ خارجَ ذاتِه.

وقد جعل النبي ﷺ من افتقاد الإنسان لهذه السمات سبباً للخسارة بين يدي الله تعالى، حيث يرجو الإنسان الفوز والربح، وذلك بقوله:

- **[الفقرة/ ١٣٣]**:

(يا أبا ذرّ! مَن لم يأت يومَ القيامة بثلاثٍ فقد خسر.
قلت: وما الثلاث؛ فداك أبي وأمي؟
قال: ورعٌ يحجزه عمّا حرم الله عزّ وجلّ عليه، وحلمٌ يرد به جهلَ السفهاء، وخُلُقٌ يداري به الناسَ).

السمة الأولى: الورع

الورع هو: التقوى في أعلى مراتبها. لذلك، قيل ـ بحقٍّ ـ إنه (مرتبة وراء العدالة؛ تبعث على: ترك المكروهات، والتجنب عن الشبهات والرفض)[١].

وقد عرَّفه العلماءُ بتعريفاتٍ كثيرةٍ؛ منها أنه: الكفُّ عمّا لا ينبغي)[٢]. وفُرِّق بينه وبين التقوى أن المراد منها هو: التقوى التجنب عن الشبهات؛ لئلا يقع في المحرمات)، وأما الورع فهو (التجنب عن المباحات لئلا يقع في الشبهات)[٣].

لكن كثيراً ما يُستعمل التقوى والورع بمعنى واحدٍ؛ فلا تغفل[٤].

وهذه السمةُ على درجةٍ عاليةٍ من الأهمية، بلحاظ ما يكتنف الواقعَ الإنسانيَّ من نوازعَ تدفعه نحو الوقوع في الحرام دفعاً. فإن هو استجاب لها ووقع تحت ضغطِها فسيكون قد وقع في المحظور وخالف ربَّه. وفي ذلك من المخاطر ما فيه حيث يعرِّض العاصي نفسَه لعقوبةِ شديدِ العقاب.

ومن هنا أُثِر عن علي عليه السلام قوله: (**لا معقِلَ أحصنُ [أحسنُ] من الورعِ**)[٥].

ثم إن هذا الورعَ ليس مطلباً ربانياً يُرجى فيه النفعُ للخالق؛ لأنه تعالى عن ذلك هو الغني الحميد. وإنما هو مطلبٌ إنسانيٌّ يستثمره الإنسان ليجنب نفسَه الأذى الماديَّ والمعنويَّ، فـ(**الورعُ جُنَّةٌ من السيئاتِ**)[٦].

---

(١) النجفي، الشيخ محمد حسن (ت١٢٦٦ هـ)، جواهر الكلام، ج١٣، ص٣٦٧، بيان المراد من الورع.

(٢) قال ابن منظور (ت٧١١ هـ)؛ في تعريفه: الورع ـ في الأصل ـ: الكفُّ عن المحارم، والتحرُّجُ منها) لسان العرب مادة (ورع)، ومثله قال الطريحي؛ في مجمع البحرين، مادة (ورع).

(٣) وهناك تعريفات أخرى ذكر بعضها الشيخُ النجفيُّ (ت١٢٦٦ هـ)؛ في جواهر الكلام، ج١٣، ص٣٦٦ ـ ٣٦٧، فقرة بيان المراد من الورع، لا نطيل بذكرها، فراجع.

(٤) قال السيد الطباطبائي (ت١٤٠٢ هـ): ... التقي صفةٌ مشبهةٌ؛ من التقوى، مثال واوي؛ وهو: الورع عن محارم الله، والتجنب عن اقتراف المناهي المؤدي إلى عذاب الله) الميزان في تفسير القرآن، ج١٤، ص٢٠. فأنت ترى أنه فسَّر التقوى بالورع.

(٥) نهج البلاغة، الحكمة ٣٧١.

(٦) الواسطي، علي بن محمد (ق ٦ هـ)، عيون الحكم والمواعظ، ص٢٠، الباب ١، الفصل ١.

وهذا الورعُ له أسبابٌ وشروطٌ؛ لا يتحقق من دونها، ومنها (الحياء). حيث يستشعر الورعُ حضورَ الله تعالى في الكون، ورقابته على أعمال الخلق. لذلك، جاء في الحديث عن مولى المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: (**مَن قلَّ حياؤُهُ قلَّ ورعُهُ**)[١].

وفي المقابل فإن لفقدان الورع مخاطرَ لا قيمةَ للحياة الإنسانية معها، وفي ذلك قال علي عليه السلام: (**مَن قلَّ ورعُهُ مات قلبُهُ**)[٢].

والنتيجة: أن مَن لا روعَ له لن يكون قريباً من الله، ولا مرضياً؛ فإن الله تعالى يقول ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء/ ٨٨ ـ ٨٩].

السمة الثانية: الحِلم

مفردة (الحِلم) ـ بكسر أولها ـ بمعنى: الرؤيا، وبضمِّها (الحُلم) بمعنى: الأناة[٣].

فهذه المفردة قد تُطلق ويُراد بها الفضيلةُ المقابلةُ لرذيلة (الغضب)، وقد تُطلق في مقابل رذيلة (السفه)، ومن الأخير ما جاء من وصفٍ لأمير المؤمنين عليه السلام في حق الخوارج؛ حيث قال: (**أنتم معاشرُ أخِفَّاءُ الهامِ، وسفهاءُ الأحلامِ**)[٤].

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٣٤٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: كتاب العين للفراهيدي، مادة (حلم)، ج٣، ص٢٦٤.

وقال الجوهري: الحُلْمُ بالضم: ما يراه النائم. تقول منه: حَلَمَ بالفتح، واحْتَلَمَ. وتقول: حَلَمْتُ بكذا، وحَلَمْتُهُ أيضاً. قال:

فحلمتها وبنور فيدة دونها لا يَبْعَدَنَّ خَيالُها المحلومُ

والحِلْمُ؛ بالكسر: الأناةُ. تقول منه: حَلُمَ الرجل بالضم) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج٥، ص١٩٠٣، مادة (حلم).

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ٣٦.

بل يعرِّف اللغويون الحِلْمَ بأنه العقل[١]. ومنه قول الإمام علي عليه السلام: **(ولا يعي حديثَنا إلا: صدورٌ أمينةٌ، وأحلامٌ رزينةٌ)**[٢].

ولكننا ـ عند التحليل ـ ندرك أن الحلمَ؛ المقابل للغضب، ليس سوى وليدٍ طبيعيٍّ لفضيلةِ العقلِ؛ المقابلِ للسفهِ؛ فإن الغضبَ هو الحدةُ، و**(الحِدَّةُ شُعبةٌ من الجنونِ)**[٣].

والنبيُّ ﷺ يوصي أبا ذر رضي الله عنه؛ ضمناً، بأن يتحلى بالحلم لمواجهة سفه السفهاء. والسفيه؛ كما نعرف، هو الذي يفتقد الحكمة في التصرف، كأن يتلفظ بما لا ينبغي أن يتلفظ به، أو يتصرف تصرفاتٍ خرقاءَ لا يليق صدورُها عن عاقلٍ؛ كأن يلتزم الصمتَ في مقام الكلام، أو الكلام في مقام الصمت، ونحو ذلك.

ف(الكلام ينقسم إلى: محمود، ومذموم. كذلك السكوت ينقسم: إلى ما هو خيرٌ، وإلى ما هو شؤم.

وإن اللائمة كما تقع بالمتكلم بما لا ينبغي، كذلك تتعلق بالساكت السكوت الذي لا ينبغي)[٤].

فينبغي للمتوازن في شخصيته، والمتكامل في إنسانيته؛ أي السائر في الصراط المستقيم، أن يكون حليماً؛ حتى لا يُبتلَى بالسقوط إلى مستوى سفهِ السفيه.

وقد اختار النبيُّ ﷺ تعبيرَ (يردُّ) لحكمةٍ. وهي أنه لا يصح السكوتُ عن جهل السفيه، لكن يجدر انتهاجُ الحكمة في الرد، فردُّ الحليم يجب أن يتصف بالعقلانية والحكمة. قال تعالى ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان/ ٦٣][٥]، وأما ردُّ السفيه فلا يُتوقع إلا أن يكون سفهياً؛ إلا ما شاء الله.

---

(١) الطريحي، فخر الدين (ت١٠٨٥ هـ)، مجمع البحرين، مادة (حلم).

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٩.

(٣) المصدر السابق، الحكمة ٢٥٥.

(٤) البحراني، الشيخ ميثم (ت٦٧٩ هـ)، شرح مائة كلمة لأمير المؤمنين، ص١٤٨.

(٥) قد لخص ابنُ الجوزي ما قيل في تفسير الآية على النحو التالي:
﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ أي: سَداداً. وقال الحسن: لا يجهلون على أحدٍ، وإن جهل عليهم حَلُموا. وقال مقاتل بن حيّان ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ أي: قولاً يسلَمون فيه من الإثم) زاد المسير في علم التفسير، ج٣، ص٣٢٧.

وفي وصيةٍ من أمير المؤمنين علي عليه السلام لصاحبه كميل، جاء:

يا كميل! إذا جادلتَ في الله تعالى فلا تخاطب إلا مَن يشبه العقلاءَ؛ وهذا قولُ ضرورةٍ.

يا كميل! هم على كلِّ حالٍ سفهاءُ؛ كما قال الله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة/ ١٣].

يا كميل! في كلِّ صنفٍ قومٌ أرفعُ من قومٍ. وإياك ومناظرةَ الخسيس منهم. وإن أسمعوك فاحتمل، وكن من الذين وصفهم الله تعالى بقوله ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان/ ٦٣])[1].

بقي شيء، وهو:

أن سمة الحلم؛ هذه، ترجع إلى اتزان صاحبها؛ على مستوى ذاتِهِ، وبنيةِ عقلِهِ. بينما كانت سمةُ الورع تعبيراً عن اتزانه في علاقته بخالقه وولي نعمته عزّ وجلّ.

السمة الثالثة: الخلق الحسن

الخلق الحسن هو السمة التي تبيِّن توازنَ الشخصية الإنسانية السائرة على الصراط المستقيم؛ في ما يرتبط بعلاقته بالناس.

وهؤلاء الناس ـ كما نشهد ذلك يومياً ـ ليسوا على وتيرةٍ واحدةٍ في معاملتهم بعضهم بعضاً. فمنهم السويُّ، ومنهم الأعوجُ، ومنهم مَن هو بين هذا وذاك؛ في مراتب لا يحصيها إلا الله تعالى.

فكيف ينبغي لنا أن نتصرف مع هؤلاء جميعاً؟

الجواب: أن نكون على خلقٍ حسنٍ؛ لأنّ مَن لا يكون كذلك سيعرِّض مستقبلَه بين يدي الله تعالى للخطر. هكذا يقول رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله (**وخُلُقٌ يُداري به الناسَ**).

---

(١) بشارة المصطفى، وعنه: بحار الأنوار، ج٧٤، ص٢٦٨، الباب ١١ ـ وصيته عليه السلام لكميل بن زياد النخعي...، الحديث ١.

والمداراة هي: ملاينة الناس، وحسن صحبتهم، واحتمالهم؛ لئلا ينفروا عنك)[١]. وقد قيل ـ في تتبع جذر المادة، ووجه استعمالها ـ: أن المداراةَ ضربٌ من الاحتيال والختل؛ من قولك دَريت الصيد إذا ختلته، وإنما يقال داريت الرجل إذا توصلت إِلَى المطلوب ـ من جهته ـ بالحيلة والختْل)[٢].

فهي ـ إذن ـ تعني: مراعاة الطرف الآخر؛ في: معتقداته، ومشاعره، وعاداته، وتقاليده، ونحو ذلك.

ومداراة الناس تُعد تمهيداً للتأثير فيه من جهةٍ، وكفّ شرِّهِ من جهةٍ أخرى، واحتوائه من جهةٍ ثالثةٍ.

والشواهد على أن ذوي الأخلاق الحسنة يؤثرون إيجابياً في الآخرين؛ حتى ذوي الطباع الصعبة، إلا ما شاء الله. وهو أمرٌ مشهودٌ، وقبل ذلك هو حقيقةٌ مقررةٌ من خالق العالم عزّ وجلّ. قال تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت/ ٣٤].

المعلَم السادس: إيثار الحق على الخلق

لـ(الهوى) تأثيرٌ بالغٌ في حياة الإنسان.

وليس ذلك بغريب، لأنّ الهوى هو رغبات الإنسان وشهواته، ومن الطبيعي أن يستجيب له الإنسان لأنه يحب ذاته.

والإسلام لم يأت ليكبت رغبات الإنسان، وإنما لينظمها ويضبطها بضوابط الشرع، وليجعله حكيماً.

لهذا، فإن مفردة (الهوى) صارت اسماً للرغبات المتفلتة من ضوابط العقل والنقل، أو لدواعي تلك الرغبات.

---

(١) ابن الأثير، مجد الدين (ت٦٠٦ هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٢، ص١١٥، حرف الداء، باب الداء مع الراء، مادة (دري)

(٢) العسكري، أبو هلال (ت٣٩٥ هـ)، الفروق اللغوية، ص٢١٩، الباب ١٧، الفرق بين المداراة واللطف.

ومن ثَمَّ، جاء مدح النبي ﷺ، والشهادة له، وتزكيته، من قِبَل الله تعالى بقوله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم/ ٣].

كما وُعِد مَن خالف هواه بالجنة؛ في قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات/ ٤٠ ـ ٤١].

وفي بيان فلسفة ذلك يقول علي عليه السلام: **(فَرَحِمَ الله امْرَءاً نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسِ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعاً، وَإِنَّهَا لا تَزَالُ تَنْزِعُ مِنْ مَعْصِيَةٍ فِيْ هَوَى)**[1].

والهوى يدفع بصاحبه إلى إيثار الخلق على الحق، وذلك إذا سوَّغ لنفسه هذه المخالفة أو تلك بمقولات؛ مثل (حشرٌ مع الناس عيد)، أو (هذا ما يمليه عليَّ الواقع)، أو (لا أريد أن أكون شاذاً بين الناس)، ونحوها؛ من مقولات تسويغيّة...؛ فيندفع إلى مجاراتهم ومماشاتهم؛ في ما يحبون وما يكرهون؛ على حساب ما أحل الله تعالى وحرَّم.

وفي هذا السياق، جاءت وصية النبي ﷺ؛ حيث قال:

● **[الفقرة/ ١٣٦]:**

(يا أبا ذرّ! يقول الله جل ثناؤه: وعزتي وجلالي! لا يؤثِر عبدي هواي على هواه إلا جعلتُ غناه في نفسه، وهمومَه في آخرته، وضمِنت السماواتُ والأرضُ رزقَهُ، وكففتُ عليه ضيعته[2]، وكنتُ له من وراء تجارةِ كلِّ تاجرٍ).

فما ينبغي للسائر على الصراط المستقيم؛ فضلاً عن الراغب أن يسير فيه، هو أن يعتمد هذا الصراطَ نهجاً ومسلكاً. وذلك بأن تكون إرادةُ الله مقدَّمةً على إرادته، فمتى ما تعارضت الرغبتان لا يجوز له أن يميل إلى ما تقتضيه أهواؤه، بل

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

(٢) في المكارم (وكففتُ عنه ضيقَهُ).

أن يستجيب لإرادة ربه؛ فإن في ذلك مصلحةً حقيقيةً له، وقد وعده تعالى بمكافآتٍ قيِّمةٍ.

وقد أجمل رسولُ الله ﷺ هذه المصالح والمكافآت في عناوين:

العنوان الأول: أن يجعله يستشعر الغنى عن الخلق؛ وهو ما سيأتي شرحه في المعلَم التالي.

وقد أشير إلى ذلك بقوله ﷺ:

(**جعلتُ غناهُ في نفسِهِ**).

العنوان الثاني: أن يعينه على علوِّ الهمة؛ بأن يقدِّم المقدَّم ويؤخِّر المؤخَّر. وذلك بأن يضع الدنيا في موضعها والآخرةَ في موضعها، لا كما يفعله غالبُ الناس؛ الذين ينساقون وراء متاع الدنيا القليل ومُتعها العاجلةِ؛ على حسابِ نعيمٍ لا يزول.

وذلك بقوله ﷺ: (**جعلتُ.... همومَهُ في آخرتِهِ**).

العنوان الثالث: ضمان رزقِه المعنوي والمادي معاً؛ من خلال الأسباب، وهي السماوات بما فيها ومن فيهما والأرض بما فيها ومن فيها.

وذلك بقوله ﷺ:

(**وضمِنتْ السماواتُ والأرضُ رزقَهُ**).

العنوان الرابع: الشعور بالرضا النفساني والاطمئنان التام.

وذلك بقوله ﷺ:

(**وكففتُ عليه ضيعتَهُ**)، أو (**كففتُ عنه ضيقه**)؛ كما في نسخةٍ أخرى.

العنوان الخامس: التوفيق المادي البيِّن؛ كما تقتضيه الحكمة الربانية؛ وذلك بقوله ﷺ:

(**وكنتُ له من وراءِ تجارةِ كلِّ تاجرٍ**).

ونحن نعلم بأن هذه المكافآت ـ في حقيقتها ـ ليست سوى قطع لمنابت الافتتان؛ التي يُبتلَى بها الناس فتدفع بمن افتُتِن منهم في وهدة المعاصي والذنوب؛ التي هي مخالفات لأوامر الله تعالى ونواهيه؛ رغبةً من المفتونين في تحصيل ما تنشده فِطرُهم وغرائزُهم.

المعلَم السابع: القناعة

يتأرجح الإنسانُ ـ نفسياً ـ بين حالتين:

١ ـ الفقر

٢ ـ الغنى

وللحالة الأولى لوازمُ وتبعاتٌ؛ تختلف عنها في الحالة الثانية.

ولا نعني بـ(الغنى) أن يمتلك الإنسانُ ويقتني قليلاً أو كثيراً. كما أننا لا نعني بـ(الفقر) أن يكون الإنسانُ معدِماً لا يملك شيئاً.

فإن وجدان المال ـ بمعناه الواسع ـ وفقدانه قد يُعدَّان مؤشِّرين على الغنى والفقر، لكن لا يصح تسميةُ مَن يملك غنياً بالمطلق، ومَن لا يملك فقيراً بالمطلق؛ إذ إن وصفَهما بذلك يتوقف على مشاعرِ كلٍّ منهما في الحالتين.

فكم هم الأثرياءُ الذين يلهثون وراء جني الأموال كما لو كانوا معدِمين، وكم هم الفقراء الذين زهدوا في الدنيا وما فيها؛ بسببِ حرصِهم على جنةٍ أُعِدت للمتقين؛ حتى لو استلزم ذلك التضحيةَ بالدنيا وما فيها.

وهنا نقول: لا غنى للسائر في الصراط المستقيم عن (القناعة).

فإن الشعور النفسي للإنسان بـ(الفقر) يدفعه ـ على الدوام ـ إلى البحث عن كلّ ما من شأنه أن ينتشله من واقع السوء الذي ابتُلي به؛ حيث لا مال، ولا جاه، ولا حسب، ولا نسب، ونحو ذلك.

وإذا استحكم فيه هذا الشعور تولد لديه مشاعر أخرى؛ هي الضعة والهوان من جهةٍ، ومشاعر الحقد والغضب من جهة أخرى.

وبين هذه المشاعر وتلك قد يقع في محرمٍ هنا وآخر هناك؛ إذا لم يضبطها بما هو أقوى منها، أو ينبذها من كيانه نبذاً تاماً.

ومن ثَمَّ، فإن الرسول ﷺ يبيِّن لأبي ذر رحمه الله أن من الضروري له أن يدرك واقعَ المعادلة الوجودية؛ على ما هي عليه؛ من أجل أن يعرف أن الأمرَ كلَّه بيد الله تعالى ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد/ ٢٩].

وآنئذٍ ـ فقط ـ يكون: متوازناً، وحكيماً، وسائراً على الصراط المستقيم.

وجاء البيان النبوي في قوله ﷺ:

● **[الفقرة/ ١٢٥]:**

(يا أبا ذرّ! استغنِ بغنى الله يُغْنِكَ الله. فقلت: وما هو يا رسول الله؟! قال: غداءة [غذاء] يوم، وعشاء ليلة. فمن قنع بما رزقه الله فهو أغنى الناس).

وعلى مستوى التعريف يمكن القول بأن (القناعة) ـ بإيجازٍ شديدٍ ـ هي: الرضا. لكنها خصصت؛ في الاستعمال التربوي والأخلاقي، بخصوص الرضا بما قسَم الله تعالى[1]. (ويقولون: قنع قناعةً، إذا رضي. وسميت قناعة لأنه يقبل على الشيء الذي له راضياً)[2].

وهي؛ بهذا التعريف والتصوير في نطاق الاستعمال المشار إليه، تُعتبر فضيلةً من أجلِّ الفضائل، وأهمِّها.

وفي ذلك يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: **كفى بالقناعةِ مُلكاً**)[3].

ويقول: **القناعةُ مالٌ لا يَنفدُ**)[4].

ويقول: **لا كنزَ أغنى من القناعةِ**)[5].

ويُلخِّص إمامُنا عليه السلام ذلك بتفسيره الحياةَ الطيبةَ في قوله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل/ ٩٧] بأنها: **القناعةُ**)[6].

---

(١) قال الراغب؛ في تفسير القناعة، أنها: الاجتزاء باليسير من الأعراض المحتاج إليها) المفردات في غريب القرآن، مادة (قنع).

(٢) ابن فارس، أحمد (ت٣٩٥ هـ)، مقاييس اللغة، مادة (قنع)، ج٥، ص٣٣.

(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٣٢٩.

(٤) المصدر السابق، الحكم: ٥٧، ٤٥٩، ٤٧٥.

(٥) المصدر السابق، الحكمة ٣٧١.

(٦) المصدر السابق، الحكمة ٢٢٩.

فإذا آمنا بالله تعالى خالقاً، وأنه الحكيم في كلٍّ ما يفعل؛ سواءٌ في ذلك عطاؤُه ومنعُه، فسنجد في وجداننا بَرد الإيمان، دون أن نقلق ونتساءل: لِمَ حَرَمنا وأعطى فلاناً؟!

وفي مقابل فضيلة (القناعة) نواجه رذيلة (الطمع)؛ التي تجعل من صاحبها دون منزلة الإنسان السويِّ؛ فـ: **الطمعُ رِقٌّ مؤبَّدٌ**)[١]. وإن الطمَّاع في لَهَثٍ دائمٍ للحصول على حلولٍ عاجلةٍ؛ اعتقاداً منه أن رزقَ الله تعالى قليلٌ!

والخطورة في ذلك تكمن في أنه لا يُقر بهذا القول، أو أنه لا يلتفت إلى ما هو فيه، وبسبب ذلك يكون كالدودة تقتل نفسها بما تفرزه من مادة الحرير.

وما أروع ما قال الإمام علي عليه السلام: **أزرى بنفسهِ من استشعر الطَّمعَ**)[٢]، وقوله الآخر: **الطامعُ في وِثاقِ الذُّلِّ**)[٣].

ولا تقف مخاطر الطمع عند حدود الشعور النفسي، بل تتجاوز ذلك لتورد صاحبَها إلى ما لا يُحمد عقباه؛ معرِّضةً إياه لسخط الله تعالى وعقوباته. وعن ذلك قال علي عليه السلام: **وإياك أن تُوجِفَ بك مطايا الطمعِ؛ فتورِدَك مناهلَ الهلكةِ**)[٤].

فالطمَّاع لا يرضى بالقليل المقسوم، بل يجهد نفسه؛ بكل ما أوتي من قوةٍ، في سبيل الحصول على ما قلَّ أو كثُر، وما حلَّ أو حرُم.

وعليه، فلا مبالغةَ أن يقول الإمامُ علي عليه السلام: **أكثرُ مصارعِ العقولِ تحت بُروقِ المطامعِ**)[٥].

فإن الطمعَ من شأنه أن يغيِّب وعيَ الإنسان؛ فتختلط عليه الحقائقُ والمفاهيمُ؛ فيصبح الحقُّ باطلاً والباطل حقاً.

لكل ذلك، فإن القناعةَ تُعتبر طوقَ نجاةٍ للإنسان؛ حتى لا يشعر بالفقر

---

(١) المصدر السابق، الحكمة ١٨٠.

(٢) المصدر السابق، الحكمة ٢.

(٣) المصدر السابق، الحكمة ٢٢٦.

(٤) المصدر السابق، الخطبة ٢٧٠.

(٥) المصدر السابق، الحكمة ٢١٩.

والضعة، وسيكون أغنى الناس؛ لأنه لجأ إلى مَن عنده ﴿خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [المنافقون/ ٧].

المعلَم الثامن: النية والقصد

من أجل حكم صائبٍ على الإنسان؛ من حيث الصلاح وعدمه، لا يكفي أن نتأمل في أفعاله وأقواله؛ فإن هذه وتلك لها ظاهرٌ ولها باطنٌ. وما يبدو لنا منها ـ دائماً ـ إنَّما هو ظواهرها، أما بواطنها فليس ميسوراً للناس أن يطلعوا عليه؛ إلا أن يطلعهم الله تعالى عليه.

وقيمة أعمال الناس الحقيقية إنَّما هو بصورتها الجوهرية والحقيقية؛ أي بواطنها؛ فهي ـ كما أقيمت عليه البراهين والأدلة ـ تتقوَّم بـ(النية والقصد).

وفي الخبر قال رسول الله ﷺ: **لا عملَ إلا بنيَّةٍ)**[١]، وقال ﷺ: **إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ)**[٢].

والسر في ذلك أن النيةَ هي الجوهر لكلِّ عملٍ؛ إن صلحت صلح، وإن فسدت فسد. وهو ما يدخل ضمن مقولة الإخلاص؛ الذي جاء الدين من أجل تحقيقه في نفوس الناس، وبناء أعمالهم عليه. قال تعالى ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر/ ٣]، وقال تعالى ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة/ ٥].

ويتفاوت الناسُ ويختلفون في أمورٍ كثيرةٍ؛ منها نياتُهم؛ التي هي ـ كما قيل بحقٍّ ـ (مراتب شتى، بل غير متناهية؛ بحسب حالاتهم)[٣].

ويترتب على هذه النية، أو النيات؛ من حيث نقاؤها وخلوصها، مكانةُ أصحابِها عند الله تعالى، من جهةٍ، وما يستحقه من عنايةٍ ربانيةٍ من جهةٍ أخرى.

---

(١) الكافي، وعنه: المصدر السابق، ص٤٦، الحديث ١.

(٢) أمالي الطوسي، وعنه: المصدر السابق، ص٤٨ ـ ٤٩، الحديث ١٠.
ورواه البخاري في صحيحه، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم؟

(٣) المجلسي، محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ٦٧، ص١٩٤، كتاب الإيمان والكفر، الباب ٥٣ ـ النية، وشرائطها...، ذيل الحديث ٢.

علما أن (مراتب العناية مختلفة؛ لاختلاف درجات النية في الخلوص، واختلاف وزن الأعمال باختلافها)[1].

وفي سياق الحديث عن النية، جاء في وصيتنا؛ مورد الشرح، قولُ النبيِّ ﷺ: (**يا أبا ذرّ! ليكن لك ـ في كلّ شيءٍ ـ نيةٌ صالحةٌ؛ حتى في النوم والأكل**) [الفقرة/ ٧١].

وهذا الهديُ النبويُّ يفتح أفقاً واسعاً لتحويل تفاصيل الحياة كلِّها إلى مجالٍ رحبٍ لعبادة الله تعالى؛ حتى إن الإنسان ـ إن عمِل بهذا الهدي ـ يكون مشتغلاً بعبادة الله حتى في أوقات راحته وملذاته.

فإذا احتملنا أن النوم والأكل ليسا سوى مثالين؛ على ما لا يتصور الناسُ إمكانيةَ تحويلِهما إلى عبادةٍ بين يدي الله تعالى؛ وهو احتمالٌ قريبٌ، فسيكون معنى الفقرة أن المطلوب ـ من المؤمن ـ هو الاستغراق في الارتباط بالله تعالى؛ على مستوى النية؛ بحيث لا يُستثنى من ذلك شأنٌ من شؤون حياته.

وهذه حالٌ ـ إن وفِّق الإنسانُ إليها ـ تتيح لصاحبها أن يكون ربانياً في جميع أقواله، وأفعاله، ومشاعره. وستقل ـ إن لم تنعدم ـ أخطاؤه وخطاياه؛ إذ لا يتصور مِن مثله أن يقع في معصيةٍ؛ حتى على مستوى الكلمة المحرمة؛ وهو الذي جعل حياته كلها لله تعالى؛ فإنه سبحانه لا يُطاع من حيث يُعصى.

وبهذا يتحول صاحبُ النية الصالحة إلى مؤمنٍ راسخِ القدم على الصراط المستقيم.

ولأهمية النية جاءت فقرة البحث كالتالي:

- **[الفقرة/ ١٤٠]**:

> **(يا أبا ذرّ! إن الله عزّ وجلّ يقول: إني لستُ كلامَ الحكيم أتقبّل، ولكن همَّه وهواه، فإن كان همُّهُ وهواه في ما أحب وأرضى جعلتُ صمتَه حمداً لي وذكراً [ووقارا] وإن لم يتكلم).**

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص٣٩٢، ذيل قوله تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة/ ٢٦٥].

ولنقف ـ هنا ـ على مسائل:

المسألة الأولى: أن الله تعالى يريد منا أفعالاً لا أقوالاً، ومضامين لا شعارات. لا فرق في ذلك بين الناس؛ حتى الحكيم لا تشفع له حكمتُه النظريةُ ما لم يشفعها بحكمةٍ عمليةٍ؛ وهي ـ هنا ـ: النية الصالحة، والعمل الخالص والحب لهذا وذاك (**إني لستُ كلامَ الحكيمِ أتقبَّلُ، ولكن همَّهُ وهواهُ**).

وقد رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال ـ في حديثٍ ـ: **إن الله ـ بكرمه، وفضله ـ يدخل العبدَ؛ بصدق النية والسريرة الصالحة، الجنةَ**)[1].

المسألة الثانية: أن النية والقصد الصالحين يؤثران في: قبول الله تعالى للأعمال من جهةٍ، وتوفيقِهِ للسير على الصراط المستقيم من جهةٍ ثانيةٍ، ونيل ثواب الله تعالى من جهةٍ ثالثةٍ، وداعية صلاح بسلوكه قبل قوله من جهةٍ رابعةٍ (**فإن كان همُّهُ وهواهُ في ما أُحبُّ وأرضى، جعلتُ صمتَهُ حمداً لي وذِكراً [ووقاراً] وإن لم يتكلَّمْ**).

وفي النص دلالةٌ واضحةٌ على أن مكافأة الله تعالى لهذا العبد هي أن يحوِّل وجوده؛ المتحرك والساكن، إلى منبع خيرٍ له، فيتحوَّل صمتُهُ إلى حمدٍ وذكرٍ ووقارٍ؛ لأنه كذلك بكيانه وإن لم يفعل أياً من ذلك بلسانه.

المسألة الثالثة: أن للنية الحسنة دوراً تربوياً هاماً؛ لأنها ترسِّخ قاعدة الإيمان في نفس المؤمن، وتعمِّق في وجدانه ضرورة حب الخير والإحسان، وتعمِّق ـ أيضاً ـ الهوة بينه وبين السوء. ولعلّ هذا هو ما أراد الرسول صلى الله عليه وآله تبيانه بقوله:

- **[الفقرة/ ١٤٤]**:

(يا أبا ذرّ! هِمَّ بالحسنةِ؛ وإن لم تعملْها؛ لكيلا تُكتب من الغافلين).

وقد تسأل، وتقول: ما السر في أن مَن هَمَّ بالحسنة لم يُكتب من الغافلين؟

---

(١) أمالي الطوسي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١، ص٥٦، أبواب مقدمة العبادات...، الباب ٦ ـ استحباب نية الخير والعزم عليه، الحديث ٢٥.

والجواب: أنّ الهمَّ بالحسنة يكشف عن وعيها أولاً، والإيمان بها ثانياً، والرغبة فيها ثالثاً، والعزم على فعلها رابعاً.

وسواء وُفِّق الناوي لذلك أو لم يوفق، فهو ـ بالتأكيد ـ ليس ممن غفَل ليكون من الغافلين.

المعلَم التاسع: القلوب والأعمال

تمتاز النظرة الدينية السماوية عموماً؛ والإسلامية منها خصوصاً، بالعمق والشمولية؛ بخلاف ما يتوهمه من لا إحاطةَ له بها.

الأمر الذي يفرض علينا أن ننظر ـ دائماً ـ إلى جوهر المعارف والتعاليم الدينية أولاً، ثم إلى المظهر منها ثانياً.

وكلاهما على درجةٍ عاليةٍ من الأهمية، ولا يسوغ التقصيرُ في هذا ولا ذاك، غير أن الجوهرَ أهمُّ من المظهر؛ فإن (العمل إنَّما يكون مرضياً عند الله لا بصورته وهيئته، بل بصدق النية وإخلاصها)[١].

وفي هذا قال الله تعالى ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج/ ٣٧].

وإذا كان هذا المبدأ مستحباً في بعض الأحيان، فإنه لازمٌ في أحيانٍ أخرى. وذلك في ما كان ـ بطبيعته ـ لا يحتمل الوقوفَ عند الظاهر.

ومثالاً على ذلك: الأعمال الصالحة؛ التي لا يمكن الحكم على صلاحها من عدمه بالاقتصار على ما يظهر منها؛ لأنّ ظاهرها ليس من شأنه ـ وحده ـ أن يتيح لنا الجزمَ بواقع الحال فيها. والمثوبة الربانية (إنما تترتب على صالح العمل، وإنما يكون العملُ صالحاً عند الله بخلوصِ النية فيه، وكونِهِ في سبيلِهِ لا في سبيلِ غيرِهِ؛ من مال، أو جاه، أو غيرهما؛ من المقاصد الدنيوية)[٢].

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١٨، ص٢٨٥، ذيل قوله تعالى ﴿...فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ...﴾ [الفتح/ ١٨].

(٢) المصدر السابق، ج١٤، ص٣٩٩، ذيل قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ...﴾ [الحج/ ٥٨].

وقد قدمنا؛ في حديثنا عن المعلَم السابق، أنه (**لا عملَ إلا بنيةٍ**) وأن الأعمال إنَّما هي (**بالنيات**). وعليه، فظاهر العمل ليس سوى القشر، أما اللب فهو النية، (**والنيةُ أفضلُ من العمل**)؛ كما جاء ـ في حديثٍ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام(١).

والنية ـ كما هو معلومٌ ـ أمرٌ خفيٌ؛ لا يطلع عليها سوى صاحبها وربنا سبحانه ومَن أطلعه الله تعالى عليها. قال تعالى ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة/ ١٠٥]، أما عامة الناس ـ أمثالنا ـ فليس في مقدورهم الوصولُ إليها.

وفي هذا الصدد جاءت فقرة البحث؛ لتؤكد أن من معالم الصراط المستقيم الأساسية إيلاءَ المؤمنِ مسألةَ النية أهميةً مناسِبةً؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وآله:

● **[الفقرة/ ١٤١]:**

(يا أبا ذرّ! إن الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أموالكم وأقوالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم).

فللإنسان صورةٌ ظاهرةٌ على أساسها يتفاضل الناسُ في ما بينهم، أما الله تعالى فلا يهمه الصورةُ الظاهرةُ بقدر ما يعنيه الصورةُ الباطنةُ؛ المتمثلةُ ـ في الدرجة الأولى ـ في (القلوب)؛ التي تُحدِّد ميولُها أساسَ العمل؛ أعني النوايا؛ فإن (**منزلةَ القلب من الجسد بمنزلة الإمام من الناس**)(٢)؛ كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام. وفي الدرجة الثانية تأتي (الأعمال)؛ التي هي قوالب الأعمال ومظاهرها.

أما الصور؛ سواء تمثلت في الأجسام القوية والجميلة، أو الشعور الشقراء والسوداء، والبشرة البيضاء والسمراء، وسائر ما يراه الناسُ جمالاً وكمالاً،

---

(١) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١، ص٥١، أبواب مقدمة العبادات...، الباب ٥ ـ وجوب النية، الحديث ٥.

(٢) علل الشرائع، وعنه: بحار الأنوار، ج٥٨، ص٢٤٩، كتاب السماء والعالم، الباب ٤٦ ـ قوى النفس ومشاعرها من الحواس الظاهرة والباطنة...، الحديث ٢.

وكذلك الأموال ولو تجاوزت في كمياتها أموالَ قارون، فكل ذلك لا يمثل ـ في الرؤية الربانية ـ سوى قشورٍ لا تساوي شيئاً.

والسبب في ذلك: أن معيارَ التفاضل في الإسلام إنَّما هو التقوى. فكلما رسخت قدمُ المتقي في عالم التقوى ومدارجها، فهو أحبُّ إلى الله تعالى وأقربُ، وهو عنده سبحانه أكرم.

قال تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٣].

ومن هنا جاء التأكيدُ النبويُّ على أنّ نظرَ الله تعالى إنَّما هو للأعمال؛ التي هي تعبيرٌ عن فعل التقوى، والتقوى من فعل القلوب. لذلك، قال النبيُّ ﷺ:

● **[الفقرة/ ١٤٢]:**

(يا أبا ذرّ! التقوى هاهنا، التقوى هاهنا)(١) وأشار إلى صدره.

أهمية القلب:

يجد المراجعُ للنصوص الدينية تكثيفاً هائلاً للحديث عن القلب وشؤونه، ومن المفيد أن نتوقف عند بعضِها؛ بما يناسب المقام:

١ ـ روي عن الإمام علي عليه السلام قوله: **جعلنا اللهُ؛ وإياكم، ممن سعى ـ بقلبه ـ إلى منازل الأبرار؛ برحمته)**(٢). وفيه بيانٌ واضحٌ إلى دور القلب في الوصول إلى رضا الله ورضوانه. فإنّ الإمام عليه السلام سأل الله تعالى أن يكون ممن يسعى بـ(قلبه) إلى تلك المنازل، وكأنه يريد القول إن السعي إنَّما يكون بالقلب، أو أن سعيَ القلب هو في الصدارة والمقدمة.

٢ ـ رُوي عنه عليه السلام قوله: **لقد علق بنياط هذا الإنسان بضعةٌ؛ هي أعجب ما فيه، وذلك القلب.**

وله موادٌّ من الحكمة، وأضدادٌ من خلافها.

فإن سنح له الرجاءُ أذله الطمعُ، وإن هاج به الطمعُ أهلكه الحرصُ، وإن

---

(١) العبارة في الأمالي ومكارم الأخلاق لم تُكرَّر.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٦٥.

ملكه اليأسُ قتله الأسفُ. وإن عرض له الغضبُ اشتد به الغيظُ، وإن أسعده الرضى نسي التحفظَ. وإن ناله الخوفُ شغله الحذرُ. وإن اتسع له الأمنُ استلبته الغرةُ. وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى. وإن أصابته مصيبةٌ فضحه الجزعُ. وإن عضَّته الفاقةُ شغله البلاءُ. وإن جهده الجوعُ قعد به الضعفُ. وإن أفرط به الشبعُ كظَّته البطنةُ؛ فكلُّ تقصيرٍ به مضرٌّ، وكلُّ إفراطٍ له مفسدٌ)[1].

---

(١) المصدر السابق، الخطبة ١٠٨.

وقد روي النصُّ في كتاب الكافي؛ باختلافٍ يسيرٍ، تحت عنوان (خطبة لأمير المؤمنين ﷺ؛ وهي خطبة الوسيلة).

وقال العلامة الشيخ ميثم البحراني (ت٦٧٩ هـ)؛ شرحاً لهذا المقطع، ما نصه:

أراد بالموادِّ من الحكمة الفضايلَ الخلقيةَ؛ فإنها بأسرها من الحكمة؛ وهى العلم ممَّا ينبغي أن يفعل، وهو الأصلح في كلِّ بابٍ. وهى موادُّ كمالِ القلب.

وأشار بـ(أضدادها المخالفة لها) إلى الرذائل المضادَّة للفضايل؛ وهى التي أطراف التفريط والإفراط منها:

فالأولى: الطمع؛ وهي رذيلة الإفراط من الرجاء. ونفَّر عنها بما يلزمها من الذلَّة للمطموع فيه، وبما يلزم اشتداد الطمع من الحرص المهلك في الدارين.

الثانية: اليأس؛ وهو رذيلة التفريط من الرجاء. ونفَّر عنها بما يلزمها من شدَّة الأسف القاتل.

الثالثة: رذيلة الإفراط من الغضب؛ وهى اشتداد الغيظ المسمّى طيشاً. والوسطُ من الغضب فضيلةُ الشجاعة، وكظمُ الغيظ.

الرابعة: ترك التحفّظ ونسيانه؛ وهو رذيلة الإفراط من رضا الإنسان بما يحصل عليه من دنياه.

الخامسة: رذيلة الإفراط من عروض الخوف؛ وهي الاشتغال بالحذر عمّا لا ينبغي عند عروضه. والذي ينبغي فيه الأخذ بالحزم، وتركُ الإفراط في الخوف، والعملُ للأمر المخوف.

السادسة: رذيلة التفريط في عروض ضدّه؛ وهو الأمن وهى استلاب الغرّة لعقل الأمن؛ حتى لا يفكَّر في مصلحته وحفظ ما هو عليه من الأمن.

السابعة: رذيلة التفريط من فضيلة الصبر على المصيبة؛ وهي الجزع. ونفَّر عنه بما يلزمه من الافتضاح به.

الثامنة: رذيلة الإفراط من حصول المال؛ وهو الطغو بكثرته والغنى منه. والطغو: تجاوز الحدِّ.

التاسعة: رذيلة التفريط من الصبر على الجوع. وذكر لازمها وهو قعود الضعف به عمّا ينبغي. ونفَّر به عنها.

العاشرة: رذيلة إفراط الشبع من فضيلة القصد فيه وما يلزم تلك الرذيلة من جهد البطنة. ونفَّر عنها بما يلازمها.

ثمّ ختم ذلك بالتنفير من طرف الإفراط والتفريط فيها إجمالاً بما يلزم التفريط من مضرّة القلب بعدم الفضيلة. ويلزم الإفراط فيها من إفساده بخروجه عنها.

وباللّه العصمة) شرح نهج البلاغة، الحكمة ١٠٠ [بترقيمه]، ج٥، ص٢٩٦ ـ ٢٩٧.

وهو نصٌّ جليلٌ غنيٌّ في دلالاته، أكّد فيه الإمام عليه السلام على أهمية القلب ودوره، وتقلباته بصاحبه في حالات الشدة والرخاء، والفقر والغنى، والرضا والسخط، وأخيراً ضرورة انتهاج الحكمة في التعامل معه دون إفراطٍ أو تفريطٍ.

٣ ـ روي عن الإمام الجواد عليه السلام قوله: (**القصدُ إلى الله تعالى بالقلوبِ أبلغُ من إتعابِ الجوارحِ بالأعمالِ**)[١]. وهذا النص يبيِّن مركزيةَ القلب وأثرَه في الوصول بالعبد إلى الله تعالى، وأنه أفضلُ، وأهمُّ، وأسرعُ، من الأعمال الظاهرة.

٤ ـ قال الله تعالى ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف/ ٢٨][٢].

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص٣٦٣، باب مواعظ أبي جعفر محمد بن علي الجواد (صلوات الله عليه)، الحديث ٤؛ التذكرة الحمدونية، ج١، ص١١٣، أقوال لعلي بن الحسين وجعفر الصادق والباقر وغيرهم، المقولة ٢٢٩.
وروي النص نفسه عن النبي (صلى الله عليه وآله)؛ كما في بحار الأنوار، [باب القلب وصلاحه...]، ج٦٧، ص٦٠، عن نوادر الراوندي، ولا عجب فالمشكاة واحدة.

(٢) وقد ورد في شأن نزولها ما ينفع في المقام.
أ ـ فمن طريق الخاصة روى القمي في تفسيره؛ عن أبي الجارود، عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال فِي قَوْلِهِ تَعَالَى﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾: فهذه نزلت في سلمان الفارسي كان عليه كساءٌ فيه يكون طعامُهُ، وهو دثارُه ورداؤُه، وكان كساؤه من صوفٍ، فدخل عيينةُ بنُ حصن على النبي (صلى الله عليه وآله)؛ وسلمان عنده، فتأذى عيينةُ بريح كساء سلمان، وقد كان عرِق، وكان يومٌ شديدُ الحر فعرِق في الكساء، فقال: يا رسول الله! إذا نحن دخلنا عليك فأخرج هذا، واصرفه من عندك، فإذا نحن خرجنا فأدخِل مَن شئت! فأنزل الله ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ وهو عيينةُ بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري) تفسير عليه بن إبراهيم، وعنه: بحار الأنوار، ج٢٢، ص٣٢٢.
ب ـ أما من طريق العامة فقد روى الطبري عن ابن جريج أنه قال: أُخبِرت أن عيينة بن حصن قال للنبيِّ صلى الله عليه [وآله] وسلم قبل أن يسلم: لقد آذاني ريح سلمان الفارسي، فاجعل لنا مجلساً منك لا يجامعوننا فيه، واجعل لهم مجلساً لا نجامعهم فيه، فنزلت الآية) تفسير الطبري، ذيل قوله تعالى ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾، ج١٥، ص٢٤٠.
وبإسناده عن خباب؛ في قول الله تعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ﴾ [الأنعام/ ٥٢] إلى قوله ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنعام/ ٥٢] قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن=

وهذه آيةٌ جليةٌ على أن القلب إذا فسد بالغفلة فسيقع الإنسان في اتباع الهوى، ويفرط أمره، ويخسر خسراناً مبيناً.

٥ ـ قال تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الشعراء/ ٢٠].

=حصن الفزاريُ، فوجدوا النبيَّ صلى الله عليه [وآله] وسلم قاعدًا مع بلال وصهيب وعمار وخباب، في أناس من الضعفاء من المؤمنين. فلمّا رأوهم حوله حَقَروهم، فأتوه فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضلَنا، فإنَّ وفودَ العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبُد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت! قال: نعم! قالوا: فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً. قال: فدعا بالصحيفة، ودعا علياً ليكتب. قال: ونحن قعود في ناحيةٍ، إذ نزل جبريل بهذه الآية ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن عِندِى عِندِى عِندِى عِندِى عِندِى﴾ [الأنعام/ ٥٢]، ثم قال ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام/ ٥٣]، ثم قال ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام/ ٥٤]، فألقى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم الصحيفةَ من يده، ثم دعانا فأتيناه وهو يقول ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام/ ٥٤]، فكنا نقعد معه، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله تعالى ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف/ ٢٨]، قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا بعد، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها، قمنا وتركناه حتى يقوم) تفسير الطبري، ذيل الآية ٥٢ من سورة الأنعام، ج٩، ص٢٥٩.

أقول: لا أعتقد أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان جاداً في كتابة الكتاب؛ إن صح الخبر؛ لأنّ أخلاقه، وتكوينه، لا يسمحان بمثل ذلك؛ لأسبابٍ يطول شرحها، وتاريخه العاطر شاهدٌ على ذلك.

نعم، إن حُمل الخبر على أن النبي ﷺ أظهر عزمه على كتابة الكتاب؛ لعلمه أن الوحي سينزل بالنهي عنه؛ ليكون أبلغَ في رفض خلق هؤلاء المتكبرين وطلبهم المناسب لذواتهم المستكبرة، وليفتضح مَن طلب ذلك بوحيٍ إلهيٍّ، إن حُمل على ذلك فله وجهٌ؛ وإن كان بعيداً وغيرَ وجيهٍ، والله العالم.

ثم ما هي قيمة أمثال هؤلاء ليكتب لهم النبي ﷺ كتاباً؛ يستجيب فيه لطلبٍ قبيحٍ يضحّى فيه بمن أسرع ملبياً لنداء الحياة الربانية، ودفع في سبيل ذلك الغالي والنفيس؟!

ويشهد لما قلنا ما رواه الطبري نفسه بإسناده عن مجاهد؛ في سبب نزول قوله تعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام/ ٥٢] أن: بلالاً وابن أم عبد كانا يجالسان محمداً صلى الله عليه [وآله] وسلم، فقالت قريش محقرتهما: لولاهما وأمثالهما لجالسناه، فنهي عن طردهم، حتى قوله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام/ ٥٣]، قال ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، فيما بيَّن ذلك في هذا) وواضحٌ أن ذلك كان في مكة المكرَّمة قبل الهجرة، فهل يخالف ذلك النبيُّ (صلى الله عليه وآله) في المدينة بعد الهجرة؟!

وهذه بدورها آياتٌ بيناتٌ، صريحةٌ في أن سلامة الإنسان ومستقبله بين يدي الله تعالى تتوقف على سلامة القلب، باستقرار التقوى فيه حتى يصبحوا من المتقين لتكون الجنة لهم، التي لم تخلق لغيرهم.

وقد روى سفيان بن عيينة أنه سأل الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، فقال: **القلبُ السليمُ الذي يلقى ربَّه وليس فيه أحدٌ سواه. قال [أي الإمام عليه السلام]: وكلُّ قلبٍ فيه شركٌ، أو شكٌّ، فهو ساقطٌ. وإنما أرادوا الزهدَ في الدنيا لتفرغ قلوبُهم للآخرةِ**)[1].

ثم إن التعبير القرآني لا يخلو من لطفٍ؛ حيث قال الله تعالى ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ أي قُرِّبت. قال الشيخ الطوسي: الإزلاف التقريب إلى الخير، ومنه الزلفة، والزلفى. ويقولون: أزدلف إليه أي اقترب. والمزدلفة قريب من الموقف؛ وهو المشعر وجمع)[2]. وكأن في التعبير إشارةً إلى أن الجنة تتقرب إلى المتقين المخلصين، وليس هؤلاء هم الذين يتقربون إليها.

ولعل ذلك إشارةً إلى أن الجنة تعرف المؤمنَ أشدَّ من معرفتِه لنفسِه، وقد يكون ما ورد في الحديث النبوي أن الجنة تشتاق إلى أربعة من هذا الباب[3].

وبعد أن كتبتُ هذا وجدت في تفسير الأمثل أنه قال:

والطريف ـ هنا ـ أن القرآن لا يقول: وقُرِّب المتَّقون إلى الجنة، بل يقول ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾؛ أي: وقُرِّبت الجنة للمتقين. وهذا أمرٌ لا يمكن أن يُتصوَّر تبعاً للظروف الدنيوية وشروطها، ولكن حيث إن الأصول الحاكمة على العالم الآخر

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص١٦، كتاب الكفر والإيمان، باب الإخلاص، الحديث ٤.

(٢) الطوسي، الشيخ أبو جعفر (ت٤٦٠ هـ)، التبيان في تفسير القرآن، ج٩، ص٣٧٠، ذيل الآية ٣١ من سورة (ق).

(٣) فقد روى الطبراني؛ بإسناده عن عمران الطائي، قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: **إن الجنة تشتاق إلى أربعة: علي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود** رضي الله عنهم) المعجم الكبير، ج٦، ص٢١٥، برقم ٦٠٤٥.

تختلف اختلافاً بالغاً عمّا هي في هذه الدنيا، فلا ينبغي التعجب إطلاقاً أن يقرِّب الله الجنةَ للمتقين بمنتهى التكريم بدلاً من أن يذهبوا هم إليها)[1].

وقال ـ أيضاً ـ: وقد تجلت مكانة المؤمنين عند الله حينما صرحت الآية باقتراب الجنة من المؤمنين، ولم تقل: اقترب المؤمنين[2] من الجنة)[3].

المعلَم العاشر: العُدَّة، والعدد

هل يكفي الإنسان أن (يعزم) على أن يكون من أهل التقوى؛ لينال الجنة؟

أم لا بد له من إعداد العدة اللازمة؟

وإذا كان لا بد من ذلك فما هي هذه العدة؟

---

(١) الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم (معاصر)، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ، ج١٩، ص٤٥٥، تفسير سورة (الإنسان)، ذيل الآيات ١٠ ـ ١٤.
وقال الألوسي: وقال أبو بكر الرازي ـ في أسئلته ـ: **فإن قيل**: قال الله تعالى ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء/ ٩٠] أي قربت، والجنة لا تنتقل عن مكانها ولا تحول.**قلنا**: معناه وأزلفت المتقون إلى الجنة، وهذا كما يقول الحاج إذا دنوا إلى مكة: قربت مكة منا.
وقيل: معناه أنها كانت محجوبة عنهم فلمّا رفعت الحجب بينها وبينهم كان ذلك تقريباً) انتهى [أي ما قاله الرازي].
ويرد ـ على الأخير ـ أنه يمكن أن يقال مثله في الجحيم، وحينئذٍ يسأل عن وجه اختلاف الفعلين.
ويرد على القول بأن الجنة لا تنتقل عن مكانها أنه خلاف ظاهر الآية، ولا يلزم لصحة القول به نقلُ حديثٍ يدلّ على نقلها يومئذ؛ فلا مانع من القول به وتفويض الكيفية إلى علم من لا يعجزه شيء وهو بكل شيء عليم.
وإذا أريد التأويل فليكن ذلك يحمل التقريب على التقريب بحسب الرؤية؛ وإن لم يكن هناك نقلٌ. فقد يُرى الشيءُ قريباً وإن كان في نفس الأمر في غاية البعد كما يشاهد ذلك في النجوم، وقد يقرب البعيد في الرؤية بوساطة المناظر والآلات الموضوعة لذلك، وقد ينعكس الحال بوساطتها أيضاً فيرى القريب بعيداً ومتى جاز وقوع ذلك بوساطة الآلات في هذه النشأة جاز أن يقع في النشأة الأخرى بما لا يعلمه إلا اللطيف الخبير، فتأمل، والله تعالى أعلم) تفسير الآلوسي، ج١٩، ص١٠٢.

(٢) أقول: كذا في المصدر، وهو خطأ من المترجِم، والصواب: المؤمنون.

(٣) الشيرازي، الشي ناصر مكارم (معاصر)، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، تفسير سورة (ق)، ذيل الآيات ٣١ ـ ٣٧، ج١٧، ص٤٨.

يجيبنا النبيُّ ﷺ؛ في فقرة البحث هذه من الوصية، أن من معالم الصراط المستقيم؛ للخروج من أسر الخلق إلى ملكوت الحق تعالى، أن يتوفر على عدةٍ وعددٍ، وذلك في قوله ﷺ:

• **[الفقرة/ ١٤٣]:**

(يا أبا ذرّ! أربعٌ لا يصيبهن إلا مؤمنٌ: الصمتُ؛ وهو أول العبادة، والتواضعُ لله سبحانه، وذكرُ الله تعالى في كلِّ حالٍ، وقلةُ الشيء [يعني قلة المال]).

وقد أشار النبي ﷺ إلى عناصر أربعة؛ لكلٍّ واحدٍ منها دورٌ في حماية الإنسان ووقايته من الظلم والظلمات.

ولنقف ـ أولاً ـ عند مفردة (**يصيبهنّ**) ودلالتها، ونقول:

اشتقت هذه المفردة من (صوب)؛ وهي خلاف الخطأ، بمعنى نزول الشيء واستقراره قراره. ومنه اشتق (الصواب)[(١)]. يقال: أصاب فلان في قوله وفعله، وأصاب السهم القرطاس، إذا لم يخطئ، وقد تكرر في الحديث)[(٢)].

فالإصابة؛ حسب المعنى والاستعمال، تعني: بلوغ القصد على ما ينبغي.

فهي ـ إذن ـ نحوٌ من التوفيق والسداد؛ لا يحظى به كلّ أحدٍ، وإنما هو موقوفٌ على من تهيأت له الأسباب، وارتفعت من دونه الموانع. ومن ثم فهو مغبوطٌ.

---

(١) قال ابن فارس (ت٣٩٥ هـ): (صوب)؛ الصاد والواو والباء، أصلٌ صحيحٌ؛ يدلّ على: نزول شيء واستقراره قراره. من ذلك الصواب في القول والفعل، كأنه أمرٌ نازلٌ مستقِرٌّ قرارَه. وهو خلاف الخطأ) [مقاييس اللغة، ج٣، ص٣١٧، مادة (صوب)].

(٢) ابن الأثير، مجد الدين (ت٦٠٦ هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٣، ص٥٨، مادة (صوب). وجاء في المعجم الوسيط، مادة (صوب):
(صوَّب) السهمَ وَجَّهه وسدده، والفرسَ ونحوه أرسلهُ يجري إلى غاية فِي السباق، وقولَه أو فعلَه عدَّه صواباً، والخطأَ صحَّحهُ، وفلاناً قال له أصبتُ. ومنه (إن أخطأتُ فخطِّئني، وإن أصبتُ فصوِّبني)، والشيءَ خفَضه وأماله، والطعامَ أو الحبَّ جعله صُبرةً؛ أي كومة).

لذلك، ندرك السرَّ في اختيار النبي ﷺ مفردة (**يصيبهن**)؛ للتأكيد على اختصاص (المصيب) لهذه العناصر برحمةٍ خاصةٍ من الله تعالى؛ دون من عداه من الناس.

ثم إن في اختيار وصف الـ(**مؤمن**) لا يخلو من إشعارٍ بسبب هذا التوفيق. وهذا السبب هو (الإيمان)، بكل ما يعنيه هذا الوصف؛ من سمات وأوصاف؛ منها أن المؤمنَ حريصٌ على الدخول في كلِّ شيءٍ من بابه؛ فهو العامل بسنن الله تعالى والمنضبط بأوامره ونواهيه ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم/ ٣٥].

العنصر الأول: الصمت

(الصمت) ضد الكلام؛ فهو تعبيرٌ آخرُ عن السكوت، أو قلة الكلام.

فما هي أهمية (الصمت)؛ ليُجعل سبباً للحظوة، وامتيازاً لا يصيبه ولا يُوفَّق إليه سوى المؤمن؟

وهل هو مهمٌّ إلى درجة أن يجعله النبيُّ ﷺ علامةً من علامات التوفيق، ومادةً من مواد التوفيق؟!

والجواب على ذلك أن يقال:

إن السببَ في ذلك واضحٌ؛ فإن الصمت عند اللغويين هو الحالة المضادة للكلام، لكننا إذا تجاوزنا عالم المعاجم اللغوية، واقتحمنا عوالم الفكر والتربية والاجتماع والسياسة وأمثالها، سنجد أن للصمت مداليلَ لا تقل في كثيرٍ من الأحيان عن الكلام.

لذلك، ينبغي أن نقف على حقيقة أن الصمتَ ليس هو مجردَ عدم الكلام، كما أن الصمتَ ليس مساوقاً للسكوت، بل إن بينهما فرقاً، أو فروقاً[1]. بل إن

---

(١) لعل المحدثين؛ كالشيخ الحر العاملي في وسائله؛ الباب ١١٧ من كتاب العشرة، والنوري في المستدرك، الباب ١٠٠ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، وغيرهما، لاحظوا ذلك؛ حيث جمع العَلَمان المذكوران بين الصمت والسكوت في عناوين الفصول؛ في موسوعاتهم الحديثية.

وأما طبيعة هذه الفروقِ فقد ذكرها بعضُ الباحثين على النحو التالي؛ كما استفيدت من تعاريف الصمت:

١ ـ أن السكوت هو ترك التكلم؛ مع القدرة عليه. وبهذا القيد الأخير يفارق الصمتَ؛ فإن القدرةَ على التكلم غير معتبرة فيه. =

الصامت يعبر عن مواقفه ورؤاه؛ المخالفة والموافقة على حدٍّ سواءٍ، بصمته، كما أن المتكلمَ يعبر عنها بكلامه.

وإن كان الكلامُ ـ في التعبير عن هذه وتلك ـ أهمَّ وأبلغَ، غير أن الصمتَ لا يقل عنه في هذا السبيل، بل قد يفوقه؛ حتى روي عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: **يا بني! إن كنتَ زعمتَ أن الكلامَ من فضةٍ فإن السكوتَ من ذهبٍ**)[1].

ولا يخفى أن للكلام آداباً (إن أغفلها المتكلِّم أذهب رونقَ كلامِهِ، وطمس بهجةَ بيانِهِ، ولهى الناسُ عن محاسن فضلِهِ، بمساوئ أدبِهِ؛ فعدلوا عن مناقبه، بذكرِ مثالبِهِ)[2]؛ أي: مثالب المتكلم أو كلامه.

وقد سبقه ـ في التنبيه على هذه الحقيقة ـ أميرُ المؤمنين عليٌّ عليه السلام؛ حيث قال (**مَن كثُر كلامُهُ كثُر خطؤُهُ**)[3].

ونضيف ـ هنا ـ أن من الصعب على مَن لا يصمت أن يشتغل بالتفكير أولاً، أو أن لا يقع في الخطأ في التعبير ثانياً، أو أن لا يقع في سوء التدبير ثالثاً. فتجنب ما ينبغي تجنبه، ولزوم ما ينبغي ملازمته من هذه الشؤون الثلاثة، يستلزم ـ بنحوٍ وآخر ـ أن يُقِل الإنسانُ كلامَه.

وفي هذا السياق المشجع على فضيلة الصمت، بل المبالغة فيها؛ روي عن

= ٢ ـ كما أن الصمتَ يُراعى فيه الطولُ النِّسبيُّ؛ فمَن ضمَّ شفتيه آناً يكون ساكتاً، ولا يكون صامتاً إلا إذا طالت مدةُ الضَّمِّ.

٣ ـ السكوتُ إمساكٌ عن الكلام حقاً كان أو باطلاً، أما الصمتُ فهو إمساكٌ عن قولِ الباطلِ دون الحقِّ) [موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ج٧، ص٢٦٣٤، مادة (الصمت وحفظ اللسان)].

(١) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص١٨٣، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١١٧ ـ استحباب الصمت والسكوت إلا عن خير، الحديث ٥.

(٢) الماوردي، أبو الحسن (ت٤٥٠ هـ)، أدب الدنيا والدين، ج١، ص٢٨٢، الباب ٥ ـ أدب النفس، الفصل ١ ـ في الكلام والصمت.

(٣) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص١٨٧، كتاب الحج، أبواب العشرة، الباب ١١٧ ـ استحباب الصمت والسكوت إلا عن خير، الحديث ٢٠.

رسول الله ﷺ أنه قال ـ في حديثٍ ـ: **إذا رأيتم المؤمنَ صموتاً فادنوا منه؛ فإنه يُلقَّى الحكمة)**[١].

ونلاحظ؛ في فقرة البحث من الوصية النبوية، الإشارةَ إلى أن الصمت وُصِف بأنه **(أولُ العبادةِ)!** فهل وراء ذلك من سر؟

الجواب: لعل السرَّ في ذلك هو أن العابد يمتاز من غيره بالخضوع التامّ لمعبوده، وهذا يتطلب ترويضاً للنفس المتمردة بطبعها. فإذا تمكن الإنسانُ من نفسه؛ بأن كان صموتاً، فهذا أول الغيث.

ولن نطيل الحديث عن أهمية الصمت وفوائده، فقد قدَّمنا ما يناسب المقام في فصلين سابقين؛ هما:

١ ـ الفصل ١٦ ـ اهتمامات الإنسان ومخاطر اللسان

٢ ـ الفصل ٥١ ـ اللسان بين النعمة والنقمة

ومَن رغب في التوسع فليراجعهما.

العنصر الثاني: التواضع لله تعالى

(التواضع لله) من العُدد اللازمة للسائر في الصراط المستقيم؛ لأنّ خلاف ذلك يعني التكبرَ والاستكبارَ؛ وهما من أوائل الرذائل الأخلاقية؛ التي أودت بالمخلوق، وأبعدته عن طريق الجنة. وقصةُ إبليس شاهدٌ على ذلك.

فمن لا يتواضع لله تعالى سيُبتلَى بالكبر على أوامره ونواهيه؛ أي إنه سينخرط ضمن العصاة والمتمردين.

---

(١) تحف العقول، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة، ج٩، ص١٨، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ١٠٠ ـ استحباب الصمت والسكوت؛ إلا عن خير، الحديث ١١.
أقول: هناك احتمالان في مفردة (يلقى)، وهي أن تُقرأ كما أثبتناه في المتن؛ مبنيةً للمجهول، أو تُقرأ مبنيةً للمعلوم (يلقي)، وكلا المعنيين صحيحٌ. وقد تُقرأ (يلقن)؛ مبنية للمجهول أو المعلوم، كما في بعض المصادر في أحاديث أخر.

ومن المفيد مراجعة (الفصل ٣٠ فضيلة التواضع) للتعرف على بعض ما يرتبط بالمقام.

العنصر الثالث: ذكر الله تعالى

لـ(الذكر) دورٌ تربويٌّ كبيرٌ على النفس الإنسانية؛ لأنّ الذكر ينتقل بالذاكر من الغفلة إلى الحضور، ومن التقصير إلى أداء الواجب والحقوق.

ولهذا السبب كان (الذكر) من مفردات السلوك الإسلامي والإيماني؛ التي أمر بها الله تعالى في النصوص الشرعية. من قبيل قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب/ ٤١ ـ ٤٢]. والآية ظاهرةٌ في أن الذكر الكثير من مظاهر الإيمان الكامل.

وفي نصٍّ قرآنيٍّ آخرَ نجد معالجةً رائعةً للذكر؛ باعتباره شكراً لنعم عديدةٍ من أجلِّ النعم أولاً، وباعتباره ـ إذا كثر من صاحبه خاصة ـ طريقاً للفلاح ثانياً. وهذا النص هو قول الله تعالى ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال/ ٤٣ ـ ٤٥].

فالنعمة الأولى: أن الله تعالى صلّى؛ وملائكته، على المؤمنين.

النعمة الثانية: أن الله تعالى أخرج المؤمنين من الظلمات؛ على اختلاف أنواعها، إلى النور.

النعمة الثالثة: أن الله تعالى أحاط المؤمنين برحماته الجلية والخفية.

النعمة الرابعة: أن للمؤمنين مكافأةً قيِّمةً؛ هي الترحيب الإلهي بعد اللقاء، والأجر الكريم؛ الذي هو الجنة.

بعد كلّ هذه النعم، والوعود الصادقة، لا يسوغ للعاقل الحكيم؛ الطالب للصراط المستقيم والراغب في السير عليه وفيه، أن يتراجع أمام الضغوط

والابتلاءات، بل إن الواجبَ عليه هو الثباتُ في سوح الجهاد، ولن يتأتى ذلك إلا بـ(ذكر الله كثيراً).

ولم تكتفِ الآيةُ بذلك، بل وعدت أصحابَ الذكر بالفلاح بين يدي الله تعالى. وهذه هي الغاية القصوى من السير على الصراط المستقيم؛ وهي ما ينشده الناسُ أجمعون.

العنصر الرابع: قلة المال

يمكننا القولُ ـ بجزمٍ ـ إنّ (المال) يُعدّ مانعاً من أشد الموانع خطورةً، وعائقاً من أشد العوائق صعوبةً، من السير على الصراط المستقيم؛ بالنسبة لغير الحكيم من الناس.

وفي المقابل، فإن (قلة المال) تمثل شكلاً من أشكال التخلص من هذا العائق وذاك المانع. فإن التوفيق للزهد ليس متاحاً إلا لمن أراده بصدٍ وطلبه بجدٍّ. وهذا ما يخفق فيه كثيرون، وهذا ما أدركه الشيطانُ حتى جعل قلة الشكر منطلقاً من أهمِّ منطلقاته وخطةً استراتيجيةً له.

وهذا ما حكاه الله تعالى عنه؛ حيث قال ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف/ ١٧].

ومن هنا، اختلف علماء الأخلاق (في أفضلية كلٍّ من الصبر والشكر على الآخر، فرجح كلاً منهما على الآخر طائفةٌ)[١]. ونحن نرجح القولَ بأن امتحانَ الواجدين بالشكر أشدُّ من امتحان الفاقدين بالصبر.

كما أن مَن لا ينتبه إلى خطورةِ تحوّل المالِ من خادمٍ إلى مخدومٍ، ومن وسيلةٍ إلى غايةٍ، فإنه لا يدرك أن المالَ قد تحوّل من نعمةٍ إلى نقمةٍ.

---

(١) النراقي، الشيخ محمد مهدي (ت١٢٠٩ هـ)، جامع السعادات، ج٣، ص٢٤٢، تتميم ـ التلازم بين الصبر والشكر.

وهذا هو أحد أسباب التأكيد الشرعي على الإنفاق؛ وجوباً تارة، واستحباباً تارةً أخرى، وجُعل ذلك طريقاً إلى الرضا والرضوان.

قال تعالى ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران/ ٩٢].

وقال تعالى ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء/ ٣٩ ـ ٤٠].

المعلَم الحادي عشر: رفع الموانع

من أجل تحقيق الأغراض والغايات؛ في أي مجال من المجالات، يجب العملُ في اتجاهين:

١ ـ توفير الأسباب والعلل

٢ ـ رفع الموانع والعوائق

وتقريباً لأصل الفكرة نقول: إذا أردنا أن نحرق الخشب ـ مثلاً ـ فإنه لا يكفي أن نجلب النار والخشب؛ وهما طرفا الإحراق والاحتراق، بل يجب أن نقرِّب أحدَهما من الآخر، وهذا سببٌ. كما أنه يجب أن نجفف رطوبةَ الخشب؛ إن كانت؛ حيث تشكل مانعاً. وهكذا نعمل على توفيرِ جميعِ الأسباب إن تعددت، ونرفع جميعَ الموانع إن كثرت.

وفي ما نحن فيه، يجب على السائرِ باتجاه الصراط المستقيم وفيه، أن يوفر الأسباب، ويجب عليه ـ أيضاً ـ أن يرفع الموانع.

وقد استعرض النبيُّ ﷺ؛ في هذا المعلَم، عدداً من الموانع، على النحو التالي:

أولاً: المشاحنة، والهجران

قد يحصل بين أخوين مؤمنين ـ أو جماعتين من المؤمنين ـ سوءُ فهمٍ أو تفاهمٍ؛ لأسبابٍ موضوعيةٍ وأخرى غيرِ موضوعيةٍ.

ولو وقف الأمرُ عند هذا الحدِّ فليس في الأمرِ ما يخيف، لكنه يصبح مذموماً، ومخيفاً، إذا تحوَّل إلى مشاحنةٍ واحتقانٍ، يبغض فيه المؤمنُ أخاه المؤمنَ؛ ليتطور لاحقاً إلى هجرانٍ وقطيعةٍ، وقد ينتهي إلى عدوانٍ وهتكٍ. وعندئذٍ، تنفصم عرى الأخوَّة بينهما، ويتصدع إيمانُ كلٍّ من المشاحِن والهاجِر والمشاحَن والمهاجَر؛ بقدر ما يشتركان في التسببِ في ذلك.

ومن المنطقي جداً أن يحذر الرسولُ ﷺ من ذلك. فإن منطقَ القرآنِ ينص على الأخوَّة الإيمانية، ويحض على مراعاةِ ما يترتب عليها.

وعلى هذا الأساس، فإن على الحريصين من أهل الإيمان أن يسعوا ـ بشكلٍ حثيثٍ ـ إلى إعادة اللحمة، ورفع الخصومة والشحناء، في أوساط المؤمنين. قال تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات/ ١٠].

وفي هذا السياق، جاء قولُ النبيِّ ﷺ:

- **[الفقرات/ ١٥٧ ـ ١٥٩]:**

(يا أبا ذرّ! تُعرض أعمالُ أهل الدنيا على الله من الجمعة إلى الجمعة؛ في يوم الاثنين والخميس؛ فيغفر[(١)] لكلِّ عبدٍ مؤمنٍ؛ إلا عبداً كانت بينه وبين أخيه شحناءُ، فيقال: اتركوا عملَ هذين؛ حتى يصطلحا.

يا أبا ذرّ! إياك وهجرانَ أخيك؛ فإن العمل لا يُتقبَّل مع الهجران.

يا أبا ذرّ! أنهاك عن الهجرانِ، وإن كنتَ لابد فاعلاً تهجره فوق ثلاثة أيام [كملاً]، فمن مات فيها مهاجراً لأخيه كانت النارُ أولى به)[(٢)].

---

(١) في المكارم (فيستغفر).

(٢) أورد هذه الفقرةَ الشيخُ الحرُّ العامليُّ في كتاب الحج، ج١٢، ص٢٦٤، أبواب العشرة، الباب ١٤٤ ـ تحريم هجر المؤمن بغيرِ موجِب، الحديث ١٢.
وكذلك أوردها السيد البروجردي من قوله (أنهاك...)؛ في جامع أحاديث الشيعة، ج١٦، ص٣٠١، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ١١٦ ـ ما ورد في ذم هجر المؤمن؛ خصوصاً بعد ثلاثة أيام، ومدح المسابقة إلى الصلة، الحديث ٦. مع الإشارة إلى أن المصدر جاء فيه (مات) بدل (كان).

وهنا وقفات:

ولنمهِّد لهذه الوقفات بالتعرف؛ لغةً واصطلاحاً، على رذيلتي (الشحناء، والهجران)، ونتعرف عليهما لاحقاً باعتبارهما مانعين من موانع الوصول إلى الصراط المستقيم والثبات عليه.

١ ـ الشحناء

(الشحناء) مفردة مشتقة من (شحن)، وهي تدل على معنَيين مختلِفين:

أحدهما: يدلّ على الملء. ومن ذلك قولهم: شحنت السفينة، إذا ملأتها.

والآخر: يدلّ على البعد. يقال: شحنهم، إذا طردهم. ومن الباب: الشحناء، وهي العداوة. وعدو مشاحن، أي مباعِد. والعداوةُ تباعد[١].

فهي مفردةٌ يراد بها: العداءة، والغل، والحقد، والبغضاء. وقد تخصص بإظهار العداوة[٢].

وعلى أي حال، فهي فعلٌ مذمومٌ؛ كما سيأتي؛ سواء وقع من طرفين حصل بينهما (تشاحُن)، أو من طرفٍ مؤمنٍ ضد أخيه المؤمن. والوصية ـ مورد البحث ـ تؤكد على ما كان من الصنف الأول؛ كما سنوضح لاحقاً؛ بإذن الله تعالى.

٢ ـ الهجران

(الهجران)؛ وقد يُعبر عنه بـ(الهجْر)، أو (الهجرة)، مشتقٌّ من (الهَجْر): ضد الوصل. ومنه الهجرة؛ التي تعني: الانتقال من بلد إلى بلد؛ كما فعله النبي ﷺ حيث انتقل من مكة مهاجراً إلى المدينة المنورة. يقال: هَجرَ الشيءَ يَهْجُره هَجْراً: ترَكَه، وأَغفَلَه، وأعرَضَ عنهُ)[٣].

فالهجران ـ إذن ـ هو: القطيعةُ التي تحصل من شخص لآخر أو جماعةٍ لأخرى، أو بين شخصٍ وآخر، أو جماعة وأخرى[٤].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، مادة (شحن).

(٢) انظر: مجمع البحرين، مادة (شحن).

(٣) الزبيدي، مرتضى (ت١٢٠٥ هـ)، تاج العروس، مادة (هجر).

(٤) قال البركتي والراغب في تعريف الهجر أنه: ترك ما يلزم تعهده، ومفارقة الإنسان غيره، إما: بالبدن، أو باللسان، أو بالقلب) [الموسوعة الفقهية الكويتية، ج٤٢/ ص١٦٢، مادة (هجر)].

وهو (من ذمائم الأفعال)[١]. ويُعد ثمرةً من ثمرات (العداوة والحقد، أو الحسد، أو البخل. فيكون من رذائل قوة الغضب أو الشهوة)[٢].

الوقفة الأولى: عرض الأعمال

ثمة رقابةٌ إلهيةٌ مستمرةٌ على العباد. وفقرة البحث ـ هنا ـ تؤكد على أن أعمال العباد في الدنيا تُعرَض على الله تعالى دورياً؛ فأعمال الأسبوع تعرض مرتين، إحداهما يوم الاثنين، والأخرى يوم الخميس.

ومبدأ عرض الأعمال هو ما نص عليه القرآن الكريم؛ كما في قوله تعالى ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة/ ١٠٥].

ولا شكَّ في أن معرفةَ المؤمن بعرض الأعمال ستجعله أشدَّ حرصاً على تجويد العمل وتحسينه. فإنه يعرف أن عملَه هو الذي يحدد مصيرَه أولاً وأخيراً؛ فـ ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم/ ٣٩]، و﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور/ ٢١]، واللهُ تعالى طيبٌ لا يقبل غيرَ الطيب كما قال تعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر/ ١٠]، وقال تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة/ ٢٧].

ومبدأُ عرض الأعمال على الله تعالى، وعلى الرسول ﷺ، وعلى الأئمة عليهم السلام من بعده، هو من مسلَّمات الاعتقاد لدى المسلمين في الجملة؛ وإن اختلفوا في تفاصيله؛ من حيث: توقيت العرض، واختصاص ذلك بالنبي ﷺ، أو شموله لغيره ممن اختصهم الله تعالى. والتعميمُ إلى الأئمة من أهل البيت عليهم السلام هو ما ذهب إليه الإمامية أعزهم الله تعالى.

ومما دل عليه من الآيات:

١ ـ قوله تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء/ ٤١].

---

(١) النراقي، الشيخ محمد مهدي (ت١٢٠٩ هـ)، جامع السعادات، ج٢، ص١٩٣، (٦) الهجرة والتباعد.
(٢) المصدر السابق.

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة/ ١٤٣].

٣ ـ قوله تعالى ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [التوبة/ ٩٤].

٤ ـ قوله تعالى ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة/ ١٠٥].

٥ ـ قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل/ ٨٩].

وأما السنَّة المطهّرة ـ برواية الفريقين[١] ـ فقد استفاض فيها، بل تواتر[٢]، حكايةُ ذلك.

١ ـ فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إن أعمالَ العباد تُعرَض على رسولِ الله صلى الله عليه وآله كلَّ صباح؛ أبرارها وفجّارها؛ فاحذروا؛ فليستحي أحدُكم أن يُعرَض على نبيه العملُ القبيحُ)[٣].

---

(١) وقد أورد شطراً منها الصالحيُّ الشاميُّ؛ في كتابه سبل الهدى والرشاد، ج١٢، ص٣٦٨، في الباب ١٣ ـ عرض أعمال أمته عليه، زاده الله فضلاً وشرفاً لديه. وبعضها صحيح؛ كما نص على ذلك.
ومما قال: روى الإمام أحمد، والنسائي، وابن حبان، والطبراني في (الكبير)، وأبو الشيخ في (العظمة)، والبزّار ـ بسندٍ صحيحٍ ـ، وأبو نعيم في (الحلية)، والحاكم، والبيهقي في (الشعب)؛ عن ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله [وآله] عليه وسلم ـ: أن للهِ ملائكةً سيَّاحين يبلِّغوني عن أمتي السلام).
[إلى أن قال:] وروى الديلمي عن ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه [وآله] وسلم ـ قال: إذا صلَّيتم عليَّ فأحسنوا الصلاةَ، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يُعرَض عليَّ فقولوا: اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على سيِّد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين؛ عبدك، ورسولك، إمام الخير، وقائد الخير، وإمام الرحمة. اللهم ابعثه المقامَ المحمودَ؛ الذي يغبطه به الأولون والآخرون). إلى آخر ما قال.

(٢) عقد الشيخ المجلسيُّ رحمه الله لذلك؛ في بحار الأنوار، باباً حمل عنوان (عرض الأعمال عليهم ـ أي الأئمة ـ عليهم السلام؛ أورد فيه تسع آيات، وخمسةً وسبعين حديثاً، فراجعها في ج١٢ منه.

(٣) تفسير القمي، وعنه: بحار الأنوار، ج ٢٣، ص٣٤٠، باب عرض الأعمال عليه عليه السلام...، الحديث ١٤.

٢ ـ روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: **قال رسولُ الله (صلى الله عليه وآله)؛ وهو في نفرٍ من أصحابه: إن مقامي بين أظهركم خيرٌ لكم، وان مفارقتي إياكم خيرٌ لكم.**

فقام إليه جابرُ بن عبدالله الأنصاري، وقال: يا رسول الله! أما مقامك بين أظهرنا فهو خيرٌ لنا، فكيف تكون مفارقتك إيانا خيراً لنا؟!

فقال (صلى الله عليه وآله): أما مقامي بين أظهركم خيرٌ لكم؛ لأنّ الله (عز وجل) يقول ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال/ ٣٣]؛ **يعني يعذبهم بالسيف، فأما مفارقتي إياكم فهو خير لكم؛ لأنّ أعمالكم تُعرض على كلّ اثنين وخميس، فما كان من حسنٍ حمدتُ الله (تعالى) عليه، وما كان من سيئ استغفرت لكم**)[1].

٣ ـ عن أبي عبدالله بن أبان الزيات؛ وكان يكنّى (عبد الرضا)، قال: **قلتُ للرضا** عليه السلام: **ادع الله لي، ولأهلِ بيتي.**

قال: أو لست أفعل؟! والله إن أعمالكم لتُعرَض عليَّ في كلّ يوم وليلة!

فاستعظمتُ ذلك! فقال: أما تقرأ كتاب الله ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة/ ١٠٥])[2].

الوقفة الثانية: الشحناءُ مانعٌ من المغفرة وقبول الأعمال

لكلِّ فعلٍ ردُّ فعلٍ. وفقرة البحث تؤكد على أن المشاحنة بين المؤمنين تحول دون استحقاقهم الغفران الإلهي.

والفقرة تنص على أن الشحناء ـ إذا وقعت بين عبدين مؤمنين ـ لها فإن لها آثاراً سيئةً؛ وأشد تلك الآثار خطراً وضرراً هو أن الله تعالى يعلّق غفرانَه لذنوبهما

---

(١) الطوسي، الشيخ أبو جعفر (ت٤٦٠ هـ)، الأمالي، ص٤٠٨ ـ ٤٠٩، برقم (٩١٥). ورواه ـ بعينه ـ المجلسي في بحار الأنوار، ج ٢٣، ص٣٣٨، أبواب الآيات النازلة فيهم، الباب ٢٠ ـ عرض الأعمال عليهم عليهم السلام...، الحديث ٩؛ نقلاً عن تفسير فرات.

(٢) بصائر الدرجات، وعنه: بحار الأنوار، ج٢٣، ص٣٤٧، باب عرض الأعمال عليه عليهم السلام...، الحديث ٤٧.

على عودة المياه إلى مجاريها؛ كما يقال، وذلك من أجل أن يُعاد تجسيدُ مبدأ الأخوَّة الإيمانية؛ فـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ .

بل لقد كلَّف الله سبحانه جماعةَ المؤمنين أن يكونوا سعاةَ خيرٍ في حالات التخاصم بين المؤمنين.

فقال تعالى ـ بعد تأكيد الأخوَّة بين المؤمنين ـ ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، وأردف هذا التكليفَ ـ في ما يشبه البيانَ ـ أن الإصلاحَ مظهرٌ من مظاهر التقوى؛ فقال ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات / ١٠].

وقد كُشف عن سرِّ ذلك وسببِهِ، أو بعضِهِ على الأقل، الخبرُ المرويُّ عن إمامنا جعفر الصادق عليه السلام؛ حيث يقول مخاطباً بعضَ أصحابه: **مالكم تسوؤون رسولَ الله صلى الله عليه وآله؟! فقال رجلٌ: كيف نسوؤه؟ فقال: أما تعلمون أن أعمالَكم تُعرَض عليه، فإذا رأى فيها معصيةً ساءه ذلك، فلا تسوؤوا رسولَ الله، وسُرُّوه)**[1].

الوقفة الثالثة: الواقعية

تعاليم الإسلام ليست متعاليةً عن واقع الإنسان؛ في شجونه وشؤونه، وهذا الواقع تؤثر فيه الغرائزُ، بقدرِ ما تؤثر فيه العقولُ، وبين هذا وذاك يتأرجح فعلُ الإنسان وردُّ فعلِه بين الحكمة والسفه.

ومن ثم، فإن النصَّ النبويَّ أشار إلى أن بعضَ الهجران مسوَّغٌ، ولم يذكر الشحناءَ؛ لأنّ هذه الأخيرةَ رذيلةٌ بحتةٌ.

ونقول: إن بعضَ الهجران مسوَّغٌ لأنه قد يكون وسيلةً من وسائل الضغط المشروع، كما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنه قد يكون ردَّ فعلٍ طبيعياً لا يمنع منه الشارعُ، ولكنه يحرِّم التماديَ فيه دون مسوِّغٍ شرعيٍّ.

ومثالاً على الهجران المشروع هو ما جُعِل إجراءً يتخذه الزوجُ في حقِّ الزوجة

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص٢١٩، كتاب الحجة، باب عرض الأعمال، الحديث ٣.

المتمردة، فقال تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء/ ٣٤].

ومن هنا، قال النبي ﷺ:

(فإنْ كنتَ ولا بدَّ فاعلاً).

ويُتصور ذلك؛ أي الهجران المشروع، في ما إذا كان المؤمنُ الآخرُ قد وقع في ما ينبغي ردعُهُ عنه، أو وقع في ما هو مسيءٌ فعلاً، وكان هجرانُه هو العلاجَ الناجعَ لِما وقع فيه.

وللاستزادة في التعرف على مخاطر الهجران بين المؤمنين، وما ينبغي أن يكون عليه المؤمنُ من سعيٍ دؤوبٍ لرفض الهجران من جهةٍ، ورفعهِ من جهةٍ أخرى، نقف على الخبرِ؛ الذي رواه المفضل بن عمر؛ قال: سمعت أبا عبدالله [الصادق] عليه السلام يقول:

لا يفترق رجلان على الهجران إلا استوجب أحدُهما البراءةَ واللعنةَ؛ وربما استحق ذلك كلاهما.

فقال له معتب: جعلني الله فداك، هذا الظالم فما بال المظلوم؟

قال: لأنه لا يدعو أخاه إلى صلته، ولا يتغامس[(١)] له عن كلامه. سمعت أبي يقول: إذا تنازع اثنان، فعازَّ[(٢)] أحُدهما الآخرَ، فليرجع المظلومُ إلى صاحبِهِ حتى يقول لصاحبِهِ:

---

(١) قال الشيخ المجلسي؛ تعليقاً على هذه المفردة ما لفظه: (ولا يتغامس) في أكثر النسخ؛ بالغين المعجمة، والظاهر أنه بالمهملة؛ كما في بعضها.

قال في القاموس: تعامس تغافل، وعليَّ: تعامى علي. ويمكن التكلف في المعجمة بما يرجع إلى ذلك، من قولهم غمسه في الماء؛ أي: رمسه. والغميس الليل المظلم والظلمة، والشيء الذي لم يظهر للناس؛ ولم يُعرف بعد. وكل ملتف يغتمس فيه، أو يستخفى.

قال في النهاية: في حديث علي عليه السلام: ألا وإن معاوية قاد لمة من الغواة، وعمس عليهم... الخبر. العمس: أن تُرِي أنك لا تعرف الأمر وأنت به عارف. ويروى بالغين المعجمة) بحار الأنوار، ج٧٢، ص١٨٤ ـ ١٨٥، الباب ٦٠ ـ الهجران، ذيل الحديث ١.

(٢) قال الشيخ المجلسي: (فعازَّ) بالزاي المشددة، وفي بعض النسخ فعالَ؛ باللام المخففة، في القاموس: =

أي أخي! أنا الظالم[(١)]، حتى يقطع الهجرانَ بينه وبين صاحبِه، فإنَّ الله تبارك وتعالى حكمٌ عدلٌ يأخذ للمظلومِ من الظالمِ)[(٢)].

فالمؤمن يفرض عليه إيمانُهُ أن تكون يدُهُ ممدودةً إلى أخيه المؤمن؛ مهما اختلف معه. بل إن عليه أن يسعى إلى استرضائه؛ في حدود ما يوافق الحكمَ الشرعيَّ والضوابطَ الأخلاقيةَ، وفي حدود ما تترتب عليه المصلحة المنشودة شرعاً.

فإذا فعل المؤمنُ ذلك، وتعنت خصمُه، فالإثمُ على المتعنِّت؛ المطالِب بما ليس له، وليس على العاملِ بتوجيهِ الشرعِ الحنيفِ شيءٌ من إثمِ القطيعةِ حينئذٍ؛ فـ ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [التوبة/ ٩١]. ذلك أن الهجرانَ؛ في هذه الحال، حصل من طرفٍ واحدٍ وليس من طرفين ليلحقهما الإثم معاً.

ويجب التنبُّه، والتنبيه، إلى: أن المؤمنَ يجدر به العملُ بالقيم الأخلاقية؛ وجوباً في موارد الوجوب، واستحباباً في موارد الاستحباب. لكن ليس المطلوبُ هو أن يكون ساذجاً؛ بحيث يستغله خصومُه؛ فيطالبونه بما هو نقيضٌ لتلك القيم؛ كأن يُذَل بذريعة أن التواضعَ قيمةٌ أخلاقيةٌ! وأن المؤمنَ لا يليق به أن يتكبر!

وهذا ما تنبَّه له الفقهاء؛ فأفتوا بأنه: لا يجوز للمسلم أن يُذل نفسَه أمام أي إنسانٍ، سواء أكان مسلماً أم كافراً)[(٣)].

ولذلك أصلٌ أصيلٌ في مصادر التشريع الإسلامي، فقد جاء في الخبر؛ عن

=عزَّه؛ كمدَّه: غلبه في المعازَّة، وفي الخطاب غالبه كعازه، وقال: عالَ: جارَ ومالَ عن الحق، والشيءَ فلاناً غلبه، وثقل عليه، وأهمه) المصدر السابق.

(١) قال الشيخ المجلسي: كأنه من المعاريض للمصلحة) المصدر السابق.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٣٤٤، كتاب الكفر والإيمان، باب الهجرة، الحديث ١.

(٣) السيستاني، السيد علي (معاصر)، فقه المغتربين، المسألة ٢٣٩.
وقال المولى الوحيد البهبهاني: لا يجوز له أن يذل نفسه) [حاشية مجمع الفوائد، ص٣٦].
وقال الشهيد السيد محمد الصدر: لا إشكال أن حصول هذه الذلة عمداً. يعني تعمدها الفرد لنفسه، غير جائز شرعاً) ما وراء الفقه، ج٣، ص١٨٢.

الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: **إن الله عزّ وجلّ فوّض إلى المؤمن أموره كلّها، ولم يفوض إليه أن يذل نفسَه! ألم تسمع لقول الله عزّ وجلّ** ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون/ ٨]؟!

فالمؤمن ينبغي أن يكون عزيزاً، ولا يكون ذليلاً، يعزه الله بالإيمان والإسلام)[١].

فالموقف المبدئي ـ إذن ـ هو النهيُ عن الهجران والقطيعة بين المؤمنين. وفي حال وقوعِ بعضِ مُسوِّغاته لا ينبغي أن يتحوَّل إلى موقفٍ مستمرٍّ، بل أن يكون حالةً طارئةً؛ حتى إن النصوصَ الشرعيةَ حدَّدت فترتهُ بأن لا يزيد فوق ثلاثةِ أيامٍ[٢]. وإلا تحوَّل من وسيلةٍ إلى غايةٍ، أو تحوَّل إلى معصيةٍ متغلِّبةٍ.

أجل إذا كان المؤمنُ منفعلاً فيه لا فاعلاً، فلا تثريبَ عليه ولا إثمَ.

ولهذا، نجد المحدث العاملي رحمه الله عقد باباً جعل عنوانه (تحريم هجر المؤمن بغير موجِبٍ)[٣].

فالهجر ليس محرَّماً بالمطلق؛ لأنه جائزٌ إذا كان له سببٌ مشروعٌ. بل قد يكون واجباً؛ كما إذا كان وسيلةً إصلاحيةً، وذلك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوهما. فـ(لو كان الإعراض والهجر ـ مثلاً ـ موجِباً لتخفيف المنكر، لا قلعه، ولم يحتمل تأثيرَ أمرِهِ ونهيِهِ ـ لساناً ـ في قلعه، ولم يمكنه الإنكارُ بغير ذلك، وجب)[٤].

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، الكافي، ج٥، ص٦٣، كتاب الجهاد، باب كراهة التعرض لما لا يطيق، الحديث ٢.

(٢) انظر النصوص الدالة على ذلك في: وسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص٢٦٠، كتاب الحج، كتاب العشرة، الباب ١٤٤ ـ تحريم هجر المؤمن بغير موجِبٍ)، الأحاديث ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢.

(٣) انظر: وسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص٢٦٠، كتاب الحج، كتاب العشرة، الباب ١٤٤ ـ تحريم هجر المؤمن بغير موجِبٍ).

(٤) الخميني، السيد روح الله (ت١٤٠٩ هـ)، تحرير الوسيلة، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، القول في مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المسألة ٢.

وجاء في الموسوعة الفقهية الكويتية:

أ ـ في بيان حرمة الهجر في الأصل: لا خلاف ـ بين الفقهاء ـ في أنه: يحرم على المسلم هجرُ أخيه المسلم فوق ثلاث ليال بأيامها)[(١)].

ب ـ في استثناء بعض الهجر قالوا: ذهب الفقهاء إلى مشروعية هجر المجاهرين بالمعاصي والمنكرات، أو البدع والأهواء، لحق الله تعالى؛ على سبيل الزجر والتأديب)[(٢)].

ثانياً: الكِبر

● [الفقرة/ ١٦٠]:

(يا أبا ذرّ! مَن أحبَّ أن يتمثَّل له الرجالُ قياماً فليتبوأ مقعدَه من النار).

في هذه الفقرة يبيِّن النبي ﷺ مانعاً من موانع الوصول إلى الصراط المستقيم، والثبات عليه. وهذا المانع هو (الكِبر).

ولقد وَلج النبيُّ ﷺ في تبيان ملامح الكبر وسمات المتكبِّر بعيداً عن تعريف الكبر. فإن التعريفَ مهمٌّ بقدر ما يفيدنا في تمييز المعرَّف من غيره.

ولا يخفى ـ أيضاً ـ أن بيانَ الملامح والآثار يحقق الغرضَ من التعريف، بل قد يتفوق عليه في كثيرٍ من الأحيان.

وقد تعددت المحطاتُ التي تناولتها الوصية الشريفة فيها آفةَ (الكبر)؛ ولنقف عندها واحدةً بعد أخرى.

المحطة الأولى: مظاهر زائفة

هل يُعاب على الإنسانِ أن يقوم للآخرين؟

وهل يُعاب على الإنسانِ أن يرغب من الآخرين أن يقوموا له؟

للإجابة عن ذلك لا بد من الوقوف عند أمرين:

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية، ج٤٢، ص١٦٥، مادة (هجر)، البند ٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٧٢، البند ١٧.

الأول: ماهية الكبر

الكبرُ هو حالةٌ شعوريةٌ؛ تحصل للمتكبر نتيجةَ اعتقاده أنه أفضلُ من غيره؛ لسببٍ من الأسباب. وبعبارة أخرى هو: هيئةٌ نفسانيةٌ تنشأ من تصوُّر الإنسانِ نفسَه أكملَ من غيره وأعلى رتبة منه)[١]. أو: هو عزةٌ وتعظيمٌ يوجب رؤيةَ النفس فوق الغير واعتقادَه المزيةَ والرجحانَ عليه)[٢].

الثاني: العلاقة بين الكبر وطلب القيام من الآخرين

يعبِّر المتكبرون عن كِبْرهم بأشكالٍ متعددةٍ؛ من التعبير القولي والفعلي؛ الإيجابي (الفعل)، والسلبي (الترك)، الظاهري والباطني.

وهذه التعبيرات قد تتمظهر في: التحقير، والازدراء، وعدم المجالسة والمؤاكلة والمخالطة، ورفع الصوت، والاستخفاف والغلظة، ونحوها ممَّا يكون تعبيراً عن التكبر ومظهراً من مظاهره.

وهنا نسأل:

هل إن مطالبة الآخرين بالقيام هو مظهرٌ من مظاهر التكبر؟

الجواب على ذلك هو: أنه لا بد من التفكيكِ بين قيامٍ وآخرَ، فأحدُهما مذمومٌ، والآخرُ غيرُ مذمومٍ، بل قد يكون محموداً ومطلوباً.

وما ذكره النبي ﷺ؛ من مطالبة الآخرين بالقيام، وأنه أثرٌ للكبر، يُراد به (حب الإنسان) أن يقوم الآخرون له إذا دخل في مجلسٍ مثلاً، أو أن يظلُّوا واقفين ما دام معهم؛ على أن يكون الداعي لهذه المطالبة هو شعورَ المحِب لذلك بالتفوق والتميز على مَن يطالبهم بالقيام له وفي محضره.

وبالطبع، فإن المذمومَ إنَّما هو الرغبة في ذلك؛ دون أن يكون له ما يسوِّغه شرعاً أو عقلائياً؛ وأما إذا كان له مسوِّغاتهُ المقبولةُ، ولم يكن ذلك نابعاً من

---

(١) المازندراني، المولى صالح (ت١٠٨١ هـ)، شرح أصول الكافي، ج١، ص٢٣٥.

(٢) النراقي، الشيخ محمد مهدي (ت١٢٠٩ هـ)، جامع السعادات، مبحث الكبر، ج١، ص٣٠٠.

استشعار التفوق المعبِّر عن (الكبر)، فالحديثُ لا يشمله، بل هو ـ كما يقول الفقهاء والأصوليون ـ منصرفٌ عنه.

وقد روي في سيرة النبي ﷺ:

١ ـ أنه كان يقوم لابنته فاطمة عليها السلام؛ إذا دخلت عليه؛ تعظيماً لها.

٢ ـ أنه (صلى الله عليه وآله) قام للأنصار لَما وفدوا عليه.

٣ ـ نقل أنه قام إلى عكرمة بن أبي جهل لَما قدم من اليمن فرحاً بقدومه(١).

٤ ـ كان المسلمون يقومون بين يدي رسول الله وآله (صلى الله عليه وعليهم)؛ للسؤال عمّا يعنيهم السؤالُ عنه. والنماذج على ذلك لا تكاد تُحصَى(٢).

---

(١) انظر: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٩، ص١٥٩، كتاب الحج، باب نوادر ما يتعلق بأحكام العشرة في السفر والحضر، الحديث ٢٠.

(٢) ولنسق على ذلك نموذجين:

أ ـ روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: **جاءت امرأةٌ إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقالت: زوجني.**
فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): مَن لهذه؟
فقام رجلٌ فقال: أنا يا رسول الله! زوجنيها.
فقال: ما تعطيها؟
فقال: ما لي شيءٌ.
قال: لا.
فأعادت، فأعاد رسولُ الله (صلى الله عليه وآله) الكلامَ فلم يقم أحدٌ غيرُ الرجل. ثم أعادت. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) ـ في المرة الثالثة ـ: أتحسن من القرآن شيئاً؟
قال: نعم.
قال: قد زوجتكها على ما تحسن من القرآن فعلمها إياه) [تهذيب الأحكام، وعنه وسائل الشيعة، ج٢١، ص٢٤٢، كتاب النكاح، أبواب المهور، الباب ٢ ـ جواز كون المهر تعليم شيء من القرآن...].

ب ـ روى الثقفي في كتاب الغارات بإسناده عن زِرِّ بن حُبَيْش، قال: **خطب علي عليه السلام بالنهروان ـ إلى أن قال ـ فقام رجلٌ فقال: يا أمير المؤمنين حدثنا عن الفتن.**
فقال: إن الفتنة إذا أقبلت شبهت، ـ ثم ذكر الفتن بعده، إلى أن قال: فقام رجلٌ فقال: يا أمير المؤمنين ما نصنع في ذلك الزمان؟
قال: انظروا أهل بيت نبيكم؛ فإن لبدوا فالبدوا، وإن استصرخوكم فانصروهم تؤجروا، ولا تستبقوهم فتصرعكم البلية.
=

وقد أجاد الشهيد الأول ﷺ؛ وهو الفقيه المحقق، بقوله: تمثل الرجال قياماً هو ما يصنعه الجبابرةُ؛ من إلزامهم الناس بالقيام في حال قعودهم إلى أن ينقضي مجلسهم، لا هذا القيام المخصوص القصيرِ زمانُهُ.

سلَّمنا، لكن يُحمل على مَن أراد ذلك تجبراً وعلواً على الناس، فيؤاخذ(١) من لا يقوم له بالعقوبة.

أما مَن يريده [أي القيام] لدفع الإهانة عنه، والنقيصة به، فلا حرجَ عليه؛ لأنّ دفعَ الضرر عن النفس واجبٌ.

وأما كراهيته (صلى الله عليه وآله) فتواضعٌ لله، وتخفيفٌ على أصحابه.

وكذا نقول: ينبغي للمؤمن أن لا يحب ذلك، وأن يؤاخذ نفسه بمحبةِ تركه إذا مالت إليه؛ لأنّ الصحابة كانوا يقومون ـ كما في الحديث ـ ويبعد عدمُ علمِه بهم، مع أن فعلَهم يدلّ على تسويغ ذلك)(٢).

ولعلك تتساءل ـ أخي القارئ ـ عن السر وراء هذا التحذير النبوي من الكِبر ومظاهره!

وأسمح لنفسي بالقول: إن آفةَ الكبر هي من أمهات الرذائل؛ كما بيَّنه الأخلاقيون بتفصيلٍ وإسهابٍ؛ فإن إبليسَ (لعنه الله) لم يتورط في ما تورط فيه إلا بسببِ الكبرِ؛ حتى إنه عصى الله تعالى لَمَّا أمره بالسجود لآدم ﷺ فأبى واستكبر.

ولقد أصاب مَن قال إنّ: جميع المعاصي ترجع ـ بحسب التحليل ـ إلى

= **ثم ذكر حصول الفرج بخروج صاحب الأمر** ﷺ [كتاب الغارات للثقفي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٥، ص٥٦، كتاب الجهاد، أبواب جهاد العدو، باب حكم الخروج بالسيف قبل قيام القائم ﷺ].

(١) في (أ) و(م): فيأخذ.

(٢) العاملي، محمد بن مكي، الشهيد الأول (ت٧٨٦ هـ)، القواعد والفوائد، قاعدة (٢٠٩): يجوز تعظيم المؤمن بما جرت به العادة...، ج٢، ص١٥٩.

دعوى الإنِّيةِ ومنازعةِ الله سبحانه في كبريائه، وله رداءُ الكبرياءِ لا شريكَ له فيه)[١].

وقد حكى الله تعالى ذلك بقوله ﴿قَالَ﴾ [أي الله تعالى مخاطباً الشيطانَ]: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ [الشيطان]: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ﴾ [الله]: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف/ ١٢ ـ ١٣].

وكان منشأ الوهم الذي استقر في عقل الشيطان، أو أنه تظاهر بذلك؛ هو أن المادة التي خُلق منها؛ وهي النار، أفضلُ من المادة التي خُلق منها آدم عليه السلام؛ وهي الطين!

وغفل هذا المنتكس، أو تغافل، عن أن مقولته هذه ليس سوى قياسٍ باطل، أولاً، وأن رفضه السجود إنَّما هو تمردٌ على الله ثانياً، وتكبرٌ عليه ثالثاً، وغرورٌ رابعاً...

ووقع في وهدة الكبر؛ هذه، فرعونُ لَما دعاه نبي الله موسى عليه السلام إلى الإيمان فنادى ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف/ ٥١ ـ ٥٣].

والمسوِّغ الذي ساقه الطاغيةُ فرعونُ لأفضليته على النبي الكليم موسى عليه السلام هو سلطانه، وما هو تحت تصرفه؛ من الخيرات والثروات الطبيعية!

وقد كانت البيئة التي بُعث فيها رسول الله صلى الله عليه وآله موبوءة بالكبر؛ الذي كان يتخذ أشكالاً متعددةً في التعبير عنه من قبيل عدم تزويج بعض الرجال إذا خطبوا، وعدم تزوج بعض النساء؛ لأسباب ترجع إلى الغنى والفقر، أو الحسب والنسب. فكانت هذه البيئة بأمسِّ الحاجة إلى اقتلاع هذه الآفة من جذورها.

وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله وعترته الطاهرة عليهم السلام من بعده.

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٨، ص٢٤، ذيل قوله تعالى ﴿...قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ...﴾ [الأعراف/ ١٢].

ولنورد حديثاً تضمن دروساً عملية؛ نبويةً وإماميةً؛ في اجتثاث شجرة التكبر في المجتمع المسلم.

فقد روى أبو حمزة الثُّمَالي، وقال: **كنت عند أبي جعفر عليه السلام؛ إذ استأذن عليه رجلٌ، فأذِن له، فدخل عليه، فسلَّم؛ فرحب به أبو جعفر عليه السلام، وأدناه، وساءله.**

فقال الرجل: جُعلت فداك! إني خطبتُ إلى مولاك؛ فلان بن أبي رافع؛ ابنتَه فلانةَ؛ فردَّني، ورغِب عني، وازدرأني؛ لدمامتي، وحاجتي، وغربتي. وقد دخلني من ذلك غضاضةٌ هجمةٌ؛ غضَّ لها قلبي، تمنيتُ عندها الموتَ.

فقال أبو جعفر عليه السلام: اذهب؛ فأنت رسولي إليه، وقل له: يقول لك محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام: زوِّج منجحَ بنَ رباح؛ مولاي، ابنتَك فلانةَ، ولا تردَّه.

قال أبو حمزة: فوثب الرجلُ؛ فرحاً مسرعاً برسالة أبي جعفر عليه السلام.

فلما أن توارى الرجلُ قال أبو جعفر عليه السلام: إن رجلاً كان من أهل اليمامة؛ يقال له (جويبر)، أتى رسولَ الله (صلى الله عليه وآله)؛ منتجعاً للإسلام؛ فأسلم وحسن إسلامُهُ؛ وكان رجلاً قصيراً دميماً محتاجاً عارياً، وكان من قِباح السودان.

فضمه رسولُ الله (صلى الله عليه وآله)؛ لحال غربته وعراه. وكان يُجري عليه طعامَه؛ صاعاً من تمر بالصاع الأول، وكساه شملتين، وأمره أن يلزم المسجد، ويرقد فيه بالليل. فمكث بذلك ما شاء الله. حتى كثر الغرباءُ؛ ممن يدخل في الإسلام؛ من أهل الحاجة، بالمدينة، وضاق بهم المسجدُ؛ فأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيِّه (صلى الله عليه وآله) أن: طهِّر مسجدَك، وأخرِج من المسجد مَن يرقد فيه بالليل، ومُر بسدِّ أبواب مَن كان له في مسجدك بابٌ؛ إلا بابَ عليٍّ عليه السلام ومسكنَ فاطمة عليها السلام، ولا يمرَّنَّ فيه جنبٌ، ولا يرقد فيه غريبٌ.

قال: فأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بسدِّ أبوابِهم؛ إلا بابَ علي عليه السلام، وأقرَّ مسكنَ فاطمة عليها السلام على حالِه.

قال: ثم إن رسولَ الله (صلى الله عليه وآله) أمر أن يتخذ للمسلمين سقيفةً. فعُمِلت لهم؛ وهي الصُّفَّة.

ثم أمر الغرباءَ والمساكين أن يظلُّوا فيها نهارَهم وليلَهم؛ فنزلوها، واجتمعوا فيها.

فكان رسولُ الله (صلى الله عليه وآله) يتعاهدهم؛ بالبُر والتمر والشعير والزبيب إذا كان عنده. وكان المسلمون يتعاهدونهم، ويرقون عليهم؛ لرقةِ رسولِ الله (صلى الله عليه وآله)، ويصرفون صدقاتِهِم إليهم.

فإن رسولَ الله (صلى الله عليه وآله) نظر إلى جويبر ذات يوم؛ برحمةٍ منه له، ورقةٍ عليه؛ فقال له: يا جويبر! لو تزوجتَ امرأةً؛ فعففتَ بها فرجَك، وأعانتك على دنياك وآخرتك!

فقال له جويبر: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي! مَن يرغب فيَّ؟! فو الله! ما من حسبٍ، ولا نسبٍ، ولا مالٍ، ولا جمالٍ! فأية امرأة ترغب فيَّ؟!

فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا جويبر! إن الله قد وَضع بالإسلام مَن كان في الجاهلية شريفاً، وشرَّف بالإسلام مَن كان في الجاهلية وضيعاً، وأعزَّ بالإسلام مَن كان في الجاهلية ذليلاً، وأذهب بالإسلام ما كان؛ من نخوةِ الجاهلية، وتفاخرِها بعشائرِها، وباسق أنسابها. فالناس ـ اليوم ـ كلُّهم؛ أبيضُهم، وأسوَدُهم، وقرشيُّهُم، وعربيُّهُم، وعجميُّهُم، من آدم، وإن آدمَ خلقه الله من طينٍ.

وإن أحبَّ الناسِ إلى الله عزّ وجلّ يوم القيامة أطوعُهُم له، وأتقاهم.

وما أعلم ـ يا جويبر ـ لأحدٍ من المسلمين عليك اليوم فضلاً؛ إلا لمن كان أتقى للهِ منك، وأطوعَ.

ثم قال له: انطلق ـ يا جويبر ـ إلى زياد بن لبيد؛ فإنه من أشرف بني بياضة حسباً فيهم، فقل له: إني رسولُ رسولِ الله إليك، وهو يقول لك: زوِّج جويبراً ابنتَك الذلفاءَ.

قال: فانطلق جويبرُ برسالة رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى زياد بن لبيد؛ وهو في منزله، وجماعةٌ من قومه عنده؛ فاستأذن؛ فأعلَم؛ فأُذِن له؛ فدخل،

وسلَّم عليه. ثم قال: يا زياد بن لبيد! إني رسولُ رسولِ الله إليك؛ في حاجة لي؛ فأبوح بها؟ أم أسرُّها إليك؟!

فقال له زياد: بل بُحْ بها؛ فإن ذلك شرفٌ لي، وفخرٌ.

فقال له جويبر: إن رسولَ الله (صلى الله عليه وآله) يقول لك: زوِّج جويبراً ابنتَك الذلفاءَ!

فقال له زياد: أرسولُ الله أرسلك إليَّ بهذا؟!

فقال له: نعم، ما كنت لأكذبَ على رسولِ الله (صلى الله عليه وآله)!

فقال له زياد: إنا لا نزوِّج فتياتِنا إلا أكفاءَنا من الأنصار. فانصرِف ـ يا جويبر ـ حتى ألقى رسولَ الله (صلى الله عليه وآله)؛ فأخبِره بعُذري.

فانصرف جويبر؛ وهو يقول: والله! ما بهذا نزل القرآنُ، ولا بهذا ظهرت نبوةُ محمدٍ (صلى الله عليه وآله).

فسمعت مقالتَه الذلفاءُ بنتُ زيادٍ؛ وهي في خدرها؛ فأرسلت إلى أبيها: ادخُل إليَّ، فدخل إليها. فقالت له: ما هذا الكلامُ الذي سمعتُه منك؛ تحاوِر به جويبراً؟!

فقال لها: ذكر لي أن رسولَ الله (صلى الله عليه وآله) أرسله، وقال: يقول لك رسولُ الله (صلى الله عليه وآله): زوِّج جويبراً ابنتَك الذلفاءَ.

فقالت له: والله! ما كان جويبرٌ ليكذِب على رسولِ الله (صلى الله عليه وآله) بحضرته؛ فابعث ـ الآن ـ رسولاً يرد عليك جويبراً.

فبعث زيادٌ رسولاً؛ فلحق جويبراً. فقال له زياد: يا جويبر! مرحباً بك، اطمئن حتى أعودَ إليك.

ثم انطلق زياد إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)؛ فقال له: بأبي أنت وأمي! إن جويبراً أتاني برسالتِك، وقال: إن رسولَ الله (صلى الله عليه وآله) يقول لك: زوِّج جويبراً ابنتَك الذلفاءَ. فلم ألِن له بالقول، ورأيتُ لقاءَك، ونحن لا نزوِّج إلا أكفاءَنا من الأنصار.

فقال له رسولُ الله (صلى الله عليه وآله): يا زيادُ! جويبرٌ مؤمنٌ، والمؤمنُ كفوٌ للمؤمنةِ، والمسلمُ كفوٌ للمسلمةِ؛ فزوِّجه يا زياد! ولا ترغبْ عنه.

قال: فرجع زياد إلى منزلِهِ، ودخل على ابنتِه؛ فقال لها ما سمعه من رسول الله (صلى الله عليه وآله)؛ فقالت له: إنك إن عصيتَ رسولَ الله (صلى الله عليه وآله) كفَرتَ! فزوِّج جويبراً.

فخرج زياد؛ فأخذ بيد جويبر، ثم أخرجه إلى قومه، فزوَّجه على سنةِ الله وسنةِ رسولِهِ (صلى الله عليه وآله)، وضمِن صداقَه.

قال: فجهزها زياد، وهيؤوها. ثم أرسلوا إلى جويبر؛ فقالوا له: ألك منزلٌ؛ فنسوقها إليك؟!

فقال: واللهِ! ما لي من منزلٍ.

قال: فهيؤوها، وهيؤوا لها منزلاً، وهيؤوا فيه فراشاً ومتاعاً، وكسوا جويبراً ثوبين، وأدخِلت الذلفاءُ في بيتها، وأدخل جويبرٌ عليها معتِماً؛ فلمّا رآها نظر إلى بيتٍ ومتاعٍ وريحٍ طيبةٍ قام إلى زاويةِ البيتِ، فلم يزل تالياً للقرآن؛ راكعاً وساجداً؛ حتى طلع الفجرُ. فلمّا سمع النداءَ خرج، وخرجت زوجتُه إلى الصلاة. فتوضأت، وصلَّت الصبحَ؛ فسُئِلت: هل مسَّك؟!

فقالت: ما زال تالياً للقرآن، وراكعاً، وساجداً؛ حتى سمع النداء، فخرج.

فلما كانت الليلةُ الثانيةُ فعل مثلَ ذلك، وأخفوا ذلك من زياد.

فلما كان اليومُ الثالثُ فعل مثلَ ذلك؛ فأخبر بذلك أبوها؛ فانطلق إلى رسولِ الله (صلى الله عليه وآله)؛ فقال له: بأبي أنت وأمي! يا رسول الله! أمرتني بتزويج جويبرٍ، ولا واللهِ! ما كان من مناكحِنا، ولكن طاعتك أوجبت علي تزويجَه.

فقال له النبي (صلى الله عليه وآله): فما الذي أنكرتُم منه؟!

قال: إنا هيأنا له بيتاً ومتاعاً، وأدخلتُ ابنتي البيتَ، وأدخل معها معتماً؛ فما كلَّمها، ولا نظَر إليها، ولا دنا منها، بل قام إلى زاويةِ البيتِ؛ فلم يزل تالياً للقرآن؛ راكعاً وساجداً؛ حتى سمع النداءَ فخرج. ثم فعل مثلَ ذلك في الليلةِ الثانيةِ، ومثلَ ذلك في الثالثةِ، ولم يدنُ منها، ولم يكلِّمها؛ إلى أن جئتُك. وما نراه يريد النساءَ؛ فانظر في أمرِنا.

فانصرف زياد، وبعث رسولُ الله (صلى الله عليه وآله) إلى جويبرٍ؛ فقال له: أَمَا تقرب النساءَ؟!

فقال له جويبر: أَومَا أنا بفحلٍ؟! بلى - يا رسول الله - إني لشبقٌ، نهِمٌ إلى النساء!

فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): قد خبِّرتُ بخلاف ما وصفتَ به نفسَك. قد ذُكِر لي أنهم هيؤوا لك بيتاً وفراشاً ومتاعاً، وأدخِلَت عليك فتاةٌ حسناءُ عطرةٌ، وأتيت معتماً؛ فلم تنظرْ إليها، ولم تكلِّمها، ولم تدنُ منها. فما دهاك إذن؟!

فقال له جويبر: يا رسولَ الله! دخلت بيتاً واسعاً، ورأيت فراشاً، ومتاعاً، وفتاةً حسناءَ عطرةً، وذكرتُ حالي التي كنتُ عليها، وغربتي، وحاجتي، ووضيعتي، وكسوتي مع الغرباء والمساكين؛ فأحببتُ؛ إذ أولاني الله ذلك، أن أشكره على ما أعطاني، وأتقرب إليه بحقيقةِ الشكرِ. فنهضتُ إلى جانبِ البيتِ؛ فلم أزل في صلاتي؛ تالياً للقرآن، راكعاً، وساجداً، أشكر اللهَ؛ حتى سمعتُ النداءَ؛ فخرجتُ. فلمّا أصبحتُ رأيتُ أن أصومَ ذلك اليومَ، ففعلتُ ذلك ثلاثةَ أيام ولياليها، ورأيتُ ذلك في جنب ما أعطاني الله يسيراً، ولكني سأرضيها، وأرضيهم، الليلةَ؛ إن شاء اللهُ.

فأرسل رسولُ الله (صلى الله عليه وآله) إلى زياد، فأتاه، فأعلمه ما قال جويبرٌ؛ فطابت أنفسُهُم.

قال: ووفى لها جويبرٌ بما قال.

ثم إن رسولَ الله (صلى الله عليه وآله) خرج في غزوةٍ له، ومعه جويبرٌ؛ فاستشهِد رحمه الله تعالى، فما كان في الأنصار أيم أنفق منها بعد جويبر)[1].

وقد أوردنا الحديثَ بتمامه - على طوله - بسبب ما تضمنه من جوانبَ تربويةٍ رائعةٍ؛ أبداها رسولُ الله ﷺ، وما كشفه من مستوى عالٍ من الرقي بلغه مَن أسلم وحسن إسلامه؛ من فقراء لم يُزرِ بهم فقرُهُم، ووجهاءَ لم ينحرف بهم جاهُهُم إلى غيرِ الله تعالى ورسوله ﷺ؛ مع صعوبة الاستجابة لأمرٍ شرعيٍّ صدر لهم بمحوِ

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، كتاب الكافي، ج٥، ص٣٣٩ - ٣٤٣، كتاب النكاح، باب أن المؤمن كفو المؤمنة، الحديث ١.

ثقافةٍ راسخةٍ؛ كرَّست طبقيةً لم تقم على أساس (التقوى)؛ وإنما على أساسٍ قبليٍّ واجتماعيٍّ واقتصاديٍّ.

والحديثُ ـ بعدُ ـ واضحٌ في دلالته على ما يبلغ به مَن يتواضع لله تعالى؛ من الرفعة في الدنيا والعاقبة الحسنة؛ التي جعلها الله تعالى ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه/ ١٣٢]، وكذلك ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف/ ١٣٢؛ القصص/ ٨٣]. وقد أغنانا وضوحُ الحديثِ عن الوقوف على لطائفَ كثيرةٍ تضمَّنها.

والميزانُ الذي يعين السائرَ على الصراط المستقيم؛ في التخلص من شجرة الكبر، وأغصانها، وثمراتها المرة؛ هو أن يضع نصبَ عينيه ـ دائماً ـ أسس التفضيل الثلاثة: الإسلام، والإيمان، والتقوى. ويجمعها قول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات/ ١٣].

المحطّة الثانية: أهمية سلامة القلب من الكبر

في هذه المحطة نقف عند ما أرشدنا إليه أفضلُ المربين رسولُ الله محمدٌ بن عبدالله ﷺ؛ من خلال وصيته هذه لأبي ذرّ رضي الله عنه، والتي نبَّه فيها الرسولُ ﷺ إلى أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين ما قبل الموت وما بعده، وأن الخصال النفسية والسلوك العملي؛ كلّ ذلك، يؤثر بشكلٍ بالغٍ وأساسيٍّ في عاقبة الإنسان.

فالمتكبر؛ إذا مات على كِبره، لن يكون من أهل الجنة، بل إنه لن يكون قريباً منها؛ وهذا ما يلمح إليه نفيُ وجدانِ رائحةِ الجنةِ، فقال ﷺ:

- [الفقرة/ ١٦١]:

(يا أبا ذرّ! مَن مات وفي قلبه مثقالُ ذرةٍ من كبرٍ لم يجد رائحةَ الجنة؛ إلا أن يتوب قبل ذلك).

غير أن اللافت للنظر ـ هنا ـ هو أن النبي ﷺ أبان في كلامه؛ وهو الصادق؛ أن الكبرَ مهما كان بالغاً في الصغر والدقة فإنه كافٍ في حرمانِ الإنسانِ من الجنةِ؛ أي حرمانه من السعادة ومن كلِّ خيرٍ.

ولك أن تسأل:

هل يُعقَل أن يكون مثقالُ ذرةٍ من كبرٍ سبباً كافياً في هذه العاقبة والوخيمة؟

وهل يُتصوَّر أن فرداً من الناس؛ إلا مَن عصمهم الله من أنبياء وأئمة، يخلون من شيءٍ من الكبر؟

أليس اللازمُ المؤكد لذلك هو أن غير المعصومين جميعاً سيكونون من أهل النار؟!

ونقول في إيضاح الأمر:

لم يغِب هذا التساؤل عن من كان حاضراً عند إلقاء النبي ﷺ على مسامع التلميذ النجيب أبي ذر رَحِمَهُ الله؛ فانبرى هذا الحاضر ليسأل عن حاله، وقد أقر على نفسه أنه؛ كغيره من الناس، يحب الجمالَ والكمالَ؛ حتى على مستوى مقتنياته الشخصية؛ مهما كانت بسيطةً؛ إذا كان لذلك أثرٌ في تبيان مكانة الإنسان؛ في نفسه وبين الناس: **(فقال رجلٌ: يا رسول الله! إني ليعجبني الجَمال؛ حتى وددتُ أن عِلاقة سوطي، وقبال نعلي، حسنٌ؛ فهل يُرهَب على ذلك؟!)**

وهو سؤالٌ وجيهٌ من سائلٍ فطنٍ؛ يدرك أن من الضرورة بمكانٍ أن لا يؤخذ الكلام على ظاهره؛ وإن صدر عن رسول الله ﷺ، إذا كان من لوازمه القريبة، أو البعيدة، الوقوعَ في ما لا يُحمد عقباه. من قبيل أن يُحمل التوجيهُ الدينيُّ على المثالية المطلقة؛ وعندها يفتقد فاعليته في توجيه المتدينين؛ فيكون أقرب إلى الأمنيات منه إلى المبادئ النظرية التي تؤسِّس لحياةٍ راشدةٍ.

وقد أحسن النبيُّ ﷺ استقبالَ سؤال هذه الرجل؛ لوجاهته ودقته، فكان جوابُه أن وجَّه إليه سؤالاً فـ:

قال: كيف تجدُ قلبَك؟

قال: أجدُهُ عارفاً للحقِّ، مطمئنّاً إليهِ.

قال: ليسَ ذلك بالكبرِ).

ومن خلال هذا الاستنطاق النبوي الحكيم تبيَّن لأبي ذر رَحِمَهُ الله، ولمن كان حاضراً معه، ولنا معهم، أن مسألةَ الكبرِ ليست في السلوكيات الظاهرة؛ التي قد

تكون تعبيراً عن كِبر المتكبِّر، وقد لا تكون كذلك لضروراتٍ شرعيةٍ أو عرفيةٍ، أو يقع فيها مَن لا يحسن القولَ أو الفعلَ؛ لقصورٍ أو تقصيرٍ. وأن الكبرَ محلُّه القلبُ، وأما المظاهرُ فليست سوى تعبيرٍ عنه.

فما دام القلبُ عارفاً للحق؛ سواء تمثل في أصوله أو في تفاصيله، وما دام القلبُ مسلِّماً بالحقّ ولوازمه؛ فإن حبَّ الكمال والجمال لا ينم عن كبرٍ؛ وإن شابهه ظاهراً(١).

وأضاف النبيُّ ﷺ إيضاحاً لذلك؛ بقوله:

- **[الفقرة/ ١٦١]:**

ليس ذلك بالكِبرِ، ولكن الكبرَ أن تترك الحقَّ، وتتجاوزه إلى غيرِهِ، وتنظر إلى الناسِ ولا ترى أن أحداً عِرضَه كعرضِك، ولا دمَه كدمِك).

والمقصود بالعِرض ـ هنا ـ ما يعادل الكرامة، وما يترتب عليه من حقوقٍ.

قال ابن منظور: عِرض الرجل: حَسَبه. وقيل: نفسه، وقيل: خليقته المحمودة. وقيل: ما يُمدح به ويُذم)(٢).

والمقصود بالدم ـ هنا ـ ليس السائلَ المعروفَ. فإنّ أحداً من الناس؛ حتى

---

(١) يشهد لهذا الاختلاط ما جاء في الخبر أن رجلاً قال للإمام الحسن عليه السلام: **إنَّ فيك كِبراً!**) فأجابه بقوله: **كلا! الكبرُ للهِ وحده، ولكن فيَّ عزةٌ. قال اللهُ تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون/٨]**) [بحار الأنوار، ج ٢٤، ص٣٢٥].
هذا إن حملنا السائلَ على الصدق في سؤاله، أما إذا كان مغرِضاً فإنه يُحمَل على الحرب النفسية التي مارسها خصوم الإمام عليه السلام؛ كما يفعلها الخصوم غير المتقين ـ عادةً ـ مع مَن يخاصمونه؛ باتهامه بما لا يرضاه الصالح على نفسه.
والكبرُ رذيلةٌ لا يرضاها الإمامُ عليه السلام على نفسه، فكشف عن مقصده من السلوك؛ الذي حُمِل على أنه مظهرُ تكبرٍ، مع أن الإمام عليه السلام إنَّما قام به لأنه مؤمنٌ، والمؤمنُ عزيزٌ، والعزةُ والكبرُ قد يلتقيان في بعض المظاهر فيختلطان على الناظر غير المدقق والفاحص.

(٢) الأفريقي، ابن منظور (ت٧١١ هـ)، لسان العرب، مادة (عرض).

المتكبرَ منهم، لا يعتقد أن لونَ دمِه أحمرُ ولونَ دماءِ الآخرين غيرُ ذلك، بل المقصودُ منه ما يقرب من الكرامة أيضاً، وما يترتب عليها من حقوقٍ؛ كسابقِهِ.

وقد كان عربُ الجاهلية طبقيين (يعاملون الناس حسب منازلهم ودرجاتهم، ويعملون بمبدأ عدم التكافؤ بين الناس... فعندهم أن دم القتيل الشريف، لا يُغسل إلا بدم شريفٍ مثلِه، ومن أهل مكانته...

وعلى هذه النظرية الطبيعية بنوا تقييم أثمان الديات؛ أي ثمن الدم. فَدِيَّةُ الملوك في الجاهلية أغلى ما دفع ثمنًا عن دمٍ. إذْ جعلت ديةَ الملك ألفاً من الإبل، فعرفت لذلك بدية الملك. تليها في الثمن ديات الأشراف وسادات القوم؛ حسب الشرف والمنزلة، حتى نصل إلى ديات المغمورين المطمورين؛ فتكون أقلها ثمناً. إذْ تبلغ خمساً من الإبل، وقد تنقص في ذلك)[١].

وبالطبع، لم تنمحِ هذه الثقافةُ في صدر الإسلام تماماً، وإن تعالت الأصوات بنبذها والتبرؤ منها، بل بقيت كامنةً في نفوسٍ كثيرين.

وللأسف الشديد فإنها لا تزال باقيةً ـ في بعض الأوساط ـ إلى زمان الناس هذا.

وما نسمعه من قضايا تكافؤ النسب، وتُرفع إلى بعض المحاكم في بعض البلدان، هي من هذا القبيل؛ حيث يفرق فيها بعضُ القضاة ـ باسم الدين!! ـ بين الزوج وزوجته بناءً على هذه النظرية!!

ولعلّ الفارق بين التعبيرين (العِرض، والدم) ـ في الوصية النبوية ـ هو: الكرامة الذاتية، والكرامة المكتسبة. فالدمُ يعبِّر عن الأولى، والعِرض عن الثانية.

فالكبرُ ـ إذن ـ ليس أحاسيسَ مجردةً؛ بالتفوق وحب الجمال والكمال، وإنما هو: قناعاتٌ وجدانيةٌ، مستقرةٌ في النفس، تدفع بالمتكبر إلى التعبير عن ذلك؛ على حساب الحق وذوي الحقوق؛ ابتداءً بالله تعالى، وانتهاءً بخلقه.

---

(١) علي، د جواد (ت١٤٠٨ هـ)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص١٣٢ ـ ١٣٣، الفصل ٤٨ ـ الناس منازل ودرجات.

فالمتكبِّرُ لا يغضب للحقِّ إنَّما لنفسِه؛ لكنه قد يغلِّف ذلك بالغضب للحق السليب! وآيةُ ذلك أنه لا يغضب إذا سُلب هذا الحقُّ نفسُه من غيره! ولو كان غضبُه ـ حينما يغضب ـ من أجل الحق لتساوى غضبُه في الحالتين.

ومن ثَمَّ، فإنّ الموازينَ ـ عند المتكبر ـ مزدوجةٌ. فعِرضُه، وحرماتُه، وشخصيتُه، وحيثيتُه؛ هي ـ فقط ـ لها أحكامٌ ولوازمُ؛ يجب مراعاتها واعتبارها. لكنه يفتقد هذا الحرص؛ كلَّه أو بعضَّه، وينسلخ منه في حقِّ مَن يتكبر هو عليهم.

فالمتكبر ينتفض غضباً على مَن يغتاب مَن يحبهم ويحبونه؛ ويسوِّغ غضبه بأن العدوانَ عدوانٌ عليه، وقد يضيف إلى ذلك أن الغيبةَ رذيلةٌ محرمةٌ، لكنه يفتش عن أوهن المسوِّغات إذا كان مَن اغتِيب خصماً له ومَن اغتاب ولياً له!! وقد يضيف إلى ذلك أنه يؤدي تكليفاً شرعياً!!

وهكذا لو سُفك دمُ حبيبٍ له بإزاء سفكِ دمِ خصمِهِ.

مع أن الله سبحانه يدعونا إلى أن نقدس الحقَّ ـ دائماً ـ لأنه حقٌّ، ولا نفرق في رعايته بين مَن نحب ومَن لا نحب؛ فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [المائدة/ ٨ ـ ٩].

فالعبرة ـ إذن ـ في التزامِ الحقِّ. والممنوعُ والمحظورُ إنَّما هو خصوصُ المشاعرِ التي توقع الإنسانَ في وهدةِ مخالفةِ الحقِّ وجحدِهِ؛ وعندها يكون متكبِّراً، ومستكبراً، مستحقاً للنار، بل لا يشم رائحتَها.

ويشهد لهذا المعنى ما رَواه محمد بن مسلم، عن الإمام الباقر، أو الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: **لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقالُ حبةٍ من خردلٍ من الكبر!**

قال [محمد بن مسلم]: **فاسترجعت** [أي قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون) تعبيراً عن الأسى والأسف].

فقال: مالك تسترجع؟

قلت: لِما سمعتُ منك!

فقال: ليس حيث تذهب [أي ليس كما ظننتَ]! إنَّما أعني الجحود، إنَّما هو الجحود)(١).

ونخلص ممَّا مرَّ إلى:

أنّ الكبرَ إنَّما يكون كِبراً؛ مهلِكاً لا محالةَ، إذا دعا صاحبَه إلى التنكرِ للحق، وموجباً للوقوع في الباطل؛ بسبب مشاعره تجاه نفسِه؛ فيتعالى على الناس، ويحتقرهم، ويزدريهم، ويغمطهم حقوقَهم، ونحو ذلك.

وأمّا الحرص على المظهر الحسن، والرغبة فيه، فليس من الكبر المذموم والمقصود بالفقرة في هذه الوصية(٢).

ولا عجب في هذا الحكم؛ الذي قد يبدو قاسياً وظالماً بالنظرة السطحية،

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٣١٠، كتاب الكفر والإيمان، باب الكبر، الحديث ٧.

(٢) وقد روت فاطمة بنت الحسين عليه السلام عنه:

أن عبدَ الله بن عمرو جاء إلى النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم، فقال: يا رسول الله! أمن الكبرِ أن ألبس الحلةَ الحسنةَ؟

قال: لا.

قال: فمن الكبر أن أركب الناقةَ النجيبةَ؟

قال: لا.

قال: أفمن الكبر أن أصنع طعاماً فأدعو قوماً يأكلون عندي، ويمشون خلف عقبي؟

قال: لا.

قال: فما الكبر؟

قال: أن تسفِّه الحقَّ، وتغمِص الناسَ) [المعجم الكبير للطبراني، ج٣، ص١٣٢، الحديث ٢٨٩٨].

والذي يظهر أن هذا التساؤلَ ظل يتردد بين أجيال المسلمين لاحقاً؛ كما هو يتردد في أيامنا هذه.

ويشهد لاستمرار هذا التساؤل نصٌّ آخرُ؛ رواه الشيخ الكليني؛ بإسناده عن عمر بن يزيد، عن أبيه، قال:

إنني آكل الطعامَ الطيبَ، وأشم الريحَ الطيبةَ، وأركب الدابةَ الفارهةَ، ويتبعني الغلامُ، فترى في هذا شيئاً من التجبُّر فلا أفعله؟!

فأطرق أبو عبدالله [الصادق] عليه السلام، ثم قال: إنَّما الجبارُ، الملعونُ، مَن غمَص الناسَ، وجهل الحقَّ.

قال عمر: فقلت: أما الحقُّ فلا أجهله، والغمصُ لا أدري ما هو!

قال: مَن حقَّر الناسَ، وتجبَّر عليهم، فذلك الجبار) [أصول الكافي، ج٢، ص٣١١، كتاب الإيمان والكفر، باب الكبر، الحديث ١٣].

لكنه يبدو عادلاً جداً عند التدقيق؛ وذلك إذا عرفنا أن إبليسَ إنَّما عاند الله عزّ وجلّ، ورد حكمَه تعالى، بسبب الكِبر؛ فكفر بالله العظيم عز اسمه.

فرذيلة الكبر ـ إذن ـ خطيرةٌ، وعاقبتُها وخيمةٌ؛ قد تودي بصاحبها في وادٍ سحيقٍ لا خلاصَ منه؛ وتتجلى في الازدراء بالحق وأهله، والارتهان للباطل وأهله.

ومن هنا، فقد أردف النبي ﷺ بيانه ذلك بقوله:

● **[الفقرة/ ١٦٢]:**

(يا أبا ذرّ! أكثرُ مَن يدخل النارَ المستكبرون).

فالتكبر قد ينمو، ويشتد، في نفس صاحبه؛ إلى أن يبلغ به درجة (الاستكبار)[١]؛ وهو مرتبةٌ متقدمةٌ جداً من الكبر، فيودي به في نارِ جهنم؛ مع أن الكبرَ ـ بمرتبته الدنيا ـ كافٍ في استحقاق هذه العاقبة الوخيمة؛ بالبيان الذي تقدم.

المحطة الثالثة: وقاية وعلاج

تعرَّفنا ـ في المحطتين السابقتين ـ على المظاهر الزائفة، والعاقبة الوخيمة، لرذيلة الكبر.

ونضيف الآن: أن من المنطقي أن يندفع كلُّ واحدٍ منا إلى البحث عن وسائل تعينه على التخلص من الكبر؛ إن هو ابتُلِي به، وعلى التحرز منه إن لم يكن قد ابتُلِي به.

ويجب على الإنسانِ أن يكون مشغولاً، ومهموماً، بهما معاً؛ لأنّ الكبرَ مراتبُ؛ نعالج أنفسَنا من بعضها، ونتحرز عن بعضها الآخر، ونجمعهما في مورد اجتماعهما.

ويبدو أن مجلس الوصية لم يعُد ـ الآن ـ جلسةً خاصةً بين النبي ﷺ وأبي ذر رحمه الله؛ كما بدأ، فقد طال. لهذا اشترك فيه بعضُ المسلمين؛ واحدٌ أو أزيدُ.

---

(١) أقول: هذا التفسير يتناسب مع النسخة التي جاء فيها (المستكبرون) ـ كما أثبتناه ـ؛ وهو الأكثر، وليس (المتكبرون) ـ كما في مجموعة ورام، ج٢، ص٣٨٥، وأعلام صفات المؤمنين للديلمي، ص٢٠٣، ومستدرك الوسائل، ج١٢، ص٢٧، باب تحريم الكبر، الحديث ٥؛ نقلاً عن أمالي الطوسي.

يُفهَم ذلك من جملة (فقال رجلٌ: وهل ينجو من الكبرِ أحدٌ، يا رسولَ الله!). وهو سؤال وجيهٌ، ومشروعٌ أيضاً.

فكان جواب النبي ﷺ على النحو التالي:

- [الفقرة/ ١٦٣]:

(قال: نعم. مَن لبس الصوفَ، وركب الحمارَ، وحلب العنزَ[(١)]، وجالس المساكينَ).

- [الفقرة/ ١٦٤]:

(يا أبا ذرّ! مَن حمل بضاعتَه فقد برئ من الكِبر) [يعني: ما يشترى من السوق][(٢)].

- [الفقرة/ ١٦٧]:

(يا أبا ذرّ! مَن رفع ذيلَه، وخصف نعلَه، وعفَّر وجهَه؛ فقد برئ من الكِبر)[(٣)].

وقد نبَّه النبيُّ ﷺ؛ في جوابِه هذا، أبا ذر رحمه الله، ومَن كان حضر مجلسَ الوصية، ومَن ستبلغه، إلى أمرين أساسيين:

الأمر الأول: أن الكبر؛ وإن وقع في وهم الواهم، أن من الصعوبة بمكانٍ خلوَّ الإنسان؛ أيِّ إنسانٍ، منه.

وهو ما ظهر من سؤال السائل؛ حيث قال **(هل ينجو من الكبرِ أحدٌ؟!)**،

---

(١) في المكارم (الشاةَ).

(٢) أورد هذه الفقرةَ الشيخُ النوريُّ في مستدرك وسائل الشيعة، ج٣، ص٢٧٣، الباب ٢٢ ـ استحباب لبس الثوب الغليظ والخلق في البيت، لا بين الناس، ورقع الثوب، وخصف النعل، الحديث ٦.

(٣) أورد هذه الفقرةَ، وسابقتها، الشيخُ الحرُّ العامليُّ في وسائل الشيعة، ج٥، ص٥٤، كتاب الصلاة، أبواب لباس المصلي، الباب ٢٩ ـ استحباب لبس الثوب الغليظ والخلق في البيت لا بين الناس، ورقع الثوب، الحديث ٥.

فأجاب النبي ﷺ ـ بحسم ـ (نعم). من أجل أن يقطعَ دابرَ الضعف في النفس الإنسانية أمام تسويلات الشيطان ووساوسه؛ الذي يجعل شعورَ الإنسانِ بالضعف مطيتَه للتغلغل في النفوس، ويوسوس لها بأن ما يطرحه الأنبياء ﷺ ليس سوى مثاليات؛ لا أملَ في تحقيقها؛ فيسهل التحكم فيه، وتوجيهه، بل وإهلاكه؛ بالرذائل والمعاصي؛ واحدةً بعد أخرى.

الأمر الثاني: أوضح النبيُّ ﷺ بعضَ الممارسات التي تعين فاعلَها على استشعارِ التواضع، وقطعِ دابرِ الكبر. وهي: لبس الصوف، وركوب الحمير، وحلب العنز، ومجالسة المساكين، وحمل البضاعة الخاصة.

وإذا استثنينا بعضَ ما جاء في هذه الفقرات؛ العلاجية أو الاحترازية، من قبيل: مجالسة المساكين، وحمل البضاعة الخاصة، فلا بد أن المقصودَ ببقيتها الإشارةُ إلى ما يكون تعبيراً عن نبذ الكبر ومظاهره.

وذلك، أن الزمان والمكان يغيِّران من العادات والتقاليد والممارسات الاجتماعية، فما كان مظهراً للكبر في زمنٍ سابقٍ ليس بالضرورة يكون كذلك في جميعِ الأزمنةِ، وهكذا قد تكون ممارسةٌ ما مظهراً للتكبرِ في مكانٍ، ولا تكون كذلكَ في مكانٍ آخرَ.

فالصوف ـ مثلاً ـ كان في زمن النبي ﷺ لباسَ الفقراء، أما الأثرياءُ فكانوا يختارون الألبسةَ الناعمةَ؛ كالحرير ونحوه، فمَن يلبس الصوفَ؛ للغرض الذي جاءت الوصية من أجله(١)، يكون أقربَ إلى التواضع والمتواضِعِين.

---

(١) علماً أن لبس الصوف ليس مستحباً شرعاً! فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **لا تَلبسْ الصوفَ والشعرَ إلا من علَّةٍ)** [الكافي، ج٦، ص٤٤٩، باب لبس الصوف والشعر والوبر، الحديث ١]، كما ورد الخبر عن الإمام علي عليه السلام أن ذلك؛ أي ترك لبس الصوف، هو ما كان يفعله النبي (صلى الله عليه وآله) [المصدر السابق، الحديث ٢].

لكن ورد في بعض الأخبار أن النبي (صلى الله عليه وآله) لبسه، وأن بعض الأئمة من عترته عليهم السلام لبسوه أيضاً. فهنا طائفتان من الأخبار.

وقال الحر العاملي في الجمع بين الطائفتين: وروي نفي الكراهة في الصوف؛ وهو محمول على نفي التحريم، أو التقية، أو وقت الصلاة، أو وجود العلَّة) [هداية الأمة إلى أحكام الأئمة، ج٢، ص١٢١].=

وكذلك الحمير؛ كانت مركوباً للفقراءِ غالباً(١)، أما الأثرياء والوجهاء فكانوا يركبون الخيولَ والبغالَ؛ التي هي (الدواب الحسنة المطهمة؛ مبالغةً في التباهي والتظاهر)(٢).

وأما حلب البهائم فهو شأن العبيد والجواري والنساء، وأما الرجال وربات الحجال الثريات فلم يكونوا يباشرون ذلك(٣)؛ إلا عند الضرورة.

كما أن الفقراء والمساكين لا يُتاح لهم ـ في العادة ـ مجالسة الأثرياء والوجهاء.

وإذا أردنا استعمالَ موازين عصرنا في التعرف على مظاهر التواضع؛ الذي هو الفضيلة الأخلاقية المقابلة لرذيلة الكبر؛ مستلهِمِين من التوجيه النبوي الكريم، فسنذكر عدداً من المقترحات والسلوكيات:

المقترح الأول: ينبغي لمن أراد أن يقيَ نفسَه الكبرَ، ويصونها حتى لا يُبتلى به، أو يتخلص منه إن كان مبتلى به، أن يلبس اللباسَ البسيطَ غيرَ الفاخر جداً. وإن لم يتيسر له ذلك دائماً فليلبسه بين الحين والآخر، فذلك أدعى لاستشعار البساطة، وأقربُ للتواضع.

المقترح الثاني: ينبغي ركوبُ وسائل النقل العادية، بل البسيطة؛ ولو أحياناً، من أجل ترويض النفس.

=**ويمكن أن يضاف إلى ذلك وجوهٌ أخر**؛ من قبيل: أن النهي عن لبسه إرشادي ـ لإضراره بالبدن مثلاً ـ لا مولوي، أو أنه ظرفيٌّ آنيٌّ، أو أنه وقائيٌّ لعلم النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة عليهم السلام أن طائفةً منحرفةً ستتخذه شعاراً.

(١) علي، د جواد (ت١٤٠٨ هـ)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص٢٠٢.

(٢) المصدر السابق، ج٩، ص٤٨، الفصل ٥٠، فقرة اللباس.

(٣) يشهد لذلك ما يُحكى في تاريخ العرب؛ ممَّا جاء في سبب ادعاء أبي عنترة إياه:
أن بعض أحياء العرب أغاروا على قوم من بني عبس، فأصابوا منهم، فتبعهم العبسيون، فلحقوهم، فقاتلوهم؛ وفيهم عنترة. فقال له أبوه: كُر يا عنترة! فقال: العبد لا يحسن الكَر، إنَّما يحسن الحلاب والصر. قال: كُر وأنت حرٌّ. فقاتلهم، واستنقذ ما في أيدي القوم من الغنيمة؛ فادعاه أبوه بعد ذلك) [خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي، ج١، ص١٢٨].
مما يعزز أن حلبَ البهائم لم يكن من شأن الأعيان، بل من شأن العبيد والخدم والنساء والصبيان والفتيات.

فإن من عوَّد نفسه أن لا يركب إلا السيارات الفارهة، والدرجة الأولى في الطائرة، فقد يجد نفسَه مترفعاً عن الاستجابة لمؤمنٍ فقيرٍ أراد وجهَ الله تعالى بإيصاله أخاه المؤمن الثريَّ من المسجد إلى بيته ـ مثلاً ـ في سيارته المتواضعة؛ فيستشعر هذا الأخُ أنه لا يليق به ركوبُ مثل هذه السيارة.

وقد يعتذر بلباقةٍ؛ حتى لا يجرح مشاعرَ أخيه المؤمن؛ غير أن ما دعاه ـ في الواقع ـ إلى الرفض ليس سوى (الكبر)، أعاذنا الله وجميعَ المؤمنين ذلك.

المقترح الثالث: ينبغي لمن أراد تنزيهَ نفسِه عن الكبر، وترويضَها على الزهد، أن يقوم ببعض أعمال المنزل، ولا يكِل ذلك كلَّه ـ ودائماً ـ إلى زوجته، أو أولاده، أو العاملة في المنزل.

فهذه الأعمال قريبةٌ من حلب العنز؛ الذي ذكره رسول الله ﷺ في الوصية.

المقترح الرابع: ينبغي أن يقوم الإنسانُ بحَمل بعضِ ما يشتريه؛ ممَّا يطيق حملَه؛ بحيث يكون ذلك بمرأى من الناس. ولا يعتمد ـ دائماً ـ على العمال؛ الذين توفرهم المتاجر والمحلات؛ مجاناً أو بأجرةٍ.

فإن مَن اعتاد أن لا يحمل شيئاً يُخشَى أن يتسلل إليه الكبرُ؛ من حيث يشعر أو لا يشعر.

المقترح الخامس: ينبغي أن لا يطيل المؤمنُ ملابسَه أكثرَ ممَّا جرت عليه العادةُ والعرفُ؛ فإنه لا يطيلها ـ عادةً ـ إلا المتكبرون والمتبخترون.

وليس المقصودُ بها ما يفعله بعضُ الناس بطريقةٍ تجعلهم مثاراً للاستهزاء والاحتقار، بل السعيَ بدقةٍ وعنايةٍ لعدم إبراز الفوارق الاقتصادية بين الناس.

حيث يقتصر الفقراء ـ عادةً ـ على الملابس البسيطة، وقد يغلب عليها أن تكون قصيرةً. بسبب أنه لا يتيسر لهم مبلغٌ كبيرٌ يؤمِّنون به لأنفسهم الملبسَ الطويلَ.

المقترح السادس: ينبغي ـ لمن أراد أن لا يُبتلَى بالكبر ـ أن يخصف نعلَه؛ إذا احتاجت إلى الخصف؛ وهو إصلاحها إذا انقطعت أو تضررت.

وقد نوسع دائرة ذلك إلى تنظيف النعل، أو تلميعه، وليس إيكالَ ذلك ـ دائماً ـ إلى العامل، أو الخادمة، أو غيرهما.

المقترح السابع: ينبغي ـ للسائر على الصراط المستقيم ـ أن لا يغفل عن ما يمكن وصفُهُ بأنه أهمُّ وسيلةٍ من وسائل التحصين أمامَ رذيلةِ الكبرِ الجارفةِ، وهو تعفيرُ الوجهِ؛ بمعنى وضعِه على الأرض حال التعبد لله تعالى؛ تعبيراً عن منتهى الخضوع والتذلل له سبحانه.

فإن مَن اعتاد على ذلك أعانه الله تعالى ـ ببركة هذا التعفير ـ على التخلص من الكبر. وهذا ما وعد به الصادق الأمين ﷺ بقوله:

(فقد برئَ من الكبرِ).

وكتتمةٍ للحديث عن مانع الكبر أشار النبيُّ ﷺ إلى ما سيواجهه المتكبرُ والمزهوُّ؛ من حرمانٍ من الكرامة الإلهية، فقال:

● **[الفقرة/ ١٦٥]**:

(يا أبا ذرّ! مَن جرَّ ثوبَه؛ خيلاءً، لم ينظر الله عزّ وجلّ إليه يومَ القيامة).

كان المترفون ـ في ما مضى ـ يعتمدون مظاهرَ عديدةً؛ لإشعار الآخرين بما يعتقدونه ـ هم ـ في أنفسهم؛ من علوٍّ ومكانةٍ.

ومن تلك المظاهر (الملابس)؛ التي كان المتكبرون والمترفون يختارون منها الطويلَ الذي يُجَر ذيلُهُ؛ إشارةً إلى ثرائهم وتفوُّقِهم وتميُّزِهم. خلافاً للفقراء والبسطاء والأسوياء؛ الذي كانوا يختارون ما قصُر من الملابس؛ إما لقلة ذات

---

(١) جاء في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام [ج ٩/ ص ٤٨]؛ في سياق حديثه عن ألبسة العرب:
... كسوة العرب، تختلف وتتباين؛ باختلاف الشخص، وباختلاف الجماعة التي ينتسب إليها، والمكان الذي يعش فيه. فللأعراب ألبسةٌ وذوقٌ، ولأهل المدر أذواقٌ وأمزجةٌ في اللباس، تتباين فيما بينها؛ بتباين المنزلةُ والمكانةُ والحرفةُ. ولذوي اليسار والثراء ألبسةٌ فاخرةٌ، يستوردونها من الخارج في بعض الأحيان، فيها أناقةٌ، وفيها تصنُّعٌ، وهي من المواد الغالية الثمينة في الغالب، لا يُتاح لغير الموسرين الحصول عليها).
وقال في [ج ٩/ ص ٤٧]:
... أما سواد الناس، فلم يكن من السهل عليهم الحصول على اللباس. إذ كان غالياً مرتفعَ الثمن بالنسبة لأوضاعهم الاقتصادية. فكانوا يسترون أجسامهم بأسمالٍ باليةٍ، وبكل ما يمكن أن يُستر الجسمُ به). =

اليد كما هو الحال بالنسبة للفقراء والبسطاء(١)، وإما لنبذِ الخيلاء كما هو حالُ مَن استقامت نفوسُهُم.

وجاء ـ في الحديث ـ أن مصعبَ بن عمير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كان مترَفاً في الجاهلية؛ يدَّهن بالعبير، ويُذِيل يُمْنَة اليَمَن)؛ أي يُطيل ذيلَها، واليُمنة ضرب من بُرود اليمن(٢). وقد رُوي أن أبويه كانا يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، وأنه كان يرتدي حلَّةً (شراؤها بمائتي درهم)(٣).

وأما الخُيَلَاء فهي: التكبر في المشي. ولا يكون ذلك إلا مع سحب إزَارٍ)(٤).

وفي مسك الختام ـ هذا ـ من الوصية الشريفة، يكشف النبي ﷺ عن عاقبةٍ وخيمةٍ للمتكبر والمختال؛ وهي أنه لن يُحرم الجنةَ؛ فحسب، بل سيُحرَم ما هو أشدُّ من ذلك؛ خطراً وضرراً؛ وهو أن يصرِف الله تعالى نظرَه الكريمَ عن المتكبِّر المزهوِّ؛ الذي كان يجرُّ الثيابَ تعبيراً عن خيلائه.

= وقال في [ج ٩/ ص ٥٥]:

... وقد كان الأغنياءُ والشبابُ يبالغون في ألبستهم، فكان منهم مَن يشمِّر ثوبَه، ومنهم مَن يسبله ويتركه يجر الأرض، ومنهم مَن يبالغ في ردائه؛ خيلاءً، وتيهاً، وتكبراً).

(١) انظر: لسان العرب، مادة (ذيل).

وبرود جمع بُردة (وهي من الأنواع الغالية الثمينة؛ التي لا يشتريها ـ في العادة ـ إلا المترفون والمرفهون) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١٤، ص٢٨٥.

(٢) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت٥٧١ هـ)، تاريخ دمشق، ج٣٦، ص٣٣٣.

وقال في مقاييس اللغة، مادة (حل): والحلة معروفة. وهي لا تكون إلا ثوبين).

وقال ابن الجوزي في (غريب الحديث) [١/ ٢٣٨]:

قال ابن الأعرابي: يُقال للإزار والرداء حُلَّة، ولكلٍّ واحد منهما حُلَّة... وقال الخطَّابيُّ: الحلَّة ثوبان؛ إزار، ورداء. ولا تكون حلَّة إلا وهي جديدةٌ يحل من طيها فتلبس...

وحكى الأزهريُّ عن شمر، قال: الحلة عند الأعراب ثلاثة أثواب).

وجاء في أسد الغابة؛ في ترجمة مصعب، ج٥، ص١٧٥:

وقال الواقدي: كان مصعب بن عمير فتى مكة شباباً وجمالاً وسبيباً، وكان أبواه يحبانه. وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب، وكان أعطرَ أهل مكة، وكان رسولُ الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) يذكره، ويقول: **ما رأيتُ بمكةَ أحسنَ لُمَّةً، ولا أنعَمَ نعمةً من مصعبِ بنِ عميرٍ)** انتهى.

(٣) جمهرة اللغة، مادة (إزار).

وصَرف النظر ـ هذا ـ هو واحدٌ من العقوبات الإلهية المخيفة؛ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وهو كنايةٌ عن شدة الغضب والسخط والازدراء. قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران/ ٧٧].

والنار ـ في الحقيقة ـ ليست سوى تجسيد لصَرف الله نظرَهُ عن مَن جعله من أهلها؛ فلا يستحق من الله تعالى رحمةً ولا كرامةً.

المحطة الرابعة: لباس الحكيم

(اللباس) هو: ما يُجعَل غطاءً للبدن؛ كلّه أو بعضِه، من قماشٍ وغيرِهِ.

واللباسُ؛ في الجملة، واجبٌ بحكم العقل والنقل والفطرة. تعتبر الثياب (إحدى ضروريات الحياة للإنسان؛ كالطعام والمأوى)[١]. لذلك، لا نكاد نجد أمةً من الأمم إلا وهي تعتمد اللباس؛ لستر ما يقتضي الحياء ستره، أو التعبير عمّا يُراد الإرشادُ إليه من مكانةٍ اجتماعية أو وظيفةٍ ومسؤوليةٍ[٢].

وصريح القرآن الكريم على أن آدم وحواء؛ ومنهما تناسَل البشرُ، هما أول مَن استتر على وجه الأرض؛ فقد قال تعالى ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف/ ٢٢]؛ أي: أخذا بلصق الورقة على العورة لسترها عن الأنظار، وقد كانا مستورين بستر من الجنة **(فلمّا أكلا من الشجرةِ طار الحلِيُّ والحُلَلُ عن أجسادِهما وبقِيَا عريانَيْنِ)**؛ كما روي عن الإمام

(١) الموسوعة العربية العالمية، ط الثانية ١٤١٩ هـ (١٩٩٩ م)، ج٢٤، ص٥٢، مادة (الملابس).

(٢) جاء في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ص٤٧ ـ ٤٨ ما لفظه:

وكسوة العرب، تختلف وتتباين، باختلاف الشخص وباختلاف الجماعة التي ينتسب إليها والمكان الذي يعيش فيه. فللأعراب ألبسةٌ وذوقٌ، ولأهل المدر أذواقٌ وأمزجةٌ في اللباس، تتباين فيما بينها، بتباين المنزلة والمكانة والحرفة. ولذوي اليسار والثراء ألبسةٌ فاخرةٌ، يستوردونها من الخارج في بعض الأحيان، فيها أناقةٌ وفيها تصنُّع، وهي من المواد الغالية الثمينة في الغالب، لا يُتاح لغير الموسرين الحصولُ عليها). وذكر نحوَ ذلك في ج١٤، ص٣٠٣، الفصل ١٤، فقرة الحياكة والنسيج والثياب.

الصادق عليه السلام[١]، أو أن عورتيهما كانتا مخفِيَّتين عنها فلم يرياهما قبل الأكل؛ كما ذكر آخر[٢].

وعلى أي حال، فإنسانية الإنسان تتطلب أن يكون مستتِراً؛ ووسيلته ـ في ذلك ـ اللباسُ؛ الذي هيأ الله تعالى أسبابَه؛ وجعله مظهراً لتكريم مخلوقه (الإنسان). فقال عزّ وجلّ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف/ ٢٦].

ولـ(اللباس) دلالاتٌ ووظائفُ عديدةٌ، منها ما هو ضروري، ومنها ما هو كمالي:

١ ـ فالضروري: ما كان للحماية والوقاية ونحوهما. قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾ [النحل/ ٨١].

فالوقاية من الأضرار التي تلحق بالإنسان؛ بسبب الحر والبرد وما أشبههما، يُتوقى منها بمثل (الملابس). ولذلك، تنوعت الألبسة إلى ما يناسب الطقسَ الحارَّ، وما يناسب الطقس البارد، وهكذا.

وأما الوقاية من الأضرار؛ التي تحدق بالإنسان؛ من الإنسان أو الحيوان ونحوهما، فتكون أيضاً بوسائل، منها (الملابس).

ومن الضروري في هذا المجال ما يكون كذلك عند عموم الناس؛ ولا يُعتد بمن شذَّ، فسترُ العورة ـ عند العقلاء ـ هو ضرورةٌ ثقافيةٌ وأخلاقيةٌ واجتماعيةٌ. وستر العورة ـ من حيث المبدأ ـ حكمٌ متفقٌ عليه بين البشر جميعاً[٣].

ومفهوم العورة يختلف حسب الثقافات. فهي لدى المسلمين تتفاوت في الرجل عنها في المرأة.

---

(١) معاني الأخبار، وعنه: بحار الأنوار، ج ١١، ص١٧٢، باب ارتكاب الأولى ومعناه...، الحديث ١٩.

(٢) القمي، علي بن إبراهيم (ت٣٢٩ هـ)، تفسير القمي، ج١، ص٢٥٥.

(٣) لأحكام الستر تفاصيلُ كثيرةٌ يُرجع إليها في كتب الفقه الاستدلالية والفتوائية.

٢ ـ ثمة وظيفةٌ أخرى للباس، وهي: التعريف بمن يرتدي اللباس؛ من حيث مكانته وإمكاناته ووظيفته، والتجمل بين الناس ونحو ذلك.

جاء في الموسوعة العربية العالمية: يرتدي الناس؛ بغض النظر عن المكان الذي يعيشون فيه، نوعاً ما من أنواع الملابس. ويعزى ذلك لأربعة أسباب رئيسية هي:

١ ـ ستر العورة

٢ ـ الحماية

٣ ـ الاتصال

٤ ـ الزينة)[١].

ثم فُصِّل الحديثُ في هذه الأسباب الأربعة، فراجع.

وتنوعُ الألبسة بين المجتمعات قديماً وحديثاً؛ للأسباب المذكورة؛ وأشباهها، لا يكاد يُحصى. ولَمَّا كان الدين الإسلامي للبشر جميعاً إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها، فلا بد أن أحكامه تنسجم مع جميع الأزمنة والأمكنة.

وهنا تتنوع الأحكام الشرعية إلى نوعين:

أولاً: الأحكام الثابتة؛ التي لا تقبل التبديل والتغيير.

قال الإمام الصادق عليه السلام: **حلالُ محمدٍ حلالٌ أبداً إلى يوم القيامة، وحرامُه حرامٌ أبداً إلى يوم القيامة، لا يكون غيره، ولا يجيء غيره)**[٢].

ومثال ما لا يتغير بتغير الزمان والمكان: (العبادات) عموماً؛ التي يجب التزامها وأداؤها في جميع الأزمنة والأمكنة. مع إمكانية التغيير في بعض التفاصيل؛ كأداء الصلاة للعاجز عن القيام؛ من: قعود أو حال الاضطجاع، لكن

---

(١) الموسوعة العربية العالمية، ج٢٤، ص٥٢، مادة (الملابس).

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص٥٨، باب البدع والرأي والمقاييس...، الحديث ١٩.

لا تُترَك الصلاة بحالٍ على الرجل، وأما النساءُ فيسقط عنهن أداؤها حال الحيض والنفاس[١].

ثانياً: الأحكام التي تقبل التبديل والتغيير؛ حسب الزمان والمكان.

ومثال ذلك: (الشوارع)؛ التي يجب إحداثُها عند الحاجة، ولا يجب ذلك عند عدمها.

ويجمع النوعين: ما كان من قبيل (صلة الرحم)؛ الذي هو واجبٌ في أصله[٢]، لكن قد يختلف شكل الصلة. وكذلك (قطيعة الرحم) الذي هو محرمٌ[٣]، لكن قد تختلف تطبيقاته بين مجتمعٍ وآخر، وموردٍ وآخر[٤].

---

(١) الحر العاملي، الشيخ محمد بن الحسن (ت١١٠٤ هـ)، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، أبواب الاستحاضة، الباب الأول، الحديث ٥، وجاء فيه **(ولا تدع الصلاةَ على حال)**.

(٢) الكاشاني، محسن الفيض (ت١٠٩١ هـ)، مفاتيح الشرائع، المفتاح ٤٥٢ (وجوب صلة الرحم)، ج٢، ص٧.

(٣) النجفي، الشيخ محمد حسن (ت١٢٦٦ هـ) جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، كتاب الصلاة، مبحث العدالة، ج١٣، ٣١٤. العروة الوثقى للسيد كاظم اليزدي، كتاب التقليد، مبحث عدالة مرجع التقليد، وكتاب الصلاة، مبحث عدالة إمام الجماعة في الصلاة، وغيرهما.

(٤) قال الفقيه الميرزا التبريزي (ت١٤٢٧ هـ)؛ جواباً عن سؤالٍ جاء فيه:

قطيعة الرحم من الكبائر المسقطة للعدالة، فهل يجوز قطعها إذا ترتب على صلتها ضررٌ دينيٌّ أو دنيويٌّ معتدٌّ به لدى العقلاء؟

فأجاب بقوله:

باسمه تعالى: إذا ترتب ضررٌ معتدٌّ به على صلة الرحم فلا تجب، ويمكنه صلة الرحم بغير زيارته؛ كالسؤال عن حاله وإعانته، وما دام يمكنه بنحو من الأنحاء فهي واجبة، والله العالم) صراط النجاة، ج٦، ص٣٨١، السؤال (١٣٣٨).

وقال الفقيه السيد الخامنئي جواباً عن سؤال هذا نصه:

س ١٠٨٤: إذا كان الرحم ممن يقتحم في المعاصي ولا يبالي بها، فما هو التكليف في صلته؟

ج: إذا احتمل أن ترك صلته سيدفعه إلى الكف عن المعصية، وجب عليه ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلا فلا يجوز له قطع الرحم)، أجوبة الاستفتاءات، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأما الفقيه السيد السيستاني فقد أجاب قسم الاستفتاء في مكتبه عن سؤال قُدِّم إليه؛ عن قطع الرحم=

واللباس ـ أيضاً ـ ممَّا يجمع بين عنوانين وأزيد؛ فهو:

أ ـ واجبٌ؛ بالمقدار الساتر للعورة الواجبِ سترُها، والحافظِ لكرامة المسلم والمؤمن.

ب ـ مستحبٌّ؛ بقدر ما يكون مشيراً إلى كرامة المسلم والمؤمن.

جـ ـ مكروه، وقد يكون محرَّماً، إذا أدى بصاحبه إلى مقامٍ يزدريه الله تعالى أو الناس بسببه، أو يكون علامةً على انحطاط اللابس إلى حيث لا يجوز له الانحطاطُ إليه؛ من: كبرٍ، وخيلاء، ونحوهما.

ومن هنا نعرف أن مسألة الملابس يطرأ عليها التبدل والتحول. وكشاهدٍ على ذلك نقف على ما رواه حماد بن عثمان، قال:

حضرت أبا عبدالله [الصادق]، وقال له رجل: أصلحك الله! ذكرتَ أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس الخشنَ، يلبس القميص بأربعة دراهم، وما أشبه ذلك، ونرى عليك اللباسَ الجديدَ!

فقال له: إن علي بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس ذلك في زمانٍ لا ينكَر [عليه]، ولو لُبِس مثلُ ذلك اليومَ شهِّر به.

فخيرُ لباسِ كلِّ زمانٍ لباسُ أهلِهِ...)[1].

ونؤكد على أن تعاليم الإسلام لا تحرِّم التجملَ والتزينَ، بل إنها تحثُّ على ذلك، فقد قال تعالى ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف/ ٣١]، وجعل

=وصلته، بالقول ضمن كلام:... لا يتوقف صلة الرحم على الزيارة ونحو ذلك؛ فيكفي أن يساعده إذا كان فقيراً أو عاجزاً أو يعوده إذا مرض، ويزوره في المواقع المناسبة، ويسأل عن حاله بعد حين وحين. والمهم أن لا يعتبر عرفاً قاطعاً للصلة بينهم وبينه) السؤال ٦٥، من أسئلة موقع سماحته بتاريخ ١/١/ ٢٠٠٠ م [كما في برنامج مكتبة أهل البيت عليهم السلام].

أقول: المستفاد من جميع ذلك أن مبدأ صلة الرحم أمرٌ مطلوبٌ، وقطيعة الرحم مرفوضةٌ، لكن التعبير عن صلة الرحم وقطيعته متفاوتة بين مورد وآخر.

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص٤١١، كتاب الحجة، باب سيرة الإمام في نفسه والمطعم، الحديث ٤.

من اللباس مظهراً من مظاهر الكرامة والامتنان الإلهيين فقال ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ [الأعراف/ ٢٦].

وما كان في دائرة الامتنان والتكريم لا يصح أن يكون في دائرة التحريم؛ لأنهما دائرتان منفصلتان تماماً؛ بل متضادتان.

أجل، حرص المشرّع الإسلامي على أن يبقى اللباس وسيلةً مشروعةً لغاياتٍ مشروعةٍ، وحذّر من تحوُّله إلى خلاف ذلك؛ بأن يُصار إلى جعلِه وسيلةً غيرِ مشروعةٍ إلى غاياتٍ غيرِ مشروعةٍ. فقال تعالى ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف/ ٢٦].

ويمكن تلخيص فلسفة اللباس في ما قيل؛ ونعم ما قيل: **وخيرُ لباسِك ما لا يشغلك عن الله عزّ وجلّ بل يقربك [من]: ذكرِه، وشكرِه، وطاعتِه، ولا يحملك على: العجب، والرياء، والتزيين [والتزين]، والتفاخر، والخيلاء؛ فإنها من آفات الدين، ومورثةٌ القسوةَ في القلب)**[١].

وفي ما نحن فيه؛ من الحديث عن الصراط المستقيم، لا يكتفي الرسول ﷺ ببيان الكبر ومظاهره وضرورة تجنبه، بل يواصل وصفاته العلاجية ببيان ما يقابل الكبرَ؛ وهو التواضعُ ومظاهره؛ ومن أهمها اللباس؛ الذي هو نعمةٌ (**من الله تعالى، تُستَر بها عوراتُ بني آدم. وهي كرامةٌ أكرم الله بها ذريةَ آدم لم يُكرِم بها غيرَهم)**[٢].

وفي هذا السياق ذكر النبيُّ ﷺ؛ في وصيته لأبي ذر رحمه الله؛ تبياناً لأدب اللباس، وتحقيقاً لفلسفته والغايةِ منه، آداباً ثلاثةً:

الأدب الأول ـ عدم إطالة الثياب

● **[الفقرة/ ١٦٦]:**

(يا أبا ذرّ! إزرةُ المؤمن إلى أنصافِ ساقيه، ولا جناح عليه في ما بينه وبين كعبَيْه).

---

(١) مصباح الشريعة، المنسوب للإمام الصادق عليه السلام، الباب الثالث عشر. وما بين المعقوفتين [] من مستدرك وسائل الشيعة، ج٣، ص٣٢٥.

(٢) المصدر السابق.

الإزرة والإزار هو: ما يرتديه الإنسان لتغطية الجزء الأسفل من بدنه، في مقابل القميص الذي يستر به ما علا من البدن، وقد يمتد إلى الأسفل[١].

وتحدد الوصيةُ ما ينبغي أن ينتهي إليه الإزار؛ وهو تحديدان:

الأول، وهو الأَولى: أن يكون إلى منتصف الساق.

الثاني: عدم كراهية ما لا يزيد عن الكعبين.

وفي التعبير بـ**(لا جناح)** إلماحٌ إلى أن ما زاد عن ذلك ففيه الجناح؛ أي الحرج والذم.

وبمراجعة الأحاديث الشريفة يُستفاد أن الحكمة من ذلك تجنب أربع حالات غير محمودة، بل مذمومة:

الحالة الأولى: الخيلاء

ويشهد لذلك ما رواه الشيخ الكليني بسنده، عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام: **أن النبي (صلى الله عليه وآله) أوصى رجلاً من بني تميم؛ فقال له: إياك وإسبالَ الإزار والقميصِ؛ فإن ذلك من المخيلة، والله لا يحب المخيلة)**[٢].

الحالة الثانية: النجاسات

ويشهد لذلك ما رواه الشيخ الكليني بسنده، عن محمد بن مسلم، قال: **نظر أبو عبدالله عليه السلام إلى رجلٍ قد لبس قميصاً يصيب الأرضَ، فقال: ما هذا ثوب طاهر)**[٣].

---

(١) قال صاحب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ص٥٤:
و«الإزار» الملحفة، وما يستر أسفل البدن، والرداء ما يستر به أعلاه. وكلاهما غير مخيط.
وقيل: الإزار ما تحت العاتق والظهر. ولا يكون مخيطًا فهو قطعة قماش، يلف به القسم الأسفل من البدن لستره [نقل ذلك عن تاج العروس؛ كما في الهامش]. يختلف طوله وعرضه حسب رغبة لابسه.
ويلبس الإزار مع الرداء في الغالب، وقد تلبس معه ألبسة أخرى).

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، الكافي، ج٦، ص٤٥٦، كتاب الزي والتجمل والمروءة، باب تشمير الثياب، الحديث ٥.

(٣) المصدر السابق، ج٦، ص٤٥٨، الحديث ١١.

الحالة الثالثة: تشبُّه الرجال بالنساء

ويشهد لذلك ما رواه الشيخ الكليني بسنده، عن سماعة بن مهران، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال ـ في الرجل يجر ثوبه ـ قال: **إني لأكره أن يتشبه بالنساء)**[١].

الحالة الرابعة: الإسراف

ويشهد لذلك ما رواه الكليني بسنده عن أبي حمزة، رفعه، قال: نظر أمير المؤمنين عليه السلام إلى فتى مُرخٍ إزارَه[٢] فقال: **يا بني! ارفع إزارك؛ فإنه أبقى لثوبِك، وأنقى لقلبِك)**[٣].

الأدب الثاني ـ المواساة

الإيمانُ علاقةٌ بين العبد وربه تعالى، ومن المنطقي أن تتجلى تلك العلاقة على علاقة المؤمن بعموم الناس، فلا بد للمؤمن ـ إذن ـ أن يُظهر أخوَّته لمن يشاركه الإيمان؛ بمشاركتِه آلامَه، ومشاطرتِه آمالَه.

ومن ثم، فإنه لا يليق ـ بالمؤمن ـ أن يكون ساتراً لعورته، ويملك مع ذلك من الثياب ما يستر عوراتِ إخوانه المؤمنين، ثم لا يعينهم هو على ذلك.

لهذا، قال النبي صلى الله عليه وآله:

● **[الفقرة/ ١٦٨]:**

(... مَن كان له قميصان فليَلبَس أحدَهما، وليُلبِس الآخرَ أخاه)[٤].

---

(١) المصدر السابق، الحديث ١٢.

(٢) في الوسائل، ج٥، ص٤٢، (مرخي إزاره).

(٣) المصدر السابق، ص٤٥٧، الحديث ٦.

(٤) أورد هذه الفقرةَ الشيخُ الحرُّ العامليُّ في وسائل الشيعة، ج٥، ص٥٤، كتاب الصلاة، أبواب لباس المصلي، الباب ٢٩ ـ استحباب لبس الثوب الغليظ والخلق في البيت لا بين الناس، ورقع الثوب، الحديث ٥.

وأوردها السيد البروجردي في جامع أحاديث الشيعة، ج٨، ص٥٢٠، كتاب الصلاة، أبواب لباس المصلي، الباب ٤٧ ـ استحباب إكساء المؤمن، الحديث ١٧.

وفي الوافي، ج٢٦، ص١٩٩، ذكر بدل (وليلبس...) هذا اللفظ (**وليَكسُ أخاه في الآخر**). والمعنى: ليجعله كسوةً لأخيه المؤمن. ومثله في مستدرك وسائل الشيعة، ج٣، ص٣١٦.

وفي الأمالي (**وليكن الآخر لأخيه**).

الأدب الثالث ـ التضحية بالأدنى رجاء الأعلى

يجدر بالمؤمن أن يكون طموحاً لِما هو الأفضل والأحسن، وهذا يتطلب التضحية ببعض ما نحب في العاجل من أجل الحصول على ما هو أحب ولو كان في الآجل، وهذا ما وجَّه النبي ﷺ أبا ذر رحمه الله وإيانا إليه، قائلاً:

- **[الفقرة/ ١٧٠]:**

(يا أبا ذرّ! مَن ترك لبسَ الجَمال؛ وهو يقدر عليه؛ تواضعاً للهِ عزّ وجلّ؛ فقد كساه الله حلةَ الكرامةِ)[١].

المحطة الخامسة: التواضع والمستقبل المشرق

المستقبل المشرق هو مجموع الآمال المنشودة لكلّ فرد من الناس، أو لجميعهم، بالسعادة والخير؛ على اختلاف مسالكهم ومشاربهم الفكرية.

وهذا المستقبل ـ بالنسبة للمؤمن ـ هو ما ننشد ـ نحن ـ التعرف عليه في هذه الوصية المباركة؛ من خلال التعرف ـ في ثناياها ـ على: الصراط المستقيم، ومكوناته، وشروطه، ولوازمه، وموانعه. وهذا لا يتحقق إلا بالقرب من الله تعالى والسير في هذا الصراط المستقيم، وفي الثبات عليه، وتحمُّل تبعات ذلك.

وبالطبع، فإن تحقيقَ ذلك مشروطٌ بالإيمان. ويجب القول إن واحداً من أهم معالم هذا الإيمان، وملامح هذا الصراط، يتمثل في: التواضع لله أولاً، وللناس ثانياً.

لذلك، أخذ النبي ﷺ ببيان بعض جوانبه بقوله:

---

(١) أورد هذه الفقرةَ الشيخُ الحرُّ العامليُّ في وسائل الشيعة. انظر الهامش السابق.
وكذلك أوردها الشيخُ النوريُّ في مستدرك وسائل الشيعة، ج٣، ص٢٧٣، الباب ٢٢ ـ استحباب لبس الثوب الغليظ والخلق في البيت، لا بين الناس، ورقع الثوب، وخصف النعل، الحديث ٦.
وأوردها ـ أيضاً ـ السيدُ البروجرديُّ، في جامع أحاديث الشيعة، ج١٦، ص٧٠٥، أبواب أحكام الملابس، الباب ١٣ ـ جواز اتخاذ الثياب الكثيرة وعدم كونه إسرافاً، الحديث ١٢.

- [الفقرة/ ١٧١]:

(يا أبا ذرّ! طوبى لمن تواضع للهِ تعالى؛ في غيرِ منقصةٍ، وأذل نفسَه؛ في غيرِ مسكنةٍ، وأنفق ما جمعه؛ في غيرِ معصيةٍ، ورحم أهلَ الذل والمسكنة، وخالط أهلَ الفقه والحكمة).

وقد تضمَّن هذا النصُّ عدداً من الملامح التربوية، التي يكشف كلُّ واحدٍ منها سمةً من سمات أهل الصراط المستقيم:

الملمح الأول: التواضع لا الذلة

قد يختلط فهمُ التواضع في بعض الأذهان؛ فيُتوهَّم أن التواضعَ هو الذلة؛ التي تعني الشعور بالنقص. ومن هنا، كان لا بد من رفع هذا الوهم ودفعه.

فبيَّن النبيُّ ﷺ أن التواضع يجب ـ أولاً ـ أن يكون لله تعالى، ويجب ـ ثانياً ـ أن لا ينتهي بالمتواضِع إلى الوقوع في الشعور بالمهانة، أو ما يوحي بها؛ من تصرفاتٍ تفيد ذلك؛ من قبيل لبس الثياب البالية؛ دون ضرورةٍ تفرضها من فقرٍ أو نحو ذلك. فـ**(طوبى لمن تواضع للهِ تعالى)**

وهنا نشير إلى ما لفت النبيُّ ﷺ أنظارَنا إليه؛ وهو أن التواضعَ مهمٌّ جداً؛ لِما له من دورٍ أكيدٍ في قطع دابر الكبر والفخر والزهو والخيلاء...، وكذلك مهمٌّ جداً ما يعبر عن التواضع، الذي قد يراد ـ بدوره ـ لأنّ التواضعَ فضيلةٌ، وقد يُراد لأنّ هذا المعبِّر يُعد علاجاً، أو وقايةً، من تلك الرذائل المشار إليها قبل قليلٍ.

وهذا ما صاغه النبيُّ ﷺ بقوله:

- [الفقرة/ ١٧٤]:

(يا أبا ذرّ! البس الخشنَ من اللباس، والصفيقَ[1] من الثياب؛ لئلا يجد

(١) جاء في بعض النسخ (العتيق)؛ كما في مجموعة ورام [ج ٢، ص٦٦]. ولا يختلف المعنى كثيراً، فالمؤدى واحد.

الفخرُ فيك مسلكاً)[1].

فأمرُ النبي ﷺ أبا ذر رضي الله عنه بلبس الخشن من اللباس أو الصفيق من الثياب، وهو الكثيف الغليظ، معلّل بأنه قاطعٌ وحائلٌ لكلّ من آفة لفخر والكبر، وأمثالهما، أن يتسلل إلى نفس اللابس.

الملمح الثاني: الذلة الداخلية والعزة الخارجية

من المهمّ للسائر على الصراط المستقيم، وللراغب فيه، أن لا يقع فريسةً لأوهامٍ توحي له أن كرامتَه يمكن التفريطُ بها؛ فإن ذاك أمرٌ محظورٌ بالمطلق، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **إنَّ الله تبارك وتعالى فوَّض إلى المؤمنِ كلَّ شيءٍ إلا إذلالَ نفسِهِ)**[2]. وروي عن جده الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: **ما أحب أن لي بِذُلِّ نفسي حمرَ النعم، وما تجرعت جرعةً أحبَّ إليَّ من جرعةِ غيظٍ لا أكافئ بها صاحبَها)**[3].

والتواضع يعني: أن يتجنب الإنسانُ ـ نفسياً وجوارحياً ـ التكبرَ ومظاهرَهُ، وهذا يتطلب استشعار البساطة والأريحية في باطنه ووجدانه؛ بشرط أن لا يوهم الآخرين أنه من أهل المسكنة والذلة، واستحقاق العطف والشفقة.

---

(١) أورد هذه الفقرةَ الشيخُ الحرُّ العامليُّ في وسائل الشيعة، ج٥، ص٥٤، كتاب الصلاة، أبواب لباس المصلي، الباب ٢٩ ـ استحباب لبس الثوب الغليظ والخلق في البيت لا بين الناس ورقع الثوب، الحديث ٥. وفيه (مسلكه) بدل (مسلكاً).
وأورده أيضاً الشيخُ النوريُّ، في مستدرك الوسائل، ج٣، ص٢٥٠، كتاب الصلاة، أبواب لباس المصلي، الباب ١٢ ـ استحباب لبس الكتان، والصفيق من الثياب، وكراهة لبس ثوب يشف، الحديث٣.
وأورده أيضاً السيدُ البروجرديُّ، في جامع أحاديث الشيعة، ج١٦، ص٧٠١، أبواب أحكام اللباس، الباب ١١ ـ استحباب لبس الكتان والصفيق من الثياب وكراهة لبس ثوب يشف، الحديث ٣.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، الكافي، ج٥، ص٦٣، كتاب الجهاد، باب كراهة التعرض لما لا يطيق، الحديث ٣.
والنصوص في هذا المضمون كثيرةٌ، فراجع الكافي وغيره.

(٣) الخصال للشيخ الصدوق، وعنه: وسائل الشيعة، ج١٦، ص١٥٧، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الباب ١٢ ـ كراهة التعرض للذل، الحديث ٤.

الملح الثالث: السخاء

يجدر بنا أن نتحلَّى بالسخاء في أنفسنا وعليها، ومضافاً إلى ذلك على الآخرين، لكن دون الوقوع في وهدة الإسراف والتبذير.

فلا يليق بالمؤمن أن يكون شحيحاً ولا بخيلاً؛ يقصِّر على نفسِهِ وعلى مَن يعولهم أو يعنيه أمرُهُم؛ ممن يجب الإنفاق عليهم أو يستحب.

وثمة شرطٌ لازمُ الرعاية؛ وهو: أن أيَّ إنفاق يجب أن يُراعى فيه الضوابطُ الشرعيةُ؛ فلا يُصار إلى الصرف والإنفاق في الحرام؛ في أي وجه من وجوه الصرف والإنفاق؛ الذي يجب أن يكون ـ دائماً ـ (**في غيرِ معصيةٍ**).

كما يجب التنزهُ ـ تماماً ـ عن تحصيل المال بوجهٍ حرامٍ.

الملمح الرابع: رعاية أهل الحاجة والعوز

لا يخلو مجتمعٌ من فقراء ومساكين؛ بسبب يتمٍ، أو ترملٍ، أو شيخوخةٍ، أو مرض، وغير ذلك.

ولا يليق بمجتمعٍ مؤمنٍ، ولا بفردٍ مؤمنٍ، أن لا يقف إلى جانب هذه الشريحة، أو الشرائح؛ في حدود ما يستطيع.

وقد ورد الحثُّ على الإنفاق على أمثال هؤلاء؛ بما لا يسمع المقامُ تفصيله، غير أننا نكتفي بما قاله الله تعالى في قوله ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران/ ٩٢].

فالإنفاقُ ـ إذن ـ مطلوبٌ من جهةٍ، وتجويدُ المنفَق شرطٌ لمن أراد البرَّ من جهةٍ أخرى. وهذا كافٍ في التعرف على قيمة الإنفاق؛ التي تصرَف ـ غالباً ـ على أهل الذلة والمسكنة؛ ممن قعدت بهم حوائجُهُم، أو ضاقت بهم السبلُ.

الملمح الخامس: طلب الحكمة

النعيم ـ الذي سيحظى به المتواضعُ؛ مكافأةً له على تواضعِهِ ـ هو عظيمٌ جداً، وهو ـ أيضاً ـ متنوعٌ جداً.

وهذا النعيمُ يتوزع على: الماديات، والمعنويات.

ولكن ما لا يسوغ لأحدٍ ـ بأي وجهٍ ـ التهوينُ منه هو مسألة (الحكمة)؛ التي يلح العاقلُ على طلبها، قولاً وفعلاً.

وللحكمة شقان:

أ ـ **نظري**، يُتاح معه التعرفُ على ما يجب، أو ينبغي، التعرف عليه بشكلٍ صحيحٍ.

ب ـ **عملي**، يتيسر معه ترجمةُ ما نعرف إلى سلوكٍ؛ نفعل فيه ما نراه صواباً، ونترك فيه ما نراه خطأً.

وأما كيف نحصل على هذه الحكمة وهذا الفقه فبمخالطة الحكماء والفقهاء:

(طوبى لمن... خالط أهلَ الفقه والحكمة).

ولَما قرن النبي ﷺ الفقه بالحكمة، فالأنسب حمل الأول؛ أي الفقه، على الحكمة النظرية، والثاني؛ أي الحكمة، على خصوص الحكمة العملية.

ولَما كان الأمران ـ الفقه والحكمة ـ مراتب:

١ ـ بديهيٌّ

لا يكاد يخلو منه إنسانٌ عاقلٌ؛ وهو ما يُعرف ـ في علوم المعرفة والمنطق والفلسفة ـ بالفطريات والبديهيات، ونجده عند الأطفال، بل المجانين بمقدارٍ ما. حيث نرى هؤلاء وأولئك يتجنبون ما يعرفون ضررَه البالغَ؛ دون إيعازٍ من أحدٍ ولا تعليمٍ منه.

٢ ـ كسبيٌّ

يُتحصل عليه من الاختلاط بالمعلِّمين؛ من آباء وأمهات وكبار وذوي خبرة.

لَمّا كان الأمرُ كذلك، فقد حض النبيُّ ﷺ على مخالطة أهل الفقه والحكمة؛ من أجل الحصول على بعض ما عندهم، بما لا يتيسر بغيرِ المخالطةِ.

ويجب التنبيه إلى أن المقصود بالمخالطة ـ كما يفيده معناها اللغوي[1]،

---

(١) قال ابن سيده في المحكم والمحيط الأعظم، ج٥، ص١١٤، ١١٦، مادة (خلط): خلط الشيءَ بالشيءِ يَخلطه خَلطاً، وخَلّطه فاختلط: مَزَجهُ).

واستعمالاتها[١]، ومناسبة البشارة التي جاءت في سياقها ـ هو: تكثيف التواصل والاتصال بأهل الفقه والحكمة، وليس الاتصال والتواصل السطحيين الخفيفين. فإن ذلك لا يشكل ـ كما لا يخفى ـ أرضيةً كافيةً لاكتساب الفقه والحكمة؛ اللذين يتطلبان جهداً جهيداً في مرحلتي التحصيل والتفعيل.

وهنا يعِد النبيُّ ﷺ ـ بالخير ـ من كان صالحاً في نفسه من الناس، ساعياً إلى الإحسان بينهم وكفِّ الأذى عنهم؛ بقوله:

● **[الفقرة/ ١٧٢]:**

(طوبى لِمن صلحت سريرتُهُ، وحسُنت علانيتُهُ، وعزل عن الناس شرَّهُ).

وهذا الوعدُ مستحَقٌّ لكلِّ مَن اتصف بهذا الوصف؛ من السابقين واللاحقين على حدٍّ سواءٍ. بل قد يتفوق فيه مَن يحمل صفة (التلميذ) على من يحمل صفة (الأستاذ)، ويفضل فيه مَن يفترض به أنه (التابع) على مَن يفترض به أن يكون (المتبوع).

فالمطلوب ـ إذن ـ هو الحرص الشديد على التحلِّي بسمات ثلاث:

أولاً: الصلاح الباطني

وهو أن يكون الإنسانُ على درجةٍ عاليةٍ من الاستقامة تجعله خالياً ـ قدر المستطاع ـ من كلِّ ما يشينه من رذائلَ؛ ظاهرةٍ وباطنةٍ.

---

(١) في المصدر السابق، ص١١٦: والعرب تقول: أَخْلَطُ من الحمى، يردون أنها كأنها مُتحبِّبة إليه متملِّقة بورودها إياه واعتيادها له، كما يفعل المحِب الملِق).
وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٢، ص٦٣، مادة (خلط): ... والخليط: المشارك في حقوق الملك؛ كالشرب والطريق ونحو ذلك). ويبدو أنه أخذه من القاموس، فعبارتهما متقاربة جداً.
وقال المطرزي في المغرب في ترتيب المعرب، ص١٥١، مادة (خلط): (المخالطة) مصدر خالط الماء واللبن؛ إذا مازجه. ويستعار للجماع. (ومنه) قوله في الصائم فخالط فبقي، وخالطه في أمر. (ومنه) خالطه شاركه. وهو (خليطه) في التجارة وفي الغنم، وهم (خلطاؤه)، وبينهما (خلطة) يعني شركة).

ولعل هذا نابعٌ من حقيقة أن (**مَن حسُنتْ سريرتُهُ حسُنت علانيتُهُ**)[١]. فإنه لا يُتصوَّر في الحَسَن إلا أن يكون محسِناً؛ فـ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء/ ٨٤].

ثانياً: حسن الظاهر

حسن الظاهر يعني: أن يبدو ـ أي يظهر ـ الصلاح من الإنسان في أقوالِهِ وأفعالِهِ. وبعبارة أخرى: أن لا يظهر منه ما يوجب الفسقَ من ارتكاب الكبائر والإصرار على الصغائر)[٢].

وحسن الظاهر هذا هو ـ بالتأكيد ـ حالةٌ محمودةٌ[٣]؛ غير أنها لا تكفي ـ وحدها ـ للشهادة على صلاح الإنسان؛ ما لم تنبع من حسنٍ باطنيٍّ يفرض نفسَه على مَن حسنت سريرتُهُ؛ ليكون حسناً في ذاته باطناً، ومحسِناً في تعامله مع الآخرين، وفي تعاملِه الخارجيِّ بينه وبين نفسه؛ من: أكله، وشربه، وقيامه، وقعوده، وسائر ما يصدر عنه.

ثالثاً: السلم الاجتماعي

يحرص المشرِّعُ الربانيُّ على أن يكون المسلمُ والمؤمن معبِّراً عن الدين؛ الذي هو مشروع الله تعالى للبشر.

والله سبحانه إنَّما أراد ـ ويريد دائماً ـ للناس الخيرَ، فلا بد لمن آمن به أن يريد الخيرَ، والعدوان ـ كما هو واضحٌ ـ ليس من الخير. لذلك، فإن أهلَ

---

(١) الآمدي، القاضي عبد الواحد بن محمد (ت٥١٠ هـ)، غرر الحكم ودرر الكلم، الحكمة ٥٣٤١.

(٢) البحراني، الشيخ يوسف (ت١١٨٦ هـ)، الحدائق الناضرة في فقه العترة الطاهرة، ج١٠، ص٢٤؛ حاكياً إياه عن ظاهر الأصحاب (رضوان الله عليهم).
وبين الفقهاء حديثٌ مطولٌ في التسوية بين حسن الظاهر والعدالة وعدمه. ولا يعنينا ـ هنا ـ الخوضُ فيه؛ لخروجِهِ عن غرض الكتاب.

(٣) قال الشيخ المجلسي الأول؛ في سياق الاستدلال على مطلوبيتها: ... لأنَّ الفسقَ الظاهرَ سببٌ لفسقِ غيرِهِ، وجرأةِ الناس؛ سيما من العلماء؛ فإن أكثرَ الناس طالبون للعذر في المخالفة؛ وإن لم يكن عذراً في الواقع) روضة المتقين، ج١، ص٤٣٣ ـ ٤٣٤.

الصراط المستقيم لا يعتدون على الناس بقولٍ ولا فعلٍ، فهم قد عزلوا شرَّهم؛ لأنهم ـ في تكوينهم ـ ليسوا من أهل الشر.

وصلاحُ السريرة، وحسنُ العلانية، وعزلُ الشرِّ عن الناس، كلُّ ذلك يصح القولُ إنها صفاتٌ كماليةٌ للإنسان في ذاته.

غير أن ثمة صفاتٍ كماليةً لا تقف عند المتَّصِف بها، بل تتعداه إلى الآخرين؛ حيث ينالهم نصيبٌ من هذا الكمال، وهذا ما جاء في الفقرة التالية، حيث يقول (صلى الله عليه وآله):

● **[الفقرة/ ١٧٣]:**

(طوبى لِمن عمل بعلمِه، وأنفق الفضلَ من مالِه، وأمسك الفضل من قولِه).

الفضل كلمةٌ متعددةُ المعنى، وهي ـ هنا ـ بمعنى (الزائد).

وتضمَّنت هذه الفقرةُ بشارةً بـ(طوبى)[1] ذات ثلاثِ شُعَب، أو قل: ثلاث بشارات نبوية. فقد ذكر النبيُّ ﷺ فيها ثلاثةَ محدِّداتٍ:

المحدد الأول: توأمة العلم بالعمل

المطلوب من العالم أن يفعِّل علمَه، وإلا تحوَّل العلمُ إلى مظهرٍ أجوفَ لا

---

(١) قال ابن الأثير: طوبى اسم الجنة. وقيل هي شجرة فيها) [النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (طيب)].
وقال فخر الدين الطريحي:
قيل طوبى: الخير وأقصى الأمنية. وقيل طوبى اسم للجنة بلغة أهل الهند. وقيل طوبى شجرة في الجنة) [مجمع البحرين، مادة (طيب)].
وجاء في الخبر عن الإمام موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: **شجرةٌ أصلُها في داري، وفرعُها على أهل الجنة. ثم سُئِل عنها مرةً أخرى فقال: في دار عليٍّ. فقيل له في ذلك. فقال: إن داري ودار علي في الجنة بمكان واحدٍ)** [الحافظ الحسكاني، وعنه: بحار الأنوار، ج٨، ص٨٧، باب الجنة ونعيمها].
وهناك تفسير عرفاني لـ(طوبى) تبناه ابن عربي في الفتوحات، وذكره ـ بالتبع ـ الملا صدرا في الأسفار؛ لا يناسب طبيعة هذه الدراسة ومستواها فليراجعه الطالبون في ج٥، ص٣٧٧، الفصل ٣٣ ـ في شجرة طوبى وشجرة زقوم، من الباب الحادي عشر ـ في المعاد الجسماني...

قيمةَ له؛ فهو ـ حينئذٍ ـ لا يجلب منفعةً ولا يدفع مضرةً. والعالم لا يكون ذا مصداقيةٍ ـ في منطق الإسلام ـ إلا إذا عمل بعلمِهِ.

ويشهد لذلك نصوصٌ كثيرةٌ، منها:

قول الله تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر/ ٩].

وقوله تعالى ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة/ ٤٢ ـ ٤٤].

وجاء في السيرة النبوية الشريفة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) دخل ذات يوم مسجده الشريف **(فإذا جماعةٌ قد أطافوا برجلٍ!**

فقال: ما هذا؟!

فقيل: علّامة.

فقال: وما العلّامة؟!

فقالوا له: أعلم الناس؛ بأنساب العرب، ووقائعها، وأيام الجاهلية، والأشعار العربية.

قال: فقال النبيُّ (صلى الله عليه وآله): ذاك علمٌ لا يضُرُّ مَن جهِلَه، ولا ينفع مَن علِمه.

ثم قال النبيُّ (صلى الله عليه وآله): إنَّما العلمُ ثلاثةٌ:

ـ آية محكمة.

ـ أو فريضة عادلة.

ـ أو سُنَّة قائمة

وما خلاهنَّ فهو فضلٌ)[١].

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص٣٢، كتاب العلم، باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء، الحديث ١.

المحدد الثاني: الإنفاق

المؤمن؛ الذي هو من أهل الصراط المستقيم وطلابه، لا يكون أنانياً؛ لا يهمه سوى مصالحِ نفسِهِ، بل إنه ـ بسبب إيمانه ـ يشعر بالمسؤولية في أعلى مراتبها تجاه الآخرين، فهو يشاركهم أفراحَهم وأتراحَهم.

ومن وجوه الشعور بالمسؤولية أن يقف في صفِّ المحرومين؛ بأن ينفق عليهم، بل أن يؤثرهم على نفسِهِ ولو كان به خصاصةٌ.

المحدد الثالث: قلة الكلام

لَمَّا كان الكلامُ مسؤوليةً فإن من قوانين الصراط المستقيم أن لا يكون أهلُهُ ممن يشتغل بـ(الثرثرة)؛ التي هي: الكلام الذي لا ضرورةَ له. بل إن من سماتِ أهل هذا الصراط وطلابه أنهم يحسبون لكلِّ كلمةٍ حسابَها؛ فـ(**رُبَّ كلمةٍ سلبتْ نعمةً**)[1].

وقد جاء في وصية الإمام الصادق عليه السلام لأصحابه: ... **اسمعوا منّي كلاماً هو خيرٌ لكم من الدُّهْمِ المُوقَّفةِ**[2]: **لا يتكلَّمْ أحدُكم بما لا يعنيه، وليدَعْ كثيراً من الكلام في ما يعنيه حتى يجدَ له موضعاً؛ فرُبَّ متكلمٍ في غيرِ موضعِهِ جنى على نفسِهِ بكلامِهِ...**)[3].

وإذا كان الفضلُ من المال محموداً بذلُهُ فإن الفضلَ من الكلام مذمومٌ بذلُهُ. وذلك لِما يترتب عليه من أخطارٍ؛ حتى وإن كان حقاً في بعض الأحيان، وذلك إذا لم تتوفر الفرصةُ المناسبةُ له فقد:

---

(١) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٨٨، من ألفاظ رسول الله صلى الله عليه وآله الموجزة.

(٢) هي: الخيل التي في أرساغها بياض.

(٣) أمالي الطوسي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٢، ص١٩٤، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ١١٩ ـ وجوب أداء حق المؤمن، الحديث ٢٠.

وفي نسخة الوسائل (الدراهم). وفي جامع أحاديث الشيعة عن الوسائل (الدرهم)، وعلق في الهامش على (الموقفة) بقوله: من الدراهم المدقوقة ـ اختصاص من الدهم الموقوفة ـ ك) [جامع أحاديث الشيعة، ج١٣، ص٥٠٨].

جاء قومٌ بخراسان إلى الرضا عليه السلام، فقالوا: إن قوماً من أهل بيتك يتعاطون أموراً قبيحةً، فلو نهيتَهم عنها! فقال: لا أفعل! قيل: ولِمَ؟ قال: لأني سمعتُ أبي عليه السلام يقول: النصيحةُ خشنةٌ)[1].

وقد تقدم منا حديثٌ مسهبٌ عن اللسان والكلام، فراجع الفصلين (١٦، ٥١) من هذا الكتاب.

ثانياً: البهيمية

من الموانع الكبرى للوصول إلى الصراط المستقيم والثبات عليه أن ينسى، أو يتناسى، الغايةَ من خلق الله تعالى إياه. وذلك، بأن يشتغل بمادياته على حساب معنوياته، وبشؤون حاضره الدنيوي الزائل عن مستقبله الأخروي الباقي.

وهذا ما أطلقنا عليه ـ هنا ـ (البهيمية).

وفي هذا قال النبيُّ (صلى الله عليه وآله):

- **[الفقرة/ ١٦٩]:**

(يا أبا ذرّ! سيكون ناسٌ ـ من أمتي ـ يولدون في النعيم، ويغذون به، همتُهُم ألوانُ الطعام والشراب، ويُمدَحون بالقول، أولئك شرارُ أمتي).

فمَن هم هؤلاء الناس؟

إنهم جماعةٌ من الناس أنعم الله عليهم؛ بأن أبصروا الحياةَ في بيوتٍ ترفل في نِعَم الله وعطاياه، وكما يقال ولدوا وفي أفواههم ملاعق من ذهب، وليس ذلك ـ في نفسه ـ مشكلةً، غير أنهم شغلوا أنفسَهم بهذه العطايا التي يباشرها الإنسانُ بجسده، وشُغلوا عن أرواحهم ومتطلباتها، وعن عقولهم وما يحفظها، فاشتغلوا بتغذية الأبدان؛ وهو ما يشتركون فيه مع البهائم، عن تغذية العقول والأرواح المتكاملة؛ وهي ما يميزهم من العجماوات.

---

(١) عيون أخبار الرضا، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٦، ص١٢٩، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٢ ـ باب اشتراط الوجوب بالعلم بالمعروف والمنكر، الحديث ٧.

وشغل هؤلاء ـ أيضاً ـ مدحُ الخلق لهم، مع أن العبرةَ بمدح الخالق. ومن ثم، فإن هؤلاء هم شرارُ الأمة.

فحذار أن نكون من هذا الفريق وإلا حُرمنا من الصراط المستقيم؛ وصولاً إليه، وثباتاً عليه.

ثالثاً: القشرية

من الموانع؛ ذات الأثر الشديد، الابتلاءُ بالسطحية والقشرية؛ التي تجعل الإنسانَ ساذجاً في قراءاته وقراراته؛ فهو لا يفقه من الدين جوهرَه، لكنه ـ في الوقت نفسه ـ قد يبالغ في العناية بمظهرِه، مع أن الدينَ منظومةٌ متكاملة يتآزر فيها جوهر الدين ومظهره.

وبالطبع، فلسنا ندعو إلى التقليل من شأنِ أي حكمٍ شرعيٍّ؛ فالعملُ بالواجب لازمٌ، وبالمستحبِّ مستحبٌّ، كما أن الوقوعَ في الحرامِ محرمٌ، وارتكابَ المكروه مكروهٌ، ولنا أن نفعل المباحَ ونتركه.

أجل، لكلِّ حكم مستواه، ففيها ما هو مهمّ، وفيها ما هو أهمُّ، وعند التزاحم يتقدم الأهمُّ على المهمِّ؛ وهي قاعدة تُعد (من الفطريات المستغنية عن البرهان)[1].

أما القشريون فقد يقدِّمون المستحبَّ على الواجبِ، والمكروهَ على الحرام؛ من حيث يعلمون أو لا يعلمون؛ من قبيل: أن يهتكوا مؤمناً بسبب أنه لم يَعمل بمستحبٍّ، أو بسبب ارتكابه لمكروهٍ! مع أن العمل بهذين غيرُ لازم، بينما يعرف المتفقهون جميعاً أن هتكَ المؤمن هو فعلٌ محرمٌ في شريعة الإسلام، وقد تسالم العلماءُ على أن ارتكابهما لا يسوِّغ الوقوعَ في هتك المؤمن؛ الذي هو محرمٌ.

وقد أشار الله سبحانه إلى حالة القشرية؛ هذه، بقوله ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى

---

(١) السبزواري، السيد عبد الأعلى (ت١٤١٤ هـ)، مهذب الأحكام في بيان الحلال والحرام، ج٥، ص١٣٢.

ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة/ ١٧٧].

وفي هذا، قال النبيُّ ﷺ في وصيته لأبي ذر رحمه الله:

● **[الفقرة/ ١٧٥]:**

(يا أبا ذرّ! يكون في آخر الزمان قومٌ يلبسون الصوف في صيفهم وشتائهم، يرون أن لهم الفضلَ بذلك على غيرهم، أولئك تلعنهم ملائكةُ السماوات والأرض).

فهذه الشريحةُ تلتزم ـ دون مسوِّغ ـ لبسَ الصوف صيفاً وشتاءً؛ من أجل أن يميزوا أنفسهم بالزهد؛ لأنّ الصوفَ ـ سابقاً ـ لا يلبسه المرفَّهون، وإنما كان لباسَ الفقراء غالباً؛ إلا إذا كان من الصوف الناعم والرقيق[1].

والتزامهم بلبس الصوف أوقعهم في استشعار أنهم (أفضل) من غيرهم، وهذا خطأٌ.

كما أنهم اعتقدوا أن هذا الالتزام جعلهم (يرون) في أنفسهم أفضليةً وتميزاً، وهذا خطأٌ آخر.

فلا يصح أن نلتزم شيئاً دون ملزِمٍ من عقلٍ أو نقلٍ أولاً، كما لا يليق بنا الاكتفاء بما (نراه) من سبب للتفضيل؛ لأنّ **(الأعمال بالنيات)**[2]؛ والنيات لا يعلمها إلا الله تعالى ومَن أطلعه عليها، وهذا غيرُ متاحٍ لهذه الشريحة ولا لغيرها؛ باستثناء النبي ﷺ والأئمة من آل بيته عليهم السلام.

---

(١) انظر: المفصل في تاريخ العرب، ج١٤، ص٢٨٧، الفصل ١٤، فقرة ـ الحياكة والثياب والنسيج.

(٢) تهذيب الأخبار، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١، ص٤٨، أبواب مقدمات العبادات، الباب ٥ ـ باب وجوب النية في العبادات الواجبة واشتراطها بها مطلقاً، الحديث ٦؛ البخاري، إسماعيل (ت٢٥٦ هـ)، الجامع الصحيح، باب كيف بدأ الوحي، الحديث ١.

وهؤلاء القشريون هم الذين ابتُليت بهم الديانات السماوية عبر التاريخ، ومشكلتهم تنبع في الأساس من سببين:

السبب الأول: الجهل

هذا الصنف من الناس لا يولي (التفقه) بمعارف الدين العنايةَ الكافيةَ. لذلك، فإنه يقتصر ـ غالباً ـ على جانبٍ من معارف الدين وأحكامه وحكمه، ويهمل جوانبَ أخرى، فيقع في فهمٍ مشوَّهٍ لا يمت إلى الدين بصلةٍ.

ومثالاً على ذلك (الخوارج) الذين أقدموا على اغتيال مَن جعله رسول الله ﷺ ميزاناً يُمَيِّزُ به الحقُّ من الباطل؛ أعني به الإمام علي بن أبي طالب؛ الذي قال في حقه رسول الله ﷺ: .. **أنت الصدِّيق الأكبرُ، وأنت الفاروقُ؛ تفرّق بين الحق والباطل. وأنت يعسوب الدين)**[(١)]، وقال ـ أيضاً ـ: **مَن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاهُ؛ اللهم والِ مَن والاهُ وعادِ مَن عاداهُ)**[(٢)].

وهؤلاء القشريون لم يبغضوا الإمامَ علياً عليه السلام فقط، بل إنهم ـ بسبب قشريتهم ـ اغتالوه؛ بوهمِ أن خلاصَ الأمة من الفتن لا يكون إلا بقتله!! بعد أن ساوَوا ـ بجهلهم ـ بينه وبين أعدائه الظالمين!![(٣)].

---

(١) البزار، أحمد بن عمرو (ت٢٩٣ هـ)، مسند البزار = البحر الزخار، ج٩، ص٣٤٢، الحديث ٣٨٩٨. وانظر: بحار الأنوار، ج ٣١، ص٣٣٦.

(٢) الهيثمي، أبو الحسن (ت٨٠٧ هـ)، المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي، ج٣، ص١٨٣.

(٣) قال الشيخ المفيد: ومن الأخبار الواردة بسبب قتله وكيف جرى الأمر في ذلك: ما رواه جماعة من أهل السير: منهم أبو مخنف لوط بن يحيى، وإسماعيل بن راشد، (وأبو هشام الرفاعي)، وأبو عمرو الثقفي، وغيرهم، أن نفراً من الخوارج اجتمعوا بمكة، فتذاكروا الأمراء فعابوهم، وعابوا أعمالهم عليهم، وذكروا أهل النهروان وترحموا عليهم. فقال بعضهم لبعض: لو أنا شرينا أنفسنا لله، فأتينا أئمة الضلال فطلبنا غرتهم فأرحنا منهم العباد والبلاد، وثأرنا بإخواننا للشهداء بالنهروان. فتعاهدوا عند انقضاء الحج على ذلك، فقال عبد الرحمن بن ملجم: أنا أكفيكم علياً. وقال البرك بن عبدالله التميمي: أنا أكفيكم معاوية. وقال عمرو بن بكر التميمي: أنا أكفيكم عمرو بن العاص (وتعاقدوا) على ذلك، (وتوافقوا) عليه وعلى الوفاء واتعدوا لشهر رمضان في ليلة تسع عشرة، ثم تفرقوا...) [الإرشاد، ج١، ص١٧ ـ ١٨]. وذكر أبو الفرج الإصفهاني [مقاتل الطالبيين، ص١٧] مثل ذلك؛ باختلافٍ يسيرٍ في الألفاظ. =

السبب الثاني: حب الدنيا

هؤلاء القشريون ابتُلُوا؛ من حيث يشعرون أو لا يشعرون، بحبِّ الدنيا؛ فيهمهم جداً رضا الناس عنهم واهتمامُهم بهم.

لذلك، فإنهم يسعون إلى جلبِ اهتمامِ هؤلاء الناس؛ بالتركيز على ما يلفت النظرَ ابتداءً؛ وهي المظاهرُ والقشورُ.

لهذا، فإن تدينَ القشريين كثيراً ما لا يكون صادقاً. ومن ثم، فإنهم ملعونون عند أهل السماء؛ وإن رضي عنهم أهلُ الأرض:

(أولئك تلعنهم ملائكةُ السماوات والأرض).

وإن حملنا النصَّ على ظاهره فهو من الإخبار النبوي بالغيب عن حوادث مستقبل الزمان(١)؛ من ظهور جماعة يعرفون بـ(الصوفية).

= **أقول**: قد يكون هؤلاء الخوارج المتآمرون مجرد أدوات لتنفيذ مؤامرةٍ أعدَّ لها مَن هو أكبر منهم؛ ولم يكونوا سوى أدوات تنفيذية. ولعلّ مشاركة الأشعث بن قيس في عملية الاغتيال؛ ضمن جماعة، يرشد إلى ذلك.

(١) وما أكثر ما أخبر به النبي ﷺ من مغيبات أطلعه اللهُ تعالى عليها. وقد أفرد عددٌ من العلماء لذلك كتباً، أو فصولاً من كتب.

وقد عقد القرطبي (ت٦٧١هـ) في واحدٍ من كتبه لذلك فصلاً جعل عنوانه (الفصل الحادي عشر في ما أخبر به ممَّا أطلعه الله من الغيب صلى الله عليه [وآله] وسلم)، صدَّره بقوله:

هذا الموضوعُ بحرٌ لا يُدرك قعره، ولا يُنزف غمره. وهو من جملة آياته المعلومة على القطع الواصلة إلينا من طريق التواتر؛ لكثرة الحكايات وانتشار الروايات، مع اتفاقها على أنه مطلِع على كثيرٍ من الغيب. فهذا تواترٌ معنويٌّ يحصل به العلمُ القطعيُّ، وهكذا أكثر الفصول المتقدمة والأخبار المتلقاة عنه صلى الله عليه [وآله] وسلم في هذا الموضوع قسمان:

قسم وقع ووُجِد كما أخبر به.

وقسم آخر لم يقع؛ لكونه لم يبلغ وقته، وسيقع ولا بد. ولذلك هو منتظر الوقوع.

ونحن إنَّما نذكر في هذا الفصل ما وقع ووجد حسب ما أخبر به؛ إذ به تقع الحجةُ، وعنده يظهر الإعجازُ.

من ذلك حديث حذيفة قال: قام فينا رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) مقاماً، فما ترك شيئاً؛ في مقامه ذلك، يكون إلى قيام الساعة إلا حدَّثه. حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه. قد علمه أصحابي هؤلاء. وإنه ليكون منه الشيءُ فأعرفه، فأذكره كما يذكر الرجلُ وجهَ الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه. ثم قال: لا أدري أنسى أصحابي أم تناسوه. واللهِ ما ترك رسولُ الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) من قائد=

وإذا كان فيهم جماعة صالحون لا يستحقون اللعن والذم؛ فإن النصَّ يتحدث ـ بالتأكيد ـ عن غير الصالحين منهم، وهم الذين سنُّوا لأنفسهم سنناً ما أنزل الله بها من سلطان ولا أساس لها في الكتاب والسنة؛ ومن هذه السنن لبسهم الصوف في الحر والبرد على حدٍّ سواء.

ومن الخطأ ـ كما لا يخفى ـ تعميمُ الذم على جميع الصوفية من كلِّ جهةٍ، فحالهم ـ كجماعة ـ حالُ أيِّ جماعةٍ أخرى، يُحمد ويُمدح صوابُهم إن أصابوا، ويُذم خطأُهم إن أخطأوا.

لذلك، لا عجبَ أن يكون هؤلاء القشريون المنحرفون ملعونين؛ أي مطرودين عن رحمة الله تعالى؛ فـ ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف/ ٥٦]. والقشرية تكشف عن افتقادِ صفةِ الإحسانِ.

رابعاً، وأخيراً: اللامبالاة

إن من الموانع عن الصراط المستقيم هو أن يقع الإنسان في هوة (اللامبالاة)؛ حيث يفتقد الإحساسَ بالمسؤولية؛ تجاه ربه ونفسه والآخرين. وذلك، بأن لا يضع في حسبانه الحسابَ والكتابَ، ويكذِّب ـ عملياً على الأقل ـ الأنبياءَ والأولياءَ؛ الذين أخبروا عن الله تعالى؛ بالجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، في ما هو لا يبالي بذلك، ولو كان له أذنٌ واعيةٌ لأعدَّ للأمر عدتَه.

وفي هذا السياق، جاءت التوصية التربوية والتوجيهية من النبي ﷺ لأبي ذر رحمه الله بقوله:

(يا أبا ذرّ! لو أن رجلاً كان له كعملِ سبعين نبياً لاحتقره وخشي أن لا ينجو من شر يوم القيامة) [الفقرة/ ٤٨][1].

=فتنةٍ إلى أن تنقضي الدنيا؛ يبلغ من معه ثلاث مائة فصاعداً، إلا وقد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته. وقال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) وما من طائر يحرك جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً) انتهى [الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، ص٣٧٣].

(١) هذه الفقرة موجودة هنا في مكارم الأخلاق، لكنها غير موجودة في بحار الأنوار. وسيأتي في الفقرة (٧٤) نحوُها، فانتظر.

(يا أبا ذرّ! إن للهِ ملائكةً قياماً من خيفة الله ما رفعوا رؤوسهم حتى يُنفخ في الصور النفخةُ الآخرةُ؛ فيقولون جميعاً: سبحانك[1] وبحمدك! ما عبدناك كما ينبغي لك أن تُعبد.

يا أبا ذرّ! لو كان لرجلٍ عمل سبعين نبياً لاستقلَّ عملَهُ من شدةِ ما يرى يومئذٍ) [الفقرتان ٧٣ ـ ٧٤].

يومُ القيامة يومُ عصيبٌ؛ لا يليق بعاقلٍ أن لا يهتمَّ به، ولا يستعدَّ له؛ فـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج/ ١ ـ ٢].

وإذا كان الإنسان العامل بقدر ما يعمل سبعون نبياً على درجةٍ عاليةٍ من الوجل والقلق؛ من حقارةِ عملِهِ؛ الذي يُفترض به أنه عملٌ صالحٌ، فكيف بغيره من المقصِّرين؟!

وإذا كان الملائكة؛ وهم العارفون بالله تعالى، والذين هم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم/ ٦]، ويخافون الله حقَّ خيفتِهِ، وهم مشتغلون بالتسبيح والتحميد له تعالى، فكيف بالإنسان؛ الذي لا يعرف الله تعالى حقَّ معرفتِهِ، ولا يخشاه مثلَ خشيتِهم، بل وتلهيه عن ربه الملهياتُ، وتشغله عنه الشواغلُ؟!

وعلى هذا الأساس، ندرك أمثالَ قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون/ ٦٠، ٦١]، وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك/ ١٢].

---

(١) في المكارم (سبحانك [ربنا]).



خاتمة: أهل الجنة

بعد التجوال في بستان هذه الوصية الشريفة، وفي حدود إدراكنا المتواضع، وبعد قطف ما شاء الله تعالى لنا أن نقطفه من ثمارها؛ وبعد تعرُّفِنا على معالم الصراط المستقيم، فقد آن لنا أن نريح ونستريح، وحان لنا السكونُ إلى ما يرجوه كلُّ سالكٍ لهذا الصراط.

فما الذي نرجوه نحن البشر؟!

إنه بالتأكيد (الجنة)؛ بكل ما ترمز إليه من دلالاتٍ ومعانٍ؛ من الخير، والسعادة، والهناءة، والرخاء، والسرور، ونحو ذلك؛ ممَّا يجعله الناسُ ـ جميعاً ـ مطلوبَهم النهائيَّ في أعلى مراتبه. ومن أهم ذلك وأجلِّه (الرضوان)؛ أي ذاك المقام وتلك المنزلة التي يشعر مَن بلغها بأن صراطَه كان مستقيماً، وأنه قد بلغ به الغايةَ المرجوةَ والمنشودةَ.

ومن نافلة القول:

١ ـ التأكيد على أن (الرضا) من الله الخالق تعالى هو الشرطُ لبلوغ المخلوق (الرضوان).

٢ ـ التأكيد على أن للرضا مراتبَ؛ قد يُعرف أولها، لكن ـ بالتأكيد ـ لا يُعرف آخرُها؛ و(إن للروح الإنساني منازلَ؛ في السير إلى الله)[1]. وسالكُ هذا الدرب قد يترقَّى حتى يكون مرادُهُ الأولُ والآخِرُ هو الله وحده؛ بما في ذلك تعبدُهُ وعبادتُهُ، وتكونَ الغاية القصوى من العبادة (هي الله فقط، من دون أن يشوبها

(١) المازندراني، المولى صالح (ت١٠٨١ هـ)، شرح أصول الكافي، ج١٠، ص١٤٨.

غرضٌ آخرُ؛ من الأغراض الدنيوية أو الجهات الأخروية)[١]. ومن (كان في السير في الله، فليس لمطلوبه نهايةٌ، ولا ينتهي سيره أبد الآبدين)[٢].

٣ ـ التأكيد على قانون مفاده: أن لكلِّ موجودٍ ـ أياً كان ـ حركةً جبلِّيَّةً تقتضيها فطرتُهُ وطبيعتُهُ، وتوجهاً غريزياً يتطلبه كيانُهُ وطبعُهُ، تدفع به نحو الله مسببِ الأسباب وخالقِ كلّ شيء[٣]؛ فإنه ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى/ ٥٣].

وبناءً على هذا، فإن السائرَ إلى الله تعالى هو مَن يكون على الصراط المستقيم ومن أهله. ومَن كان كذلك له عند الله الكرامة المشهورة والمستورة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٣].

وأما من أعرض وأدبر؛ من بعد ما علم وتبيَّن له الهدى؛ فهو ممن أساء الاختيارَ وعاند الله القهارَ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء/ ١١٥].

ومن هنا، فإن الناسَ في الدنيا، وفي الآخرة أيضاً، هم فريقان ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى/ ٧]. وبالتأكيد فإنه ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر/ ٢٠].

ولو سألت عن السر في هذا الفرزِ الحادِّ بين هؤلاء وهؤلاء!

لبادرتُ بإجابتك بالقول: إنه الصراط المستقيم، والإيمان به والثبات عليه. فمن التزمه صلح وأصلح، وكان من أهل التقوى، ومن حاد عنه فسد وأفسد،

---

(١) التوحيدي، الشيخ محمد علي، مصباح الفقاهة، تقريرات بحث السيد أبو القاسم الخوئي، ج١، ص٧٠٨، الطبعة الأولى المحققة، الناشر مكتبة الداوري ـ قم.

(٢) المشهدي، الشيخ محمد بن محمد رضا القمي (ت١١٢٥ هـ)، تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، ج١، ص٦٦.

(٣) أسرار الآيات، الملا صدرا الشيرازي، المشهد الخامس ـ الصراط، ص١٩٠، قدَّم له وصححه: محمد خواجوى، محرم الحرام ١٤٠٢ ـ آبان ١٣٦٠ ش، چاپخانه وزارت فرهنگ وآموزش عالى، الناشر: انتشارات انجمن اسلامى حكمت وفلسفه ايران.

و﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة/ ١٠٠].

فأهل الجنة هم الأتقياء السعداء الذين لهجوا بـ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة/ ٦ ـ ٧]، ﴿وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ [آل عمران/ ٢٠٠]، وكان كلّ واحدٍ منهم ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات/ ٤٠].

وأما أهل السعير فهم المخالِفون لله تعالى، المتخلِّفون عن أمره وصراطه، بل قد يبالغون في التمرد حتى يصل بهم إلى مستوى التكذيب ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم/ ١٠]، فهم يترددون بين الشك والريب، ثم الرفض والمخالفة، إلى التكذيب والاستهزاء، فالفسق والكفر ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧١﴾ [الزمر/ ٧١ ـ ٧٢].

والنبي ﷺ؛ في هذه الفقرة الأخيرة من وصيته الشريفة لأبي ذر (رضوان الله عليه)، أراد إيقافه على عنوان أهل الجنة وما يُعرفون به، فقال:

(يا أبا ذرٍّ! ألا أُخبِرك بأهلِ الجنةِ؟)

ولا يُتوقَّع من أبي ذر ؓ؛ كأي طالبٍ نجيبٍ، إلا أن يجيب أستاذَه بالموافقة؛ فرد بقوله:

(قلتُ: بلى يا رسولَ اللهِ!)

وما كان من رسول الله (صلى الله عليه وآله)؛ وهو الشفيق الناصح، إلا أن يبيِّن له مقامَ الفرد من أهل الجنة عند الله تعالى، وكرامتَه لديه؛ بأنه مسموعُ الكلمة، ومستجابُ الدعوة، وصاحبُ الحظوة، فلو أراد من الله تعالى شيئاً لأجابه؛ براً به، وإكراماً له؛ فهو الذي: **(لو أقسم على الله لأبرَّه)** [الفقرة/ ١٧٦].

وما أعظمَها من مكانةٍ، وما أعلاه من شأنٍ، وإنها ـ واللهِ ـ الكرامة!

ثم إن النبيَّ ﷺ نبَّه أبا ذر ؓ إلى أن جوهرَ هذا المكرَّم عند الله سبحانه

ليس بالضرورة يوافق مظهرَه بين الناس؛ فقد يكون فقيراً، بل قد يكون شديدَ الفقر حتى إنّه لا يملك وسائلَ التجمل وأدواته في الحد الأدنى؛ وهي:

١ ـ الاستحمام

الاستحمام يتطلب: توفرَ الماء، وأدواتِ التنظيف، الأمر الذي قد يستلزم توفرَ المال. والفقير قد يفتقد المالَ حتى بهذا المقدار. أو أنه قد يلهث وراء لقمةِ عيشِهِ فلا يجد الوقتَ الكافيَ للاغتسال.

فهو ـ لهذا السبب، أو ذاك ـ (أغبر)؛ أي: يعلو بدنَه وملابسَه الغبارُ؛ بسبب عدم غسل البدن وغسل الملابس.

وهناك تفسير آخر للـ(أغبر)؛ وهو الوجه الذي تعلوه علاماتُ الهم والغم؛ كما قال تعالى عن فريق الخاسرين يوم القيامة أن وجوهَهم يومئذٍ ﴿عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾ [عبس/ ٤٠]، أي مهمومة؛ بقرينة مقابلتها لوجوه المفلِحين؛ حيث هي يومئذٍ ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾[عبس/ ٣٨].

٢ ـ الامتشاط

الامتشاط هو تسريح الشعر؛ باستعمال المشط.

والناس الأسوياء يحرصون ـ عادةً ـ على التزين والتجمل؛ ومن مظاهر ذلك تسريحُ الشعر؛ الذي هو مستحب شرعاً[١].

فقد وردت نصوصٌ كثيرةٌ تؤكد على إظهار النعمة بالتجمل عموماً؛ ومنه الامتشاطُ.

ومن تلك النصوص ما رواه أبو الأحوص، قال:

أتيت النبي (صلى الله عليه وآله)؛ وأنا أشعثُ أغبر، فقال: هل لك من المال؟

---

(١) انظر: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، أبواب الوضوء، الأبواب ٣٦ حتى ٤٧.

فقلت: من كلِّ المال؛ فقد آتاني الله عزّ وجلّ.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إن الله عزّ وجلّ إذا أنعم على عبدٍ، أحب أن يَرى عليه آثارَ نعمتِه)(١).

ورُوي عن ابن عباس (رضوان الله عليه)، أنه قال: لَما خرجت الحرورية أتيت علياً (رضي الله عنه)، فقال: ائتِ هؤلاء القومَ. فلبستُ أحسنَ ما يكون من حُلل اليمن ـ قال أبو زميل(٢): وكان ابن عباس رجلاً، جميلاً، جهيراً ـ قال ابن عباس: فأتيتُهم فقالوا: مرحباً بك ـ يا ابن عباس ـ ما هذه الحلة؟! قال: ما تعيبون عليَّ! لقد رأيتُ على رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) أحسنَ ما يكون من الحُلَل)(٣).

و(المشط)(٤)هو: ما يُستعمل لتسريح الشعر، وترجيله، وتجميله. ويصنع ـ سابقاً ـ من الخشب، أو العظام، أو المعادن، ونحوها(٥).

---

(١) عوالي اللئالئ، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٣، ص٢٣٦، كتاب الصلاة، أبواب أحكام الملابس ولو في غير الصلاة، الباب ٢ ـ استظهار النعمة، وكون الإنسان في أحسن زي قومه، وكراهة كتم النعمة، الحديث ٥.

أقول: قال ابن حبان في صحيحه [ج ١٢، ص٢٣٤]، باب ذكر الأمر للمرء إذا أنعم الله عليه أن يرى أثر نعمته عليه، برقم (٥٤١٦)، قال: أخبرنا أبو خليفة، حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة عن أبيه، قال: **أتيت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم؛ وأنا قشف الهيئة، فقال: هل لك من مال؟ فقلت: نعم. قال: من أي مال؟ قلت: من كلٍّ؛ قد آتاني الله من الإبل والرقيق والغنم. قال: إذا آتاك الله مالاً، فليُر عليك. قال: قلت: يا رسول الله! أرأيت رجلاً نزلتُ به، فلم يُكرمني، ولم يُقرِني، فنزل بي، أجزيه بما صنع؟! قال: لا، بل أقرِه).**

(٢) قال أبو داود ـ في ذيل الحديث ـ: اسم أبي زميل سماك بن الوليد الحنفي.

(٣) السجستاني، أبو داوود (ت٢٧٥ هـ)، سنن أبي داود، ج٤، ص٤٥، كتاب اللباس، باب لباس الغليظ.

(٤) قال النووي في تهذيب الأسماء واللغات، مادة (مشط)، ج٤، ص١٣٩:

المشط فيه لغات: ضم الميم مع إسكان الشين، ومع فتحها أيضاً، وكسر الميم مع إسكان الشين).

(٥) قال في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص٢١٣، الفصل ٤٩، فقرة زينة المرأة:

وقد عرفه الجاهليون، وهو من آلات التجميل القديمة.. وقد أشير إليه في الحديث. كما أشير إليه في الشعر. ورد قول عبد الرحمن بن حسان:

والفقير ـ لقلة ذات اليد ـ قد يفتقد حتى هذا المشط؛ خصوصاً في الأزمنة السابقة؛ حيث كانت الأمشاط من أدوات الزينة التي لا تتيسر لكلٍّ أحدٍ، وقلة ذات اليد هذه قد تكون مانعاً من تسريح شعره؛ فيبدو **(أشعث)**.

هذا إذا فسَّرنا الشعثَ بانتفاشِ الشعر وتفرقِه، وأما إذا فسرناه بالاتساخ؛ فيكون داخلاً تحت العنوان الأول بالتفسير الثاني. والمفردة تحتمل كلا المعنيين؛ وفقاً لما أفاده اللغويون[١].

٣ ـ الملبس غير البالي

(فإن قيل: التمشُّط والتدهُّن والتنظُّف كلُّها مستحبةٌ مطلوبةٌ للشارع، فكيف مدحهم عليه السلام[٢] بتركها؟

قلنا: يحتمل:

ـ أن تكون تلك الأحوال لفقرهم، وعدم قدرتهم على إزالتها؛ فالمدح على صبرهم على الفقر.

ـ أو المعنى أنهم لا يهتمون بإزالتها زائداً على المستحبّ.

قد كنت أغنى ذي غنى عنكم كما... أغنى الرجال عن المشاط الأقرع

وتمشط شعر العرائس «الماشطة»، فتقوم بترجيله وتجميله لخبرتها فيه.

ويكون المشط من خشب في الغالب، وقد يعمل من ذهب أو فضة أو من معدن آخر، وقد يتخذ من «العاج».

(١) قال الأزهري في تهذيب اللغة، مادة (شعث)، ج١، ص٢٥٩:

وقال الليث: تقول رجل أشعث، وشعث، وشعثان الرأس. وقد شعث يشعث شعثاً، وشعوثة. وشعثته أنا تشعيثاً، وهو: المغبر الرأس، المنتتف الشعر، الحاف الذي لم يدهن.

قال: والتشعث: التفرق والتنكث، كما يتشعث رأس المسواك. والتشعث: انتشار الأمر. وأنشد:

لمَّ الإلهُ به شعثاً ورمَّ به أمورَ أمتِه والأمرُ منتشرُ

وقال النابغة:

فلست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

(٢) قال عليه السلام؛ واصفاً صحابة النبي (صلى الله عليه وآله): ...شُعُثاً، غُبُراً، خمصاً...). وما أوردناه في المتن؛ من إيرادٍ وردٌّ، جاء ضمن شرح الشيخ المجلسي لفقرات الوصف.

ـ أو يقال: إذا كان تركُها؛ لشدة الاهتمام بالعبادة، وغلبة خوف الآخرة، يكون ممدوحاً)[١].

ويغلب على الناس استهانتُهم بالفقير، بل إن التناسب بين الفقر والاحترام عكسي؛ فكلما زاد الفقر قل الاحترام والتقدير، فهما أشبه بالضدين المتنافرين، ولا ينجو منهما إلا من عصمه الله في علمه وعمله.

● **[الفقرة/ ١٧٦]:**

(كلُّ أشعثَ أغبرَ، ذي طمرين؛ لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرَّهُ).

الطمر هو الثوب الخلق والبالي.

فهذا الأشعثُ الأغبرُ قد لا يأبه به الناسُ؛ أي لا يولونه الإكرامَ المناسبَ والاهتمامَ اللائقَ؛ حسباناً منهم أن مظهرَه هو ما تتحدد به مكانتُهُ وإمكاناتُهُ. لكنه عند الله تعالى قد يكون هو صاحب الكرامة والمنزلة؛ حتى إنّه لو أقسم على الله سبحانه لأنجز له مضمونَ قَسَمه وأعطاه ما أراد. والسبب في ذلك هو: أن الله تعالى إنَّما يزِن الناسَ بميزان التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٣]. وقد تقدم الحديث عن ذلك؛ ضمن شرح قول النبي ﷺ؛ في هذه الوصية: **ولكن ينظُرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم)**، فراجع [الفصل ٥٣، المعلم التاسع].

***

اللهم اجعلنا ممن ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج/ ٢٤]، واجعلنا ممن اتبع نبيك محمداً ﷺ؛ الذي وصفته بقولك ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى/ ٥٣]، واجعلنا ـ يا ربنا ـ ممن ﴿زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [آل عمران/ ١٥٣].

تم الكتاب

والحمد لله أولاً وآخراً

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج ٦٦، ص٣٠٣.



ثبت المصادر

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ برنامج أهل البيت ـ الإصدار الثالث.

٣ ـ مجموعة برامج نور الحاسوبية.

٤ ـ المكتبة الشاملة المرفق بها بعض الكتب المصورة.

٥ ـ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: سعيد المندوب، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، المطبعة: لبنان ـ دار الفكر، الناشر: دار الفكر.

٦ ـ الآحاد والمثاني، أبو بكر بن أبي عاصم؛ وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (ت٢٨٧هـ)، تحقيق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، الناشر: دار الراية ـ الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٧ ـ أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت٤٥٠هـ)، الناشر: دار مكتبة الحياة، بدون طبعة، تاريخ النشر ١٩٨٦م.

٨ ـ أحاديث الشيوخ الثقات (المشيخة الكبرى)، محمد بن عبد الباقي بن محمد الأنصاري الكعبي، أبو بكر؛ المعروف بقاضي المارستان (ت٥٣٥هـ)، تحقيق: الشريف حاتم بن عارف العوني، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٩ ـ إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي (ت٨٤٠هـ)، تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أبي تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

١٠ ـ أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي (ت٢٧٢هـ)، تحقيق: د. عبد الملك عبدالله دهيش، الناشر: دار خضر ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

١١ ـ الأحكام الشرعية، الشيخ حسين علي المنتظري، الطبعة الأولى ـ محرم ١٤١٣، المطبعة: القدس ـ قم، الناشر: نشر تفكر.

١٢ ـ أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد صادق القمحاوي ـ عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، تاريخ الطبع: ١٤٠٥هـ.

١٣ ـ إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ)، الناشر: دار المعرفة ـ بيروت.

١٤ ـ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري (ت٩٢٣هـ)، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة السابعة، ١٣٢٣هـ، وبهامشه صحيح مسلم وشرح النووي.

١٥ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٦ ـ الأصول الأصيلة، محمد محسن الفيض الكاشاني (ت١٠٩١هـ)، عُني بطبعه ونشره وتصحيحه والتعليق عليه مير جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث، سنة الطبع: ٢٥ محرم الحرام ١٣٩٠، الناشر: سازمان چاپ دانشگاه ـ ايران.

١٧ ـ الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، الناشر دار التراث العربي ـ القاهرة.

١٨ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، المؤلف: عبدالله بن محمد الشيرازي الشافعي البيضاوي (ت٦٨٢هـ)، تحقيق: إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤١٨ ـ ١٩٩٨م، طبع على مطابع دار

إحياء التراث العربي، الناشر: دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع ـ مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت/ لبنان.

١٩ ـ الأمالي، محمد بن علي الصدوق، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١٤٣٠هـ.

٢٠ ـ الأمالي، محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤١٤هـ، الناشر: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ـ قم.

٢١ ـ أمالي ابن بشران ـ الجزء الثاني، أبو القاسم عبد الملك بن محمد بن عبدالله بن بشْران بن محمد بن بشْران بن مهران البغدادي (ت٤٣٠هـ)، تحقيق: أحمد بن سليمان، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م

٢٢ ـ كتاب الأمثال في الحديث النبوي، عبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري؛ المعروف بأبي الشيخ الأصبهاني (ت٣٦٩هـ)، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: الدار السلفية ـ بومباي ـ الهند، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ ـ ١٩٨٧م.

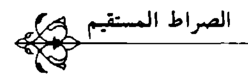
٢٣ ـ الأنوار الساطعة في شرح زيارة الجامعة، الشيخ جواد بن عباس الكربلائي (معاصر)، مراجعة: محسن الأسدي، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ ـ ٢٠٠٧م، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٢٤ ـ الأوائل، أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري (ت. نحو ٣٩٥هـ)، الناشر: دار البشير، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢٥ ـ الإيماء إلى زوائد الأمالي والأجزاء ـ زوائد الأمالي والفوائد والمعاجم والمشيخات على الكتب الستة والموطأ ومسند الإمام أحمد، نبيل سعد الدين سَليم جَرَّار، الناشر: أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

٢٦ ـ البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، سنة النشر: ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٢٧ ـ البحر المحيط في أصول الفقه، محمد بن عبدالله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، قام بتحريره عبد



الستار أبو غدة، الناشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية الكويتية، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٨ ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي (ت١١١١هـ)، دار الأميرة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م ـ ١٤٢٩هـ.

٢٩ ـ بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفار (ت٢٩٠هـ)، تصحيح وتعليق وتقديم: الحاج ميرزا حسن كوچه باغي، سنة الطبع: ١٤٠٤ ـ ١٣٦٢ ش، مطبعة الأحمدي ـ طهران، الناشر: منشورات الأعلمي ـ طهران.

٣٠ ـ تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن، ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٣١ ـ التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ـ الدكن، طبع تحت مراقبة محمد عبد المعيد خان.

٣٢ ـ التبصرة لابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٣٣ ـ تذكرة الحفاظ، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد، الذهبي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٣٤ ـ تذكرة الفقهاء، الحسن بن يوسف المطهر؛ العلامة الحلي (ت٧٢٦هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ذي الحجة ١٤٢٠، المطبعة: ستاره ـ قم، الناشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم.

٣٥ ـ تدريب الراوي في شرح تقريب النووي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، حققه: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، الناشر: دار طيبة.

٣٦ ـ التذكرة الحمدونية، محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (ت٥٦٢هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٣٧ ـ ترتيب الأمالي الخميسية للشجري، يحيى (المرشد بالله) بن الحسين (الموفق) بن إسماعيل بن زيد الحسني الشجري الجرجاني (ت٤٩٩هـ)، رتبها: القاضي محيي الدين محمد بن أحمد القرشي العبشمي (ت٦١٠هـ)، تحقيق: محمد حسن محمد حسن

إسماعيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٣٨ ـ التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠هـ ـ ١٩٨٣م.

٣٩ ـ تفسير غريب القرآن، الشيخ فخر الدين الطريحي (ت١٠٨٥هـ)، تحقيق وتعليق: محمد كاظم الطريحي، الناشر: انتشارات زاهدي ـ قم.

٤٠ ـ تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون ـ بيروت، الطبعة الأولى ـ ١٤١٩هـ.

٤١ ـ تفسير نور الثقلين، الشيخ عبد علي الحويزي (ت١١١٢هـ)، تصحيح وتعليق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، الطبعة الرابعة، سنة الطبع: ١٤١٢ ـ ١٣٧٠ ش، المطبعة: مؤسسة إسماعيليان، الناشر: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع ـ قم.

٤٢ ـ التنوير شرح الجامع الصغير، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني (ت١١٨٢هـ)، تحقيق: د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، الناشر: مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

٤٣ ـ تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان.

٤٤ ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف بن عبد الرحمن، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي (المتوفى ٧٤٢هـ)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، الناشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٤٥ ـ تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي (ت٣٧٠هـ) تحقيق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

٤٦ ـ تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ)، تحقيق: حققه وقدم له

وصنع فهارسه: محمد عبد الغني حسن، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٣٧٤ ـ ١٩٥٥، الناشر: دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ القاهرة

٤٧ ـ جامع أحاديث الشيعة، السيد حسين البروجردي (ت١٣٨٠هـ)، سنة الطبع ١٤٠٧هـ، منشورات مدينة العلم ـ آية الله العظمى الخوئي ـ قم ـ ايران.

٤٨ ـ جامع المسانيد والسُّنَن الهادي لأقوم سَنَن، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: د عبد الملك بن عبدالله الدهيش، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت/لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٤٩ ـ جامع بيان العلم وفضله، يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٥٠ ـ الاجتهاد والتقليد، الإمام روح الله الخميني (ت١٤٠٩هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني (قدس سره)، سنة الطبع: تير ١٣٧٦ ـ صفر المظفر ١٤١٨هـ، الطبعة الأولى، مطبعة مؤسسة العروج.

٥١ ـ جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم ـ عبد المجيد قطامش، الطبعة الثانية، الناشر: دار الجيل ـ بيروت/لبنان.

٥٢ ـ جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، الشيخ محمد حسن النجفي (ت١٢٦٦هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عباس القوچاني، الطبعة الثانية، سنة الطبع: ١٣٦٥هـ ـ ش، المطبعة: خورشيد، الناشر: دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

٥٣ ـ حاشية مجمع الفائدة والبرهان، العلامة المجدد المولى محمد باقر الوحيد البهبهاني رحمه الله (ت١٢٠٥ هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة العلامة المجدد الوحيد البهبهاني رحمه الله.

٥٤ ـ الحق المبين في تحقيق كيفية التفقه في الدين، محمد بن مرتضى المعروف بالفيض الكاشاني (ت١٠٩١هـ)، عني بطبعه وتصحيحه ونشره: مير جلال الدين الحسيني الأرموي ((المحدث))، سنة الطبع: ١٣٩٠هـ ق = ١٣٤٩هـ.ش، سازمان چاپ دانشگاه.

٥٥ ـ حلية الأولياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني (ت٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة ـ بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

٥٦ ـ الخصال، محمد بن علي الصدوق (ت٣٨١هـ)، صححه وعلق عليه: علي أكبر غفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية ـ قم المقدسة، ١٤٠٣هـ.

٥٧ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، الناشر: دار الفكر ـ بيروت.

٥٨ ـ دراسات في منهاج السنة لمعرفة ابن تيمية، مدخل لشرح منهاج الكرامة، السيد علي الحسيني الميلاني، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤١٩هـ، المطبعة: ياران.

٥٩ ـ الدرر النجفية من الملتقطات اليوسفية، المحقق الشيخ يوسف البحراني (ت١١٨٦هـ)، تحقيق: شركة دار المصطفى صلى الله عليه وآله لإحياء التراث، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٣ ـ ٢٠٠٢م، الناشر: شركة دار المصطفى صلى الله عليه وآله لإحياء التراث.

٦٠ ـ رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبدالله، ابن بطوطة (ت٧٧٩ هـ)، الناشر: أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، عام النشر: ١٤١٧هـ.

٦١ ـ الرسائل الأدبية، عمرو بن بحر، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت٢٥٥هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.

٦٢ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبدالله بن عبد المنعم الحميري (ت٩٠٠هـ)، تحقيق: إحسان عباس، الناشر مؤسسة ناصر للثقافة ـ بيروت ـ طبع على مطابع دار السراج، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

٦٣ ـ روضة الواعظين، الفتال النيسابوري (ت٥٠٨هـ)، تحقيق: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، الناشر منشورات الشريف الرضي ـ قم.

٦٤ ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة، محب الدين الطبري (ت٦٩٤هـ)، الناشر دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية.

٦٥ ـ روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه، محمد تقي المجلسي (الأول) (ت١٠٧٠هـ)، نمقه وعلّق عليه وأشرف على طبعه السيد حسين الموسوي الكرماني والشيخ علي پناه الإشتهاردي، الناشر: بنياد فرهنگ اسلامي حاج محمد حسين كوشانپور.

٦٦ ـ زبدة البيان في أحكام القرآن، المحقق الشيخ أحمد الأردبيلي (٩٩٣هـ)، تحقيق وتعليق: محمد باقر البهبودي، الناشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية ـ طهران.

٦٧ ـ سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت٩٤٢هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الناشر دار الكتب العلمية بيروت/لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٦٨ ـ السنة، أبو بكر أحمد بن محمد الخَلَّال البغدادي الحنبلي (ت٣٨٧هـ)، تحقيق: د. عطية الزهراني، الناشر: دار الراية ـ الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٦٩ ـ سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت.

٧٠ ـ سنن ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية ـ فيصل عيسى البابي الحلبي.

٧١ ـ سنن الترمذي ـ الجامع الصحيح، محمد بن عيسى الترمذي (ت٢٧٩هـ)، تحقيق وتصحيح: عبد الرحمن محمد عثمان، الطبعة الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

٧٢ ـ مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، أبو محمد عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي، التميمي السمرقندي (ت٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ٢٠٠٠م.

٧٣ ـ سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٧٤ ـ شرح كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، عبد الوهاب ولد خوجه أمير ادنه؛ وهو إبراهيم بن پير پاشا (ق ٦هـ)، تصحيح وتعليق: مير جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث، سنة الطبع: ٢٢ محرم الحرام ١٣٩٠ ـ ١٣٤٩ ش، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٧٥ ـ الشرح الكبير على متن المقنع، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي

الجماعيلي الحنبلي (ت٦٨٢هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، أشرف على طباعته: محمد رشيد رضا صاحب المنار.

٧٦ ـ شرح مشكل الآثار، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة، المعروف بالطحاوي (ت٧٩٢هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ـ ١٤١٥هـ، ١٤٩٤م.

٧٧ ـ شرح نهج البلاغة، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت٦٧٩هـ)، عني بتصحيحه عدّة من الأفاضل وقوبل بعدة نسخ موثوق بها، الطبعة الأولى، سنة الطبع: تابستان ١٣٦٢ ش، الناشر: مركز النشر مكتب الإعلام الإسلامي ـ الحوزة العلمية ـ قم ـ ايران، چاپ أول: مؤسسه النصر.

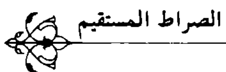
٧٨ ـ الشعائر الدينية، الشيخ محمد السند (معاصر)، بقلم: جعفر السيد صاحب الحكيم، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٤ ـ ٢٠٠٣م، الناشر: دار الغدير.

٧٩ ـ شعب الإيمان، أحمد بن الحسين، أبو بكر البيهقي (ت٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي ـ الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٨٠ ـ الشفاء ـ الإلهيات، أبو علي ابن سينا (ت٤٢٨هـ)، راجعه وقدم له: الدكتور إبراهيم مدكور/ تحقيق الأستاذين: الأب قنواتي وسعيد زايد، سنة الطبع: ١٤٠٤هـ، الناشر: منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي بالأوفست عن طبعة الجمهورية العربية المتحدة/ وزارة الثقافة والإرشاد القومي الإقليم الجنوبي/ الإدارة العامة للثقافة/ بمناسبة الذكرى الألفية للشيخ الرئيس/ القاهرة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية/ ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠م.

٨١ ـ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٨٢ ـ الطبقات الكبرى، أبو عبدالله محمد بن سعد، المعروف بابن سعد (ت٢٣٠هـ)، تحقيق: إحسان عباس، الناشر دار صادر ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.



٨٣ ـ عدة الداعي ونجاح الساعي، ابن فهد الحلي (ت٨٤١هـ)، تحقيق: تصحيح: أحمد الموحدي القمي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي ـ قم.

٨٤ ـ العروة الوثقى، السيد محمد كاظم اليزدي (ت١٣٣٧هـ)، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤١٩هـ، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٨٥ ـ العهود المحمدية، عبد الوهاب الشعراني (ت٩٧٣هـ)، الطبعة الثانية، سنة الطبع: ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

٨٦ ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (ت٨٥٥هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٨٧ ـ عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي (ق ٦هـ)، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، الطبعة الأولى، الناشر دار الحديث.

٨٨ ـ غنائم الأيام في مسائل الحلال والحرام، الفقيه المحقق الميرزا ابو القاسم القمي (ت١٢٢١ هـ)، تحقيق مكتب الإعلام الإسلامي ـ فرع خراسان، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي، مركز النشر، ١٣٧٥هـ ـ ش.

٨٩ ـ الفائق في رواة وأصحاب الإمام الصادق عليه السلام، عبد الحسين الشبستري، (معاصر)، سنة الطبع: ١٤١٨هـ، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٩٠ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (ت٨٥٢هـ)، الناشر: دار المعرفة ـ بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبدالله بن باز.

٩١ ـ فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي، شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت٩٠٢هـ)، تحقيق: علي حسين علي، الناشر: مكتبة السنة ـ مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٩٢ ـ الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي،

الطبعة الأولى، سنة الطبع: شوال المكرم ١٤١٢هـ، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، تنظيم: الشيخ بيت الله بيات/معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري وجزءاً من كتاب السيد نور الدين الجزائري.

٩٣ ـ الفصول المهمة في أصول الأئمة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت١١٠٤هـ)، تحقيق وإشراف: محمد بن محمد الحسين القائيني، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤١٨ ـ ١٣٧٦ ش، الناشر: مؤسسة معارف إسلامي إمام رضا عليه السلام.

٩٤ ـ فضائل الصحابة، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ)، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣.

٩٥ ـ الفقه والمسائل الطبية، الشيخ محمد آصف المحسني (معاصر)، الطبعة الأولى، المطبعة: ياران ـ قم، الناشر: المؤلف.

٩٦ ـ الفوائد الطوسية، الشيخ محمد حسن الحر العاملي (ت١١٠٤هـ)، علّق عليه وصححه العالمان المتبعان الحاج السيد مهدي اللازوردي والشيخ محمد درودي، سنة الطبع: شعبان ١٤٠٣، المطبعة العلمية ـ قم، طبع على نفقة خير الحاج أبي القاسم السالك الطهراني.

٩٧ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف المناوي القاهري (ت١٠٣١هـ)، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.

٩٨ ـ القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٩٩ ـ كتاب الطهارة، آية الله العظمى الشيخ محمّد علي الأراكي (ت١٤١٤هـ)، المطبعة: اسماعيليان ـ قم، عام ١٤١٥هـ، الناشر: مؤسسة في طريق الحق.

١٠٠ ـ كشف الريبة عن أحكام الغيبة، الشهيد الثاني، زين الدين الجبعي العاملي (ت٩٦٥هـ)،

تحقيق السيد علي الخراساني الكاظمي، الناشر دار الأضواء، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

١٠١ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبدالله كاتب جلبي القسطنطيني؛ المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة (ت١٠٦٧هـ)، الناشر: مكتبة المثنى ـ بغداد، تاريخ النشر: ١٩٤١م، أوفست مؤسسة التاريخ العربي.

١٠٢ ـ كشف المحجة لثمرة المهجة، السيد رضي الدين علي ابن موسى ابن طاووس (ت٦٦٤هـ)، سنة الطبع: ١٣٧٠ ـ ١٩٥٠م، الناشر: المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف.

١٠٣ ـ الكنى والأسماء، محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد بن مسلم الأنصاري الدولابي الرازي (ت٣١٠هـ)، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، الناشر: دار ابن حزم ـ بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٠٤ ـ تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، الشيخ محمد بن محمد رضا القمي المشهدي (ت١١٢٥هـ)، تحقيق: حسين درگاهي، الطبعة الأولى، سنة الطبع: نيمه شعبان ١٤٠٧ ـ ١٣٦٦هـ. ش، الناشر: مؤسسة الطبع والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.

١٠٥ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علي بن حسام الدين الهندي، الشهير بالمتقي الهندي (ت٩٧٥هـ)، تحقيق: بكري حياني ـ صفوة السقا، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٠٦ ـ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش ـ محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

١٠٧ ـ ما وراء الفقه، السيد محمد الصدر (ت١٤٢١هـ)، الطبعة الثالثة، سنة الطبع: ١٤٢٧ ـ ٢٠٠٧م، المطبعة: قلم، الناشر: المحبين للطباعة والنشر.

١٠٨ ـ مبادئ الوصول إلى علم الأصول، الحسن بن يوسف، العلامة الحلي (ت٧٢٦هـ)، تحقيق: إخراج وتعليق وتحقيق: عبد الحسين محمد علي البقال، الطبعة الثالثة، سنة الطبع: رمضان ١٤٠٤هـ، الناشر: مركز النشر ـ مكتب الإعلام الإسلامي.

١٠٩ ـ المبسوط، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (ت٤٨٣هـ)، الناشر: دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

١١٠ ـ المبسوط، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تصحيح وتعليق: محمد الباقر البهبودي، دون تاريخ، الناشر: المكتبة المرتضوية لإحياء آثار الجعفرية.

١١١ ـ مجمع البحرين ومطلع النيرين، فخر الدين الطريحي (ت١٠٨٥هـ)، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، الناشر: مكتبة المرتضوي ـ طهران/ إيران، الطبعة الثانية ـ ١٣٦٥هـ.ش.

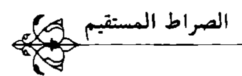
١١٢ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت٨٠٧هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٤ ه .، ١٩٩٤م.معجم البلدان، ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي، الناشر دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.

١١٣ ـ مجمع الفائدة والبرهان في شرح إرشاد الأذهان، المحقق الشيخ أحمد الأردبيلي (ت٩٩٣هـ)، تحقيق: الحاج آغا مجتبى العراقي، الشيخ علي پناه الاشتهاردي، الحاج آغا حسين اليزدي الأصفهاني، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ذي الحجة ١٤١٤هـ، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

١١٤ ـ مجمل اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (ت٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الثانية ـ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١١٥ ـ مجموع الفتاوى، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١١٦ ـ محاسبة النفس، الشيخ إبراهيم الكفعمي (ت٩٠٥هـ)، تحقيق: الشيخ فارس الحسون، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤١٣هـ، المطبعة: نمونه ـ قم، الناشر: مؤسسة قائم آل محمد (عج)/ قم.



١١٧ ـ المحلى بالآثار، علي بن أحمد بن حزم الأندلسي الظاهري (ت٤٥٦هـ)، طبعة مصححة ومقابلة على عدة مخطوطات ونسخ معتمدة كما قوبلت على النسخة التي حققها الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر، الناشر دار الفكر، دون تاريخ.

١١٨ ـ مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية ـ الدار النموذجية، بيروت ـ صيدا، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١١٩ ـ المراجعات، السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي (ت١٣٧٧هـ)، تحقيق: حسين الراضي، الطبعة الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٢ ـ ١٩٨٢م.

١٢٠ ـ المزار، محمد بن جعفر المشهدي، (ق ٦هـ)، تحقيق: جواد القيومي الإصفهاني، الطبعة الأولى، سنة الطبع: رمضان المبارك ١٤١٩، المطبعة: مؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: نشر القيوم ـ قم/ ايران.

١٢١ ـ المستطرف في كلّ فن مستطرف، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (ت٨٥٢هـ)، الناشر: عالم الكتب ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

١٢٢ ـ معارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرسول والبتول، الشيخ محمد بن يوسف الزرندي الحنفي (ت٧٥٧هـ)، تحقيق الشيخ محمد كاظم المحمودي، الناشر مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

١٢٣ ـ المعجم، أبو يعلى أحمد بن علي الموصلي (ت٣٠٧هـ)، تحقيق: إرشاد الحق الأثري، الناشر: إدارة العلوم الأثرية ـ فيصل آباد، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

١٢٤ ـ معجم المحاسن والمساوئ، الشيخ أبو طالب التجليل التبريزي (معاصر)، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤١٧هـ، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

١٢٥ ـ المعجم الكبير، ج١٣، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت٣٦٠هـ)، تحقيق: فريق من الباحثين بإشراف وعناية د/ سعد بن عبدالله الحميد ود/ خالد بن عبد الرحمن الجريسي، دون تاريخ.

١٢٦ ـ معرفة الصحابة، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، الناشر دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٢٧ ـ المغرب، برهان الدين الخوارزمي المُطَرِّزي (ت٦١٠هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بدون طبعة وبدون تاريخ.

١٢٨ ـ مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي؛ الملقب بفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الثالثة ـ ١٤٢٠هـ.

١٢٩ ـ مفتاح الفلاح في عمل اليوم والليلة من الواجبات والمستحبات والآداب، بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثي الهمداني العاملي؛ المعروف بالشيخ البهائي (ت١٠٣١هـ)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت/ لبنان.

١٣٠ ـ المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي، علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت٨٠٧هـ)، تحقيق: سيِّد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان.

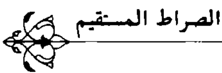
١٣١ ـ المقنعة، فخر الشيعة أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي؛ الملقب بالشيخ المفيد رحمه الله (ت٤١٣هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الثانية، سنة الطبع: ١٤١٠هـ، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

١٣٢ ـ مسند الروياني، أبو بكر محمد بن هارون الرُّوياني (ت٣٠٧هـ)، تحقيق: أيمن علي أبو يماني، الناشر: مؤسسة قرطبة ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

١٣٣ ـ مسند الشاميين، سليمان بن أحمد، أبو القاسم الطبراني (ت٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤.

١٣٤ ـ مسند الشهاب، محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري (ت٤٥٤هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

١٣٥ ـ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.



١٣٦ ـ من لا يحضره الفقيه، الشيخ محمد بن علي الصدوق (ت٣٨١هـ)، الطبعة الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٤، صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

١٣٧ ـ مناقب آل أبي طالب، الإمام الحافظ ابن شهرآشوب؛ مشير الدين أبي عبدالله محمد بن علي بن شهرآشوب بن أبي نصر بن أبي حبيشي السروي المازندراني (ت٥٨٨هـ)، قام بتصحيحه وشرحه ومقابلته على عدة نسخ خطية لجنة من أساتذة النجف الأشرف، قام بطبعه محمد كاظم الكتبي صاحب المكتبة والمطبعة الحيدرية، ١٣٧٦هـ ١٩٥٦م، طبع في المطبعة الحيدرية في النجف.

١٣٨ ـ مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، علي بن محمد بن محمد بن الطيب، المعروف بابن المغازلي (ت٤٨٣هـ)، تحقيق: أبو عبد الرحمن تركي بن عبدالله الوادعي، الناشر: دار الآثار ـ صنعاء، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

١٣٩ ـ مناقب الإمام أحمد، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: د. عبدالله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

١٤٠ ـ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، الميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي (ت١٣٢٤هـ)، تحقيق: سيدِّد إبراهيم الميانجي، الطبعة الرابعة، المطبعة: مطبعة الإسلامية بطهران، الناشر: بنياد فرهنگ امام المهدي (عج).

١٤١ ـ منتهى الدراية في توضيح الكفاية، السيد محمد جعفر الجزائري المروج، مطبعة النجف ١٣٨٨ ه ج.

١٤٢ ـ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام... ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٤٣ ـ منتهى المطلب، العلامة الحسن بن يوسف المطهر الحلي (ت٧٢٦هـ)، تحقيق: قسم الفقه في مجمع البحوث الإسلامية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤١٥، المطبعة: مؤسسة الطبع والنشر في الآستانة الرضوية المقدسة، الناشر: مؤسسة الطبع والنشر في الآستانة الرضوية المقدسة.

١٤٤ ـ الموطأ، مالك بن أنس (ت١٧٩هـ)، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، عام النشر: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.

١٤٥ ـ مهذب الأحكام في بيان الحلال والحرام، السيد عبد الأعلى السبزواري (ت١٤١٤هـ)، الطبعة الرابعة، سنة الطبع: ١٤١٣هـ، الناشر: مكتب آية الله العظمى السيد السبزواري (قده).

١٤٦ ـ تفسير الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ)، دون تاريخ، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

١٤٧ ـ نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، تحقيق: عبدالله بن ضيف الله الرحيلي، الناشر: مطبعة سفير بالرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٤٨ ـ النكت على مقدمة ابن الصلاح، أبو عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي الشافعي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: د. زين العابدين بن محمد بلا فريج، الناشر: أضواء السلف ـ الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٤٩ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات الجزري ابن الأثير (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ـ محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية ـ بيروت، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

١٥٠ ـ النهاية في مجرد الفقه والفتاوى، الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، الناشر: انتشارات قدس محمدي ـ قم.

١٥١ ـ الوافي، محسن الفيض الكاشاني، (ت١٠٩١هـ)، عني بالتحقيق والتصحيح والتعليق عليه والمقابلة مع الأصل ضياء الدين الحسيني «العلامة» الإصفهاني، الطبعة الأولى، سنة الطبع: أول شوال المكرم ١٤٠٦هـ. ق ١٩/ ٣/ ٦٥هـ. ش، المطبعة: طباعة أفست نشاط إصفهان، الناشر: مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام العامة ـ إصفهان.

١٥٢ ـ وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ﷺ، يوسف بن إسماعيل بن يوسف النَّبهاني (ت١٣٥٠هـ)، الناشر: دار المنهاج ـ جدة، الطبعة الثانية ـ ١٤٢٥هـ.



المحتويات